تفسير حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

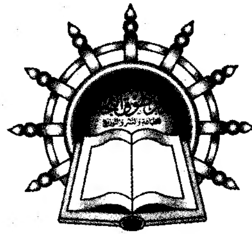
المجلد السادس والعشرون

دار طوق النجاة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن



شعرٌ

أَتَاكَ ٱلرُّوْحُ يَلْفِظُ بِٱلْغَوَالِيْ ... وَيَرْمِيْ بِٱلزَّبَرْجَدِ وَٱلَّلآلِيْ

يَقُوْلُ لِسَابِحِيْهِ وَخَائِضِيْهِ ... هَلُمُّوْا فَٱلنَّفَائِسُ فِيْ خِلاَلِيْ

آخرُ

كُنْ مِنَ ٱلْخَلْقِ جَانِبَاً ... وَٱرْضَ بِٱللَّهِ صَاحِبَا

قَلِّبِ ٱلْخَلْقَ كَيْفَ شِئْـ ... ـتَ تَجِدْهُ عَقَارِبَا

آخرُ

بِلاَدُ ٱللَّهِ وَاسِعَة فَضَاءٌ ... وَرِزْقُ ٱللَّهِ فِيْ ٱلدُّنْيَا فَسِيْحُ

فَقُلْ لِلْقَاعِدِيْنَ عَلَىٰ هَوَانٍ ... إِذَا ضَاقَتْ بِكُمْ أَرْضٌ فَسِيْحُوْا

آخرُ

لاَ تَرْضَ مِنْ رَجُلٍ حَلاَوَةَ قَوْلِهِ ... حَتَّىٰ يُزَيِّنَ مَا يَقُوْلُ فِعَالُ

وَإِذَا وَزَنْتَ فِعَالَهُ بِمَقَالِهِ ... فَتَوَازَنَا فَإِخَاءُ ذَاكَ جَمَالُ

آخرُ

مِحَنُ ٱلزَّمَانِ كَثِيْرَةٌ لاَ تَنْقَضِيْ ... وَسُرُوْرُهُ يَأْتِيْكَ كَٱلأَعْيَادِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمداً لك يا فارق الفرقان، ويا منزل القرآن، على ما أكرمتنا بنعمة الإيمان وخصصتنا بصنوف العرفان، والصلاة والسلام على من اصطفيته، من ولد عدنان، وأرسلته لهدايتنا بأفضل الأديان، سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه، من حازوا قصب الميدان، ومن تبعهم في الإسلام والإيمان والإحسان، إلى يوم العرض، والوقوف بين يدي الرحمٰن.

أما بعد: فلما تجهزت تفسير الجزء الرابع والعشرين من القرآن الكريم، تجشمت لتفسير الجزء الخامس والعشرين منه، مستمداً من الله سبحانه التوفيق والهداية، لأقوم الطريق، في تفسير كتابه الكريم، مستعيذاً به من الزيغ والزلل والخطأ فيه، وأقول: وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾﴾.

المناسبة

قوله: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية

لما قبلها: أن الله سبحانه لما هدد[1] الكافرين، بأن جزاء كل عامل سيصل إليه يوم القيامة كاملاً غير منقوص، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشرّ.. أردف ذلك ببيان، أنّ هذا اليوم، لا سبيل للخلق إلى معرفته، فلا يعلمه إلا هو، وأنّ علم الحوادث المقبلة في أوقاتها المعينة، مما استأثر الله به، فلا يعلم أحد متى تخرج الثمرات من الأكمام، ولا متى تحمل المرأة ولا متى تضع، ثم ذكر أنه سبحانه يوم القيامة، ينادي المشركين، تهكماً وتقريعاً لهم: أين شركائي الذين كنتم تزعمون فيجيبون الآن لا نشهد لأحد منهم بالشركة في الألوهية، وقد غابوا عنهم، فلا يرجون منهم نفعاً ولا يفيدونهم خيراً، وأيقنوا حينئذٍ أن لا مهرب لهم من العذاب.

وعبارة أبي حيان هنا: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر[2] ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ...﴾ الآية.. كان في ذلك دلالة على الجزاء يوم القيامة وكأن سائلاً قال: ومتى ذلك؟ فقيل: لا يعلمها إلا الله، ومن سئل عنها فليس عنده علم بتعيين وقتها، وإنما يرد ذلك إلى الله، ثم ذكر سعة علمه، وتعلقه بما لا يعلمه إلا هو تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما بيّن حال الكافرين في الآخرة، وذكر أنهم حينئذٍ يتبرؤون من الشركاء بعد أن كانوا معترفين بهم في الدنيا.. أردف ذلك ببيان، أنَّ الإنسان متبدل الأحوال، متغير الأطوار، إن أحس بخير وقدرة، انتفخت أوداجه، وصعّر خدّيه، ومشى الخيلاء، وإن أصابته محنة وبلاء، تطامن واستكان ويئس من الفرج، وهذا دليل على شدة حرصه على الجمع، وشدة جزعه من الفقد، إلى ما فيه من طيش يتولد عنه إعجابه واستكباره حين النعمة، وتطامنه حين زوالها، وذلك مما يوميء بشغله بالنعمة عن المنعم، في حالي وجودها وفقدها، أما في حال وجودها فواضح، وأما في حال فقدها، فلأن التضرع جزعاً إنما كان على

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

الفقد، الدال على الشغل عن المنعم بالنعمة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أوعد[1] على الشرك وهدّد وحذر وأنذر، وذكر أن المشركين ينكرون الشرك يوم القيامة، ويتبرؤون من الشركاء، ويظهرون الذل والخضوع لاستيلاء الخوف عليهم، لما يرون من شديد الأهوال، وأردف ذكر طبيعة الإنسان، وأنه متبدل لا يثبت على حال واحد، فإن أحسّ القوة تكبر وتعظم، وإن شعر بالضعف أظهر المسكنة والمذلة.. أعقب ذلك بلفت أنظار الطاعنين في نبوة محمد ﷺ، إلى التأمل والتفكر، فيما بين أيديهم من الدلائل، ليرعووا عما هم فيه من الغي والضلال، ويقروا بها لتظاهر الأدلة عليها، وعلى أن القرآن منزل من عند الله تعالى حقاً، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما روي أن المشركين، قالوا: يا محمد، إن كنت نبينا، فأخبرنا متى تقوم الساعة؟ فنزلت هذه الآية رداً عليهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه تعالى، لا إلى غيره ﴿يُرَدُّ﴾ ويرجع ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إذا سئل عن القيامة، يقال: الله يعلم، إذ لا يعلمها إلا الله، فإذا جاءت، يقضي بين المحسن والمسيء بالجنة والنار، يعني: إذا سئل عنها[3] أحد، وجب على المسؤول أن يرد علمها إليه تعالى، لا إلى غيره، فإنه لا يعلم متى قيامها سواه تعالى، وقد جاء في الحديث الصحيح: أنّ جبرائيل عليه السلام، سأل

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾﴾، وقوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾.

وبعد أن ذكر أنه استأثر بعلم الساعة، بيّن أنه اختص أيضاً بعلم الغيب، ومعرفة ما سيحدث في مستأنف الأزمنة، فقال: ﴿وَمَا﴾ نافية ﴿تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ﴾ ﴿مِنْ﴾: مزيدة[1] للتنصيص على الاستغراق، فإنه قبل دخولها، يحتمل نفي الجنس، ونفي الوحدة.

والمعنى: ما تخرج أيّ ثمرة من الثمرات ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾؛ أي: من أوعيتها، يعني: الكفُرَّى قبل أن ينشق، وقيل: قشرها الأعلى من الجوز واللوز والفستق وغيرها، جمع كم بالكسر، وهو وعاء الثمرة وغلافها؛ أي: ما يغطّي الثمرة، كما أنّ الكم بالضم، ما يغطي اليد من القميص.

قال أبو عبيدة[2]: أكمامها أوعيتها، وهي ما كانت فيه الثمرة، واحدها كم وكمة. قال الراغب: الكم ما يغطي اليد من القميص، وما يغطي الثمرة، وجمعه أكمام، وهذا يدل على أنّ الكم بضم الكاف؛ لأنه جعله مشتركاً بين كم القميص، وما يغطي الثمرة، ولا خلاف في كم القميص أنه بالضم، ويمكن أن يقال: إن في الكم الذي هو وعاء الثمر لغتين.

وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة وقتادة والحسن، بخلاف عنه، ونافع وابن عامر في غير رواية، والمفضل وحفص وابن مقسم[3]: ﴿مِن ثَمَرَاتٍ﴾ بالجمع، وقرأ باقي السبعة، والحسن في رواية طلحة والأعمش: ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ بالإفراد.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ حملاً في بطنها، أياً كان إنساناً أو غيره ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أي: ولا تلد ذلك الحمل، بمكان على وجه الأرض ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى[4]، استثناء مفرغ من أعم الأحوال، ولم يذكر متعلق العلم للتعميم؛ أي: وما يحدث شيء من خروج ثمرة: ولا حمل حامل، ولا وضع واضع ملابساً

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

بشيء من الأشياء إلا ملابساً بعلمه المحيط، واقعاً حسب تعلقه به، يعلم وقت خروج الثمرة من أكمامها وعددها وسائر ما يتعلق بها، من أنها تبلغ أوان النضج، أو تفسد قبله ونحوه ووقت الحمل، وعدد أيامه وساعاته وأحواله من الخداج والتمام والذكورة. والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك، ووقت الوضع وما يتعلق به.

وفي «حواشي ابن الشيخ»، المعنى: أنّ إليه يضاف علم الساعة؛ أي: علم وقت القيامة، فإذا سئلت عنه، فرد العلم إليه تعالى فقل: الله أعلم، كما يردّ إليه علم جميع الحوادث الآتية من الثمار والنبات وغيرهما، والمعنى: أي: وما تبرز الثمرة من وعائها الذي هي مغلّفة به، وما تحمل أنثى حملها ولا تضع ولدها إلا بعلم من الله، فهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ونحو الآية قوله: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾.

وفي هذا[1]: دليل على أن المنجمين لا يمكنهم الجزم بشيء مما يقولون البتة، وإنما غايته ادعاء ظن ضعيف، قد يصيب وربما لا يصيب، وعلم الله هو المقطوع به، الذي لا يشركه فيه أحد.

ولما كان[2] ما يخرج من أكمام الشجرة، وما تحمل الإناث وتضعه، هو إيجاد أشياء بعد العدم، ناسب أن يذكر مع علم الساعة، إذ في ذلك دليل على البعث، إذ هو إعادة بعد إعدام، وناسب ذكر أحوال المشركين في ذلك اليوم، وسؤالهم سؤال التوبيخ، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ وفي ذلك تهكم بهم وتقريع، والضمير في يناديهم عام في كل من عبد غير الله، فيندرج فيه عباد الأوثان؛ أي: واذكر يا محمد لقومك، يوم ينادي الله سبحانه وتعالى المشركين وذلك يوم القيامة، فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ الذين كنتم تزعمون، أنهم شركائي في الدنيا، من الأصنام وغيرها، فادعوهم الآن فليشفعوا لكم، أو

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

يدفعوا عنكم العذاب، وهذا على طريقة التهكم بهم. قرأ الجمهور[1]: ﴿شُرَكَآءِى﴾ بسكون الياء، وقرأ ابن كثير: بفتحها. ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: قال المشركون ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾؛ أي: أخبرناك وأعلمناك ﴿مَا مِنَّا﴾؛ أي: ليس منا ﴿مِن شَهِيدٍ﴾؛ أي: من أحد يشهد لهم اليوم بالشركة، إذ تبرأنا منهم، لما عاينا الحال، والشهيد من الشهادة، أو ما منا من أحد يشهدهم ويعاينهم، لأنهم ضلوا عنهم حينئذٍ، فهم لا يبصرونهم في ساعة التوبيخ، فالشهيد من الشهود.

والمعنى[2]: أي واذكر أيها الرسول لقومك، يوم ينادي سبحانه عباده المشركين، على رؤوس الأشهاد، تهكماً بهم، واستهزاء بأمرهم: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ فيجيبون ويقولون: أعلمناك أنه ليس أحد منا يشهد اليوم، أن معك شريكاً، ونفي الشهادة يراد به التبرؤ منهم؛ لأنّ الكفار يوم القيامة ينكرون عبادة غير الله، كما حكى الله عنهم، أنهم قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

والخلاصة: أن قوله: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ إخبار بإعلام سابق علمه الله من أحوالهم يوم القيامة، وأنهم لم يبقوا على الشرك، وعلى تلك الشهادة، كأنهم يقولون: أنت أعلم به، ثم يأخذون في الجواب.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾؛ أي: غاب عن المشركين ﴿مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: الآلهة التي كانوا يعبدونها من قبل يوم القيامة، فأخذ بها بطريق غير طريقهم، فلم تنفعهم، ولم تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله الذي حل بهم، وظهر عدم نفعهم، فكان حضورهم كغيبتهم ﴿وَظَنُّوا۟﴾؛ أي: أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: من مهرب؛ أي: وأيقنوا حينئذٍ أنه لا ملجأ لهم من عذاب الله تعالى.

والمحيص[3]: المحيد والمعدل والمميل والمهرب، والظن معلق عنه بحرف النفي، والتعليق أن يوقع ما ينوب عن المفعولين جميعاً.

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

ثم ذكر سبحانه بعض أحوال الإنسان فقال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: لا يمل ولا يضجر ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾؛ أي: من دعائه الخير، وطلبه السعة في النعمة وأسباب المعيشة، فحذف الفاعل، وأضيف إلى المفعول، والمعنى: أن الإنسان في حال إقبال الخير إليه، لا ينتهي إلى درجة إلا ويطلب الزيادة عليها، ولا يمل من طلبها أبداً، وفيه إشارة إلى أن الإنسان مجبول على طلب الخير، بحيث لا يتطرق إليه السآمة فبهذه الخصلة بلغ من بلغ رتبة خير البرية، وبها بلغ من بلغ دركة شر البرية.

والخير هنا[1]: المال والصحة والسلطان والرفعة، قال السدي: والإنسان هنا، يراد به الكافر، وقيل: الوليد بن المغيرة، وقيل: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف، والأولى حمل الآية على العموم، باعتبار الغالب، فلا ينافيه خروج خلص العباد، وقرأ عبد الله بن مسعود ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء المال﴾ وفي «البحر المحيط»: وقرأ عبد الله ﴿من دعاء بالخير﴾ بباء داخلة على الخير.

والمعنى[2]: أي لا يمل الإنسان من دعائه ربَّه، ومسألته إياه، أن يؤتيه صحة وعافية، وسعة في الرزق، فهو مهما أوتي من المال، فهو لا يقنع، وقد جاء في الأثر: «منهومان لا يشبعان، طالب علم، وطالب مال»، وجاء أيضاً: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنّى لهما ثالثاً».

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾؛ أي: وإن أصابه البلاء والشدة والفقر، والمرض الذي أنهك قواه، واضمحل به جسمه ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ من روح الله وفضله ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته وإحسانه، وقيل: يؤوس من إجابة دعائه، قنوط بسوء الظن بربه، وقيل: يؤوس من زوال ما به من المكروه، قنوط بما يحصل له من ظن دوامه، وهما صيغتا مبالغة، يدلان على أنه شديد اليأس، عظيم القنوط، والفرق بين اليأس والقنوط، أن اليأس من صفة القلب، وهو قطع الرجاء من رحمة الله تعالى، والقنوط من صفة البدن، بأن يظهر أثر اليأس في بدنه، فيتضاءل ويحزن وينكسر

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

ويتذلل، وبدأ بصفة القلب، لأنها هي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من الانكسار، وبهذا ظهر الفرق بينهما، وقال بعضهم: هما مترادفان وذكرهما معاً للتأكيد.

والحاصل: أن اليأس من صفة القلب، والقنوط إظهار آثاره على ظاهر البدن، اهـ «كرخي»، وهذا صفة الكافر لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وفي «فتح الرحمٰن»(١): ولا ينافي ما هنا من قوله: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ ما سيأتي من قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ لأن المعنى قنوط من الصنم، دعّاء لله، أو قنوط بالقلب دعاء باللسان، أو الأولى في قوم والثانية في آخرين؛ انتهى.

وخلاصة ذلك: أن الإنسان متبدل الأحوال، متغير الأطوار، إن أحسّ بخير بطر وتعظم، وإن شعر ببؤس ذل وخضع، فهو شديد الحرص على الجمع، شديد الجزع على الفقد.

ثم ذكر حال هذا اليؤوس القنوط ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لئن أذقنا الإنسان وأعطيناه ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾؛ أي: نعمة من عندنا ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ وأصابته، وذلك بتفريج تلك الضراء عنه، كالمرض والضيق، بالرحمة، كالصحة والسعة ﴿. . . لَيَقُولَنَّ﴾ ذلك الإنسان: ﴿هَٰذَا﴾ الخير ﴿لِى﴾؛ أي: مستحق لي، وصل إليّ، لأني استحقه، لما لي من الفضل وعمل البر، فاللام(٢): للاستحقاق، أو لي لا لغيري، فلا يزول عني أبداً، فاللام للاختصاص، فيكون إخباراً عن لازم الاستحقاق، لا عن نفسه، كما في الوجه الأول، ومعنى الدوام استفيد من لام الاختصاص؛ لأنّ ما يختص بأحدٍ، الظاهر أنه لا يزول عنه، فذلك المسكين لم ير فضل الله، وتوفيقه، فادّعى الاستحقاق في الصورة الأولى، واشتغل بالنعمة عن المنعم، وجهل أن الله تعالى أعطاه ليبلوه أيشكر أم يكفر،

---

(١) فتح الرحمٰن.
(٢) روح البيان.

فلو أراد لقطعها منه، وذلك في الصورة الثانية.

والمعنى[1]: أي ولئن كشفنا ما أصابه من سقم في نفسه، أو شدة وجهد في معيشته فوهبنا له العافية بعد السقم، والغنى بعد الفقر، ليقولن هذا حقي قد وصل إلي؛ لأني استوجبه بما حصل لي من ضروب الفضائل، وأعمال البر والقرب من الله، لا تفضل منه عليّ، أو لا يعلم أن هذه الفضائل، لو وجدت فإنما هي بفضل الله وإحسانه، وهو لا يستحق على الله شيئاً.

والخلاصة: أي ولئن آتيناه خيراً وعافية وغنى، من بعد شدة ومرض وفقر. ليقولن هذا الخير شيء أستحقه على الله، لرضاه بعملي، فظن أن تلك النعمة التي صار فيها، وصلت إليه باستحقاقه لها، ولم يعلم أنّ الله يبتلي عباده بالخير والشر ليتبين له الشاكر من الجاحد، والصابر من الجزع، قال مجاهد: معناه هذا بعملي وأنا محقوق به ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة ﴿قَآئِمَةً﴾؛ أي: ستقوم؛ أي: ما أظنها تقوم كما يخبرنا به الأنبياء، فلا رجعة ولا حساب ولا عقاب على شيء من الآثام، التي يقترفها الإنسان في دنياه، ويجترمها مدى حياته الدنيوية. أوْلست على يقين من البعث.

وما نتج هذا إلا من شدة رغبته في الدنيا، وعظيم نفرته من الآخرة، فهو حين ينظر إلى أحوال الدنيا، يقول: إنها لي، وأنا جدير بها، لما لي من فضل به استحققتها، وحين ينظر إلى أحوال الآخرة يقول: وما أظن الساعة قائمة، وهذا خاص بالكافرين والمنافقين، فيكون المراد بالإنسان المذكور في صدر الآية: الجنس، باعتبار غالب أفراده؛ لأنّ اليأس من رحمة الله، والقنوط من خيره، والشك في البعث لا يكون إلا من الكافرين، أو المتزلزلين في الدين، المتظهّرين بالإسلام، المبطنين للكفر.

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ﴾ ورددت ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ وبعثت على تقدير صدق ما يخبرنا به الأنبياء، من قيام الساعة، وحصول البعث والنشور ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ...﴾؛ أي:

---

(١) المراغي.

عند ربي في الآخرة ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: للحالة الحسنة من الكرامة، فظنّ أنه استحقّ خير الدنيا بما فيه من الفضل، واستحق خير الآخرة بذلك الفضل، الذي اعتقده في نفسه، وأثبته لها، فقاس أمر الآخرة على أمر الدنيا بالوهم المحض، والأمنية الكاذبة، وهو اعتقاد باطل، وظن فاسد.

وبعد أن حكى عنهم هذه الأقوال، ذكر أنه سيظهر لهم، أنّ الأمر بعكس ما يظنون وبضد ما يعتقدون، فقال: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: فعزتي وجلالي، لنخبرن هؤلاء الكافرين يوم يرجعون فيه إلينا، وهو يوم القيامة ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ في الدنيا من المعاصي، واجترحوا من الآثام، وما دسوا به أنفسهم من الخطايا، ثمّ لنجازينهم عليها، فيستبين لهم أنهم جديرون بالإهانة والاحتقار، لا بالكرامة والإحسان ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: من عذاب شديد، بسبب ذنوبهم، لا يعرف كنهه، ولا يمكنهم التفصي ولا الفكاك منه، لغلظته وإحاطته بجميع جهاتهم، وهو عذاب جهنم التي لا موت فيها، ولا يجدون عنها حولاً، واللام هذه والتي قبلها هي الموطئة للقسم. وفي «بحر العلوم» غليظ؛ أي: شديد أو عظيم، بدل ما اعتقدوه لأنفسهم من الإكرام والإعزاز من الله تعالى.

وبعد أن حكى أقوال الذي أنعم عليه، بعد وقوعه في الجهد الجهيد، حكى أفعاله فقال: ﴿وَإِذَآ﴾ نحن ﴿أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾؛ أي: على هذا الجنس باعتبار غالب أفراده، فكشفنا عنه المرض، ووهبنا له الصحة والعافية، ورزقناه سعة العيش ﴿أَعْرَضَ﴾ عمّا دعوناه إليه: من طاعتنا، وعن الشكر على نعمتنا، كأنه لم يلق شدة قط، فنسي المنعم، وكفر بنعمته بترك شكره وطاعته ﴿وَنَـَٔا﴾؛ أي: تباعد بنفسه عن الشكر والطاعة، واستكبر عن الانقياد لأمرنا بكليته، لا ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ وعطفه فقط، ولم يمل إلى الشكر والطاعة تكبراً وتعظماً فالجانب مجاز عن النفس، كما في قوله تعالى: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، ويجوز[1] أن يراد به عطفه، فيكون على حقيقته، وهو عبارة عن الانحراف والازورار؛ لأنّ نأى الجانب عن الشكر،

---

(١) روح البيان.

يستلزم الانحراف عنه، كما قالوا: ثنى عطفه وتولى بركنه، فالباء للتعدية، والمعنى: حينئذٍ انحرف عن شكرنا. وقرأ يزيد بن القعقاع[1]: ﴿وناء بجانبه﴾ بالألف قبل الهمزة.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ﴾؛ أي: وإذا مس هذا الإنسان المعرض المتكبر ﴿ٱلشَّرُّ﴾؛ أي: جنس الشر كالبلاء والمحنة، وإنما جيء بلفظ الماضي، ﴿وإذا﴾ لأنّ المراد: الشر المطلق، الذي حصوله مقطوع به ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾؛ أي: فهو ذو دعاء كثير؛ أي: وإذا مسه البلاء والجهد والفقر والمرض، فذو دعاء كثير، والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة مجازاً، يقال: أطال فلان الكلام وأعرض الدعاء إذا أكثر، فهو مستعار مما له عرض متسع، للإشعار بكثرته، فإن العريض يكون ذا أجزاء كثيرة وامتداد فمعنى الاتساع يؤخذ من تنكير عريض، فإنه يدل على التعظيم ومعنى: الامتداد يؤخذ من معنى الطول اللازم للعرض.

وإنما قال: ﴿عَرِيضٍ﴾[2] ولم يقل: طويل، مع أن كلاً منهما كناية عن الكثرة؛ لأنّ قوله: عريض أبلغ من قوله: طويل إذ الطول أطول الامتدادين، فإذا كان عرضه كذلك؛ أي: متسعاً فما ظنك بطوله، وقد استعير[3] العرض هنا لكثرة الدعاء ودوامه، وهو من صفة الأجرام كما استعير الغلظ لشدة العذاب، ولا منافاة بين قوله: فيؤوس قنوط، وبين قوله: فذو دعاء عريض؛ لأنّ الأول في قوم، والثاني في آخرين، أو قنوط في البر وذو دعاء عريض في البحر، أو قنوط بالقلب، وذو ودعاء عريض باللسان، أو قنوط من الصنم، ذو دعاء عريض لله تعالى كما مر.

والمعنى: أنه إذا مسه الشر تضرع إلى الله، واستغاث به أن يكشف عنه ما نزل به واستكثر من ذلك فذكره في الشدة ونسيه في الرخاء، واستغاث به عند نزول النقمة، وتركه عند حصول النعمة، وهذا صنيع الكافرين، ومن كان غير

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) النسفي.

ثابت القدم من المسلمين.

ثم رجع سبحانه إلى مخاطبة الكفار ومحاجتهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﷺ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني أيها المشركون؛ لأنّ الرؤية سبب للإخبار ﴿إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: كذّبتم به من غير نظر، واتباع دليل، ولم تقبلوه ولا عملتم بما فيه، مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿مَنْ﴾ استفهام ﴿أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ﴾ وخلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عنه؛ أي: لا أحد أضلّ منكم لفرط شقاوتكم وشدة عداوتكم والأصل: من أضل منكم فوضع ﴿مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ﴾ موضع الضمير لبيان حالهم في المشاقة، وأنها السبب في ضلالهم، فإن[1] من كفر بما نزل من عند الله، بأن قال: أساطير الأولين ونحوه، فقد كان مشاقاً لله؛ أي: معادياً ومخالفاً له تعالى خلافاً بعيداً عن الوفاق، ومعاداة بعيدة عن الموالاة ولا شك أنّ من كان كذا، فهو في غاية الضلال، وفي الآية إشارة إلى أن كل بلاء وعناء ونعمة ورحمة ومضرة ومسرة، ينزل بالعبد، فهو من عند الله تعالى فإن استقبله بالتسليم والرضى صابراً شاكراً للمولى في الشدة، والرخاء والسراء والضراء، فهو من المهتدين المقربين، وإن استقبله بالكفر والجزع، فهو من الأشقياء المبعدين المضلّين، وفي الحديث القدسي: «إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه، أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل.. استحييت منه يوم القيامة، أن أنصب له ميزاناً وأنشر له ديواناً».

قال بعض الكبار[2]: النعمة توجب الإعراض كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ...﴾ إلخ، ومس الضر يوجب الإقبال على الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ...﴾ إلخ، فاللّه تعالى رحيم على العبد بدفع النعمة والصحة عنه، لأنها مظنة الإعراض والبلاء للولاء كاللهب للذهب، فالبلاء كالنار، فكما أن النار لا تبقى من الحطب شيئاً إلا وأحرقته، فكذا البلاء لا يبقى من ضر الوجود شيئاً، فالطريق إلى الله على جادة المحنة أقرب من جادة المنحة إذ الأنبياء

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والأولياء جاؤوا وذهبوا من طريق البلاء، وقد ثبت أن النار لا ترتفع من الدنيا أبداً، فكيف يؤمل العاقل الراحة في الدنيا، فهي دار محنة، وقد ورد: «الدنيا سجن المؤمن» فالمؤمن لا يستريح في الدنيا، ولا يخلو من قلة أو علة أو ذلة، وله راحة عظمى في الآخرة، والكافر خاسر في الدنيا والآخرة، فعلى العبد أن يمشي على الصراط السوي، ويخاف من الزلق، ومن مكر الله تعالى.

وفي «فتح الرحمٰن»: قال هنا[1]: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم﴾ عاطفاً بثم، وفي الأحقاف قال: ﴿وَكَفَرْتُم﴾ عاطفاً بالواو، فما الفرق بين الموضعين قلتُ: عطف هنا بـ﴿ثُمَّ﴾ لأن **المعنى**: ثم كان عاقبة أمركم بعد الإمهال، للنظر والتدبر الكفر، فناسب ذكر ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على الترتيب، وما في الأحقاف لم ينظر فيه إلى ترتيب كفرهم على ما ذكر، بل عطف على ﴿كَفَرْتُم﴾ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ بالواو، فناسب ذكرها لدلالتها على مطلق الجمع.

والمعنى[2]: أي قل أيها الرسول لهؤلاء المكذبين بالقرآن، الذي جئتهم به من عند ربك: أخبروني أيها القوم: إن كان هذا الذي أنتم به تكذبون، من عند ربي، ثم كفرتم به.. أفلا تكونون مفارقين للحق، بعيدين من الصواب، وقد كانوا كلما سمعوا القرآن، أعرضوا عنه، وبالغوا في النفرة منه، حتى قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾، فلفت أنظارهم إلى أنه يجب عليهم النظر، والتأمل فيه، فإن دلّ دليل على صحته قبلوه، وإن أرشد إلى فساده تركوه، أما قبل ذلك، فالإصرار على الإعراض والإنكار، بعيدان عن الصواب وعما يحكم به العقل، فما أضلكم وأكثر عنادكم ومشاقتكم للحق واتباعكم للهوى.

وخلاصة ذلك: قل لهم: من أشد ذهاباً عن قصد السبيل، وأسلك لغير طريق الصواب، ممن هو في فراق لأمر الله، وخلاف له، وبعد عنه.

وبعد أن ذكر أدلة التوحيد، والنبوة، أجاب عن شبهات المشركين، وتمويهات الضالين، فقال: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾؛ أي: سنري كفار قريش ﴿ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي:

---

(١) فتح الرحمٰن. (٢) المراغي.

دلائلنا الدالة على قدرتنا. ووحدانيتنا المذكورة في القرآن، المبينة لهم فيما أوحى إلى محمد ﷺ، من الحكمة الدالة على صدق القرآن وحقيقته، وكونه من عند الله تعالى حالة كون تلك الآيات ﴿فِي الْآفَاقِ﴾؛ أي: في آفاق الأرض ونواحيها والمراد[1] بالآيات الآفاقية: ما أخبرهم النبي ﷺ من الحوادث الآتية، كغلبة الروم على فارس في بضع سنين، وآثار النوازل الماضية، الموافقة لما هو المضبوط، المقرّر عند أصحاب التواريخ، والحال، أنه ﷺ أميّ لم يقرأ، ولم يكتب، ولم يخالط أحداً، وما يسر الله له، ولخلفائه من الفتوح، والظهور على آفاق الدنيا، والاستيلاء على بلاد المشارق، والمغارب، على وجه خارق للعادة، إذا لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ﴿و﴾ حالة كونها ﴿في أنفسهم﴾؛ أي: في أنفس أهل مكة، والمراد بالآيات التي في أنفسهم، هو ما ظهر بين أهل مكة من القحط والخوف، وما حل بهم يوم بدر ويوم الفتح من القتل والمقهورية، ولم ينقل إلينا أن مكة فتحت على يد أحد، قبل رسول الله ﷺ، وكذا قتل أهلها وأسرهم.

وقيل[2]: المراد بالآفاق: أقطار السمٰوات والأرض من الشمس والقمر والنجوم وما يترتب عليها من الليل والنهار والأضواء والظلال والظلمات ومن النبات والأشجار والأنهار، وفي أنفسهم من لطيف الصنعة، وبديع الحكمة في تكوين الأجنة في ظلمات الأرحام، وحدوث الأعضاء العجيبة، والتراكيب الغريبة، كقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾.

واعتذر بأن معنى السين ـ مع أن اراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك ـ أنه تعالى سيطلعهم على تلك الآيات زماناً فزماناً، ويزيدهم وقوفاً على حقائقها يوماً فيوماً، قالوا: الآفاق هو العالم الكبير، والأنفس هو العالم الصغير ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ ويتضح ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لأهل مكة بما أريناهم من تلك الآيات. المذكورة في القرآن، أو في الحكمة ﴿أَنَّهُ﴾؛ أي: أنّ القرآن أو الرسول محمداً ﷺ،

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

فالقصر المستفاد من تعريف المسند حقيقي ادعائي، أو الله أو التوحيد فالقصر إضافي تحقيقي؛ أي: لا الشركاء ولا التشريك، والأول أولى، والضمائر في ﴿سَنُرِيهِمۡ﴾ ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ ﴿وَلَهُمۡ﴾ للمشارفين منهم على الاهتداء، أو للجميع، على أنه من وصف الكل بوصف البعض.

والمعنى[1]: أي سنري هؤلاء المشركين، وقائعنا بالبلاد المحيطة بمكة، وبمكة بما أجريناه على يدي نبينا، وعلى يدي خلفائه وأصحابه من الفتوح الدالة على قوة الإسلام وأهله، ووهن الباطل وحزبه، حتى يعلموا حقيقة ما أوحينا به إليك، وأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وأن وعده صادق، وأنه مظهر دينك على الأديان كلها.

والخلاصة: سنيسر لهم من الفتوح، ما لم يتيسر لأحد ممن قبلهم، ونظهرهم على الجبابرة والأكاسرة، ونجري على أيديهم من الأمور الخارجة عن المعهود الخارقة للعادة، فيستبين لهم أنّ هذا القرآن هو الحق، ومن ثمّ نصر حامليه، وأظهرهم على أعدائهم في قليل من الزمان.

ثمّ وبّخهم على إنكارهم تحقّق هذه الإراءة وحصولها فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ﴾ استئناف وارد[2] لتوبيخهم على تردّدهم في شأن القرآن، وعنادهم المحوج إلى إراءة الآيات، وعدم اكتفائهم بإخباره تعالى والهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف يقتضيه السياق، والباء مزيدة للتأكيد؛ أي: ألم يغن، ولم يكف ربك ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ بدل منه؛ أي: ألم يغنهم عن إراءة الآيات الموعودة، المبينة لحقّية القرآن، ولم يكفهم في ذلك أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء، وقد أخبر بأنه من عنده، فعدم الكفاية معتبر بالنسبة إليهم، كما يصرحه قوله الآتي: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾ وقرىء (إن) بكسر الهمزة على إضمار القول، أو على الاستئناف.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي كفى بالله شهيداً على أفعال عباده، وأقوالهم، وهو يشهد بأن محمداً ﷺ صادق، فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ الآية، وقال أيضاً: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾.

وقصارى ذلك: ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة، التي أوضحها سبحانه في هذه السورة، وفي كل سور القرآن، وفيها البيان الكافي لإثبات وحدانية الله، وتنزيهه عن كل نقص، وإثبات النبوة والبعث.

وبعد أن أقام الأدلة، وأوضح الحجج، حتى لم يبق بعدها مقال لمتعنت، ولا جاحد بيّن سبب عنادهم واستكبارهم، فقال: ﴿أَلَآ﴾ كلمة استفتاح، تنبه السامع على ما يقال ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: كفار مكة ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾؛ أي: في شك عظيم وشبهة شديدة، وقرأ[2] السلمي والحسن ﴿في مُرْيَةٍ﴾ بضم الميم، وهو لغة في مكسورة الميم ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث والجزاء، فإنهم استبعدوا إحياء الموتى بعد ما تفرقت أجزاؤهم وتبددت أعضاؤهم، ومن ثمّ لا يلتفتون إلى النظر فيما ينفعهم، عند لقائه، كالتفكر في نبوة محمد ﷺ، وأن القرآن حق لا شك فيه، وفيه إشارة[3] إلى أن الشك أحاط بجميع جوانبهم، إحاطة الظرف بالمظروف، لا خلاص لهم منه، وهم مستمرون دائمون فيه ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من الموجودات؛ أي: بجميع الأشياء جملها وتفاصيلها، ظواهرها وبواطنها ﴿مُّحِيطٌۢ﴾ أحاط علمه بجميع المعلومات، وأحاطت قدرته بجميع المقدورات، فلا تخفى عليه خافية منهم، وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم، وفي هذا وعيد شديد؛ لأنّ من أحاط علمه بكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء جازى المحسن بإحسانه والمسيىء بإساءته.

والمعنى: أي إنه تعالى عليم بجمل الأشياء وتفاصيلها، مقتدر عليها لا يفوته شيء منها، فهو يعلم ما تفرق من أجزاء الأجسام، ويقدر على إعادتها إلى

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

أمكنتها، ثم بعثها وحسابها، لتستوفي جزاءها على ما قدّمت من عمل.

الإعراب

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾.

﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يُرَدُّ﴾، ﴿يُرَدُّ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ نافية، ﴿تَخْرُجُ﴾: فعل مضارع، ﴿مِن﴾: حرف جر زائد. ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ فاعل. ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ متعلق بـ﴿تَخْرُجُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُرَدُّ﴾، وقيل: ﴿ما﴾: موصولة في محل جر، معطوف على الساعة؛ أي: علم الساعة، وعلم التي تخرج من ثمرات، ومن الأولى للاستغراق، ومن الثانية لابتداء الغاية. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿تَحْمِلُ﴾: فعل مضارع، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿أُنثَىٰ﴾: فاعل، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لا﴾ نافية، وفاعله ضمير يعود على أنثى، والجملة معطوفة على ما قبلها ﴿تَضَعُ﴾ فعل مضارع والفاعل يعود على ﴿أُنثَىٰ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، من أعم الأحوال، ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ جار ومجرور، متعلق بمحذوف، وقع حالاً من أعم الأحوال، والتقدير: وما يحدث شيء من خروج ثمرة، أو حمل حمل، أو وضع واضع ملابساً بحال من الأحوال، إلا حالة كونه ملابساً بعلمه المحيط.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿يوم﴾: ظرف زمان، متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد لقومك، قصة يوم يناديهم، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿يُنَادِيهِمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾. ﴿أَيْنَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية المكانية، متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿شُرَكَآءِى﴾: مبتدأ

مؤخر، ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب، مفعول ثان لـ﴿يُنَادِيهِمْ﴾، ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿ءَاذَنَّـٰكَ﴾: فعل ماض وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿مِنَّا﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مِن﴾: حرف جر زائد، ﴿شَهِيدٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب، سادّة مسدّ المفعول الثاني والثالث لـ﴿ءَاذَنَّـٰكَ﴾ علق عنهما بما النافية؛ لأنه بمعنى أعلمناك، فيتعدى إلى ثلاثة مفاعيل، ﴿وَضَلَّ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿ضل﴾: فعل ماض، ﴿عَنْهُم﴾: متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَدْعُونَ﴾: خبره، ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ﴿يَدْعُونَ﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، وجملة ﴿ضلَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَظَنُّواْ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿ظنوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على قالوا. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم ﴿مِن﴾: زائدة ﴿مَّحِيصٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية سادة مسد مفعولي ظنّ، لأنه علق عنهما بما النافية.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾.

﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَسْـَٔمُ﴾، ﴿وَإِن﴾: الواو: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾: الفاء رابطة الجواب وجوباً، ﴿يئوس﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره فهو يؤوس ﴿قَنُوطٌ﴾ خبر ثان، والجملة الاسمية في محل الجزم، بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾. ﴿وَلَئِنْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، واللام موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿أَذَقْنَـٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول ثان لـ﴿أَذَقْنَـٰهُ﴾. ﴿مِّنَّا﴾ صفة لـ﴿رَحْمَةً﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَذَقْنَـٰهُ﴾،

﴿ضَرَّآءَ﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف لألف التأنيث الممدودة. ﴿مَسَّتْهُ﴾: فعل ماض ومفعول به. وفاعل مستتر يعود على ضرّاء، والجملة الفعلية في محل الجر، صفة لـ﴿ضَرَّآءَ﴾، وجواب الشرط محذوف، لسد جواب القسم مسده، تقديره: وإن أذقناه رحمة منا، يقول هذا لي، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة بين القسم وجوابه على القاعدة المشهورة، فيما إذا اجتمع شرط وقسم، يكون الجواب للسابق، وجواب الآخر محذوف ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ اللام: رابطة لجواب القسم، مؤكدة للأولى ﴿يقولن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، لتجرده عن الناصب والجازم. مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الإنسان، والجملة الفعلية جواب القسم. لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم مع جوابه، معطوفة على جملة قوله: وإن مسه الشر ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ. ﴿لي﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، واللام فيه للاستحقاق؛ أي: استحقه بعملي، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول ﴿ليقولن﴾.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿أَظُنُّ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾: مفعول أول لـ﴿أَظُنُّ﴾، ﴿قَآئِمَةً﴾: مفعول ثان له، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: هذا لي، على كونها مفعولاً لـ﴿يَقُولُ﴾، ﴿وَلَئِنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام: موطئة للقسم. ﴿إنْ﴾ حرف شرط جازم، ﴿رُّجِعْتُ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾: متعلق بـ﴿رُّجِعْتُ﴾، وجواب الشرط محذوف لسد جواب القسم مسده، على القاعدة المذكورة في قوله:

وَٱحْذِفْ لَدَىٰ ٱجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ   جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

والتقدير: وإن رجعت إلى ربي فإن لي عنده للحسنى، وجملة الشرط معترضة بين القسم وجوابه، لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿لي﴾: خبر مقدم لـ﴿إنَّ﴾، ﴿عِندَهُۥ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال

من الحسنى ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿الحسنى﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر. وجملة ﴿إِنَّ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه، معطوفة على جملة قوله: هذا لي، على كونها مقولاً ليقولن ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حال الكافر المذكور، وأردت بيان عاقبته.. فأقول لك، ﴿لننبئن﴾ واللام: موطئة للقسم، ﴿ننبئن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح، في محل الرفع، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: نحن، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب. مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿ننبئن﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، وما موصولة أو مصدرية. ﴿عَمِلُواْ﴾ فعل وفاعل، صلة لما الموصولة، والعائد محذوف تقديره: بما عملوه، أو صلة لما المصدرية؛ أي: بعملهم. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام موطئة للقسم. ﴿نذيقن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، والهاء ضمير الغائبين في محل النصب مفعول أول، ﴿مِّنْ عَذَابٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿نذيقن﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له ﴿غَلِيظٍ﴾ صفة لـ﴿عَذَابٍ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَإِذَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَنْعَمْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿أَعْرَضَ﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على الإنسان، وجملة أعرض جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب. وجملة إذا مستأنفة. ﴿وَنَـَٔا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿نأى﴾: فعل ماض وفاعل مستتر. معطوف على أعرض، ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾

متعلق بـ﴿نأى﴾، ﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، ﴿فَذُو دُعَآءٍ﴾ الفاء: رابطة لجواب إذا وجوباً ﴿ذو﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهو ذو دعاء. ﴿ذو﴾ مضاف ﴿دُعَآءٍ﴾: مضاف إليه، ﴿عَرِيضٍ﴾: صفة ﴿دُعَآءٍ﴾، والجملة الاسمية جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ومفعول ﴿رأى﴾ الأول: محذوف، وتقديره: أرأيتم أنفسكم. والثاني: هو الجملة الاستفهامية. ﴿إِنْ﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، في محل الجزم بإن على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير مستتر فيها، تقديره: هو يعود على القرآن. ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿كَفَرْتُم﴾: فعل وفاعل في محل الجزم، معطوف على ﴿كَانَ﴾. وجواب الشرط محذوف تقديره: فأنتم أضل من غيركم، أو ليس ثمة أضل منكم، وجملة الشرط جملة اعتراضية، لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين المفعولين الأول والثاني. ﴿بِهِۦ﴾ متعلقان به ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام، في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَضَلُّ﴾: خبره. ﴿مِمَّنْ﴾ متعلق بـ﴿أَضَلُّ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿فِى شِقَاقٍ﴾ خبر، ﴿بَعِيدٍ﴾ صفة ﴿شِقَاقٍ﴾، والجملة الاسمية صلة من الموصولة. ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ السين حرف استقبال. ﴿نريهم﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول أول ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ مفعول ثان. والرؤية هنا بصرية، فلذلك عدّيت إلى اثنين

فقط، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿فِي ٱلْآفَاقِ﴾ حال من آياتنا، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: معطوف على في الآفاق، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية ﴿يَتَبَيَّنَ﴾: فعل مضارع منصوب، بأن مضمرة وجوباً بعد حتى، ﴿لَهُمۡ﴾ متعلق بـ﴿يَتَبَيَّنَ﴾، ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ ناصب واسمه، وخبره، وجملة أنّ في تأويل مصدر، مرفوع على الفاعلية ليتبين، تقديره: حتى يتبين لهم كونه الحق من ربهم، وجملة يتبين صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى، تقديره: إلى تبين كونه الحق، الجار والمجرور متعلق بـ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾، ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف يقتضيه السياق، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم يغنهم ولم يكفهم، والجملة المحذوفة جملة استفهامية، لا محل لها من الإعراب، ﴿لَمۡ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَكۡفِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمۡ﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ﴿بِرَبِّكَ﴾ الباء زائدة، ﴿رَبِّكَ﴾: فاعل مجرور لفظاً مرفوع محلاً، والمفعول محذوف تقديره: أو لم يكفك ربك، أو لم يكفهم ربك، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿أَنَّهُ﴾: ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: متعلق بـ﴿شَهِيدٌ﴾، و﴿شَهِيدٌ﴾: خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر، مرفوع على كونه بدلاً من ربك، والتقدير: أو لم يكف ربك شهادته على كل شيء، ﴿أَلَآ﴾ حرف استفتاح ﴿إِنَّهُمۡ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِي مِرۡيَةٖ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿مِرۡيَةٖ﴾، أو صفة له، ﴿أَلَآ﴾: حرف استفتاح، ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿بِكُلِّ شَيۡءٖ﴾ متعلق بـ﴿مُّحِيطُۢ﴾، و﴿مُّحِيطُۢ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة أيضاً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ﴾ وهو من المضاعف، أصله: يردد بوزن يفعل نقلت حركة الدال الأولى إلى الراء، فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية، فصار يرد بوزن يفل. ﴿مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾ قال في «القاموس»: الكم بضم الكاف، مدخل اليد ومخرجها من الثوب، والجمع أكمام وكممة، وبكسرها وعاء الطلع وغطاء النور كالكمامة،

والكمة بالكسر فيهما، والجمع أكمّة وأكمام وكمام، ويؤخذ من «الأساس»، وغيرها من المعاجم الكبرى، الكم بضم الكاف مدخل اليد ومخرجها من الثوب، جمعه أكمام، وكممة بكسر الكاف، والكمة بضم الكاف، القلنسوة المدورة، وكل ظرف غطيت به شيئاً، وألبسته إياه فصار له، كالغلاف، والكم بكسر الكاف، الغلاف الذي يحيط بالزهر، أو الثمر، أو الطلع فيستره، ثم ينشق عنه جمعه أكمة، وأكمام وكمام وأكاميم، ومن ذلك أكمام الزرع؛ أي: غلفها التي يخرج منها، وأكمة الخيل مخاليها المعلقة على رؤوسها، الواحد منها كمام، والكمامة بكسر الكاف غطاء الزهر، ووعاء الطلع. والكمامة أيضاً بالكسر، والكمام ما يكم به فم الحيوان، لئلا يعضّ، أو يأكل إلى آخر هذه المادة المطولة.

﴿مِّن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: مهرب، اسم مكان، من حاص كمبيع من باع، وأصله: محيص بكسر الياء، بوزن مفعل بكسر العين، نقلت حركة الياء إلى الحاء، فسكنت فصارت حرف مد، من حاص يحيص حيصاً ومحيصاً إذا هرب، وفي «المفردات»: أصله من قولهم: وقع في حيص بيص؛ أي: في شدة، وحاص عن الحق، يحيص إذا حاد عنه إلى شدة ومكروه. وفي «القاموس»: حاص عنه إذا عدل، وحاد، والمحيص المحيد والمعدل والمميل والمهرب.

﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ وفي «المختار»: اليأس القنوط، وقد يئس من الشيء من باب فهم، وفيه لغة أخرى، يئس ييئس بالكسر فيهما، وهي شاذة. ورجل يؤس وييئس، أيضاً، وبمعنى علم في لغة النخع، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وآيسه من كذا، فاستيأس منه، بمعنى أيس اهـ. وفيه أيضاً أيس منه، لغة في يئس، وبابهما فهم، وآيسه منه غيره بالمد، مثل أيأسه، وكذا أيسه بتشديد الياء تأييساً اهـ، وفيه أيضاً القنوط اليأس، وبابه جلس ودخل وطرب وسلم، فهو قنط وقنوط وقانط، فأما قنط يقنط بالفتح فيهما، وقنط يقنط بالكسر، فإنما هو على الجمع بين اللغتين اهـ، والفرق بين اليأس والقنوط، أن اليأس انقطاع الرجاء القلبي من حصول الخير، والقنوط ظهور أثر ذلك على البدن، من المذلة والانكسار والحزن.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أصله: أظنن بوزن أفعل، نقلت حركة النون الأولى إلى الظاء، فسكنت فأدغمت في النون الثانية، فصار أظن بوزن أفل ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ قرأه الجمهور ﴿نأى﴾، وفيه إعلال بالقلب أصله: نأي بوزن فعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، وقرأ ابن ذكوان وغيره عن ابن عامر ﴿وناء﴾ بتقديم الألف على الهمزة بوزن بآء إما لأنه من ناء ينوء، بمعنى نهض، وليس من النأي أو من نأى، ووقع في الكلمة قلب مكاني، حيث قدمت لام الفعل التي هي الياء، وجعلت مكان العين التي هي الهمزة، ثم أبدلت الياء المقدمة ألفاً، لتحركها بعد فتح، والله أعلم، وعلى أنه من ناء ينوء، فأصله: نوأ بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً، لتحركها بعد فتح، ومعناه: نهض، وفي «الفتوحات»: ناء بتأخير الهمزة عن الألف بوزن قال، ونأى بتقديم الهمزة على الألف بوزن رمى، اهـ.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ﴾ أصله: سنرئيهم، بوزن سنفعل نقلت حركة الهمزة إلى الراء، ثم حذفت للتخفيف، ثم سكنت الياء لوقوعها بعد كسرة، لتكون حرف مد. والآفاق جمع أفق بضمتين، كأعناق وعنق أبدلت همزته ألفاً. وهي الناحية من نواحي الأرض، وكذا آفاق السماء نواحيها وأطرافها كذا قال أهل اللغة، ونقل الراغب: أنه يقال: أفق بفتحتين كجبل وأجبال، وأفق فلان؛ أي: ذهب في الآفاق، والآفاقي الذي بلغ نهاية الكرم تشبيهاً في ذلك بالذاهب في الآفاق، والنسبة إلى الأفق أفقي بفتحهما، قلت: ويحتمل أنه نسبة إلى المفتوح، واستغنوا بذلك عن النسبة إلى المضموم، وله نظائر اهـ «فتوحات».

﴿فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ لقاء فيه إعلال بالقلب أصله: لقاي أبدلت الياء همزة، لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ من الإحاطة، والإحاطة إدراك الشيء بكماله، وفيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: محوط بوزن مفعل، نقلت حركة الواو إلى الحاء، فسكنت إثر كسرة، فقبلت ياء حرف مد.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الحصر المستفاد من تقديم المعمول على عامله، في قوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ﴾؛ أي: لا إلى غيره.

ومنها: الطباق بين ﴿رَحْمَةً﴾ و﴿ضَرَّآءَ﴾.

ومنها: وصف الجنس بوصف غالب أفراده، في قوله: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لأن اليأس من رحمة الله، لا يتأتى إلا من الكافر.

ومنها: المبالغات في قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ وقد تضمن هذا الكلام مبالغات، حيث أكد بالقسم، وبإن، وبتقديم الظرفين، وبالعدول إلى صيغة التفضيل، إذ الحسنى تأنيث الأحسن، وإنما يقول ذلك، لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا، يستحقه، فيستحق مثله في الآخرة. اهـ «كرخي».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾؛ لأن الجانب مجاز عن النفس، كالجنب في قوله تعالى: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ علاقته الكلية والجزئية.

ومنها: الاستعارة المكنية، التخيلية في قوله: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ فقد شبه الدعاء بأمر يوصف بالامتداد، ثم أثبت له العرض، فاستعار العرض لكثرة الدعاء وديمومته، وهو من صفات الأجرام، ويستعار له الطول أيضاً، ولكن استعارة العرض أبلغ؛ لأنه إذا كان عرضه كذلك، فما ظنك بطوله، والطول أطول الامتدادين، فإذا كان عرضه بهذه المثابة.. فناهيك بطوله.

ومنها: تنكير عريض للدلالة على التعريض.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مجمل ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

١ ـ وصف الكتاب الكريم.

٢ ـ إعراض المشركين عن تدبره.

٣ ـ جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين.

٤ ـ إقامة الأدلة على الوحدانية.

٥ ـ إنذار المشركين بأنه سيحل بهم ما حل بالأمم قبلهم.

٦ ـ شهادة الأعضاء عند الحشر على أربابها.

٧ ـ ما يفعله قرناء السوء من التضليل والصد عن سبيل الله.

٨ ـ ما كان يفعله المشركون حين سماع القرآن.

٩ ـ طلب المشركين إهانة من أضلوهم انتقاماً منهم.

١٠ ـ ما يلقاه المؤمنون من الكرامة يوم العرض والحساب.

١١ ـ إعادة الأدلة على الوحدانية.

١٢ ـ القرآن هداية ورحمة.

١٣ ـ إحاطة علم الله وعظيم قدرته.

١٤ ـ من طبع الإنسان التكبر عند الرخاء والتضرع وقت الشدة.

١٥ ـ آيات الله في الآفاق والأنفس الدالة على وحدانيته وقدرته.

١٦ ـ شك المشركين في البعث والنشور ثم الرد عليهم[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) وكان الفراغ من تفسير هذه السورة يوم السبت وقت الضحوة، في السابع من شهر شوال، من شهور سنة ألف وأربع مئة، وأربع عشرة، سنة ٧/ ١٠/ ١٤١٤ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية.

سورة الشورى

سورة الشورى، وتسمّى سورة حمٓ عسق، وسورة حمٓ عسق مكيّة في قول[1] ابن عباس والجمهور، وحكي عن ابن عباس: إلا أربع آيات، نزلت بالمدينة، أولها: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، وقيل: فيها من المدني: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾، إلى قوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وقوله ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾.

وآيها: ثلاث وخمسون آية، نزلت بعد فصّلت. وكلماتها: ثمان مئة وست وثمانون كلمة. وحروفها: ثلاثة آلاف، وخمس مئة، وثمانية وثمانون حرفاً، والله تعالى أعلم.

ومناسبتها لما قبلها[2]: اشتمال كل منهما على ذكر القرآن، ودفع مطاعن الكفار فيه، وتسلية النبي ﷺ على ذلك.

وقال أبو حيان[3]: مناسبة أول هذه السورة لأخر ما قبلها، أنه قال فيما قبلها: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، وكان في ذلك الحكم عليهم بالضلال، لما كفروا به، وقال هنا: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل الإيحاء السابق في القرآن، الذي كفر به هؤلاء ﴿يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾؛ أي: إن وحيه تعالى إليك متصل غير منقطع، يتعهدك وقتاً بعد وقت.

ومن فضائلها: ما روي عن النبي ﷺ: «من قرأ حم عسق، كان ممن يصلي عليه الملائكة، ويستغفرون له ويسترحمون له».

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله، محمد بن حزم: سورة الشورى كلها محكم، غير ثماني آيات:

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

أولاهنّ: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية(٥) نسخت بالآية التي في سورة المؤمن: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾(٧).

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ نسخت بآية السيف.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ (١٥)، نسخت بقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ الآية (٢٠)، نسخت بقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ﴾.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية (٢٣)، مختلف في نسخها، ناسخها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ الآية (٤٧) سبأ.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (٣٩).

الآية السابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ (٤١) الآيتان، نسختا بقوله عزّ وجل: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

الآية الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ الآية (٤٨) نسخت بآية السيف.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٢ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١٤ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٥ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝١٦ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝١٧ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝١٨﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ...﴾ الآيات، مناسبة أول هذه السورة لآخر السابقة: أنه قال في آخر السابقة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ...﴾ الآية، ولما كان في ذلك، الحكم عليهم بالضلال لما كفروا به، قال هنا كذلك؛ أي: مثل الإيحاء السابق في القرآن، الذي كفر به هؤلاء يوحي إليك؛ أي: إن وحيه تعالى إليك، متصل غير منقطع، يتعهّدك وقتاً بعد وقت.

وبيّن سبحانه: أنّ ما جاء في هذه السورة، موافق لما في تضاعيف الكتب، المنزلة على سائر الرسل، من الدعوة إلى التوحيد، والإيمان باليوم الآخر، والتزهيد في جمع حطام الدنيا، والترغيب فيما عند الله، ثم ذكر أن ما في السمٰوات والأرض فهو ملكه وتحت قبضته، وله التصرف فيه إيجاداً وإعداماً، وتكويناً وإبطالاً وأنّ السمٰوات والأرض على عظمهما، تكاد تتشقّق فرقاً من هيبته، وجلاله سبحانه، وأن الملائكة ينزّهونه عما لا يليق به، من صفات النقص، ويطلبون المغفرة لعباده المؤمنين، ثم أردف هذا بتسلية رسول ﷺ، بأنه ليس بالرقيب على عبدة الأصنام والأوثان، فيستطيع أن يردّهم إلى سواء السبيل، بل ليس عليه إلا البلاغ، وعلينا حسابهم، فلا يبخع نفسه عليهم حسرات، إن الله عليم بما يصنعون.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما[1] بيّن فيما سلف، أنه هو الرقيب على عباده، المحصي لأعمالهم، وأنه ﷺ نذير فحسب، وليس عليه إلا البلاغ.. ذكر هنا أنه أنزل كتابه بلغة العرب، ليفهمه قومه من أهل مكة، وما حولها كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ وينذرهم، بأن يوم القيامة آت لا شك فيه، وأن الناس إذ ذلك فريقان: فريق يدخل الجنة، بما قدّم من صالح

(١) المراغي.

الأعمال، وفريق يدخل النار بما دسّى به نفسه من سيّء الأفعال، ثم ذكر أنّ حكمته اقتضت أن يكون الإيمان بالتكليف اختياراً، ولم يشأ أن يكون قسراً وجبراً، ولو شاء أن يكون كذلك لفعل، فمن أخبت لله وأناب وعمل صالحاً أفلح، وفاز بالسعادة، ومن عاث في الأرض فساداً، واتجهت همته إلى ارتكاب الشرور والآثام خسر، وباء بغضب من الله، ومأواه جهنم وبئس المهاد، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً.

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر أنهم اتخذوا من دون الله أولياء، وأن الله وكيل عليهم، ولست أيها الرسول بالحفيظ عليهم.. طلب إليه هنا، أن يدع الاهتمام بأمرهم، ويقطع الطمع في إيمانهم، مبيناً أنهم اتخذوا من دون الله أولياء، وهو سبحانه الولي حقاً، القادر على كل شيء فقد عدلوا إلى ما لا نسبة بينه وبينهم بحال.

قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه لما عظم[1] وحيه إلى رسوله ﷺ، وأبان ما له من كبير الخطر، حين نسبه إليه تعالى، وأنه صادر من عزيز حكيم، لا يوحي إلا بما فيه مصلحة البشر، ومنفعتهم في دينهم ودنياهم.. ذكر هنا تفصيل هذا الوحي، وأرشد إلى أنه هو الدين الذي وصّى به أكابر الأنبياء، وأصحاب الشرائع العظيمة، والأتباع الكثيرة، وأردف ذلك أن المشركين يشقّ عليهم دعوتهم إلى التوحيد، وترك الأنداد والأوثان، وأنّ الله يهدي من يشاء من عباده لهدي دينه، وأنهم ما خالفوا الحق إلا بعد إبلاغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وأنه ما حملهم على ذلك إلا البغي والعدوان والحسد، وأنه لولا الكلمة السابقة من الله، بإنظار المشركين بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد.. لعجّل لهم العقوبة في الدنيا، وأن من اعتنقوا الأديان من بعد الأجيال الأولى، ليسوا على يقين من أمرهم، وإيمانهم،

---

(١) المراغي.

وإنما هم مقلّدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم وشك مريب، وشقاق بعيد.

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه، لما[1] أمرهم بالوحدة في الدين وعدم التفرّق فيه، وذكر أنهم قد تفرّقوا فيه من بعد ما جاءهم العلم بغياً وحسداً وعناداً واستكباراً، أمر رسوله ﷺ، بالدعوة إلى الاتفاق على الملة الحنيفية والثبات عليها، والدعوة إليها، وأن لا يتبع أهواءهم الباطلة. ثم أمره بالإيمان بجميع الكتب السماوية وبالعدل بين الناس والمساواة بينهم وبين نفسه، فلا يأمرهم بما لا يعمله، أو يخالفهم فيما نهاهم عنه، ثم أردف ذلك ببيان أن إلٰههم جميعاً واحد، وأنّ كل امرىء مسؤول عن عمله، وأن الله يجمع الناس يوم القيامة، ويجازيهم بأعمالهم.

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة، على عشرة أوامر ونواه، كل منها مستقل بذاته ودالّ على حكم برأسه، ولا نظير لها في ذلك إلا آية الكرسي، فهي عشرة فصول أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى، لما ذكر فيما سلف، أن لا محاجة بين المشركين والمؤمنين لوضوح الحجة، بيّن هنا أنّ الذين يخاصمون في دين الله، من بعد ما استجاب الناس له، ودخلوا فيه أفواجاً، حجتهم في الصرف عنه زائفة، لا ينبغي النظر إليها، وعليهم غضب من ربهم، لمكابرتهم للحقّ بعد ظهوره، ولهم عذاب شديد يوم القيامة.

رُوي: أن اليهود قالوا للمؤمنين: إنكم تقولون: إن الأخذ بالمتفق عليه أولى من الأخذ بالمختلف فيه، ونبوّة موسى وتوراته مسلّمة بيننا وبينكم، ونبوّة محمد ﷺ ليست كذلك، وإذاً الأخذ باليهودية أولى فدحض الله سبحانه وتعالى هذه الحجة، بأنّ الإيمان بموسى إنما وجب لظهور المعجزات على يديه. دالة

---

(١) المراغي.

على صدقه، وقد ظهرت المعجزات على يدي محمد ﷺ، واليهود قد شاهدوها، فوجب الاعتراف بنبوّته، ثم أردف ذلك تخويفهم يوم القيامة، حتى يستعدوا له ويتركوا المماراة بالباطل، ثم ذكر أن المشركين يستعجلون به استهزاء، وإنكاراً لوجوده، والمؤمنون خائفون منه لعلمهم بالجزاء حينئذٍ، ثم أعقب ذلك بذكر أن المماراة في الساعة ضلال بيّن، لتظاهر الأدلة على حصولها لا محالة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن المنذر عن عكرمة، قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ قال المشركون بمكة، لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخل الناس في دين الله أفواجاً، فاخرجوا من بين أظهرنا، فعلام تقيمون بين أظهرنا، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ...﴾ الآية.

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ...﴾ الآية، قال: هم اليهود والنصارى، قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ اسمان[2] للسورة، ولذلك فصل بينهما في الكتابة، وعدّا آيتين، بخلاف كهيعص والمص والمرّ، فإنها آية واحدة. وقيل: هما اسم واحد للسورة وآية واحدة، وفصلت لتطابق سائر الحواميم، فعلى الأول: يكونان خبرين لمبتدأ محذوف. وعلى الثاني: يكون خبراً لذلك المبتدأ المحذوف، وقرأ ابن مسعود وابن عباس ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الحاء حكم الله، والميم ملك الله، والعين علوّ الله، والسين سناء الله، والقاف قدرة الله، أقسم الله بها، فكأنه يقول: فبحكمي وملكي وعلوي وسنائي وقدرتي،

---

(١) لباب النقول. (٢) روح البيان.

لا أعذب عبداً قال: لا إله إلا الله مخلصاً فلقيني بها. ومعناه على ما قاله أبو الليث في تفسيره: لا يعذّبه عذاباً دائماً خالداً. وفي الحديث: «افتتحوا صبيانكم بلا إلٰه إلا الله، ولقنوا موتاكم بلا إلٰه إلا الله» والحكمة في ذلك أنّ حال الصبيان حال حسن لا غلّ - غش - في قلوبهم، وحال الموتى حال الاضطرار، فإذا قلتم في أول ما يجري عليكم القلم، وآخر ما يجفّ عليكم القلم، فعسى الله أن يتجاوز ما بين ذلك.

واختلفوا[1] في حمّ، فأخرجها بعضهم من حيّز الحروف، وجعلها فعلاً فقال: معناها حم الأمر؛ أي: قضي، وبقي عسق على أصله، وفي «المراغي»: وقد تقدم قولنا: إن الحروف المقطعة التي جاءت في أوائل السور، حروف تنبيه، نحو: ألا ويا، ونحوها، يؤتى بها لإيقاظ السامع، وتنبيهه إلى ما سيلقى إليه من الأمور العظام، المشتملة عليها هذه السورة، وينطق بأسمائها هكذا ﴿حاميم عين سين قاف﴾.

وقيل غير ذلك، مما هو متكلف متعسف، لم يدل عليه دليل، ولا جاء به حجة، ولا شبهة حجة، والأسلم تفويض علمه إلى الله تعالى، فيقال: الله أعلم بمراده بذلك.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه، والكاف في حيز النصب على أنه مفعول ليوحي، والجلالة فاعله؛ أي: مثل ما في هذه السورة من المعاني، يوحي الله العزيز الحكيم إليك، في سائر السور، وإلى من قبلك من الرسل في كتبهم، على أن مناط المماثلة هو الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق، وما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد، ويجوز أن يكون الكاف في حيز النصب، على أنه نعت لمصدر مؤكد ليوحي؛ أي: مثل إيحاء هذه السورة؛ يوحي الله العزيز الحكيم إليك، عند إيحاء سائر السور، وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم لا إيحاء مغايراً على أن مدار

(١) الخازن.

المثلية كونه بواسطة الملك.

وإنما ذكر[1] بلفظ المضارع، مع أن مقتضى المقام، أن يذكر بلفظ الماضي، ضرورة أن الوحي إلى الذين من قبله قد مضى، دلالة على استمرار الوحي، تجدده وقتاً فوقتاً، وأن إيحاء مثله عادته تعالى، ويجوز أن يكون إيذاناً أن الماضي والمستقبل بالنسبة إليه تعالى واحد، كما في «الكواشي». وقيل[2]: إن المضارع استعمل في حقيقته، ومجازه مستعمل في المستقبل، بالنظر إلى ما لم ينزل عليه من القرآن إذ ذاك وفي الماضي بالنظر لما أنزل بالفعل، وبالنظر إلى ما أنزل على الرسل السابقين، ووجه الشبه أن الموحى به في الكل، يرجع لأمور ثلاثة: التوحيد والنبوة والبعث. فهذا القدر موجود في القرآن وغيره من الكتب، اهـ شيخنا. وفي «زاده»: ووجه المشابهة الاشتراك في الدعوة إلى التوحيد، والنبوة والمعاد وتقبيح أحوال الدنيا والترغيب في أمور الآخرة اهـ.

وقال الشوكاني: والمعنى: أي[3] مثل ذاك الإيحاء الذي أوحي إلى سائر الأنبياء من كتب الله، المنزلة عليهم، المشتملة على الدعوة إلى التوحيد، والبعث يوحي الله إليك يا محمد في هذه السورة، وقيل: إن حمّ عسق أوحيت إلى من قبله من الأنبياء، فتكون الإشارة بقوله: كذلك إليها اهـ.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿يُوحِيٓ﴾ بكسر الحاء مبنياً للفاعل، والفاعل الله، وهي واضحة اللفظ والمعنى: وقرأ أبو حيوة والأعمش وأبان ﴿نوحي﴾ بنون العظمة مع كسر الحاء، وقرأ مجاهد، وابن كثير وابن محيصن وعباس ومحبوب كلاهما عن أبي عمرو ﴿يوحى﴾ بفتح الحاء مبنياً للمفعول، والقائم مقام الفاعل ضمير مستتر يعود على ذلك، والتقدير: مثل ذلك الإيحاء يوحى هو إليك، أو القائم مقام الفاعل إليك، أو الجملة المذكورة؛ أي: يوحى إليك هذا اللفظ أو القرآن، أو مصدر يوحي وارتفاع اسم الجلالة، على أنه فاعل لفعل محذوف، كأنه قيل:

---

(١) روح البيان.

(٢) الفتوحات.

(٣) الشوكاني.

(٤) البحر المحيط.

من يوحي فقيل: يوحي الله العزيز الحكيم، أو على الابتداء، والتقدير: الله العزيز الحكيم هو الموحي. وعلى قراءة النون يكون قوله: الله العزيز الحكيم، في محل النصب، والمعنى عليه: نوحي إليك هذا اللفظ.

والمعنى[1]: أي بمثل ما في هذه السورة من الدعوة إلى التوحيد، والنبوة والإيمان باليوم الآخر، وتجميل النفس بفاضل الأخلاق، وتبعيدها عن رذائل الأخلاق، والعمل على سعادة المرء والمجتمع، يوحي إليك الله العزيز في ملكه الغالب بقهره، الحكيم بصنعه المصيب في قوله وفعله، كما أوحي إلى الأنبياء بمثله من قبلك.

وسيأتي تفصيل هذا في سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، فقد ذكر في أولها التوحيد، وفي وسطها النبوة، وفي آخرها المعاد، ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾. أي: إن المقصود من إنزال جميع الكتب الإلهية، ليس إلا هذه المطالب الثلاثة العالية، التي لا تتم السعادة إلا بها، ولا الفوز بالنعيم في الدارين إلا بسلوكها.

ثم بيّن سبحانه عظمته وكبرياءه وحكمته فقال: ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه لا لغيره ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى يختص به جميع ما في العوالم العلوية والسفلية، خلقاً وملكاً وعلماً، ذكر سبحانه هذا الوصف لنفسه، وهو ملك جميع ما في السمٰوات والأرض لدلالته على كمال قدرته، ونفوذ تصرفه في جميع مخلوقاته. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾؛ أي: الرفيع الشأن ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الملك والقدرة والحكمة، أو هو العلي؛ أي: المرتفع عن مدارك العقول، إذ ليس كذاته ذات، ولا كصفاته صفات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، وهو العظيم الذي يصغر عند ذكره وصف كل شيء سواه، والعظيم من العباد، الأنبياء والعلماء الوارثون لهم، فالنبي عظيم في حق أمته، والأستاذ عظيم في حق تلميذه، وإنما العظيم المطلق، هو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) المراغي.

والخلاصة[1]: أي إن ما في السمٰوات والأرض تحت قبضته، وفي ملكه، وله التصرف فيه إيجاداً وإعداماً، وهو المتعالي فوقه، العظيم عن مماثلته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾؛ أي: تقرب السمٰوات يتشققن من عظمة وخشية وهيبة الإلٰه الذي ﴿مِن فَوْقِهِنَّ ۚ﴾؛ أي: فوق السمٰوات بالألوهية والقهر والعظمة والقدرة، والتفطر التشقق، قال[2] الضحاك والسدي: يتشققن من عظمة الله وجلاله من فوقهن. وقيل: المعنى: تكاد كل واحدة تتفطر فوق التي تليها من قول المشركين: اتخذ الله ولداً، وقيل: من فوقهن من فوق الأرضين، والأول أولى، ومن في قوله: من فوقهن لابتداء الغاية؛ أي: يبتدىء التفطر من جهتهن الفوقانية إلى جهتهن التحتانية.

ووجه تخصيص[3] جهة الفوق، أنها أقرب إلى أعظم الآيات، وأدلها على القدرة الباهرة من العرش والكرسي وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل حول العرش، وما لا يعلم كنهه إلا الله من آثار الملكوت العظمى، فكان المناسب أن يكون تفطر السموات مبتدأ من تلك الجهة، بأن يتفطر أولاً أعلى السمٰوات ثم إلى أن ينتهي إلى أسفلها، بأن لا تبقى سماء إلا سقطت على الأخرى.

وقيل: تتشققن من أدعاء الولد له، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾، فتخصيصها حينئذٍ للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الأولى؛ لأن تلك الكلمة الشنعاء الواقعة في الأرض، إذا أثرت في جهة الفوق فلأن تؤثر في جهة التحت أولى، وقيل: لنزول العذاب منهن.

وقرأ الجمهور: ﴿تَكَادُ﴾ بالفوقية، وكذلك ﴿تتفطرن﴾ قرؤوه بالفوقية مع

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

تشديد الطاء، وقرأ نافع والكسائي وابن وثاب ﴿يكاد﴾، ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ بالتحتية فيهما. وقرأ أبو عمرو والمفضل وأبو بكر وأبو عبيد: ﴿ينفطرن﴾ بالتحتية والنون من الانفطار كقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾.

وبعد أن بيّن كمال عظمته، باستيلاء هيبته على الجسمانيات، انتقل إلى ذكر الروحانيات فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ﴾ هذا كلام مستأنف، لا تعلق له بما قبله؛ أي: ينزهونه تعالى عما لا يليق به، من الشريك والولد، وسائر صفات الأجسام، حال كونهم متلبسين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ سبحانه وتعالى، فقدم التسبيح على الحمد؛ لأنّ التخلية مقدمة على التحلية، وقيل: إن التسبيح موضوع موضع التعجب؛ أي: يتعجبون من جراءة المشركين على الله. وقيل: معنى ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ بأمر ربهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾؛ أي: للمؤمنين بالشفاعة، لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ﴾، فالمطلق محمول على المقيد، أو يستغفرون للمؤمن والكافر والفاسق، بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم، من الشفاعة والإلهام، وترتيب الأسباب، المقربة إلى الطاعة، واستدعاء تأخير العقوبة، جمعاً في إيمان الكافر، وتوبة الفاسق، وتكون الآية عامة، وهذا لا ينافي كون الملائكة لاعنين للكفار من وجه آخر، كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وفي الحديث: «ما فيها موضع أربع أصابع، وفي رواية موضع راحة، إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، يسبّحون بحمد ربهم، ويستغفرون لمن في الأرض». وهذا يدل على أن المراد بالملائكة في الآية: ملائكة السمٰوات كلها، وقال مقاتل: حملة العرش، وإليه ذهب الكاشفي في تفسيره، ويدل عليه قوله تعالى، في أوائل سورة المؤمن: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ﴾.

يقول الفقير: تخصيص ملائكة العرش، لا ينافي من عداهم، فلعله من باب الترقي؛ لأنّ آية سورة المؤمن ـ غافر ـ مقيّدة بحملة العرش، وباستغفار المؤمنين، وهذه الآية مطلقة في حق كل من الملائكة والاستغفار.

ثم بيّن سبحانه أن من شأنه المغفرة والرحمة لعباده، فقال: ﴿أَلَآ﴾ للتنبيه؛

أي: اعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾؛ أي: كثير المغفرة لعباده، يغفر ذنوب المقبلين ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: كثير الرحمة بهم، بأن يرزقهم جنته وقربه، وبرحمته يأمر الملائكة بالاستغفار لبني آدم، مع كثرة عصيانهم، والكفار الذين يرتكبون الشرك، والذنوب العظام، لا يقطع رزقهم ولا صحتهم، وتمتعاتهم من الدنيا، وإن كان يريد أن يعذّبهم في الآخرة.

يقول الفقير: إن الملائكة وإن كانوا يستغفرون للمؤمنين، فالمؤمنون يسلّمون عليهم كما يقولون في التشهد: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، إذ لا يعصون ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فالمنة لله تعالى على كل حال.

وفي الآية: إشارة إلى أن قوماً من الجهلة يقولون على الله ما لا يعلمون، ومن عظم افترائهم تكاد السموات تنشق من فوقهم؛ لأنّ الله تعالى ألبسها أنوار قدرته، وأدخلها روح فعله، حتى عقلت عبودية صانعها؛ وعرفت قدسه وطهارته عن قول الزائغين، وإشارة الملحدين، والملائكة يقدسون الله، عما يقولون فيه من الزور والبهتان، والدعاوى الباطلة، ويستغفرون للمؤمنين، الذين لم يبلغوا حقيقة عبوديته، فإنهم هم القابلون للإصلاح، لاعترافهم بعجزهم، وقصورهم، دون المصرين المبتدعين.

وفي الآية: إيماء أيضاً إلى قبول استغفار الملائكة، وهو يزيد على ما طلبوه من المغفرة، الرحمة بهم، وتأخير عقوبة الكافرين والعصاة نوع من المغفرة والرحمة، لعلهم يرعوون عن غوايتهم، ويثوبون إلى رشدهم، وينيبون إلى ربهم، ثم أبان وظيفة الرسل، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: أصناماً وأنداداً وشركاء، أشركوهم معه تعالى، في العبادة ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿حَفِيظٌ﴾؛ أي: رقيب ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على أحوالهم، ومطلع على أعمالهم، ليس بغافل عنهم، فيجازيهم، لا رقيب عليهم إلا هو وحده ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﷺ ﴿بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: بموكول إليه أمورهم، ولا بموكل بهم، حتى تسأل عنهم وتؤخذ بهم، وإنما وظيفتك الإنذار وتبليغ الأحكام، قيل: وهذه الآية منسوخة بآية السيف.

وفيه إشارة، إلى أن كل من عمل بمتابعة هواه، وترك لله حدّاً، ونقض له عهداً، فهو متخذ الشياطين أولياء؛ لأنه يعمل بأوامرهم، وأفعاله موافقة لطباعهم، الله حفيظ عليهم بأعمال سرهم وعلانيتهم، إن شاء عذّبهم، وإن شاء عفا عنهم، وما أنت عليهم بوكيل، لتمنعهم عن معاملتهم، فعلى العاقل أن لا يتخذ من دون الله أولياء، بل يتفرد بمحبة الله تعالى وولايته، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ حتى يتولاه في جميع أموره. وما أحوجه إلى أحد سواه.

حكاية: وقال الأستاذ أبو علي الدقاق ـ رحمه الله تعالى ـ: ظهرت علة بالملك يعقوب بن الليث، أعيت الأطباء، فقالوا له: في ولايتك رجل صالح، يسمى سهل بن عبد الله، لو دعا لك، لعل الله يستجيب له، فاستحضره فقال: ادع الله لي، فقال: كيف يستجاب دعائي فيك، وفي حبسك مظلومون، فأطلق كل من حبسه، فقال سهل: اللهم كما أريته ذل المعصية، فأره عز الطاعة، وفرج عنه، فعوفي، فعرض مالاً على سهل، فأبى أن يقبله، فقيل له: لو قبلته ودفعته إلى الفقراء، فنظر إلى الحصباء في الصحراء، فإذا هي جواهر فقال: من يُعطى مثل هذا، يحتاج إلى مال يعقوب بن الليث؟ فالمعطي والمانع والضار والنافع هو الله، الولي، الوكيل، الذي لا إلٰه غيره.

والمعنى: أي والمشركون الذين اتخذوا آلهة من الأصنام، والأوثان، يعبدونها، الله هو المراقب لأعمالهم، المحصي لأفعالهم، وأقوالهم، المجازي لهم يوم القيامة على ما كانوا يفعلون، ولست أنت أيها الرسول، بالحفيظ عليهم، إنما أنت نذير تبلغهم ما أرسلت به إليهم، إن عليك إلا البلاغ، وعلينا الحساب، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإنك لست بمدرك ما تريد من هدايتهم، إلا إذا شاء ربك.

والإشارة في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ إلى مصدر أوحينا، ومحل الكاف النصب على المصدرية. وقرآناً عربياً مفعول به لأوحينا؛ أي: ومثل ذلك الإيحاء البديع، الواضح المفهم، أوحينا إليك إيحاء لا لبس به، عليك وعلى قومك.

والمعنى[1]: أي أنزلنا عليك قرآنا عربياً، بلسان قومك، كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه. ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي[2]: لتخوف أهل مكة بعذاب الله، على تقدير إصرارهم على الكفر، والعرب تسمي أصل كل شيء بالأم، سميت أم القرى تشريفاً لها، وإجلالاً لاشتمالها على البيت المعظم، ومقام إبراهيم عليه السلام، ولما رُوي من أن الأرض دحيت من تحتها، فمنزلة القرى منها. البنات من الأمهات ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي: حول أم القرى من العرب، وتفسير من حولها بالعرب لا ينافي عموم رسالته ﷺ؛ لأنّ تخصيص الشيء بالذكر لا ينافي حكم ما عداه. وقيل: من أهل الأرض كلها شرقاً وغرباً، وبذلك فسره البغوي فقال: من قرى الأرض كلها، وكذا القشيري حيث قال: العلم محدق بالكعبة ومكة؛ لأنهما سرة الأرض.

والمعنى[3]: أي ومثل ذلك الإيحاء البديع البيّن، أوحينا إليك قرآناً عربياً بلسان قومك، لاخفاء فيه عليك، ولا عليهم، ليفهموا ما فيه من حجج الله وذكره، ولتنذر به أهل مكة، وما حولها من البلاد، إلى منقطع الأرض كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه.

وقصارى ذلك: أنا كما أوحينا إليك أنك لست بالحفيظ عليهم، ولا بالوكيل، أوحينا إليك قرآناً عربياً، لتنذر أهل مكة وما حولها، وخص هؤلاء بالذكر؛ لأنهم أول من أنذروا، ولأنهم أقرب الناس إليه، فلا دليل فيها على أنه أرسل إليهم خاصة، كيف وقد جاء في آية أخرى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾.

وهذا الإنذار يعم شؤون الدنيا وشؤون الآخرة، ثم خصَّ من بينها أمور الآخرة، بياناً لعظيم أهوالها، وشديد نكالها فقال: ﴿وَتُنذِرَ﴾ أهل مكة ومن حولها ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾؛ أي[4]: بيوم القيامة وما فيه من العذاب، سمي يوم الجمع؛

---

(1) الشوكاني.
(2) روح البيان.
(3) المراغي.
(4) روح البيان.

لأنه يجمع فيه الخلائق من الأولين والآخرين، وأهل السمٰوات وأهل الأرض، أو الأرواح والأشباح أو الأعمال والعمال، أو الظالم والمظلوم، فالباء محذوف من اليوم، كما قال: لتنذر بأساً شديداً؛ أي: ببأس شديد. كما قاله أبو الليث. فيكون مفعولاً به لا ظرفاً، كما في «كشف الأسرار». وقد سبق نظير ذلك في سورة المؤمن: عند قوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾.

وجملة قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شك في يوم الجمع، جملة معترضة، مقررة لما قبلها، لا محل لها من الإعراب، أو صفة ليوم الجمع، أو حال منه، أي: لا بدّ من مجيء ذلك اليوم، وليس بمرتاب فيه في نفسه وذاته، لأنه لا بدّ من جزاء العاملين من المنذرين وأهل الجنة والنار، وارتياب الكفار فيه لا يعتد به. أو لا شك في الجمع أنه كائن، ولا بد من تحققه.

والمعنى[1]: أي ولتنذر الخلائق كافة، عقاب الله، يوم جمعهم للعرض والحساب، وهو يوم لا شك فيه، لتظاهر الأدلة على تحققه، عقلاً ونقلاً، فالحكمة قاضية بجزاء المحسن على إحسانه، ومعاقبة المسيء على إساءته، ولما فيه من نصوص قاطعة، على وجوده، لا تحتمل تأويلاً ولا تفسيراً.

ثم ذكر عاقبة العرض والحساب، فقال: ﴿فَرِيقٌ﴾ منهم، وهم المؤمنون ﴿فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ﴾ منهم وهم الكافرون ﴿فِي السَّعِيرِ﴾؛ أي: في النار سميت بها لالتهابها، وذلك بعد جمعهم في الموقف؛ لأنهم يجمعون فيه أولاً، ثم يفرّقون بعد الحساب، وقرأ الجمهور[2]: برفع ﴿فَرِيقٌ﴾: في الموضعين، إما على أنه مبتدأ، وخبره الجار والمجرور، وسوّغ الابتداء بالنكرة، كونه في معرض تفصيل، أو كونه موصوفاً بصفة محذوفة؛ أي: فريق منهم، كما قدّرناه أولاً في حلنا، أو على أن الخبر مقدّر قبله، أي: منهم فريق في الجنة ومنهم فريق في السعير. وجاز حينئذٍ الابتداء بالنكرة لأمرين تقديم خبرها، وهو الجار والمجرور المحذوف، ووصفها بقوله في الجنة، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، وهو ضمير

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

عائد إلى المجموعين المدلول عليهم بذكر الجمع؛ أي: هم فريق في الجنة وفريق في السعير، وقرأ زيد بن عليّ ﴿فريقاً﴾ بالنصب في الموضعين على الحال، من جملة محذوفة؛ أي: افترقوا حال كونهم فريقاً كذا وفريقاً كذا. وجوّز الفراء والكسائي النصب على تقدير لتنذر فريقاً. والضمير المجرور في منهم للمجموعين، لدلالة لفظ الجمع عليه، فإن المعنى يوم يجمع الخلائق في موقف الحساب.

وفي «التأويلات النجمية»[1]: وتنذر يوم الجمع بين الأرواح والأجساد، لا شك في كونه، وكما أنهم اليوم فريقان: فريق في جنة القلوب، وراحات الطاعات، وحلاوات العبادات، وتنعّمات القربات، وفريق في سعير النفوس، وظلمات المعاصي، وعقوبات الشرك، والجحود، فكذلك غداً، فريق هم أهل اللقاء، وفريق هم أهل الشقاء والبلاء.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم، قابضاً على كفّه، ومعه كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان» قلنا: لا يا رسول الله، فقال: للذي في يده اليمنى «هذا كتاب من ربّ العالمين، بأسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وعشائرهم، وعدّتهم، قبل أن يستقرّوا نطفاً في الأصلاب، وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام، إذ هم في الطينة منجدلون، فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم، إجمال من الله عليهم، إلى يوم القيامة»، ثم قال: للذي في يساره: «هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل النار، وأسماء آبائهم، وعشائرهم، وعدّتهم، قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب، وقبل أن يستقروا في الأرحام، إذ هم في الطينة منجدلون، فليس بزائد فيهم، ولا ناقص منهم إجمال من الله تعالى عليهم إلى يوم القيامة. فقال عبد الله بن عمرو: ففيم العمل إذاً؟ قال: اعملوا وسددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أيّ عمل، ثمّ قال: فريق في الجنة وفريق في السعير، عدل

(١) روح البيان.

من الله تعالى، أخرجه الإمام أحمد في «مسنده».

ثم سلى رسوله على ما كان يناله من الغم والهم، بتولي قومه عنه وعدم استجابة دعوته، وأعلمه أن أمور عباده بيده، وأنه الهادي إلى الحق من يشاء، والمضل من أراد، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، جمع الناس على الهداية، أو على الضلالة ﴿لَجَعَلَهُمْ﴾ في الدنيا، والضمير لجميع الناس المشار إليهم بالفريقين ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مهتدين أو ضالين، وهو تفصيل لما أجمله ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: على دين واحد. قال الضحاك: أهل دين واحد، إما على هدى وإما على ضلالة، ولكنهم افترقوا على أديان مختلفة بالمشيئة الأزلية، وهو معنى قوله: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ﴾ في الدين الحق ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يدخله ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ وجنته ويدخل في الضلال من يشاء أن يدخله في عذابه ونقمته، ولا ريب في أن مشيئة الله تعالى، لكل من الإدخالين، تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله، ومن ضرورة اختلاف الرحمة اختلاف حال الداخلين فيهما قطعاً، فلم يشأ جعل الكل أمةً واحدة، بل جعلهم فريقين ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: المشركون ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾ ما يلي أمرهم ويغنيهم وينفعهم، فـ﴿مِّن﴾: مزيدة لاستغراق النفي ﴿وَلَا﴾ من ﴿نَصِيرٍ﴾ ما يدفع العذاب الواقع عنهم ويخلصهم منه، وفيه إيذان، بأن الإدخال في العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم، لا من جهته تعالى، كما في الإدخال في الرحمة.

قال سعدي المفتي في «حواشيه»[1]: لعل تغيير المقابل حيث لم يأت المقابل، ويدخل من يشاء في نقمته، بل عدل إلى ما في النظم، للمبالغة في الوعيد، فإن في نفي من يتولاهم وينصرهم في دفع العذاب عنهم، دلالة على أن كونهم في العذاب أمر معلوم مفروغ عنه، وأيضاً فيه سلوك طريق ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ وأيضاً ذكر السبب الأصلي في جانب الرحمة ليجتهدوا في الشكر، والسبب الظاهري في جانب النقمة ليرتدعوا عن الكفر.

---

(١) روح البيان.

وفي «التأويلات النجمية»: ولو شاء الله لجعلهم أمةً واحدة، كالملائكة المقربين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾، الآية، أو جعلهم كالشياطين، المبعدين، المطرودين، المتمردين، ولكن الحكمة الإلٰهية اقتضت، أن يجعلهم مركبين من الجوهر الملكي، والشيطاني، ليكونوا مختلفين، بعضهم الغالب عليه الوصف الملكي، مطيعاً لله تعالى، وبعضهم الغالب عليه الوصف الشيطاني، متمرداً على الله تعالى، ليكونوا مظاهر صفات لطفه وقهره، ويدل على هذا التأويل، قوله: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: ليكونوا مظاهر صفات لطفه، ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ أي: ليكونوا مظاهر صفات قهره، انتهى.

وحاصل المعنى[1]: أي ولو شاء الله لجعل الجميع مؤمنين، كما تريد وتحرص عليه، ولكن حكمته اقتضت أن يكون بعضهم مؤمنين وبعضهم كفاراً، وهم الذين اتخذوا من دون الله أولياء؛ لأنه سبحانه شاء أن يكون الإيمان مبنياً على التكليف والاختيار، يدخل المرء فيه بمحض الرضا. والتأمل في الأدلة الموصلة إلى الهدى، وبذلك يتم الفوز والسعادة في الدارين، وينفر منه من دنس نفسه بأدران الشرك، وركب رأسه وأطاع هواه، فكان من الخاسرين، ولو شاء لجعل الإيمان بالقسر والإلجاء، فكان الناس جميعاً أمة واحدة، ولكن له الحجة البالغة والمثل الأعلى، ولم يشأ ذلك، فلاتأس على عدم إيمان قومك، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، كما قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾، و قد جاء هذا المعنى في غير آية سلف كثير منها، كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾.

وجملة قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء كون الولي والنصير للظالمين. و﴿أَمِ﴾[2] هذه هي المنقطعة المقدرة ببل المفيدة للانتقال من بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها، وبالهمزة المفيدة لإنكار الوقوع

---

(١) المراغي.　　(٢) روح البيان.

ونفيه على أبلغ وجه وآكده، لا لإنكار الواقع واستقباحه كما قيل، إذ المراد بيان أن ما فعلوا من اتخاذ الأولياء، ليس في شيء لأن ذلك فرع كون الأصنام أولياء، وهو أظهر الممتنعات؛ أي: بل اتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام، التي يعبدونها ليس ذلك في شيء. والفاء[1] في قوله ﴿فَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى - ﴿هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾؛ أي: هو الحقيق بأن يتخذوه ولياً، فإنه هو الخالق الرازق، الضار النافع - فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إن أرادوا أن يتخذوا ولياً في الحقيقة، فأقول لهم: الله سبحانه هو الولي، الذي يجب أن يتولى ويعتقد أنه المولى، لا ولي سواه، وهو متولي الأمور من الخير والشر، والنفع والضر.

قلت: ويحتمل أن تكون الفاء تعليلية، لكون ما بعدها علة لإنكار اتخاذ الأولياء من دون الله، كقولك: أتضرب زيداً فهو أخوك، على معنى: لا ينبغي أن تضربه، لكونه أخاك، والمعنى هنا: لا ينبغي لهم أن يتخذوا أولياء من دون الله، لأنّ الله هو الولي الحقيقي.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه؛ أي: ومن شأنه أنه ﴿يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ليس في السماء والأرض معبود يحيى الموتى غيره ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه على كل شيء من الإحياء والإماتة ﴿قَدِيرٌ﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً، فليَخصُّوه بالاتخاذ دون من لا يقدر على شيء.

ومعنى الآية[2]: أي إن هؤلاء المشركين من قومك، قد اتخذوا أولياء ينصرونهم من دون الله، وقد ضلوا ضلالاً بعيداً، فهؤلاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فإن أرادوا ولياً بحق يدفع عنهم الملمات ويجلب لهم الخيرات، فاللَّه هو القادر على ذلك وهو محيي الموتى، ويحشرهم يوم القيامة، فجدير بمثله أن يتخذ ولياً، لا من لا يستطيع دفع الشر عن نفسه، ولا جلب الخير لها، ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

﴿يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ﴾.

وبعد أن منع رسوله أن يحمل الكفار على الإيمان قسراً، منع الكافرين أن يتنازعوا معهم، في شأن من شؤون الدين فقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ﴾ هذا[1] حكاية قول النبي ﷺ للمؤمنين؛ أي: ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين، فاختلفتم أنتم وهم فيه ﴿مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: في أمر من أمور الدين ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾؛ أي: حكم ذلك المختلف فيه مفوض ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين، ومعاقبة المبطلين، وهذا عام في كل ما اختلف فيه العباد من أمر الدين، فإن حكمه ومرجعه إلى الله، يحكم فيه يوم القيامة بحكمه، ويفصل خصومة المختصمين فيه، وعند ذلك يظهر المحق من المبطل، ويتميز فريق الجنة وفريق النار، وقال مقاتل: إن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن، وآمن به بعضهم فنزلت، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ويمكن[2] أن يكون معنى قوله: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ أنه مردود إلى كتابه، فإنه قد اشتمل على الحكم بين عباده فيما يختلفون فيه، فتكون الآية عامة في كل اختلاف يتعلق بأمر الدين، أنه يرد إلى كتاب الله تعالى، ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾. وقد حكم سبحانه وتعالى بأن الدين هو الإسلام، وأن القرآن حق، وأن المؤمنين في الجنة والكافرين في النار، ولكن لما كان الكفار لا يذعنون لكون ذلك حقاً إلا في الدار الآخرة، وعدهم الله بذلك يوم القيامة.

ثم أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحاكم بهذا الحكم العظيم الشأن، وهو مبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر ﴿رَبِّى﴾ ومالكي لقب لله سبحانه، ﴿عَلَيْهِ﴾ خاصة لا على غيره ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في كل أموري، التي من جملتها رد كيد أعداء الدين ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى أحد سواه ﴿أُنِيبُ﴾؛ أي: أرجع في كل ما يعنّ لي، من معضلات الأمور، التي منها كفاية شرهم والنصر عليهم.

---

(١) النسفي.
(٢) الشوكاني.

ولما كان التوكل أمراً واحداً مستمراً، والإنابة متعددة، متجددة بحسب تجدد موادها، أوثر في الأول صيغة الماضي، وفي الثاني صيغة المضارع، وفيه إشارة إلى أنه إذا اشتغلت قلوبكم بحديث نفوسكم لا تدرون، أبالسعادة جرى حكمكم، أم بالشقاوة مضى اسمكم، فَكِلوا الأمر فيه إلى الله، واشتغلوا في الوقت بأمر الله، دون التفكر فيما ليس لعقولكم سبيل إلى معرفته وعلمه من عواقبكم.

والمعنى: أي ذلكم الموصوف بهذه الصفات، من الإحياء والإماتة والحكم بين المختلفين، هو ربي وحده، لا آلهتكم التي تدعون من دونه، عليه توكلت في دفع كيد الأعداء. وفي جميع شؤوني، وإليه أرجع في كل المهمات، وإليه أتوب من الذنوب.

وفي هذا تعريض لهم، بأن ما هم عليه من اتخاذ غير الله ولياً لا يجديهم نفعاً، ولا يدفع عنهم ضراً، فالأجدر بهم أن يقلعوا عنه، إذ من شأن العاقل أن لا يفعل إلا ما يفيده في دينه أو دنياه.

ثم بين الأسباب، التي تحمله على أن يلتجىء إليه، وتجعله الحقيق بذلك فقال: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والفاطر: هو الخالق المبدع، وقرأ الجمهور: ﴿فاطرُ﴾ بالرفع، على أنه خبر آخر لذلكم، أو خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ وخبره ما بعده، أو نعت لربي؛ لأن الإضافة فيه محضة، ويكون ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ معترضاً بين الصفة والموصوف، وقرأ زيد بن علي ﴿فاطرِ﴾ بالجر على أنه نعت للاسم الشريف، في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، وما بينهما اعتراض أو بدل من الهاء، في عليه أو إليه، وأجاز الكسائي النصب على النداء، وأجازه غيره على المدح.

والمعنى: أي أنه الجدير بأن يعتمد عليه ويستعان به، لأنه خالق العوالم جميعها علويها وسفليها، على عظمتها التي ترونها، لا آلهتكم التي لا تستطيع أن تخلق شيئاً.

ثم بين بعض ما خلقه وأنعم به، فقال: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي:

خلق لكم من جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: نساء وحلائل، أو المراد: حواء لكونها خلقت من ضلع آدم. وقال مجاهد: نسلاً بعد نسل ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: خلق للأنعام من جنسها إناثاً، أو وخلق لكم من الأنعام أصنافاً من الذكور والإناث، وهي الثمانية التي ذكرها في سورة الأنعام ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ من الذرء، وهو البث، أو يخلقكم وينشئكم، والضمير في يذرؤكم للمخاطبين والأنعام، إلا أنه[1] غلب فيه العقلاء على غيرهم، حيث لم يقل يذرؤكم وإياهن، وغلب فيه المخاطبين على الغائبات، حيث لم يقل يذرؤها وإياكم؛ لأن الأنعام ذكرت بلفظ الغيبة، فإن ﴿كم﴾ مخصوص بالعقلاء، ففيه تغليبان ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في هذا الجعل والخلق أزواجاً المدلول عليه بالفعل؛ لأنه يكون بين ذكوره وإناثهم تناسل وتوالد، أو في هذا التدبير وهو جعل الناس والأنعام أزواجاً، ففيه بمعنى به، واختير فيه على لفظ به، لأنه جعل هذا التدبير كالمنبع، والمعدن للبث والتكثير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾؛ أي: كذاته سبحانه وتعالى ﴿شَيْءٌ﴾ من الموجودات، قيل[2]: إنّ كلمة التشبيه كررت لتأكيد نفي التمثيل والتقدير: ليس مثله شيء، فتكون الكاف زائدة، وقيل: المثل زائدة، والتقدير: ليس كهو شيء كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾؛ أي: بما آمنتم به، وذلك لأن المراد نفي المثلية، وإذا لم تجعل الكاف أو المثل زائدة، لزم إثبات المثل له تعالى؛ لأن المنفي مثل المثل. وقيل: المعنى ليس كذاته شيء؛ لأنهم يقولون: مثلك لا يبخل، يريدون به نفي البخل عن ذاته، ويقصدون المبالغة في نفي ذلك البخل؛ لأنهم إذا نفوه عمن يقوم مقامه، فقد نفوه عنه، فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين ليس كمثله شيء، وبين ليس كاللّه شيء، وقال أبو البقاء[3] مرجحاً لزيادة الكاف: إنها لو لم تكن زائدة لأفضى ذلك إلى إثبات المحال إذ يكون المعنى أن له تعالى مثلاً وليس لمثله مثل، وفي ذلك تناقض، لأنه إذا كان له مثل فلمثله مثل، وهو مع أن إثبات المثل لله سبحانه وتعالى محال انتهى. ولكنه يندفع ما

---

(١) روح البيان.

(٢) النسفي.

(٣) العكبري.

أورده بما ذكرنا، من كون الكلام خارجاً من مخرج الكناية.

وقال الإمام الراغب في «المفردات»: المثل عبارة عن المشابه لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان، وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة، وذلك أن الند يقال لما يشارك في الجوهر فقط، والشبه يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط، والمثل عام في جميع ذلك، ولهذا لما أراد الله سبحانه وتعالى نفي التشبيه، من كل وجه، خصه بالذكر فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ انتهى.

والشيء عبارة عن الموجود، وهو اسم لجميع المكونات، عرضاً كان أو جوهراً. وعند سيبويه الشيء ما يصح أن يعلم ويخبر عنه موجوداً أو معدوماً، ومن[1] فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها، وتدبرها حق تدبرها.. مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات، على طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمل، معنى قوله: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع المسموعات بلا أذن ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ لجميع المرئيات بلا حدقة، وكأنه ذكرهما لئلا يتوهم أنه لا صفة له، كما لا مثل له.

وحاصل معنى الآية: أي ومن حكمته تعالى لبقاء العمران في هذه الحياة، إلى الأجل الذي حدده في علمه، أن خلق لكم من جنسكم زوجات، لتتوالدوا ويكثر النسل، ويستمر بقاء هذا النوع، وجعل للأنعام مثل هذا، وبهذا تنتظم شؤون الحياة لهذا الخليفة، الذي جعله الله في الأرض وتقضى مآربه الدنيوية، من مأكول ومشروب، وتستمر تغذيته على أتم النظم وأكمل الوجوه، فيشكر ربه على ما أولى، ويعبده على ما أنعم، فيفوز بالسعادة في الحياة الآخرة، كما فاز في الدنيا.

وبعد أن ذكر بعض صنعه، الدال على عظمته، أرشد إلى بعض صفاته العظيمة، فقال:

١ - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ أي: ليس كخالق الأزواج شيء؛ لأنه الفرد

---

(١) الشوكاني.

الصمد، وقد يكون المعنى: ليس مثله شيء في شؤونه التي يدبرها، بمقتضى قدرته، الشاملة، وعلمه الواسع، وحكمته الكاملة، ومن ثم، جعل هذا التدبير المحكم لإحاطة علمه بكل شيء.

٢ ـ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي: وهو السميع لما ينطق به خلقه من قول البصير بأعمالهم لا يخفي عليه شيء مما كسبت أيديهم من خير وشر.

٣ ـ ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع خزائن السموات والأرض، من الأرزاق والرحمة.

قال الجواليقي في كتابه «المعرب»: المقليد: المفتاح، فارسي، معرب لغة في الأقليد، والجمع مقاليد، فالمقاليد: المفاتيح، وهي كناية عن الخزائن، وقدرته عليها، وحفظه لها، قال النحاس: والذي يملك المفاتيح، يملك الخزائن، انتهى. وفيه مزيد دلالة على الاختصاص؛ لأن الخزائن لا يدخلها، ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها؛ أي: له تعالى مفاتيح خزائن السمٰوات والأرض، فبيده مقاليد الخير والشر، فما يفتح من رحمة، فلا ممسك لها، وما يمسك منها، فلا مرسل له من بعده، وقد بين هذا بقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيق ويقتر على من يريد، بحسب السنن والنواميس، التي وضعها بين عباده في هذه الحياة.

ثم ذكر سبب هذا البسط والتقتير فقال: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: إنه تعالى عليم بكل ما يفعله من توسعة على من يوسع عليه، وتقتير على من يقتر عليه، ومن الذي يصلحه البسط في الرزق، ومن الذي يفسده، ومن الذي يصلحه التقتير، ومن الذي يفسده لا يخفى عليه شيء من ذلك، فيفعل كل ذلك على مقتضى حكمته الكاملة، وقدرته الواسعة وعلمه المحيط، فلا يوسع الرزق، إلا إذا علم سعته خير للعبد، وكذا التضييق.

ثم إن الرزق قسمان: رزق صوري: وهي المأكولات والمشروبات الحسية، ورزق معنوي: وهي العلوم الحقيقية والمعارف الإلٰهية، فالأول داخل في الآية

بطريق العبارة، والثاني بطريق الإشارة.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ شروع في تفصيل ما أجمله، أولاً بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ اهـ «خطيب». والخطاب في ﴿لَكُم﴾ لأمة محمد ﷺ؛ أي: بين وأوضح وسن لكم من التوحيد، ودين الإسلام، وأصول الشرائع والأحكام، سنةً وطريقاً واضحاً؛ أي: سن الله سبحانه لكم، يا أمة محمد ﷺ، ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ عليه السلام؛ أي[1]: أمر به نوحاً من التوحيد الذي لم يختلف فيه الرسل، وتوافقت عليه الكتب، أمراً مؤكداً، فإن التوصية معربة عن تأكيد الأمر، والاعتناء بشأن المأمور به؛ لأن الوصية التقديم إلى الغير بما يعمل به، مقترناً بوعظه، وقدم نوحاً لأنه أول أنبياء الشريعة، فإنه أول من أُوحي إليه الحلال والحرام، وأول من أوحي إليه تحريم الأمهات والأخوات والبنات وسائر ذوات المحارم، فبقيت تلك الحرمة إلى الآن ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﷺ؛ أي: وشرع لكم يا أمة محمد ﷺ الذي أوحينا إلى نبيكم ﷺ من القرآن، وشرائع الإسلام، والبراءة من الشرك، والتعبير عنه بالموصول، لتفخيم شأنه.

وتغيير التوصية إلى الإيحاء في جانب النبي ﷺ، للتصريح برسالته قطعاً لإنكار الكفرة، والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناء بإيحائه، وهو السر في تقديمه على ما بعده، مع تقدمه عليه زماناً، وتقديم توصية نوح، للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً، والتعبير بالأصل في الموصولات، وهو الذي في جانب نبينا محمد ﷺ للتعظيم، وتوجيه الخطاب إليه ﷺ بطريق التلوين للتشريف، والتنبيه على أنه تعالى، شرعه لهم على لسانه ﴿و﴾ شرع الله لكم أيضاً ﴿ما وصينا﴾؛ أي: أمرنا ﴿بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ ابن مريم ـ على نبينا، وعليهم الصلاة والسلام ـ أمراً أكيداً.

وحكمة تخصيص هؤلاء الخمسة بالذكر هنا، أنهم أكابر الأنبياء، ومشاهيرهم، من أولى العزم، وأصحاب الشرائع العظيمة، والأتباع الكثيرة.

---

(١) روح البيان.

وحاصل المعنى[1]: أي شرع لكم من الدين، ما شرع لنوح ومن بعده، من أرباب الشرائع، وأولي العزم من الرسل، وأمرهم به أمراً أكيداً، وتخصيص هؤلاء الأنبياء بالذكر، كما تقدم آنفاً، لعلو شأنهم، وعظيم شهرتهم، ولاستمالة قلوب الكفار إلى اتباعه، لاتفاق كلمة أكثرهم على نبوتهم، واختصاص اليهود بموسى عليه السلام، والنصارى بعيسى عليه السلام، وإلا فكل نبي مأمور بما أمروا به، من إقامة دين الإسلام، وهو التوحيد وأصول الشرائع والأحكام، مما لا يختلف باختلاف الأعصار، كالإيمان بالله واليوم الآخر، والملائكة واكتساب مكارم الأخلاق وفاضل الصفات.

وفي الآية: إيماء إلى أن ما شرعه لهم، صادر عن كامل العلم والحكمة، وأنه دين قويم أجمع عليه الرسل، وما أوحاه إليه، هو إما ما ذكر في صدر السورة، وفي قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ﴾ الآية، وإما ما يعمهما وغيرهما مما وقع في سائر المواضع، التي من جملتها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

ثم فصل ما شرعه بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ المراد[2] بإقامته تعديل أركانه، وحفظه من أن يقع فيه زيغ، أو المواظبة والتشمر له و﴿أَنْ﴾ تفسيرية بمعنى أي؛ أي: أقيموا الدين لأنه قد تقدمها ما في معنى القول. ويجوز أن تكون مصدرية في محل رفع خبر مبتدأ مقدر، تقديره: هو أن أقيموا إلخ، أو في محل نصب، بدلاً من الموصول، أو في محل جر، بدلاً من الدين، اهـ «سمين».

وعبارة «أبي السعود»: ومحل ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟﴾ إما النصب على أنه بدل من مفعول ﴿شَرَعَ﴾ والمعطوفين، أو الرفع على أنه جواب سؤال، نشأ من إبهام المشروع، كأنه قيل: وما ذاك، فقيل، هو إقامة الدين؛ أي: أقيموا دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان بكتبه ورسله وباليوم الآخر، وسائر ما يكون الرجل به مؤمناً، ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: في الدين، الذي هو عبارة عن

---

(١) المراغي.

(٢) أبو السعود.

الأصول، والخطاب فيه متوجه إلى أمته ﷺ، فهذه وصية لجميع العباد؛ أي[1]: لا تختلفوا في التوحيد والإيمان بالله، وطاعة رسله وقبول شرائعه، فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع، وتوافقت فيها الأديان، فلا ينبغي الخلاف في مثلها، وليس من هذا فروع المسائل التي تختلف فيها الأدلة، وتتعارض فيها الأمارات، وتتباين فيها الأفهام، فإنها من مطارح الاجتهاد، ومواطن الخلاف.

واعلم[2]: أن الأنبياء عليهم السلام مشتركون، ومتفقون في أصل الدين، وجميعهم أقاموا الدين، وقاموا بخدمته، وداموا بالدعوة إليه، ولم يختلفوا في ذلك، وباعتبار هذا الاتفاق، والاتحاد في الأصول، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ من غير تفرقة بين نبي ونبي، ومختلفون في الفروع والأحكام، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وهذا الاختلاف الناشيء من اختلاف الأمم، وتفاوت طبائعهم لا يقدح في ذلك الاتفاق، ثم أمر عباده بإقامة الدين والاجتماع عليه، ونهاهم عن التفرق فيه، فإن يد الله ونصرته مع الجماعة، وإنما يأكل الذئب الشاة البعيدة، النافرة، والمنفردة عن الجماعة.

أوصى حكيم أولاده عند موته، وكانوا جماعة، فقال: ائتوني بعصي، فجمعها، فقال لهم: اكسروها وهي مجموعة، فلم يقدروا على ذلك، ثم فرقها فقال: خذوا واحدة واحدة فاكسروها فكسروها، فقال لهم: هكذا أنتم بعدي لن تغلبوا ما اجتمعتم، فإذا تفرقتم تمكن منكم عدوكم فأهلككم، وكذا القائمون بالدين، إذا اجتمعوا على إقامته، ولم يتفرقوا فيه لم يقهرهم عدوهم، وكذا الإنسان في نفسه، إذا اجتمع في نفسه على إقامة الدين، لم يغلبه شيطان من الإنس والجن بما يوسوس به إليه، مع مساعدة الإيمان، والملك بإقامته له. وقال علي رضي الله عنه: لا تتفرقوا فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب، وكونوا عباد الله إخواناً.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

وكان[1] ﷺ قبل نبوته يعبد ربه، بشريعة إبراهيم عليه السلام، حتى جاءه الوحي، وجاءته الرسالة. ولم يكن على ما كان عليه قومه، باتفاق الأمة وإجماع الأئمة.

والخلاصة[2]: أننا شرعنا لكم، ما شرعنا للأنبياء قبلكم، ديناً واحداً في الأصول، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج والتقرب بصالح الأعمال، كالصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحرمنا عليكم الزنا، وإيذاء الخلق، والاعتداء على الحيوان، فكل هذا قد اتحد فيه الرسل، وإن اختلفوا في تفاصيله.

ثم ذكر سبحانه وتعالى، أن ما شرعه لعباده شق على المشركين، فقال: ﴿كَبُرَ﴾؛ أي: عظم وشق ﴿عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ يا محمد من التوحيد، ورفض عبادة الأصنام، واستبعدوه حيث قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ وقال قتادة: شهادة أن لا إله إلا الله وحده، ضاق بها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يظهرها على من ناوأها؛ أي: عاداها.

والمعنى: أي شق على المشركين دعوتهم إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام والأوثان، وتقريعهم على ذلك، لأنهم توارثوا ذلك كابراً عن كابر، ونقلوه عن الآباء والأجداد، كما حكى سبحانه عنهم بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

وبعد أن أرشد المؤمنين إلى التمسك بالدين، ذكر أنه إنما هداهم إلى ذلك لأنه اصطفاهم من بين خلقه فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى دينه الحق؛ أي: يختار لتوحيده والدخول في دينه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ اجتباءه من عباده، والاجتباء[3]: الجمع على طريق الاصطفاء، وهو هنا مأخوذ من الجباية، وهي جلب الخراج، وجمعه لمناسبة النهي عن التفرق في الدين، ولأن الاجتباء

---

(1) روح البيان.

(2) المراغي.

(3) روح البيان.

بمعنى الاصطفاء لا يتعدى بإلى إلا باعتبار تضمين معنى الضم والصرف.

والمعنى: الله سبحانه يجتلب إلى ما تدعوهم إليه من يشاء أن يجتلبه إليه، وهو من صرف اختياره إلى ما دعي إليه ﴿وَيَهْدِيَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى الدين بالإرشاد والتوفيق، وإمداد الألطاف ﴿مَن يُنِيبُ﴾ ويقبل إليه؛ أي: يوفق لدينه ويستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته، ويقبل إلى عبادته. ويجوز[1] أن يكون الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ لله في كلا الموضعين، فالمعنى: الله يجمع إلى جنابه على طريق الاصطفاء من يشاء من عباده، بحسب استعداده، ويهدي إليه بالعناية من ينيب، واجتباء الله تعالى العبد، تخصيصه إياه بفيض إلٰهي يتحصل منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء عليهم السلام، ولبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء.

فعليك أيها المؤمن الإتيان بجميع القرب بقدر الاستطاعة في كل زمان وحال، فإن المؤمن لن تخلص له معصية أبداً، من غير أن تخالطها طاعة، لأنه مؤمن بها أنها معصية، فإن أضاف إلى هذا الخليط استغفاراً وتوبة، فطاعة على طاعة، وقربة على قربة، فيقوى جزاء الطاعة التي خالطها العمل السيء، وهو الإيمان بأنها معصية، والإيمان من أقوى القرب وأعظمها عند الله تعالى، فإنه الأساس الذي ابتنى عليه جميع القرب، وفي الخبر الصحيح: «وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» وكان قربه تعالى من العبد، ضعف قرب العبد منه، وعلى كل حال، لا يخلو المؤمن من الطاعة والقرب، والعمل الصالح يمحو الخطايا، فإن العبد إذا رجع عن السيئة وأناب إلى الله وأصلح عمله، أصلح الله شأنه وأعاد عليه نعمه الفائتة.

وعن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: بلغني أن رجلاً من بني إسرائيل، ذبح عجلاً بين يدي أمه، فيبست يده، فبينما هو جالس إذ سقط فرخ من وكره،

(١) روح البيان.

وهو يتبصبص؛ أي: يضطرب ويحرك الذنب، فأخذه ورده إلى وكره، فرحمه الله تعالى لذلك، ورد عليه يده بما صنع، والوكر: بفتح الواو، عش الطائر.

والمعنى[1]: أي الله يصطفي من يشاء من عباده، ويقربهم إليه تقريب الكرامة، ويوفق للعمل بطاعته، واتباع ما بعث به نبيه ﷺ من الحق، من راجع التوبة من معاصيه.

ثم أجاب عن سؤال قد يخطر بالبال، لماذا صار الناس متفرقين في الدين، مع أنهم أمروا بالأخذ به، وعدم التفرق فيه، فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾؛ أي[2]: وما تفرقت اليهود والنصارى في الدين الذي دعوا إليه، ولم يؤمنوا كما آمن بعضهم في حال من الأحوال، أو في وقت من الأوقات ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقيقته؛ أي: إلا حال مجيء العلم. أو إلا وقت مجيء العلم بحقية ما شاهدوا في رسول الله ﷺ، والقرآن من دلائل الحقية، حسبما وجدوه في كتابهم، أو العلم بمبعثه ﴿بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۚ﴾؛ أي: ما تفرقوا إلا لأجل البغي والعدوان، على محمد ﷺ والحسد له، فيما بينهم لابتغاء طلب الدنيا، وطلب ملكها وسياستها وجاهها وشهرتها، وللحمية الجاهلية؛ لأن لهم في ذلك شبهة، كما يدل عليه قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ وقيل: المراد بهم: كفار قريش، تفرقوا بعد ما جاءهم العلم، وهو محمد ﷺ بغياً منهم عليه، وحسداً له فيما بينهم، وكانوا يقولون فيما حكاه الله عنهم، بقوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ الآية، وقيل: المراد بهم: كفار الأمم الماضية، وأنهم فيما ﴿بَيْنَهُمْ﴾ اختلفوا لما طال بهم المدى، فآمن قوم وكفر قوم.

والمعنى[3]: أي وما تفرقت الأمم إلا من بعد ما علموا، أن الفرقة ضلالة، وقد فعلوا ذلك بغياً وطلباً للرياسة، وللحمية حمية الجاهلية، التي جعلت كل طائفة تذهب مذهباً وتدعو إليه، وتقبح ما سواه طلباً للأحدوثة بين الناس،

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

والسيطرة عليهم.

والخلاصة: أن الأمم قديمها وحديثها، أمروا باتفاق الكلمة، وإقامة الدين، وبلغهم أنبياؤهم ذلك، وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بذلك، بغياً وحسداً وعناداً وحباً للرياسة، فدعت كل طائفة إلى مذهب، وأنكرت ما عداه.

ثم ذكر أن هؤلاء كانوا يستحقون العذاب المعجل على سوء أفعالهم، ولكن حكمته تعالى اقتضت تأخيره عنهم إلى وقت معلوم، فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ ووجبت ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَة بتأخير العقوبة عن هذه الأمة، وتلك الكلمة، كقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى وقت معين، معلوم عند الله تعالى، وهو يوم القيامة، أو آخر أعمارهم المقدرة ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ لأوقع القضاء بينهم، باستئصالهم لاستيجاب جنايتهم لذلك قطعاً، وقيل: لقضي بين من آمن منهم، ومن كفر، بنزول العذاب بالكافرين، ونجاة المؤمنين.

والمعنى: أي ولولا الكلمة السابقة من ربك، بإنظار حسابهم، وتأخيره إلى يوم المعاد، لعجل لهم العقوبة في الدنيا سريعاً، بما دسَّوا به أنفسهم، من كبير الآثام وقبيح المعاصي.

ثم ذكر أن تفرقهم في الدين باق في أعقابهم، مضافاً إليه الشك في كتابهم، مع انتسابهم إليه فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟﴾ وأعطوا ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ أي: التوراة والإنجيل، من اليهود والنصارى المعاصرين لمحمد ﷺ: ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد[1] من قبلهم: من سلف اليهود والنصارى ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾؛ أي: من القرآن، أو من محمد ﷺ ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: مقلق مدخل في الريبة؛ أي: موقع في الريب، ولذلك لم يؤمنوا. وقال مجاهد: معنى من بعدهم: من قبلهم، يعني: من قبل مشركي مكة، وهم اليهود والنصارى، والمعنى عليه؛ أي: وإن المشركين الذين أورثوا الكتاب؛ أي: القرآن من بعد ما أوتي أهل الكتاب كتابهم، لفي

(١) الشوكاني.

شك منه؛ أي: من القرآن، والإيراث في الأصل: تملك قهري، يثبت لقريب الميت بموته، والشك[1]: اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: موقع ذلك الشك في القلق، أي: الاضطراب، ولذلك لا يؤمنون لمحض البغي، والمكابرة، بعد ما علموا بحقيته، كدأب أهل الكتابين. والريب: قلق النفس واضطرابها، ويسمى الشك بالريب؛ لأنه يقلق النفس، ويزيل طمأنينتها، كما سيأتي في مبحث اللغة، قرأ الجمهور: ﴿أُورِثُوا﴾، وقرأ زيد بن علي: ﴿ورّثوا﴾ مشدد الراء، مبنياً للمفعول، وقرىء ﴿ورثوا﴾ بتخفيف الراء، مبنياً للفاعل.

والمعنى[2]: أي وإن أهل الكتاب الذين كانوا في عهده ﷺ وورثوا التوراة، والإنجيل عن السابقين لهم، لفي شك من كتابهم، إذ لم يؤمنوا به حق الإيمان، فهم مقلدون أسلافهم بلا حجة ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، وشك أقض مضاجعهم، وأوقعهم في اضطراب وقلق.

وقصارى ذلك: أنهم تفرقوا بعد العلم الذي حصل من النبي المبعوث إليهم المصدق لكتابهم، لأنهم شكوا في كتابهم فلم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه من أمر ونهي.

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾؛ أي: فلأجل ما ذكر من التفرق والشك المريب، أو فلأجل أنه شرع لهم الدين القويم، القديم الحقيق، بأن يتنافس فيه المتنافسون ﴿فَٱدْعُ﴾ يا محمد الناس كافة إلى إقامة ذلك الدين، والعمل بموجبه، فإن كلا من تفرقهم وكونهم في شك مريب، ومن شرع ذلك الدين لهم على لسان رسوله ﷺ، سبب للدعوة إليه، والأمر بها، وليس المشار إليه ما ذكر من التوصية، والأمر بالاتفاق، والنهي عن التفرق حتى يتوهم شائبة التكرار؛ أي: فلأجل ذلك التفرق، ولما حدث بسببه من تشعب الكفر في الأمم السالفة شعباً، ادع إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية ملة إبراهيم ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ عليه وعلى الدعوة

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

إليه ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ وأوحي إليك من عند الله تعالى، والمراد: الثبات والدوام عليهما؛ لأنه كان مستقيماً في هذا المعنى؛ أي: واثبت أنت ومن اتبعك على عبادة الله كما أمركم ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾؛ أي: ولا تتبع أيها الرسول أهواءهم المختلفة الباطلة، والضمير للمشركين، وكانوا يهوون أن يعظم عليه السلام آلهتهم وغير ذلك، أو للذين شكوا في الحق الذي شرعه الله لكم، من الذين أورثوا الكتاب من قبلكم، فتشكوا فيه كما شكوا؛ أي[1]: فلأجل ما حدث من الاختلافات الكثيرة في الدين، فادع الناس كافة إلى الاتفاق على الملة الإسلامية، واستقم عليها وعلى الدعوة إليها، كما أمرك الله تعالى، ولا تتبع أهواءهم المختلفة.

﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ أي كتاب كان من الكتب المنزلة، لا كالذين آمنوا ببعض منها وكفروا ببعض، وذلك لأن كلمة ﴿ما﴾ من ألفاظ العموم؛ أي: وقل لهم يا محمد: صدقت بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء، من التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، لا أكذب بشيء منها، وفي هذا[2] تعريض بأهل الكتاب، إذ صدقوا ببعض وكفروا ببعض، وتأليف لقلوبهم إذ آمن بما آمنوا به.

والمعنى: وقل لهم يا محمد: آمنت بما أنزل الله على الأنبياء، من كتاب صح أن الله أنزله، وهو الإيمان بجميع الكتب المنزلة؛ لأنّ المتفرقين آمنوا ببعض منها، وكفروا ببعض ﴿وَأُمِرۡتُ﴾ بذلك الذي أمرت به ﴿لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾؛ أي: لكي أعدل وأسوي بينكم؛ أي: بين شريفكم ووضيعكم في تبليغ الشرائع، وفي الحكم، وفصل القضايا بينكم، عند المحاكمة والمرافعة إليّ، فاللام لام كي، والمأمور به محذوف، كما قدرناه. وقيل: اللام بمعنى الباء؛ أي: وأمرت بأن أعدل بينكم في الحكم، إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليّ، وأسوي بين أكابركم وأصاغركم، فيما يتعلق بحكم الله تعالى، فلا أخصّ البعض بأمر أو نهي، وقيل: اللام زائدة.

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

والمعنى: أمرت أن أعدل بينكم، والأول أولى. والظاهر[1]: أن الآية عامة في كل شيء، المعنى: أمرت لأعدل بينكم في كل شيء ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿رَبُّنَا﴾؛ أي: معبودنا وخالقنا ومتولي أمورنا ﴿وَرَبُّكُمْ﴾؛ أي: ومعبودكم وخالقكم ومتولي أموركم أيضاً، لا الأصنام والهوى، فنحن نقر بذلك اختياراً، وأنتم وإن لم تفعلوه، فله يسجد من في السموات والأرض، طوعاً وكرهاً ﴿لَنَآ﴾ لا لكم ﴿أَعْمَٰلُنَا﴾ لا يتخطانا جزاؤها، ثواباً كان أو عقاباً ﴿وَلَكُمْ﴾ لا لنا ﴿أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لا يجاوزكم آثارها لا ننتفع بحسناتكم، ولا تضرنا سيئاتكم، ونحو الآية قوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾؛ أي: لا حجاج ولا خصومة بيننا وبينكم، لأن الحق قد ظهر ووضح وليس للمحاجة مجال فما المخالف إلا معاند أو مكابر، وسيأتي الوقت الذي يستبين فيه الحق، ويتضح فيه سبيل الرشاد، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم يوم القيامة في المحشر، فيقضي بيننا بالحق فيما اختلفنا فيه، ومثل الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى، لا إلى غيره ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع والمعاد بعد مماتنا يوم الحساب، فيجازي كل نفس بما كسبت ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾، قيل: الخطاب لليهود، وقيل: للكفار على العموم.

وهذه الأوامر والنواهي[2]، وإن وجهت في الظاهر إلى الرسول ﷺ، فهي له ولأمته، كما هي القاعدة من أن أمر النبي ﷺ أمر لأمته، إلا إذا ورد دليل على التخصيص، قيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف، وقيل[3]: ليس في الآية إلا ما يدل على المتاركة في المقاولة، لا مطلقاً، حتى لا تكون منسوخة بآية القتال، يعني: هذه الآية إنما تدل على المتاركة القولية، لحصول الاستغناء عن المحاجة القولية معهم؛ لأنهم قد عرفوا صدقه من الحجج، وإنما كفروا عناداً، وبعد ما ظهر الحق وصاروا محجوجين كيف يحتاج إلى المحاجة القولية، فلا يبقى بعد

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

هذا إلا السيف، أو الإسلام، فقد قوتلوا بعد ذلك.

فعلى العبد قبول الحق بعد ظهوره، والمشي خلف النصح بعد إضاءة نوره، فإن المصير إلى الله تعالى، والدنيا دار عبور، وإن الحضور في الآخرة، والدنيا دار التفرق والفتور، فلا بد من التهيُّؤ للموت، قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى لرجل في الطواف: اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين، حتى تجوز ست عقبات:

أولاها: تغلق باب النعمة، وتفتح باب الشدة.

والثانية: تغلق باب العز، وتفتح باب الذل.

والثالثة: تغلق باب الراحة، وتفتح باب الجهد.

والرابعة: تغلق باب النوم، وتفتح باب السهر.

والخامسة: تغلق باب الغنى، وتفتح باب الفقر.

والسادسة: تغلق باب الأمل، وتفتح باب الاستعداد للموت، وأنشدوا:

إنَّ لِلَّهِ عِبَاداً فُطَنَا ... طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتَنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا ... أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا ... صَالِحَ الأعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ﴾ ويخاصمون ويجادلون ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ وينازعون نبيه ﷺ، في دين الله تعالى ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾؛ أي: من بعد ما استجاب الناس له، ودخلوا فيه لظهور حجته، ووضوح محجته، والتعبير[1] عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه والضمير في ﴿لَهُۥ﴾ راجع إلى الله، وقيل: راجع إلى محمد ﷺ، والأول أولى كما عرفت.

وفيه إشارة إلى أنهم استجابوا له تعالى يوم الميثاق بقولهم: بلى حين قال

---

(١) روح البيان.

لهم المولى: ألست بربكم، ثم لما نزلوا من عالم الأرواح إلى عالم الأشباح، نسوا الإقرار والعهد، فأخذوا في المحاجة والإنكار، بخلاف المؤمنين، فإنهم ثبتوا على التصديق والإقرار، قال مجاهد: وهؤلاء قوم توهموا أن الجاهلية تعود، وقال قتادة: هم اليهود والنصارى ومحاجتهم قولهم: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة، بأنهم أهل كتاب، وأنهم أولاد الأنبياء، وكان المشركون يقولون: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ فنزلت هذه الآية.

والموصول مبتدأ أول ﴿حُجَّتُهُمْ﴾ مبتدأ ثان ﴿دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأول؛ أي: زائلة باطلة بل لا حجة لهم أصلاً، وإنما عبّر عن أباطيلهم بالحجة، مجاراة على زعمهم الباطل ﴿وَعَلَيْهِمْ﴾؛ أي: وعلى أولئك المحاجين ﴿غَضَبٌ﴾ عظيم من الله تعالى، لمكابرتهم الحق بعد ظهوره، ومجادلتهم بالباطل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة على كفرهم الشديد، وضلالهم البعيد، لا يعرف كنهه، وهو عذاب النار.

والمعنى[1]: أي والذين يجادلون المؤمنين، المستجيبين لله ورسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى، حجتهم زائفة لا تقبل عند ربهم وعليهم غضب منه، لأنهم ماروا في الحق بعد ما تبين، ولهم عذاب شديد يوم القيامة، لتركهم الحق، بعد أن وضحت محجته عناداً واستكباراً ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي يستحق منكم العبادة، أيها الناس هو ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: جنس الكتاب حال كونه متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في أحكامه وأخباره، بعيداً من الباطل، أو بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾؛ أي: وأنزل الشرع الذي[2] يوزن به الحقوق، ويسوىٰ به بين الناس على أن يكون لفظ الميزان، مستعاراً للشرع، تشبيهاً له بالميزان العرفي، من حيث إنه يوزن به الحقوق الواجبة الأداء، سواء كان من حقوق الله، أو من حقوق العباد، أو نفس العدل والتسوية، بأن أنزل الأمر به في الكتب الإلٰهية، فيكون تسمية العدل بالميزان، تسمية المسمى باسم آلته، فإن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الميزان آلة العدل، أو أنزل آلة الوزن، والوزن معرفة قدر الشيء، فيكون المراد بالميزان معناه الأصلي وإنزاله إما حقيقة لما رُويَ أن جبرائيل عليه السلام نزل بالميزان، فدفعه إلى نوح عليه السلام، فقال له: مر قومك يزنوا به، وقيل: نزل آدم عليه السلام، بجميع آلات الصنائع، وإما مجاز عن إنزال الأمر به، واستعماله في الإيفاء والاستيفاء.

والمعنى[1]: الله أنزل كتبه على أنبيائه حاوية للحق، الذي لا شبهة فيه، بعيدة من الباطل، الذي لا خير فيه، وأنزل العدل ليقضي بين الناس بالإنصاف، ويحكم بينهم بحكمه، الذي أمر به في كتابه، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

ثم رغب سبحانه وتعالى في الآخرة، وزهد في الدنيا، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ ويعلمك يا محمد، بحال القيامة من[2] الإدراك بمعنى الإعلام؛ أي شيء يجعلك دارياً؛ أي: عالماً بحال الساعة، التي هي من العظم والشدة والخفاء، بحيث لا تبلغها دراية أحد، وإنما يُدرىٰ ذلك بوحي منا. قال الراغب: كل موضع ذكر في القرآن، وما أدراك فقد عقب ببيانه نحو: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)﴾، وكل موضع ذكر فيه وما يدريك لم يعقبه بذلك، نحو: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ﴾ التي يخبر بمجيئها الكتاب الناطق بالحق ﴿قَرِيبٌ﴾؛ أي: شيء قريب، أو قريب مجيئها، وإلا فالفعيل بمعنى الفاعل، لا يستوي فيه المذكر والمؤنث عند سيبويه، فكان الظاهر أن يقال: قريبة، لكونه مسنداً إلى ضمير الساعة، إلا أنه قد ذكر لكونه صفة جارية على غير من هي له، وقيل: القريب بمعنى ذات قرب، على معنى النسب، وإن كان على صورة اسم الفاعل، كلابنٍ وتامرَ بمعنى ذي لبن، وذي تمر؛ أي: لبني وتمريّ لا على معنى الحدث كالفعل، فلما لم يكن في معنى الفعل حقيقة لم يلحقه تاء التأنيث، أو الساعة بمعنى البعث، تسمية باسم ما حل فيه، وقال الزمخشري: لعل مجيء الساعة، قريب بتقدير المضاف.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والمعنى: أن القيامة على جناح الإتيان، فاتبع الكتاب يا محمد، واعمل به، وواظب على العدل، قبل أن يفاجئك اليوم، الذي يوزن فيه الأعمال، ويُوفَّىٰ جزاؤها، وفيه زجرهم عن طول الأمل، وتنبيههم على انتظار الأجل وهجومه، نبهنا الله تعالى وإياكم أجمعين آمين.

والمراد بذلك[1]: حث المؤمنين على اتباع نهج الشرع وترك مخالفته. روي أن النبي ﷺ ذكر الساعة، وعنده قوم من المشركين، فقالوا: متى الساعة: استهزاء بها، وتكذيباً لمجيئها، فأنزل الله الآية. ويدل على ذلك قوله ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾؛ أي: بمجيئها ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استعجال إنكار، واستهزاء، وتكذيب بمجيئها، ولا يشفقون منها، ويقولون متى هي، ليتها قامت حتى يظهر لنا الحق، أهو الذي نحن عليه، فنفوز بالنجاة، أم الذي عليه محمد ﷺ وأصحابه. فنكون من الخاسرين، فإنهم لما لم يؤمنوا بها، لم يخافوا ما فيها، فهم يطلبون وقوعها استبعاداً لقيامها، والعجلة[2]: طلب الشيء وتحريه قبل أوانه.

وبعد أن بين حال المشركين في شأنها، ذكر حال المؤمنين بها، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وصدقوا بمجيئها ﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾؛ أي: خائفون منها، وجلون من مجيئها؛ لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم، وهم موقنون أنهم محاسبون، ومجزيون على أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ علم اليقين ﴿أَنَّهَا﴾؛ أي: أن مجيئها ﴿الْحَقُّ﴾ لا ريب فيه، فهم يستعدون له ويعملون من أجله، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

رُوي أن رجلاً، سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري، وهو في بعض أسفاره، فقال: يا محمد، فقال رسول الله ﷺ، بنحو من صوته: «هاؤم» فقال له: متى الساعة؟ فقال له: «إنها كائنة، فما أعددت لها»؟ فقال: حب الله، ورسوله، فقال ﷺ: «أنت مع من أحببت».

ثم بين ضلال الممارين فيها فقال: ﴿أَلَآ﴾ انتبهوا واعلموا ﴿إِنَّ الَّذِينَ

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

يُمَارُونَ﴾ ويجادلون ﴿فِي ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: القيامة، وينكرون مجيئها، عناداً، ويخاصمون فيها مخاصمة شك وريبة، من[1] المماراة، وهي المخاصمة والمجادلة، أو من المرية، وهي الشك والريبة، فمعناه في الأصل: تداخلهم المرية والشك فيها، فيؤدي ذلك إلى المجادلة، ففسر المماراة بلازمها ﴿لَفِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، لأنهم لم يتفكرون في الموجبات للإيمان بها، من الدلائل التي هي مشاهدة لهم، منصوبة لأعينهم، مفهومة لعقولهم، ولو تفكروا لعلموا أن الذي خلقهم ابتداء، قادر على الإعادة، فإن البعث أشبه الغائبات بالمحسوسات؛ لأنه كإحياء الأرض بعد موتها، فمن لم يهتد إلى تجويزه، فهو من الاهتداء إلى ما وراءه أبعد وأبعد.

ووصف[2] الضلال بالبعد، من المجاز العقلي؛ لأن البعد في الحقيقة للضال، لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله، ويحتمل أن يكون المعنى: في ضلال ذي بعد، أو فيه بعد، لأن الضال قد يضل عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً.

والمعنى[3]: أي ألا إن الذين يجادلون في وجودها، ويدفعون وقوعها، لفي جور عن طريق الهدى، وزيغ عن سبيل الرشاد، وبعد من الصواب؛ لأن الذي خلق السمٰوات والأرض، قادر على إحياء الموتى، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

وفي الآية أمور[4]:

الأول: ذم الاستعجال، ولذا قيل: العجلة من الشيطان، إلا في ستة مواضع: أداء الصلاة إذا دخل الوقت، ودفن الميت إذا حضر، وتزويج البكر إذا أدركت. وقضاء الدين إذا وجب، وإطعام الضيف إذا نزل، وتعجيل التوبة إذا أذنب.

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

والثاني: الإيمان والتصديق، فإنه الأصل، وذلك بجميع ما يكون به المرء مؤمناً، خصوصاً الساعة، وكذا الاستعداد لها بالأعمال الصالحة.

والثالث: مدح العلم، لكن إذا قرن بالخوف والخشية والعمل الصالح، كان أمدح، فإن العلم ليس جالباً للسؤدد إلا من حيث طرده الجهل فلا تعجب بعلمك، فإن فرعون علم بنبوة موسى وإبليس علم بحال آدم، واليهود علموا بنبوة محمد ﷺ، وحرموا التوفيق للإيمان.

والرابع: ذم الشك والتردد، فلا بد من اليقين الصريح، بل من العيان الصحيح.

والخامس: أن الشقاوة والسعادة أزليتان، وإنما يشقى السعيد لكون سعادته عارضة، وإنما يسعد الشقي لكون شقاوته عارضة، فكل يرجع إلى أصله، فنسأل الله سبحانه الهدى، نعوذ به تعالى من الهوى.

الإعراب

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤﴾.

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه سورة حم عسق، إن قلنا إنه اسم للسورة، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الأخير، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية، والجملة مستأنفة، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف ﴿يُوحِيٓ﴾ فعل مضارع مرفوع ﴿إِلَيۡكَ﴾: متعلق بـ﴿يُوحِيٓ﴾، ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ﴾: معطوف على إليك، ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾: صلة الذين، ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ نعتان للجلالة، والجملة الفعلية مستأنفة، والتقدير: يوحي الله العزيز الحكيم إليك، وإلى الذين من قبلك من الرسل: إيحاء مثل إيحاء هذه السورة، وقرىء ﴿يُوحىٰ﴾ بالبناء للمجهول، فنائب الفاعل هو الجار والمجرور، ولفظ الجلالة فاعل لفعل محذوف دل عليه ﴿يُوحَىٰ﴾، كأنّ سائلاً سأل، فقال: من الموحي، فأجاب يوحي الله العزيز الحكيم، والجملة المحذوفة، مستأنفة استئنافاً

بيانياً ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم، ﴿مَا﴾ مبتدأ مؤخر ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل الإيحاء ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ما في السمٰوات، ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾: خبران له، والجملة مستأنفة.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿تَكَادُ﴾: فعل مضارع من أفعال المقاربة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾: اسمها ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ فعل وفاعل، ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿تَكَادُ﴾ وجملة ﴿تَكَادُ﴾ مستأنفة، ومعنى ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ الابتداء؛ أي: يبتدىء انفطارهن من جهتهن الفوقانية، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مبتدأ. وجملة ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: خبره، ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: حال من فاعل ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، ﴿لِمَن﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يستغفرون﴾، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ صلة ﴿لِمَن﴾ الموصولة ﴿أَلَآ﴾ حرف استفتاح وتنبيه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: خبران؛ لـ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾: فعل وفاعل من أخوات ظنّ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول أول لـ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ثان، ﴿حَفِيظٌ﴾ خبره ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿حَفِيظٌ﴾، وجملة المبتدأ الثاني خبر الأول، وجملة الأول مستأنفة ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: نافية حجازية ﴿أَنتَ﴾: اسمها، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿وكيل﴾: و﴿بِوَكِيلٍ﴾ خبرها، والباء زائدة، وجملة ﴿ما﴾ الحجازية معطوفة على جملة قوله: الله حفيظ عليهم، على كونها خبراً لقوله: والذين اتخذوا من دونه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿كذلك﴾: صفة لمصدر محذوف تقديره:

إيحاء مثل إيحاء هذه السورة، أوحينا إليك قرآناً عربياً، ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَيۡكَ﴾: متعلق له، والجملة مستأنفة ﴿قُرۡءَانًا﴾: مفعول ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾، ﴿عَرَبِيًّا﴾ صفة ﴿قُرۡءَانًا﴾، ﴿لِّتُنذِرَ﴾ اللام: حرف جر وتعليل ﴿تنذر﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً، بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ ﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ مفعول به، ﴿وَمَنۡ﴾ معطوف على أم القرى، ﴿حَوۡلَهَا﴾: ظرف مكان، متعلق بمحذوف صلة لـ﴿من﴾ الموصولة، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإنذارك أم القرى ومن حولها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾، ﴿وَتُنذِرَ﴾ معطوف على ﴿لِّتُنذِرَ﴾. ﴿يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ مفعول به ثان لـ﴿تنذر﴾، والمفعول الأول محذوف؛ أي: وتنذر الناس يوم الجمع، أي: عذابه، فحذف المفعول الأول من الإنذار الثاني، كما حذف المفعول الثاني من الإنذار الأول. تقديره: لتنذر أم القرى عذاب الله، إن لم يؤمنوا، ﴿لَا﴾ نافية للجنس ﴿رَيۡبَ﴾: اسمها، و﴿فِيهِۚ﴾: خبرها، والجملة في محل النصب حال من ﴿يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ واختار الزمخشري أن تكون معترضة ﴿فَرِيقٞ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التفصيل ﴿فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، ﴿وَفَرِيقٞ﴾: مبتدأ، ﴿فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ خبره، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩﴾.

﴿وَلَوۡ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، لا محل لها من الإعراب ﴿لَجَعَلَهُمۡ﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية ﴿جعلهم أمة﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعولان ﴿وَٰحِدَةٗ﴾: صفة أمة، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿يُدۡخِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول به، ﴿فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾: متعلق بـ﴿يُدۡخِلُ﴾ والجملة الاستدراكية

معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاء إدخاله في رحمته ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿الظالمون﴾ مبتدأ ﴿مَا﴾ نافية، ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم ﴿مِن﴾ زائدة ﴿وَلِيٍّ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾: معطوف عليه وجملة النفي خبر الظالمون، وجملة الظالمون معطوفة على جملة الاستدراك، ﴿أَمِ﴾ منقطعة تقدر ببل الإضرابية، وبهمزة الاستفهام الإنكاري ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: في محل المفعول الثاني و﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مفعول ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ الأول، والجملة الفعلية مستأنفة. منقطعة عما قبلها ﴿فَٱللَّهُ﴾: الفاء: عاطفة ما بعدها على ما قبلها، أو الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت إنكار ولي سواه تعالى، وأردت بيان ما هو الولي حقاً، فأقول لك ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْوَلِيُّ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية، أو مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: خبره، والجملة معطوفة على ما قبلها ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله ﴿ٱخْتَلَفْتُمْ﴾ فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿ٱخْتَلَفْتُمْ﴾، ﴿مِن شَىْءٍ﴾: حال من ﴿ما﴾ الشرطية، أو من الضمير في فيه ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية وجوباً ﴿حكمه﴾: مبتدأ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: خبره؛ أي: راجع إلى الله، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾: خبره ﴿رَبِّى﴾ خبر ثان ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿تَوَكَّلْتُ﴾، وجملة ﴿تَوَكَّلْتُ﴾: في محل الرفع خبر ثالث ﴿وَإِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿أُنِيبُ﴾،

وجملة ﴿أُنِيبُ﴾: خبر رابع.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾: بالرفع خبر خامس لـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، وقرىء بالجر، قال أبو البقاء: هو بدل من الهاء في ﴿عَلَيْهِ﴾ وقال الزمخشري: نعت لقوله: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، فتكون جملة ﴿لَكُم﴾: معترضة بين الموصوف وصفته، ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿لَكُم﴾: متعلق به على أنه مفعول ثان له، إن كان بمعنى التصيير، ومتعلق به إن كان بمعنى الخلق ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ حال من أزواجاً، لأنه كان صفة لأزواجاً، و﴿أَزْوَٰجًا﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾ إن كان بمعنى التصيير، ومفعول به إن كان بمعنى الخلق، والجملة الفعلية خبر سادس لـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾. ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: حال من أزواجاً المذكور بعده، و﴿أَزْوَٰجًا﴾ معطوف على أزواجاً الأول، ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ﴿فِيهِۚ﴾: متعلق بـ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل جعل، أو في محل الرفع خبر سابع ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾: فعل ماض ناقص، والكاف زائدة، ﴿مثله﴾ خبر ليس مقدم على اسمها، ﴿شَىْءٌۖ﴾: اسمها مؤخر، والجملة مستأنفة، أو حال من فاعل جعل، أو خبر ثامن، ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ خبران له، والجملة مستأنفة، أو حال، ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم، ﴿مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿وَٱلْأَرْضِۖ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة خبر تاسع، ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة خبر عاشر ﴿لِمَن﴾: متعلق بـ﴿يَبْسُطُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة ﴿وَيَقْدِرُۚ﴾: معطوف على ﴿يَبْسُطُ﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾، و﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ

إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿شَرَعَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿لَكُم﴾ متعلق به، ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾: حال من المفعول الآتي، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول شرع، وجملة شرع مستأنفة، مسوقة لتفصيل ما أجمله أولاً، ولك أن تجعله الخبر الحادي عشر، ﴿وَصَّىٰ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿وَصَّىٰ﴾، ﴿نُوحًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿وَصَّىٰ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾: معطوف على ﴿مَا﴾ وجملة ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ صلة له، والعائد محذوف تقديره: والذي أوحيناه، ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿أَوْحَيْنَآ﴾، ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿مَا﴾ الأولى أيضاً، ﴿وَصَّيْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ مفعول به، ﴿وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾: معطوفان على إبراهيم، والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿أَنْ﴾ تفسيرية بمعنى أي، لأنها سبقت بما فيه معنى القول دون حروفه، وهو ﴿وصَّى﴾، ويجوز أن تكون مصدرية مؤولة، مع ما بعدها بمصدر، في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو أن أقيموا أو في محل نصب بدلاً من الموصول، وهو ما، و﴿أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية ﴿تَتَفَرَّقُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، و﴿فِيهِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على ﴿أَقِيمُوا۟﴾، ﴿كَبُرَ﴾: فعل ماض، ﴿عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، وجملة ﴿تَدْعُوهُمْ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تَدْعُوهُمْ﴾، و﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَجْتَبِىٓ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿يَجْتَبِىٓ﴾، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة له، ﴿وَيَهْدِىٓ﴾: معطوف على ﴿يَجْتَبِىٓ﴾، ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿يهدي﴾، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يُنِيبُ﴾: صلته.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿ما﴾ نافية، ﴿تَفَرَّقُوٓا۟﴾ فعل وفاعل والجملة

مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ متعلق بـ﴿تَفَرَّقُوٓاْ﴾، ﴿مَا﴾ مصدرية، ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ فعل ومفعول به وفاعل، والجملة الفعلية مع ﴿مَا﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، والتقدير: من بعد مجيء العلم إياهم. والاستثناء من أعم الأحوال؛ أي: ما تفرقوا في حال من الأحوال إلا في حال مجيء العلم إياهم، ﴿بَغۡيَۢا﴾ مفعول لأجله أو منصوب على الحال بتأويله بمشتق؛ أي: باغين، ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ متعلق بـ﴿بَغۡيَۢا﴾؛ أي: لم يكن تفرقهم لقصور في البيان والحجج ولكن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾.

﴿وَلَوۡلَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود ﴿كَلِمَةٞ﴾ مبتدأ، محذوف الخبر وجوباً، وجملة ﴿سَبَقَتۡ﴾ صفة للكلمة، ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ متعلق بـ﴿سَبَقَتۡ﴾، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾ متعلق بـ﴿سَبَقَتۡ﴾ أيضاً، ﴿مُّسَمّٗى﴾ صفة لـ﴿أَجَلٖ﴾، ﴿لَّقُضِيَ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لولا﴾، ﴿قضي﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾: ظرف اعتباري في محل الرفع، نائب فاعل، والجملة الفعلية جواب ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة، ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿أُورِثُواْ﴾: فعل ماض ونائب فاعل، ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ متعلق بـ﴿أُورِثُواْ﴾، ﴿لَفِي﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿في شك﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿مِّنۡهُ﴾: صفة أولى لـ﴿شَكّٖ﴾، ﴿مُرِيبٖ﴾: صفة ثانية له، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿لولا﴾. ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما شرعنا لكم، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: لذلك فادع ﴿لذلك﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ادع﴾، واللام: فيه بمعنى إلى ﴿فَٱدۡعُۖ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والفاء: الثانية تأكيد للأولى، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا

المقدرة ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾: معطوف على ادع، ﴿كَمَآ﴾: الكاف نعت لمصدر محذوف، و﴿ما﴾: موصولة. ﴿أُمِرْتَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: واستقم استقامة، كالاستقامة التي أمرت بها، من قبل، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تَتَّبِعْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بلا ناهية، ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿استقم﴾.

﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿وَقُلْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿قل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على قوله ﴿فَٱدْعُ﴾، ﴿ءَامَنتُ﴾: فعل وفاعل ﴿بِمَآ﴾: متعلق بـ﴿ءَامَنتُ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾، وجملة ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: أنزله الله، ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾: حال من العائد المحذوف ﴿وَأُمِرْتُ﴾: فعل ماض ونائب فاعل معطوف على ﴿ءَامَنتُ﴾، ﴿لِأَعْدِلَ﴾ اللام: لام الصيرورة ﴿أعدل﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الصيرورة، وفاعله ضمير مستتر تقديره: أنا ﴿بَيْنَكُمُ﴾: متعلق به، والتقدير: وأمرت للعدل بينكم؛ أي: بالعدل بينكم ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾، ﴿وَرَبُّكُمْ﴾: معطوف على ربنا ﴿لَنَآ﴾: خبر مقدم ﴿أَعْمَٰلُنَا﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾: مبتدأ وخبر معطوف على ما قبله ﴿لَا﴾: نافية للجنس ﴿حُجَّةَ﴾: اسمها، ﴿بَيْنَنَا﴾: ظرف متعلق بمحذوف، هو خبر ﴿لَا﴾ والجملة في محل النصب، مقول ﴿قل﴾ ﴿وَبَيْنَكُمُ﴾ معطوف على ﴿بَيْنَنَا﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَجْمَعُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قل﴾، ﴿بَيْنَنَا﴾ ظرف متعلق بـ﴿يَجْمَعُ﴾ ﴿وَإِلَيْهِ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل للنصب مقول ﴿قل﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ

غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿الذين﴾: مبتدأ أول، وجملة ﴿يُحَآجُّونَ﴾ صلة ﴿الذين﴾، ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿يُحَآجُّونَ﴾، وهو على حذف مضاف؛ أي: في دين الله ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: متعلق بـ﴿يُحَآجُّونَ﴾، أو حال من الجلالة، و﴿ما﴾ مصدرية ﴿ٱسْتُجِيبَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور في محل الرفع، نائب فاعل لـ﴿ٱسْتُجِيبَ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر، ومجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد الاستجابة له. ﴿حُجَّتُهُمْ﴾: مبتدأ ثان ﴿دَاحِضَةٌ﴾: خبره ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ظرف متعلق بداحضة. والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة ﴿وَعَلَيْهِمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿عليهم﴾: خبر مقدم. ﴿غَضَبٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة قوله: حجتهم داحضة على كونها خبرا للمبتدأ الأول، ﴿وَلَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿شَدِيدٌ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾ والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: خبره، والجملة مستأنفة، ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. والجملة صلة الموصول، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾، أو حال من فاعله، أو من الكتاب، ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾: معطوف على الكتاب ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. أو استئنافية ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع، مبتدأ ﴿يُدْرِيكَ﴾: فعل مضارع ومفعول أول. وفاعله ضمير يعود على ما. والجملة خبر المبتدأ، والجملة معطوفة أو مستأنفة، ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: ناصب واسمه وخبره. وجملة ﴿لَعَلَّ﴾ في محل النصب، مفعول ثان لـ(يُدري)؛ لأنها عاقت عن العمل في لفظه بالترجي، ولا بد من تقدير مضاف؛ أي: لعل مجيء الساعة قريب.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَسْتَعْجِلُ﴾: فعل مضارع ﴿بِهَا﴾: متعلق به، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، والجملة

مستأنفة. وجملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾: صلة الموصول. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿مُشۡفِقُونَ﴾: خبره. والجملة معطوفة على جملة ﴿يَسۡتَعۡجِلُ﴾، ﴿مِنۡهَا﴾: متعلق بـ﴿مُشۡفِقُونَ﴾، ﴿وَيَعۡلَمُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿مُشۡفِقُونَ﴾، ﴿أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها، سادة مسد مفعولي ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿أَلَآ﴾: أداة استفتاح، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يُمَارُونَ﴾: صلة الموصول. ﴿فِي ٱلسَّاعَةِ﴾: متعلق بـ﴿يُمَارُونَ﴾، ﴿لَفِي ضَلَٰلِۭ﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿في ضلال﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿بَعِيدٍ﴾: صفة لـ﴿ضَلَٰلِۭ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ قرأ ابن كثير: ﴿يُوحَىٰ﴾ بالبناء للمجهول. وفيه إعلال بالقلب، أصله: يوحي، قلبت الياء ألفا، لتحركها بعد فتح، وحذفت منه همزة أفعل في صورة ابتداء المضارع بهمزة المتكلم، فرارا من توالي الأمثال، وفي غيرها، حملا عليها، كما هو مقرر في محله.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾: مضارع كاد من باب خاف، بمعنى قرب، فيه إعلال بالنقل والتسكين، والقلب أصله: تكود بوزن تفعل مضارع كود بكسر العين، يكود بفتحها، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الكاف فسكنت، لكنها أبدلت ألفا لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال. ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾؛ أي يتشققن، وأصل الفطر: الشق طولا؛ أي يتشققن من عظمة الله تعالى، وخشيته وإجلاله، كقوله: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾. ﴿يُسَبِّحُونَ﴾؛ أي ينزهون الله تعالى عما لا يليق به. ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ والأولياء الشركاء والأنداد. ﴿حَفِيظٌ﴾؛ أي: رقيب على أحوالهم وأعمالهم. ﴿بِوَكِيلٖ﴾؛ أي: بموكول إليك أمورهم حتى تؤاخذهم بها، ولا وكل إليك هدايتهم، وإنما عليك البلاغ فحسب.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ أي: لتخوف أهل مكة بعذاب الله، إن أصروا على الكفر: والعرب تسمي أصل كل شيء بالأم. كأم النحل، وهو يعسوبها، سميت مكة بأم القرى، تشريفا لها. وإجلالا لاشتمالها على الكعبة المشرفة، شرفنا الله

سبحانه، وجميع المسلمين بجوارها. ﴿فِى ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: في النار، سميت بالسعير لالتهابها واتقادها بهم. ﴿لَجَعَلَهُمْ﴾؛ أي: في الدنيا. ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: جماعة متفقة مهتدين أو ضالين. ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾؛ أي: المعين، الناصر لمن آمن به. ﴿أُنِيبُ﴾ مضارع أناب الرباعي، وأصله: أأنوب بوزن يؤكرم، حذفت الهمزة الثانية لتوالي الأمثال، فصار أنوب بوزن أكرم، نقلت حركة الواو إلى النون، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد. ففيه إعلال بالنقل والتسكين، والقلب والحذف.

﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾؛ أي: يكثركم أيها الناس، والأنعام، من الذرء وهو البث، قال في «القاموس»: ذرأ كجعل خلق، والشيءَ كَثَّره، ومنه الذرية، مثلثة لنسل الثقلين، وقال شارحه في «التاج»: وقد يطلق على الآباء والأصول أيضاً، قال تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، والجمع ذراري كسراري. ﴿لَهُۥ﴾ جمع مقلاد، وفيه إعلال بالقلب حيث قلبت ألفه ياء، لوقوعها بعد كسرة، عند بناء اللفظ على صيغة منتهى الجموع، وتقدم البسط فيه في سورة الزمر، فجدد به عهداً، قال الجواليقي في كتابه «المعرب»: المقليد: المفتاح، فارسي معرب لغة في الأقليد، والجمع مقاليد، فالمقاليد المفاتيح، وهي كناية عن الخزائن، وقدرته عليها وحفظه لها، وفيه مزيد دلالة على الاختصاص؛ لأن الخزائن لا يدخلها، ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها. ﴿شَرَعَ لَكُم﴾؛ أي: سن لكم ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ التوصية وكذا الوصية التقديم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظه. ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: حافظوا عليه، ولا تخلوا بشيء من مقوماته، والمراد بالدين: دين الإسلام، وهو توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله واليوم الآخر، وسائر ما يكون به العبد مؤمناً، كما مرّ ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: ولا تختلفوا فيه، فتأتوا ببعض وتتركوا بعضاً. ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: عظم عليهم وشق. ﴿يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يصطفي ويجتلب إليه، والاجتباء افتعال من الجباية وهي الجمع، قال الراغب: يقال: جبيت الماء في الحوض؛ أي: جمعته فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ والاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء، قال تعالى: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾، واجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي لتحصل له أنواع النعم بلا سعي منه. ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ الشك اعتدال النقيضين عند الإنسان

وتساويهما، مريب؛ أي: موقع في القلق والاضطراب من الريبة، والريبة قلق النفس واضطرابها، وفي «القاموس»: أراب الأمر، صار ذا ريب.

﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ أصله: استقوم بوزن استفعل نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت ثم حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فيه إعلال بالإبدال، أصله: أهوايهم من الهوى، أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أصله: يحاججون بوزن يفاعلون، أدغمت الجيم الأولى في الثانية. ﴿ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: استجوب بوزن استفعل، نقلت حركة الواو إلى الجيم، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مدّ. ﴿دَاحِضَةٌ﴾ باطلة، وفي «المختار»: دحضت حجته بطلت، وبابه خضع، وأدحضها الله، ودحضت رجله زلقت، وبابه قطع، والإدحاض الإزلاق، والدحض بتشديد الدال وسكون الحاء المهملتين، وبفتح الحاء أيضاً، وآخره ضاد معجمة هو الزلق. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ أصله: الموزان مفعال من الوزن، قلبت الواو ياء لسكونها إثر كسرة، والوزن معرفة قدر الشيء بآلة. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ من الإدراء بمعنى الإعلام؛ أي: أيّ شيء يجعلك دارياً؛ أي: عالماً بحال الساعة. ﴿قَرِيبٌ﴾؛ أي: شيء قريب، أو قريب مجيئها، وإلا فالفعيل بمعنى الفاعل لا يستوي فيه المذكر والمؤنث عند سيبويه. فكان الظاهر فيه أن يقال: قريبة لكونه مسنداً إلى ضمير الساعة، إلا أنه قد ذكر لكونه صفة جارية على غير من هي له.

فائدة: فإن قلت: متى يستوي المذكر والمؤنث؟

قلت: يستوي المذكر والمؤنث في خمسة أوزان:

الأول: فعول بفتح الفاء، بمعنى، فاعل كرجل صبور بمعنى صابر، وامرأة صبور بمعنى صابرة، ولو كان فعول بمعنى مفعول، لحقته التاء الفاصلة جوازاً نحو: جمل ركوب وناقة ركوبة.

والثاني: فعيل بمعنى مفعول، نحو: رجل جريح، وامرأة جريح، بمعنى مجروحة، فإن كان فعيل بمعنى فاعل، لحقته التاء الفاصلة، نحو: امرأة رحيمة وظريفة.

والثالث: مفعال بكسر الميم كمنحار، يقال: رجل منحار، وامرأة منحار، أي: كثير النحر، وشذ ميقانة من اليقين، وهو عدم التردد، يقال: رجل ميقان لا يسمع شيئاً إلا أيقنه، وامرأة ميقانة.

والرابع: مفعيل بكسر الميم، كمعطير من العطر، وشذ امرأة مسكينة، لخروجه عن القاعدة، ومع ذلك فإنه محمول على فقيرة، وسمع امرأة مسكين على القياس، حكاه سيبويه.

والخامس: مفعل بكسر الميم وفتح العين كمغشم، وهو الذي لا ينتهي عما يريده ويهواه من شجاعته، ومدعس من الدعس، وهو الطعن.

﴿يُمَارُونَ﴾ أصله: يماريون استثقلت الضمة على الياء، فحذفت فالتقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الراء، لمناسبة الواو، قال الراغب: المرية التردد في الأمر، وهو أخص من الشك، والمماراة: المحاجة فيما فيه مرية، انتهى. ويحتمل أن يكون من مريت الناقة، إذا مسحت ضرعها بشدة الحلب، فيكون تفسيره بيجادلون حملاً له على الاستعارة التبعية، كما سيأتي في مبحث البلاغة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ حيث استعمل المضارع في حقيقته ومجازه، فهو مستعمل في المستقبل بالنظر لما ينزل عليه من القرآن، إذ ذاك، وفي الماضي بالنظر لما أنزل بالفعل، وبالنظر لما أنزل على الرسل السابقين.

ومنها: جمع المؤكدات مع صيغة المبالغة في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهي ﴿أَلَآ﴾ و﴿إِنَّ﴾ وضمير الفصل.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ أي: لتنذر أهل مكة؛ لأنّ الإنذار لأهل القرية لا لها.

ومنها: الاحتباك في هذه الآية، حيث حذف من كل نظير ما أثبته في الآخر، والتقدير: لتنذر أم القرى العذاب، وتنذر الناس يوم الجمع؛ أي: عذابه.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ و﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ وبين ﴿يَبْسُطُ﴾ ﴿وَيَقْدِرُ﴾.

ومنها: مخالفة مقتضى الظاهر في قوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ لأن مقتضى الظاهر أن يقال: ولكن يدخل من يشاء في رحمته، ويدخل من يشاء في غضبه، ولكنه عدل عن ذلك إلى ذكر الظالمين، تسجيلاً عليهم باسم الظلم، ومبالغة في الوعيد.

ومنها: الإتيان بجملة معرّفة الطرفين في قوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ لغرض إفادة حصر الولاية في الله سبحانه وتعالى.

ومنها: إيثار صيغة الماضي في قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، وصيغة المضارع في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ لكون التوكل أمراً واحداً مستمراً، فيناسبه الماضي، وكون الإنابة متعددة، متجددة، بحسب تجدد موادها، فيناسبها المضارع، وفيهما أيضاً تقديم المعمول على عامله، لإفادة الحصر.

ومنها: زيادة الكاف في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لتأكيد نفي المثلية.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأن المقاليد المفاتيح. وهو كناية عن الخزائن؛ لأن فيه مزيد دلالة على الاختصاص، لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها، إلا من بيده مفاتيحها.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى نون العظمة في قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ لإظهار كمال الاعتناء بإيحائه إليه، وهو السر في تقديمه على ما بعده، مع تقدمه عليه زماناً.

ومنها: التعبير بالأصل في الموصولات، وهو الذي للتعظيم.

ومنها: توجيه الخطاب إليه ﷺ بطريق التلوين، للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾؛ لأنه كناية عن الثبات والدوام على الدعوة.

ومنها: المجاراة معهم في قوله: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ لأنه لا حجة لهم أصلاً، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة، مجاراة معهم على زعمهم الباطل.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ دلالة على عظم الغضب عليهم لمكابرتهم الحق بعد ظهوره.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ حيث استعار الميزان العرفي للشرع، الذي يوزن به الحقوق الواجبة الأداء، سواء كان من حقوق الله، أو من حقوق العباد، بجامع العدل والتسوية في كل، ويحتمل أن يكون المراد بالميزان: العدل والتسوية؛ أي: أنزل العدل في الكتب الإلٰهية، فيكون تسمية العدل بالميزان، تسمية المسمى باسم آلته، فإن الميزان آلة للعدل.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ حيث ذكر الاستعجال أولاً، وحذف الإشفاق، وذكر الإشفاق ثانياً وحذف الاستعجال؛ لأن التقدير: يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها. فلا يشفقون منها، والذين آمنوا مشفقون فلا يستعجلون بها.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ إذا قلنا إنه مأخوذ من مريت الناقة، وفسرناه بيجادلون، حيث شبه المجادلة بمماراة الحالب للضرع، لاستخراج ما فيه من اللبن، من حيث إن كلا من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه، بكلام فيه شدة اهـ «روح البيان».

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ففيه وصف الشيء بوصف صاحبه؛ لأن البعد في الحقيقة للضال؛ لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق فوصف به فعله.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما

قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] فيما سبق، أنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على الدلائل الموصلة إلى السعادة، وأن المتفرقين في الدين، استوجبوا شديد العذاب، لكنه أخره إلى يوم معلوم.. أرشد هنا إلى أن ذلك من لطف الله بعباده، ولو شاء لجعلهم في عماية من أمرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، ولو شاء لعجل لهم العذاب. ثم بين أن من يعمل للآخرة يرجو ثوابها.. يضاعف له فيها الجزاء إلى سبع مئة ضعف، ومن يعمل للدنيا وجلب لذاتها.. يؤته ما يريد، وليس له في الآخرة نصيب من نعيمها، ثم أعقب هذا، بذكر ما وسوست به الشياطين للمشركين، وزينت لهم به، من الشرك بالله وإنكار البعث، إلى نحو ذلك. ثم بين أنهم كانوا يستحقون العذاب العاجل على ذلك، لكنه أجله لما سبق في علمه، من أنظارهم إلى يوم معلوم، ثم ذكر مآل كل من الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، فالأولون خائفون، وجلون من جزاء ما عملوا، والآخرون مترفون منعمون.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر في الآيات السالفة، أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون بالنعيم في روضات الجنات، وأنه يعطيهم من فضله ما فيه قرة أعينهم، رحمة من لدنه.. ذكر هنا أن ذلك كائن لهم لا محالة، ببشارة منه لهم، ثم أعقب هذا، بأن أمر رسوله بأن يقول لهم: إنه لا يسألهم على هذا البلاغ والنصح أجراً، وإنما يطلب منهم التقرب إلى الله وحسن طاعته، ثم رد عليهم قولهم: أن القرآن مفترى، بأنه لا يفتري الكذب على الله إلا من كان مختوماً على قلبه، ومن سنن الله تعالى إبطال الباطل ونصرة الحق، فلو كان محمد ﷺ كذاباً مفترياً، لفضحه وكشف باطله، ولكن أيده بالنصر والقوة، ثم ندبهم إلى التوبة مما نسبوه إلى رسوله من افترائه القرآن، ثم وعد المؤمنين بأنه يجيب دعاءهم إذا هم دعوه ويزيدهم من نعمه، وأوعد الكافرين بشديد العقاب، كفاء ما اجترحوا من الشرور والآثام.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين فيما سلف، أنه يجيب دعاء المؤمنين إذا هم أنابوا إليه وأخبتوا. . ذكر هنا أنه لا يعطيهم كل ما يطلبون من الأرزاق، بل ينزلها بقدر بحسب ما يعلم من مصلحتهم، فإن كثرة الرزق تجعل الناس يتجبرون ويتكبرون، والله هو الخبير بما يصلح حالهم من فقر وغنى.

قال خباب بن الأرت: فينا نزلت هذه الآية، نظرنا إلى أموال بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع، فتمنيناها، ثم أعقب هذا بأنهم إذا احتاجوا إلى الرزق، لا يمنعه منهم، وهو المتولي أمورهم بإحسانه، المحمود على ما يوصل للخلق من صنوف الرحمة، ثم أقام الأدلة على ألوهيته بخلقه للسمٰوات والأرض وما فيهما من الحيوان، ثم جمعهم للحساب يوم القيامة، ثم ذكر أن ما يصيب الإنسان من نكبات الدنيا، من الأمراض والأسقام والفقر والغنى، فبكسب الإنسان واختياره، كما دلت على صدق ذلك التجارب، ثم أعقب ذلك، بآية أخرى على ألوهيته، وهي جريان السفن في البحار، فتارة بجعل الريح ساكنة، فتظل السفن على سطحها، وأخرى تعصف الرياح فتفرقها، أو تنجو بحسب تقديره تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] دلائل توحيده، وعظيم قدرته وسلطانه، بخلق السمٰوات والأرض وجري السفن ماخرات في البحار. . أردف ذلك بالتنفير من الدنيا وزخرفها؛ لأن المانع من النظر في الأدلة، إنما هو الرغبة فيها، طلباً للرياسة والجاه، فإذا صغرت الدنيا في عين المرء، لم يلتفت إليها، وانتفع بالأدلة ووجه النظر إلى ملكوت السمٰوات والأرض، ثم أبان أن ما عند الله خير لمن آمن به، وتوكل عليه واجتنب كبائر الذنوب والفواحش، وكان منقاداً له، مطيعاً لأوامره، تاركاً لنواهيه وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يبرم أمراً إلا بعد

(١) المراغي.

مشورة، وانتصر لنفسه ممن ظلمه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه الطبراني بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قالت الأنصار: لو جمعنا لرسول الله ﷺ مالاً، فأنزل الله سبحانه ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ فقال بعضهم: إنما قال هذا، ليقاتل عن أهل بيته وينصرهم، فأنزل الله ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ فعرض لهم التوبة إلى قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ﴾.

وأخرج أحمد بسنده عن طاووس قال: سأل رجل ابن عباس، عن معنى قول الله عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى محمد ﷺ، قال ابن عباس: عجلت، إن رسول الله ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا لرسول الله ﷺ فيهم قرابة، فنزلت: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾؛ أي: إلا أن تصلوا قرابة ما بيني وبينكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الحاكم وصححه عن علي، قال: نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة، وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا، فتمنوا الدنيا، وأخرج الطبراني عن عمرو بن حريث مثله، وعمرو بن حريث، مختلف في صحبته كما في «الإصابة».

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿لَطِيفُۢ﴾؛ أي: بر بليغ البر ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ يفيض عليهم[2] من فنون ألطافه، ما لا يكاد يناله أيدي الأفكار والظنون، وقولنا: من فنون ألطافه يؤخذ ذلك من صيغة لطيف، فإنها للمبالغة، وتنكيره أيضاً، وقولنا: ما لا يكاد، إلخ، مأخذه مادة الكلمة، فإن اللطف إيصال النفع إلى العبد على

---

(١) لباب النقول.
(٢) روح البيان.

وجه فيه دقة: وقال مقاتل: لطيف بالبار والفاجر، حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم، وقال القرطبي: لطيف بهم في العرض والمحاسبة، وقيل[1]: كثير الإحسان بهم بالحياة والعقل ودفع أكثر البليات عنهم، وإعطاء ما لا بد منه من الرزق، وتأخير العذاب عمن يستحقون العذاب.

والمعنى[2]: أنه يجري لطفه على عباده في كل أمورهم، ومن جملة ذلك، الرزق الذي يعيشون به في الدنيا، وهو معنى قوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ منهم أن يرزقه كيفما يشاء، فيوسع على هذا، ويضيق على هذا، فيخص كلا من عباده، الذين عمهم جنس لطفه، بنوع من البر على ما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحكم البالغة، فلا مخالفة بين عموم الجنس وخصوص النوع، يعني: أن المخصوص بمن يشاء هو نوع البر وصنفه، وذلك لا ينافي عموم جنس بره بجميع عباده، على ما أفادته إضافة العباد إلى ضميره تعالى، حتى يلزم التناقض بين الكلامين، فاللَّه تعالى يبرهم جميعاً، لا بمعنى أن جميع أنواع البر، وأصنافه يصل إلى كل أحد فإنه مخالف الحكمة الإلهية، إذ لا يبقى الفرق حينئذٍ بين الأعلى والأدنى، بل يصل بره إليهم على سبيل التوزيع، بأن يخص أحداً بنعمة وآخر بأخرى، فيرجع بذلك كل واحد منهم إلى الآخر، فيما عنده من النعمة، فينتظم به أحوالهم، ويتم أسباب معاشهم، وصلاح دنياهم وعمارتها، فيؤدي ذلك إلى فراغهم لاكتساب سعادة الآخرة، وقال بعضهم: معناه: يرزق من يشاء بغير حساب، إذ الآيات القرآنية يفسر بعضها بعضاً.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْقَوِيُّ﴾؛ أي: العظيم القوة الباهرة، والقدرة البالغة وهو يناسب عموم لطفه للعباد، قيل: والقوة في الأصل: صلابة البنية وشدتها المضادة للضعف، ولما كانت محالاً في حق الله تعالى، حملت على القدرة، لكونها مسببة من القوة.

قلت: ولا حاجة إلى هذا التأويل؛ لأن القوة صفة ثابتة لله تعالى، أثرها

---

(١) المراح. (٢) روح البيان.

عدم الضعف في أفعاله، والقدرة صفة ثابتة لله تعالى، أثرها عدم العجز عن إيجاد أي ممكن كان وإعدامه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب الذي يغلب كل شيء، ولا يغلبه شيء، وهو يلائم تخصيص من يشاء بما شاء.

والمعنى[1]: أنه تعالى بر بعباده، يرسل إليهم أعظم المنافع، ويدفع عنهم أكبر البلاء، فيرزق البر والفاجر، لا ينسى أحداً منهم، ويوسع الرزق على من يشاء منهم، ويقتره على من يشاء، ليمتحن الغني بالفقير، والفقير بالغني، وليحتاج بعض إلى بعض، كما قال: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، ونحو الآية قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، ثم ذكر ما هو كالعلة لذلك، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: وهو القادر على ما يشاء، العزيز الذي لا يقدر أحد أن يمنعه عن شيء مما يريده.

وبعد أن أبان أن الرزق ليس إلا في يده، أتبعه بما يزهد في التكالب على طلب رزق البدن، ويرغب في الجد في طلب رزق الروح، والسعي في رفع منزلتها عند ربها ليرضى عنها، فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ ويقصد بعمله الصالح ﴿حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ وثوابها، والحرث في الأصل[2]: إلقاء البذر في الأرض، ويطلق على الزرع الحاصل منه، ويطلق على ثمرات الأعمال، ونتائجها بطريق الاستعارة، المبنية على تشبيهها بالغلال، الحاصلة من البذور، المتضمن لتشبيه الأعمال بالبذور، من حيث إنها فائدة تحصل بعمل الدنيا، ولذلك قيل: الدنيا مزرعة الآخرة.

والمعنى: من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ﴾ وثوابه؛ أي: نضاعف له ثوابه، ونعط له بالعمل الواحد عشر حسنات إلى سبع مئة فما فوقها، وقيل: نزد له في توفيقه، وإعانته وتسهيل سبيل الخيرات والطاعات له. وقيل: نزد له في قوته ونشاطه، أو نزد له على ما قصده من حرث الآخرة، بالبسط له في الدنيا.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

ولم يقل في حقه[1]: وله في الدنيا نصيب، مع أن الرزق المقسوم له، يصل إليه لا محالة، للاستهانة بذلك، والإشعار بأنه في جنب ثواب الآخرة ليس بشيء، ولذلك قال سليمان عليه السلام: لتسبيحة خير من ملك سليمان.

فإن قيل: ظاهر اللفظ يدل على أن من صلى لأجل طلب الثواب، أو لأجل دفع العقاب، فإنه تصح صلاته، وأجمعوا على أنها لا تصح؛ لأن الرغبة في الإيمان والطاعة لا تنفع، إلا إذا كانت تلك الرغبة فيه، رغبة فيه لكونه إيماناً وطاعة، وأما الرغبة فيه لطلب الثواب، وللخوف من العقاب فغير مفيد، لأنه يكون عليلاً مريضاً.

والجواب: أن الحرث لا يتأتى إلا بإلقاء البذر الصحيح في الأرض، والبذر الصحيح الجامع للخيرات، والسعادات، ليس إلا عبودية الله تعالى، فلا يكون العمل أخروياً إلا بأن يطلب فيه رضى الله تعالى.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ﴾ ويقصد بأعماله الصالحة ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ثوابها ومتاعها وزخارفها وطيباتها، والمراد: الكافر أو المنافق، حيث كانوا مع المؤمنين في المغازي وغرضهم الغنيمة، ودخل فيه أصحاب الأغراض الفاسدة جميعاً. ﴿نُؤْتِهِۦ﴾؛ أي: نعطه شيئاً كائناً ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من الدنيا حسبما قسمنا له أزلاً، لا ما يريده ويبتغيه، وقوله: منها متعلق بكائناً المحذوف، الواقع صفة للمفعول الثاني، ويجوز أن تكون كلمة من للتبعيض؛ أي: بعضها، ومآل المعنى واحد، دلت الآية على أن طالب الدنيا لا ينال مراده من الدنيا.

وفي الحديث: «من كانت نيته الآخرة، جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا، فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له».

﴿وَمَا لَهُۥ﴾؛ أي: لمريد الدنيا ﴿فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾؛ لأنه لم يعمل للآخرة، فلا نصيب له فيها. و﴿مِن﴾: مزيدة للاستغراق؛ أي: ما له نصيب وحظ في الآخرة،

---

(١) روح البيان.

إذ كانت همته مقصورة على الدنيا، ولكل امرىء ما نوى، فيكون محروماً من ثواب الآخرة بالكلية، وقرأ الجمهور[1]: ﴿نَزِدْ﴾ و﴿نُؤْتِهِۦ﴾ بالنون فيهما، وابن مقسم والزعفراني ومحبوب والمنقري، كلاهما عن أبي عمرو بالياء فيهما، وقرأ سلام: ﴿نؤتهُ منها﴾ بضم الهاء، وهي لغة الحجاز، ذكره في «البحر المحيط». وقال الإمام الراغب: إن الإنسان في دنياه حارث، وعمله حرثه، ودنياه محرثه، ووقت الموت وقت حصاده، والآخرة بيدره، ولا يحصد إلا ما زرعه، ولا يكيل إلا ما حصده.

حكي: أن رجلاً ببلخ، أمر عبده أن يزرع حنطة، فزرع شعيراً، فرآه وقت الحصاد وسأله، فقال العبد: زرعت شعيراً على ظن أن ينبت حنطة، فقال مولاه: يا أحمق، هل رأيت أحداً زرع شعيراً فحصد حنطة، فقال العبد: فكيف تعصي أنت، وترجو رحمته، وتغتر بالأماني، ولا تعمل العمل الصالح.

وكما أن في البيدر مكيالاً، وموازين وأمناء وحفاظاً وشهوداً، كذلك في الآخرة مثل ذلك، وكما أن للبيدر تذرية وتمييزاً بين النقاوة والحطام، كذلك في الآخرة تمييزٌ بين الحسنى والآثام، فمن عمل لآخرته بورك له في كيله ووزنه، وجعل له منه زاداً لا بد، ومن عمل لدنياه خاب سعيه وبطل عمله، فأعمال الدنيا كشجرة الخلاف، بل كالدقلي والحنظل في الربيع، يرى غض الأوراق، حتى إذا جاء حين الحصاد لم ينل طائلاً، وإذا حضر مجتناه في البيدر، لم يفد نائلاً. ومثل أعمال الآخرة كشجرة الكرم والنخل المستقبح المنظر في الشتاء، فإذا حان وقت القطاف والاجتناء أفادتك زاداً، وادخرت عدةً وعتاداً.

ولما كانت زهرات الدنيا رائقة الظاهر، خبيثة الباطن، نهى الله تعالى عن الاغترار بها، فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ فالقذر قذر، وإن كان في ظرف من الذهب، فالعاقل لا يتناوله.

وحاصل معنى الآية[2]: من كان يريد بأعماله، وكسبه ثواب الآخرة، نوفقه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

لصالح الأعمال، ونجزه بالحسنة عشر أمثالها، إلى ما شاء الله تعالى، ومن كان سعيه موجهاً إلى شؤون الدنيا وطلب طيباتها واكتساب لذاتها، وليس له هم في أعمال الآخرة، نؤته منها ما قسمناه له، وليس له في ثواب الآخرة حظ، فالأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى، قال قتادة: إن الله يعطي على نية الآخرة، ما شاء من أمر الدنيا، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا. وقال ابن عباس: من يؤثر دنياه على آخرته.. لم يجعل الله له نصيباً في الآخرة إلا النار، ولم يزد بذلك من الدنيا شيئاً، إلا رزقاً فرغ منه وقسم له.

وأخرج أحمد والحاكم وصححه، وابن مردويه وابن حبان عن أبي بن كعب: أن رسول الله ﷺ قال: «بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض، ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا.. لم يكن له في الآخرة من نصيب».

وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي هريرة قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ الآية، ثم قال: «يقول الله لابن آدم: تفرغ لعبادتي، أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك». وعن علي كرم الله وجهه قال: الحرث: حرثان، فحرث الدنيا المال والبنون، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

ولما بين القسطاس الأقوم في أعمال الآخرة وأعمال الدنيا.. أردفه بالتنبيه إلى ما هو الأصل في باب الضلالة والشقاوة، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ أم[1] منقطعة، مقدرة ببل التي للإضراب الانتقالي من قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾، والهمزة التي للتقرير والتوبيخ، وشركاؤهم شياطينهم من الإنس والجن، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ للمشركين من قريش، وإضافة الشركاء إلى ضميرهم في قولنا:

---

(١) روح البيان.

شركاؤهم على حقيقتها.

والمعنى: بل ألهم شركاء من الشياطين؛ أي: نظراء يشاركونهم في الكفر والعصيان، ويعاونونهم عليه بالتزيين والإغراء ﴿شَرَعُوا﴾ وسنوا ﴿لَهُمْ﴾ بالتسويل والتزيين ﴿مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ﴾ ويأمر ﴿بِهِ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، كالشرك وإنكار البعث، والعمل للدنيا، وسائر مخالفات الشريعة، وموافقات الطبيعة؛ لأنهم لا يعلمون غيرها، وتعالى الله عن الإذن في مثل هذا والأمر به، والتعبير عنه بالدين للمشاكلة؛ لأنه ذكر في مقابلة دين الله، أو للتهكم، وقيل: شركاءهم أوثانهم، فالهمزة للإنكار، فإن الجماد الذي لا يعقل شيئاً، كيف يصح أن يشرع ديناً، والحال أن الله تعالى، لم يشرع لهم ذلك الدين الباطل، وإضافتها إليهم حينئذٍ؛ لأنهم الذين جعلوها شركاء لله، وإسناد الشرع إليها، مع كونها بمعزل عن الفاعلية، إسناد مجازي، من إسناد الفعل إلى السبب؛ لأنها سبب ضلالتهم وافتتانهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾.

والمعنى[1]: أي هم ما اتبعوا، ما شرع الله من الدين القويم، بل اتبعوا ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، فحرموا عليهم ما حرموا من البحيرة، والسائبة والوصيلة، وحللوا لهم أكل الميتة والدم والقمار، إلى نحو أولئك، من الضلالات والجهالات، التي كانوا قد اخترعوها في الجاهلية.

وقد ثبت في «الصحيح»، أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عمرو بن لُحَيّ بن قمعة يجر قصبة أمعائه في النار؛ لأنه أول من سيّب السوائب، وحمل قريشاً على عبادة الأصنام، وكان أحد ملوك خزاعة»، وقصارى ذلك: أن الشيطان زين لهم الشرك والمعاصي والشرائع المضلة وإنكار البعث والعمل للدنيا.

ثم بين أنه رحمة بعباده، أخر عذاب المشركين ليوم معلوم، ولم يعجله لهم، فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾؛ أي: القضاء السابق بتأخير العذاب عنهم، أو العدة لهم، بأن الفصل يكون يوم القيامة، حيث قال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ

---

(١) المراغي.

﴿مَوۡعِدُهُمۡ﴾ والفصل: القضاء بين الحق والباطل، كما في «القاموس»، ويوم الفصل هو اليوم الذي فيه يبين الحق من الباطل، ويفصل بين الناس بالحكم، كما في «المفردات»: ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ في الدنيا، فعوجلوا بالعقوبة. والضمير في ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ راجع إلى المؤمنين والمشركين، أو إلى المشركين وشركائهم.

والمعنى: أي ولولا القضاء السابق منه تعالى، بتأخير العذاب إلى يوم القيامة، لعوجلوا بالعذاب في الدنيا.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم، وهم المشركون والمكذبون ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الدنيا والآخرة؛ أي: نوع من العذاب متفاقم ألمه، وأقام المظهر مقام المضمر، تسجيلاً عليهم بالظلم، ودلالة على أن العذاب الأليم، الذي لا يكتنه كنهه، إنما يلحقهم بسبب ظلمهم، وانهماكهم فيه.

والمعنى: أي وإن الظالمين أنفسهم، بشرع ما لم يأذن به الله، مما ابتدعوه من التحليل، والتحريم، لهم عذاب شديد الإيلام في جهنم، وبئس المصير، وقرأ الجمهور[1]: وإن الظالمين بكسر الهمزة على الاستئناف، والإخبار بما ينالهم في الدنيا، من القتل والأسر والنهب، وفي الآخرة من النار، وقرأ الأعرج ومسلم بن جندب: ﴿وأنّ﴾ بفتح الهمزة، عطفاً على كلمة الفصل، فهو في موضع رفع؛ أي: ولولا كلمة الفصل وكون الظالمين لهم عذاب أليم في الآخرة، لقضي بينهم في الدنيا، وفصل بين المتعاطفين بجواب ﴿لولا﴾، كما فصل في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ١٢٩﴾.

ثم ذكر أحوال أهل العقاب، وأهل الثواب يوم القيامة، مبتدئاً بالأولين، فقال: ﴿تَرَى﴾ وتبصر يا محمد، أو يا من يصلح للرؤية ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: المشركين يوم القيامة ﴿مُشۡفِقِينَ﴾؛ أي: خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾؛ أي: لأجل ما كسبوا واقترفوا في الدنيا من الشرك والمعاصي؛ أي[2]: مشفقين إشفاقاً ناشئاً من

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

السيئات، التي عملوها في الدنيا ومن أجلها، فكلمة من للتعليل، وليست صلة مشفقين، حتى يحتاج إلى تقدير المضاف، مع أنه أيضاً معنى صحيح؛ لأنه أبلغ وأدخل في الوعيد ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾؛ أي: والحال أن وبال ما كسبوه، وجزاءه، لا حق بهم لا محالة، أشفقوا أو لم يشفقوا والجملة حال من ضمير مشفقين، أو اعتراض. قال سعدي المفتي: يعني ينعكس الحال في الآخرة، فالآمنون في الدنيا يشفقون في الآخرة، والمشفقون في الدنيا يأمنون في الآخرة؛ أي: ترى الظالمين خائفين، وجلين أشد الخوف والوجل، لأجل ما كسبوا في الدنيا من السيئات، والحال أن جزاءه واقع بهم، نازل عليهم لا محالة، أشفقوا أو لم يشفقوا، وذكر الآخرين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ﴾؛ أي: استعملوا تكاليف الشرع لقمع الطبع، وكسر الهوى، وتزكية النفس وتصفية القلب وتحلية الروح، مستقرون ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾؛ أي: في أطيب بقاع الجنات وأنزهها، كما أنها في الدنيا أحسن أمكنتها.

قال في «حواشي الكشاف»: الروضة اسم لكل موضع فيه ماء وعشب، وفي «كشف الأسرار»: هي الأماكن المتسعة، المونقة ذات الرياحين. والزهر، انتهى. وفي الحديث: ثلاث يجلون البصر، النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن. قال ابن عباس: رضي الله عنه: والإثمد عند النوم، قال الراغب: قوله: ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ إشارة إلى ما أعد لهم في العقبى من حيث الظاهر، وقيل: إشارة إلى ما أهلهم له من العلوم والأخلاق التي من تخصص بها طاب قلبه؛ أي: والذين آمنوا بالله، وأطاعوه فيما أمر به ونهى عنه، لهم في الآخرة روضات الجنات، متمتعين بمحاسنها ولذاتها.

ثم بين ما يكون لهم من النعيم، في تلك الروضات، فقال: ﴿لَهُم﴾ خبر مقدم ﴿مَا يَشَاءُونَ﴾ مبتدأ مؤخر؛ أي: ما يشتهونه من فنون المستلذات من مآكل ومشارب، ومناظر مما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، حاصل لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ على أن عند ربهم ظرف للاستقرار العامل في ﴿لَهُم﴾، وقيل: ظرف ليشاؤون على أن يكون عبارة عن كونهم عند الله.

وفي الآية[1]: احتباك، حيث أثبت الإشفاق أولاً، دليلاً على حذف الأمن ثانياً، وأثبت الجنات ثانياً، دليلاً على حذف النيران أولاً، كما سيأتي في مبحث البلاغة.

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما ذكر للمؤمنين، وهو مبتدأ، خبره جملة قوله: ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾؛ أي: ذاك المذكور من أجر المؤمنين، هو الفضل العظيم، والمن الجسيم، الذي يصغر دونه ما لغيرهم من الدنيا، أو تحقر عنده الدنيا بحذافيرها من أولها إلى آخرها. وهذا في حق الأمة، وأما النبي ﷺ فمخصوص بالفضل العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الفضل الكبير، وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿ٱلَّذِى﴾؛ أي: ذلك الفضل المذكور هو الثواب الذي ﴿يُبَشِّرُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى به ﴿عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: يبشرهم به على لسان النبي ﷺ، فحذف الجار ثم العائد إلى الموصول، لأنهم لا يجوزون حذف المفعول الجار والمجرور، إلا على التدريج، بخلاف مثل: السمن منوان بدرهم؛ أي: منه؛ أي[2]: ذلك الذي أخبرتكم بأني أعددته في الآخرة من النعيم، والكرامة، لمن آمن بالله ورسوله وعمل صالح الأعمال. هي البشرى التي أبشركم بها في الدنيا، ليتبين لكم أنها حق، وأنها كائنة لا محالة.

والخلاصة: أن هؤلاء الجامعين بين الإيمان والعمل، بما أمر الله به، وترك ما نهى عنه، هم المبشرون بتلك البشارة.

يقول الفقير: حكمة تخصيص الروضة، وتعميم المشيئة، أن أكثر بلاد العرب خالية عن الأنهار الجارية والروضات، وأنهم لا يجدون كل المشتهيات، فيشوقهم بذلك ليكونوا على أهبة وتدارك، ولا يقيسوا الآخرة على الدنيا، فإن الدنيا محل البلاء والآفات، والآخرة دار النعيم والضيافات، وتدارك كل ما فات، فمن أحب مولاه اجتهد في طريق رضاه.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

قال شقيق البلخي رحمه الله تعالى: رأيت في طريق مكة مقعداً، يزحف على الأرض، فقلت له: من أين أقبلت؟ قال: من سمرقند، قال: قلت: وكم لك في الطريق؟ فذكر أعواماً تزيد على العشرة، فرفعت طرفي انظر إليه متعجباً، فقال لي: يا شقيق، ما لك تنظر إليّ، فقلت: متعجباً من ضعف مهجتك، وبعد سفرتك، فقال لي: يا شقيق، أما بعد سفرتي فالشوق يقربها، وأما ضعف مهجتي فمولاها يحملها، يا شقيق، أتعجب من عبد ضعيف يحمله المولى اللطيف، فمن وصل إليه بشارة الله بفضله وجوده.. هان عليه بذل وجوده.

قرأ الجمهور[1]: ﴿يُبَشِّرُ﴾: بتشديد الشين من بشر المضاعف، وعبد الله بن يعمر، وابن أبي إسحاق والجحدري والأعمش وطلحة، في رواية: والكسائي وحمزة ﴿يبشر﴾ ثلاثياً، وقرأ حميد بن قيس ومجاهد: ﴿يبشر﴾ بضم الياء وتخفيف الشين من أبشر الرباعي، وهو معدى بالهمزة، من بشر، اللازم المكسور الشين، وأما بشر بفتحها فمتعد، وبشر بالتشديد للتكثير لا للتعدية؛ لأن المتعدي إلى واحد، وهو مخفف لا يعدى بالتضعيف إليه، فالتضعيف فيه للتكثير لا للتعدية.

وبعد أن ذكر سبحانه، ما أخبر به نبيه ﷺ من هذه الأحكام، التي اشتمل عليها كتابه، أمره أن يخبرهم: بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ أجراً، فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد لقريش قومك ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة ﴿أَجْرًا﴾؛ أي: جعلا ولا نفعاً، كما لا يطلب الأنبياء من قبلي أجراً على تبليغهم الرسالة ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ المودة[2] مودة الرسول ﷺ، والقربى مصدر، كالزلفى بمعنى القرابة، التي هي بمعنى الرحم. و﴿في﴾ للسببية، أو بمعنى اللام، متعلقة بالمودة، ومودته كناية عن ترك أذيته، والجري على موجب قربته سمى عليه السلام المودة أجراً، واستثناها منه تشبيهاً لها به، والاستثناء من قبيل قول من قال:

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

وذلك لأنه لا يجوز من النبي ﷺ أن يطلب الأجر، أياً كان على تبليغ الرسالة؛ لأن الأنبياء لم يطلبوه، وهو أولى بذلك؛ لأنه أفضل، ولأنه صرح بنفيه في قوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾، ولأن التبليغ واجب عليه، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق به، ولأن متاع الدنيا أخس الأشياء، فكيف يطلب في مقابلة تبليغ الوحي الإلٰهي الذي هو أعز الأشياء؛ لأن العلم جوهر ثمين، والدنيا خزف مهين، ولأن طلب الأجر يوهم التهمة، وذلك ينافي القطع بصحة النبوة. وقرأ الجمهور ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ﴾ وقرأ زيد بن علي ﴿إلا مودة﴾.

فمعنى الآية[1]: قل لا أسألكم على التبليغ أجراً أصلاً، إلا أن تودوني لأجل قرابتي منكم وبسببها، وتكفوا عني الأذى، ولا تعادوني إن كان ذلك أجراً يختص بي، لكنه ليس بأجر؛ لأنه لم يكن بطن من بطونكم يا قريش، إلا وبيني وبينها قرابة فإذا كانت قرابتي قرابتكم، فصلتي، ودفع الأذى عني لازم لكم في الشرع والعادة والمروءة، سواء كان مني التبليغ أو لا، وقد كنتم تتفاخرون بصلة الرحم، ودفع الأذى عن الأقارب، فما لكم تؤذونني والحال ما ذكر.

ويجوز أن يراد بالقربى: أهل قرابته ﷺ على تقدير المضاف وبالمودة مودة أقربائه، وترك أذيتهم، فكلمة ﴿في﴾ على هذا للظرفية، والظرف حال من المودة، والمعنى: إلا أن تودوا أهل قرابتي، مودةً ثابتة، متمكنة فيهم. وقد اختلف في هذه الآية اختلافاً كثيراً، يرجع إليه في المطولات، وأحسن ما قرأناه في صددها، ما ذكره مجاهد وقتادة.

وخلاصته: أنكم قومي، وأحق من أجابني وأطاعتي، فإذا قد أبيتم ذلك، فاحفظوا حق القربى وصلوا رحمي، ولا تؤذوني.

وفي «الخازن»: فإن قلت[2]: طلب الأجر على تبليغ الرسالة والوحي، لا

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

يجوز، لقوله في قصة نوح عليه السلام وغيره من الأنبياء: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩﴾.

قلت: لا نزاع في أنه لا يجوز طلب الأجر على تبليغ الرسالة، بقي الجواب عن قوله: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾، فالجواب عنه من وجهين:

الأول: معناه لا أطلب منكم إلا هذا، وهذا في الحقيقة ليس بأجر، نظير قوله: (وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ)، البيت، معناه: إذا كان هذا عيبهم، فليس فيهم عيب بل هو مدح فيهم؛ ولأن المودة بين المسلمين أمر واجب، وإذا كان كذلك في حق جميع المسلمين، كان في أهل بيت النبي ﷺ أولى. فقوله: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ فالمودة في القربى ليست أجراً في الحقيقة؛ لأن قرابته قرابتهم، فكانت مودتهم وصلتهم لازمة لهم، فثبت أن لا أجر البتة.

والوجه الثاني: أن هذا الاستثناء منقطع، وتم الكلام عند قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾؛ أي: لكن أذكركم المودة في قرابتي، الذين هم قرابتكم، فلا تؤذوهم.

واختلف أهل العلم في قرابته ﷺ. فقيل: علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم، وقيل: أهل بيته من تحرم عليهم الصدقة من أقاربه، وهم بنو هاشم، وبنو المطلب، الذين لم يفترقوا في الجاهلية، ولا في الإسلام.

روى مسلم عن زيد بن أرقم، أن رسول الله ﷺ قال: «إني تارك فيكم ثقلين، أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله تعالى، واستمسكوا به»، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»، فقال له حصين: من أهل بيته يا زيد، أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرمت عليه الصدقة بعده، قال: ومن هم قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، انتهى.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ﴾ ويكتسب ﴿حَسَنَةً﴾؛ أي حسنة[1] كانت سيما مودة قربى رسول الله ﷺ، وعن السدي: أنها المودة في آل رسول الله ﷺ، نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، ومودته فيهم، والظاهر العموم في أي حسنة كانت إلا أنها تتناول المودة تناولاً أولياً لذكرها عقب ذكر المودة في القربى؛ أي: ومن يكتسب حسنة واحدة، ولو مثقال ذرة ﴿نَّزِدْ لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك العامل ﴿فِيهَآ﴾؛ أي: في جزاء تلك الحسنة ﴿حُسْنًا﴾؛ أي: فضلاً وزيادة على قدر ما يستحقه، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، فما فوق، كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿نَّزِدْ لَهُۥ﴾ بالنون، وقرأ زيد بن علي وعبد الوارث عن أبي عمرو وأحمد بن جبير عن الكسائي: ﴿يزد﴾ بالياء؛ أي: يزد الله. وقرأ الجمهور: ﴿حُسْنًا﴾: بالتنوين، وعبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿حسنى﴾ بغير تنوين، على وزن رجعى وبشرى، وزيادة حسنها مضاعفة أجرها.

والمعنى[3]: أي ومن يعمل عملاً فيه طاعة الله ورسوله، نزد له فيه أجراً وثواباً، فنجعل له مكان الحسنة عشرة أمثالها، إلى سبع مئة ضعف إلى ما فوق ذلك، فضلاً منا ورحمة. ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة للمذنبين ﴿شَكُورٌ﴾؛ أي: كثير الشكر للمطيعين بتوفيقه الثواب، والتفضل عليه بالزيادة، فالشكر[4] من الله مَجَازٌ عن هذا المعنى، لأن معناه الحقيقي، وهو فعل ينبيء عن تعظيم المنعم، لكونه منعماً لا يتصور من الله سبحانه، لامتناع أن ينعم عليه أحد، حتى يقابل بالشكر، شبهت الإثابة والتفضل بالشكر، من حيث إن كل واحد منهما يتضمن الاعتداد بفعل الغير، وإكراماً لأجله؛ أي: إنه تعالى يغفر الكثير من

---

(١) النسفي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر ويضاعف فيشكر. قال قتادة: غفور للذنوب، شكور للحسنات.

ثم أنكر عليهم نسبة افتراء القرآن إلى محمد ﷺ، ووبخهم على مقالهم، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أم منقطعة، بمعنى بل التي للإضراب الانتقالي من قوله: أم لهم شركاء إلخ، وبهمزة الاستفهام الإنكاري التوبيخي؛ أي: بل أيقول كفار مكة ﴿افْتَرَىٰ﴾ محمد واختلق ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ سبحانه ﴿كَذِبًا﴾ بدعوى النبوة وتلاوة القرآن؛ أي[1]: أيقع في قلوبهم ويجري على ألسنتهم، أن ينسبوا مثله ﷺ إلى الافتراء على الله، وهو أقبح أنواع الفرية وأفحشها، وهذا المقال منهم أفظع من الشرك الذي جعلوه شرعاً لهم، فإنهم قد جعلوا الحق الأبلج، الذي يعاضده الدليل، ويؤيده البرهان، افتراءً على الله، واختلاقاً للكذب عليه، وفي ذلك أتم دلالة على بعده ﷺ من الافتراء.

وخلاصة ذلك: أنهم قالوا: إن هذا الذي يتلوه علينا من القرآن، ما هو إلا اختلاق من قبل نفسه، وليس بوحي من عند ربه، كما يدعي.

ثم زاد في استبعاد الافتراء من مثله ﷺ، والإنكار له، على أتم وجه، فقال: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى خذلانك ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ لتجترىء بالافتراء عليه، فإنه لا يفعل مثل هذا إلا من كان في مثل حالهم، قد ختم الله على قلبه، وأعمى بصيرته.

والخلاصة: أنه إن يشأ يجعلك منهم، لأنهم هم المفترون الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله.

وفي «التأويلات النجمية»: يعني أنك إن افتريته ختم الله على قلبك، ولكنك لم تكذب على ربك، فلم يختم على قلبك، وما أجمل هذا التعريض بأنهم مفترون، وأنهم في نسبة الافتراء إليه مفترون أيضاً، وشبيه بالآية قول أمين نسب

---

(١) المراغي.

إلى الخيانة: لعل الله خذلني لعل الله أعمى بصيرتي، لا يريد بمقاله إثبات الخذلان وعمى القلب، بل يريد استبعاد الخيانة من مثله، وأن من نسبه إلى ذلك فقد ركب شططاً وأتي أمراً إدّا، وقال قولاً نكراً.

ثم أكد استبعاد الافتراء منه وزاده إيضاحاً، فقال: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ استئناف مقرر لنفي الافتراء غير معطوف على ﴿يَخْتِمْ﴾ كما ينبىء عنه إظهار الاسم الجليل، وصيغة المضارع.

فائدة[1]: وكتب ﴿يمح﴾ في المصحف بحاء مرسلة، كما كتبوا، (ويدع الإنسان)، و(يدع الداع) و(سندع الزبانية)، مما ذهبوا فيه إلى الحذف، والاختصار نظراً إلى اللفظ، وحملاً للموقف على الوصل. يعني: أن سقوط الواو لفظاً لالتقاء الساكنين، حال الوصل، وخطاً أيضاً، حملاً للخط على اللفظ؛ أي: على أنه خلاف القياس، وليس سقوطها منه، لكونه مجزوماً بالعطف على ما قبله، لاستحالة المعنى؛ لأنه تعالى يمحو الباطل مطلقاً لا معلقاً بالشرط.

والمعنى: كيف يكون منه الافتراء على الله، وقد جرت عادته تعالى، أن يمحو الباطل ويمحق الشرك، ويثبت الحق والإسلام والتوحيد بكلماته؛ أي: بقضائه أو بوحيه. أو بما أنزله من القرآن. وينشره بين الناس، وها هو ذا يزداد ما أوتيه محمد ﷺ كل يوم قوة وانتشاراً، فلو كان مفترياً كما تدعون، لكشف افتراءه ومحقه، وقذف بالحق على باطله فدمغه.

وقد يكون المعنى: أن هذه عدة من الله لرسوله بالنصر، ويكون المراد يمحو الله باطلهم وما بهتوك به. ويثبت الحق الذي أنت عليه بقضائه، الذي لا مرد له فيكون هذا كلاماً معترضاً بين ما قبله وما بعده، مؤكداً لما سبق من الكلام، من كونهم مبطلين في نسبة الافتراء إلى من هو أصدق الناس حديثاً.

﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: عالم بما في قلب العباد؛ أي: بما تضمره القلوب، فيجري عليها أحكامها اللائقة بها، من المحو

---

(١) روح البيان.

والإثبات. ولم يقل[1]: ذوات الصدور لإرادة الجنس، وذات هنا تأنيث ذي، بمعنى صاحب، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه؛ أي: عليم بالمضمرات صاحبة الصدور، وهي الخواطر القائمة بالقلب، من الدواعي والصوارف الموجودة فيه، وجعلت صاحبة للصدور بملازمتها، وحلولها فيها، كما يقال للبن: ذو الإناء ولولد المرأة وهو جنين ذو بطنها، وفي الآية إشارة إلى أن الله تعالى يتصرف في عباده بما يشاء، من إبعاد قريب، وإدناء بعيد.

والمعنى: أي فيعلم ما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر، وتجري الأمور بحسب علمه الواسع، المحيط بكل شيء.

ثم امتن على عباده بقبول توبتهم، إذا هم تابوا ورجعوا إليه فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ من الذنوب ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ بالتجاوز عما فرط منهم في الزمن الماضي، من الذنوب، واقترفوا فيه من السيئات؛ لأنه إن لم يقبل كان إغراء بالمعاصي، وعدى القبول بعن؛ لتضمنه معنى التجاوز، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي عامة للمؤمن والكافر والولي والعدو، ومن تاب منهم، قبل الله توبته.

فصل في ذكر التوبة وحكمها

قال العلماء[2]: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى، لا تتعلق بحق آدمي.. فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يقلع عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً، فإذا حصلت هذه الشروط صحت التوبة، وإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته، وإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي،

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.

فشروطها أربعة: هذه الثلاثة.

والشرط الرابع: أن يبرأ من حق صاحبها، فهذه شروط التوبة الصحيحة. وقيل: التوبة الانتقال عن المعاصي نيةً وفعلاً، والإقبال على الطاعات نيةً وفعلاً، وقال سهل بن عبد الله التستري: التوبة الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة.

وقد ورد في الحث على التوبة كثير من الأحاديث في «الصحيحين» وغيرهما.

فمن ذلك: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه، في اليوم أكثر من سبعين مرة» أخرجه البخاري.

ومنها: ما رُوي عن الأغر بن بشار المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة»، أخرجه مسلم.

ومنها: ما رُوي عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن، من رجل نزل في أرض دوية، مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه، فنام نومة فاستيقظ، وقد ذهبت راحلته فطلبها، حتى إذا اشتد الحر والعطش، أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكان الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها طعامه وشرابه. فاللّه أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده» متفق عليه، الدوية الفلاة والمفازة.

ومنها: ما رُوي عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للّه أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة» متفق عليه.

ومنها: لمسلم عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده، حين يتوب إليه، من أحدكم، كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه. وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتي شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته،

فبينا هو كذلك، إذ هو بها قائمة عنده، فاخذ بخطامها ثم قال من شدة فرحه: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

ومنها: ما رُوي عن صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله جعل بالمغرب باباً، عرضه مسيرة سبعين عاماً، للتوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قبله، وذلك قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا...﴾ الآية، أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

ومنها: ما رُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل، يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»، أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن غريب.

ومنها: ما رُوي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار. ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها». أخرجه مسلم.

وروى جابر رضي الله عنه أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر، فلما فرغ من صلاته، قال له علي رضي الله عنه: إن سرعة اللسان بالاستغفار، توبة الكذابين، وتوبتك تحتاج إلى التوبة، فقال يا أمير المؤمنين: ما التوبة، قال: التوبة اسم يقع على ستة معان، على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم. وإذاقة النفس مرارة الطاعة، كما أذقتها حلاوة المعصية، وإذابتها في الطاعة، كما ربيتها في المعصية. والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.

﴿وَيَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في المستقبل؛ أي: يعفو عن صغائرها في المستقبل، بمحض فضله، وإن لم يتوبوا؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات. وقيل: يعفو عن السيئات صغائرها وكبائرها، غير الشرك لمن يشاء بمحض فضله ورحمته. وفي «التأويلات النجمية»: ويعفو عن كثير من الذنوب، التي لا يطلع العبد عليها، فيتوب عنها، وأيضاً يعفو عن كثير من الذنوب، قبل التوبة، ليصير العبد به قابلاً للتوبة، وإلا لما تاب ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ كائناً ما كان من خير أو شر، فيجازي

بالثواب أو بالعقاب، أو يتجاوز بالعفو بحسب ما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحكم والمصالح. وفي «التأويلات النجمية»: ويعلم ما تفعلون من السيئات والحسنات، مما لا تعلمون أنها من السيئات والحسنات، فبتلك الحسنات يعفو عن السيئات، وفي هذا حث على لزوم الحذر منه تعالى، والإخلاص له وإمحاض التوبة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَا يَفْعَلُونَ﴾ بياء الغيبة، وقرأ عبد الله وعلقمة وحمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ بتاء الخطاب، واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأن هذا الفعل وقع بين خبرين.

والموصول في قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في موضع نصب على المفعولية، والفاعل ضمير يعود على الله سبحانه؛ أي: يستجيب الله سبحانه، للذين آمنوا دعاءهم ويعطيهم ما طلبوه منه. يقال: استجاب وأجاب بمعنىً وقيل: المعنى: يقبل الله عبادة الذين آمنوا، وعملوا الصالحات؛ أي: يقبل عبادة المؤمنين المخلصين، ويثيبهم على طاعاتهم، يعني: يعطيهم الثواب في الآخرة. والإثابة[2] معنى مجازي للإجابة؛ لأن الطاعة لما شبهت بالدعاء، باعتبار ما يترتب عليها من الثواب، كانت الإثابة عليها، بمنزلة إجابة الدعاء، فعبر بها عنها، وقيل: إن الموصول في محل رفع على الفاعلية؛ أي: يجيب الذين آمنوا ربهم إذا دعاهم إلى طاعته، كقوله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾، والأول أولى باعتبار السياق ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ الله سبحانه على ما طلبوه، أو على ما يستحقونه من الثواب ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وكرمه وجوده ما يشاء تفضلاً وكرماً منه، وهو معطوف على ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ على الوجه الأول أعني: نصب الموصول، وعلى الوجه الثاني، أعني: رفع الموصول يكون قوله. ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ معطوفاً على مقدر تقديره: ويستجيبون لله تعالى بالطاعة، ويزيدهم على ما استحقوه من الثواب تفضلاً منه، وقيل: معنى ويزيدهم من فضله: يشفعهم في إخوانهم.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي ويجيب الذين آمنوا إذا دعوه، ويزيدهم من فضله على ما طلبوه بالدعاء.

وبعد أن ذكر ما أعده للمؤمنين من الثواب، أردف بما أعده للكافرين من العذاب فقال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ﴾ يوم القيامة﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: وجيع مؤلم بدل ما للمؤمنين من الثواب والفضل المزيد، فالمؤمنون استجاب لهم دعاءهم وزادهم من فضله، وهؤلاء الكفرة لا يستجيب لهم دعاءً ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾؛ أي: لجميعهم، ووسعه عليهم ﴿لَبَغَوْا۟﴾؛ أي: جميعهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لطغوا وعصوا وأفسدوا فيها، لأن الغنىٰ مبطرة مأشرة؛ أي: داع إلى البطر والأشر، أو لظلم بعضهم بعضاً، وقيل: المعنى: لو جعلهم سواءً في الرزق لما انقاد بعضهم لبعض، ولتعطلت الصنائع، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بغيهم في الأرض، طلبهم منزلة بعد منزلة ومركباً بعد مركب. وملبساً بعد ملبس، وقال بعضهم: لو أن الله تعالى رزق العباد من غير كسب، لتفرغوا للفساد في الأرض، ولكن شغلهم بالكسب حتى لا يتفرغوا للفساد، ونعم ما قيل:

إِنَّ ٱلشَّبَابَ وَٱلْفَرَاغَ وَٱلْجِدَهْ ... مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَهْ

أي: داعية إلى الفساد. ومعنى الفراغ: عدم الشغل، ولزوم البغي على بسط الرزق على الغالب، وإلا فقد يكون الفقير مستكبراً وظالماً، يعني: أن البغي مع الفقر أقل؛ لأن الفقر مؤد إلى الانكسار والتواضع غالباً، ومع الغنىٰ أكثر وأغلب؛ لأن الغنىٰ مؤد إلى البغي غالباً، فلو عم البسط كل واحد من العباد، لغلب البغي، وانقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن.

وذكروا في كون بسط الرزق موجباً للطغيان وجوهاً[2]:

الأول: أن الله لو سوى في الرزق بين الكل. امتنع كون البعض محتاجاً إلى البعض، وذلك يوجب خراب العالم وتعطيل المصالح.

---

(١) المراغي.

(٢) الفتوحات.

ثانيها: أن هذه الآية مختصة بالعرب، فإنهم كلما اتسع رزقهم، ووجدوا من ماء المطر ما يرويهم، ومن الكلأ والعشب ما يشبعهم، قدموا على النهب والغارة.

ثالثها: أن الإنسان متكبر بالطبع، فإذا وجد الغنىٰ والقدرة.. عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية، وهو التكبر وإذا وقع في شدة وبلية ومكروه.. انكسر وعاد إلى التواضع والطاعة، وكفىٰ بحال قارون عبرة.

قال علماؤنا[1]: أفعال الرب سبحانه لا تخلو عن مصالح، وإن لم يجب على الله الاستصلاح، فقد يعلم من حال عبده، أنه لو بسط عليه الرزق.. قاده ذلك إلى الفساد، فيزوي عنه الدنيا مصلحة له، فليس ضيق الرزق هواناً، ولا سعة الرزق فضيلة، وقد أعطى قوماً مع علمه بأنهم يستعملونه في الفساد، ولو فعل بهم خلاف ما فعل، لكانوا أقرب من الصلاح، وبالجملة فالأمر مفوض إلى مشيئته تعالى، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح، في كل فعل من أفعاله تعالى.

وروى أنس عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى، قال: «إن من عبادي المؤمنين، من يسألني الباب من العبادة، وإني عليم أني لو أعطيته إياه لدخله العجب فأفسده، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه، إلا الغنىٰ، ولو أفقرته لأفسده الفقر، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده الغنىٰ، وإني لأدبر عبادي لعلمي بقلوبهم، فإني عليم خبير»، ثم قال أنس: اللهم إني من عبادك المؤمنين، الذين لا يصلحهم إلا الغنىٰ فلا تفقرني برحمتك.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ﴾ سبحانه وتعالى من الرزق لعباده ﴿بِقَدَرٍ﴾؛ أي: بتقدير أزلي ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أن ينزله مما تقتضيه مشيئته، وهو مفعول ينزل ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾؛ أي: بأحوال عباده ﴿خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾؛ أي: محيط بخفايا أمورهم، وجلاياها، فيقدر لكل واحد منهم في كل وقت من أوقاتهم، ما يليق بشأنهم،

---

(١) الفتوحات.

فيفقر ويغني ويمنع ويعطي ويقبض ويبسط حسبما تقتضيه الحكمة الربانية، ولو أغناهم جميعاً لبغوا، ولو أفقرهم جميعاً لهلكوا، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم[1]: ﴿يُنَزِّلُ﴾ بتشديد الزاي. وابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف.

والمعنى[2]: أي ولو أعطى عباده من الرزق فوق حاجتهم، لحملهم ذلك على البغي والطغيان، وطلب ما ليس لهم طلبه؛ لأن الغنى مبطرة مأشرة، وكفى بحال قارون وفرعون، عبرة لمن اعتبر، ولكن يرزقهم ما فيه صلاحهم، وهو أعلم بحالهم، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر، بحسب ما يعلم من المصلحة في ذلك.

والخلاصة: أنه تعالى خبير بما يصلح عباده، من توسيع الرزق، وتضييقه، فيقدر لكل واحد منهم ما يصلحه. فيبسط ويقبض ويعطي ويمنع، ولو أغناهم جميعاً لبغوا. ولو أفقرهم جميعاً لهلكوا، فنظام العالم لا يستقر إلا على هذا الوضع القائم، الجامع بين الأمرين، فخوف الأغنياء يَزَعُهُم عن الظلم، وخوف الفقراء من الأغنياء، يدعوهم إلى التعاون معهم ليفوزوا بمبتغاهم، ويزعهم عن البغي، وقال قتادة: كان يقال: خير الرزق ما لا يطغيك ولا يلهيك.

وبعد أن بين أنه لا يعطي عباده ما زاد على حاجتهم؛ لأنه يعلم أن الزيادة تضرهم في دينهم، ذكر أنهم لو احتاجوا إلى الغيث، فهو لا يمنعه عنهم، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله: ﴿ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ والمطر من السماء على الأرض، فيغيثهم به من الجدب، ولذلك خص بالنافع منه. فإن المطر قد يضر. وقد لا يكون في وقته. قال الراغب: الغيث يقال في المطر. والغوث في النصرة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ أي: يئسوا منه. وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضاً، لتذكير كمال النعمة. فإن حصول النعمة بعد اليأس والبلية، أوجب لكمال الفرح. فيكون أدعى إلى الشكر. وقرأ الجمهور: ﴿قَنَطُواْ﴾ بفتح النون، وقرأ الأعمش وابن وثاب بكسرها. ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾؛ أي: يبسط بركات الغيث ومنافعه وما

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

يحصل به من الخصب في كل شيء من السهل والجبل والنبات والحيوان، وفي «فتح الرحمٰن»: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾: وهي الشمس، وذاك تعديد نعمة غير الأولى. وذلك أن المطر إذا جاء بعد القنوط حسن موقعه، فإذا دام سئم، وتجيء الشمس بعده عظيمة الوقع ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْوَلِيُّ﴾؛ أي: السيد المالك، الذي يتولى عباده بالإحسان ونشر الرحمة ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾؛ أي: المستحق للحمد على ذلك وغيره، لا غيرُه.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾؛ أي: متولى المطر، ومتصرفه، يرسله مرة بعد مرة ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾؛ أي: الأهل لأن يحمد على صنعه. إذ لا قبح فيه؛ لأنه بالحكمة. ودل الغيث على الاحتياج، وعند الاحتياج تتقوى العزيمة، والله تعالى يجيب دعوة المضطر. وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر رضي الله عنه: اشتد القحط وقنط الناس. فقال: مطروا إذن، ثم قرأ هذه الآية.

والمعنى: أي وهو الذي ينزل المطر من السماء، فيغيثهم به من بعد يأسهم من نزوله حين حاجتهم إليه، وينشر بركات الغيث، ومنافعه، وما يحصل به من الخصب، وهو الذي يتولى عباده بإحسانه، ويحمد على ما يوصله إليهم من رحمته.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن تحت العرش بحراً، ينزل منه أرزاق الحيوانات، يوحي الله سبحانه إليه. فيمطر ما شاء من سماء إلى سماء، حتى ينتهي إلى سماء الدنيا ويوحي إلى السماء أن غربليه. فتغربله فليس من قطرة تقطر إلا ومعها ملك يضعها موضعها، ولا ينزل من السماء قطرة إلا بكيل معلوم، ووزن معلوم، إلا ما كان من يوم الطوفان من ماء، فإنه نزل بغير كيل ولا وزن.

وروي: أن الملائكة يعرفون عدد المطر، ومقداره في كل عام؛ لأنه لا يختلف فيه البلاد، وفي الحديث: «ما من سنة بأمطر من أخرى، ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي، حول الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار».

ثم أقام الأدلة على ألوهيته فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي:

ومن دلائل قدرته تعالى، الموجبة لتوحيده، وصدق ما وعد به من البعث ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خلقهما على هذه الكيفية العجيبة والصنعة الغريبة، فإنهما بذاتهما وصفاتهما يدلان على شؤونه العظيمة، والإضافة[1] في ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: السمٰوات المخلوقة، والأرض المخلوقة ﴿وَمَا بَثَّ﴾ وفرق ونشر ﴿فِيهِمَآ﴾؛ أي: في السمٰوات والأرض، معطوف على السمٰوات؛ أي: وفي خلق ما بث فيهما، أو على الخلق؛ أي: في خلق السمٰوات والأرض، وفي ما بث فيهما ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾؛ أي: من حي. فهو من إطلاق المسبب، وهو الدبيب وإرادة السبب، وهو الحياة. فتكون الدابة بمعنى الحي، فتتناول الملائكة، فإن الملائكة ذووا حركات طيارون في السماء، وإن كانوا لا يمشون في الأرض.

وفي «الخازن»: فإن قلت: كيف[2] يجوز إطلاق لفظ الدابة على الملائكة؟

قلت: الدبيب في اللغة: المشي الخفيف على الأرض، فيحتمل أن يكون للملائكة مشي مع الطيران، فيوصفون بالدبيب، كما يوصف به الإنسان. وقيل: يحتمل أن الله تعالى خلق في السمٰوات أنواعاً من الحيوانات، يدبون دبيب الإنسان، وقيل: يحتمل أنه من إطلاق المثنى على المفرد، فيعود الضمير في ﴿فِيهِمَآ﴾ إلى الأرض فقط، كما في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ وإنما يخرجان من أحدهما وهو الملح.

يقول الفقير: إن للملائكة أحوالاً شتى، وصوراً مختلفة، لا يقتضي موطنهم الحصر، في شيء من المشي والطيران، فطيرانهم إشارة إلى قوتهم في قطع المسافة، وإن كان ذلك لا ينافي أن يكون لهم أجنحة ظاهرة، فلهم أجنحة يطيرون بها. ولهم أرجل يمشون بها. والله أعلم.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾؛ أي: على جمع الأجسام وحشرهم بعد البعث للمحاسبة ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾؛ أي: في أي وقت شاء جمعهم ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي:

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

قادر متمكن منه. وقوله: ﴿هو﴾[1] مبتدأ. و﴿قدير﴾ خبره. و﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ متعلق بقدير، وإذا مجردة عن معنى الشرط، متعلقة بجمعهم لا بقدير، لفساد المعنى. فإن المقيد بالمشيئة جمعه تعالى لا قدرته، و﴿إذا﴾ عند كونها بمعنى الوقت، مجردة عن الشرط كما تدخل على الماضي تدخل على المضارع، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾.

والمعنى[2]: أي ومن دلائل عظمته وقدرته وسلطانه القاهر، خلق السمٰوات والأرض، وما نشر فيهما من دابة، تدب وتتحرك، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوان على اختلاف أشكالهم وألوانهم، وهو يجمعهم يوم القيامة، فيجمع الأولين والآخرين، وسائر الخلائق في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، ثم يحكم بينهم بحكمه العدل، وهو اللطيف الخبير.

وقصارى ذلك: أنه قدير على جمع ما بث فيهما من دابة، إذا شاء جمعه، كما لم يتعذر خلقه وتفريقه.

ثم ذكر سبحانه دستوراً للناس في أعمالهم، إذا تأملوه.. أقلعوا عما يرتكبونه من الآثام، فقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾؛ أي[3]: والذي وصل إليكم أيها الناس ﴿مِّن مُّصِيبَةٖ﴾ أي مصيبة كانت، من الآلام والأسقام والقحط والخوف، حتى خدش العود وعثرة القدم واختلاج العرق وغير ذلك، في البدن، أو في المال، أو في الأهل والعيال، ويدخل فيه الحدود على المعاصي، كما أنه يدخل في قوله: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ ما لم يجعل له حد ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾؛ أي: فهو واقع بكم بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها، فإن ذكر الأيدي لكون أكثر الأعمال، مما يزاول بها، فكل نكد لاحق إنما هو بسبب ذنب سابق، أقله التقصير.

وفي الحديث: «لا يرد القدر إلا بالدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، وقوله: لا يرد القدر إلخ، لأن من جملة القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لدفع البلاء، وجلب الرحمة، كما أن الترس سبب لدفع السلاح، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، وقال الضحاك: ما تعلم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب، وأي معصية أقبح من نسيان القرآن، وتلا الآية.

وقرأ نافع وابن عامر[1]: ﴿بما كسبت﴾ بغير فاء، وقرأ الباقون بالفاء. و﴿ما﴾ في قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ هي الشرطية، ولهذا دخلت الفاء في جوابها، على قراءة الجمهور، ولا يجوز حذفها عند سيبويه والجمهور، وجوز الأخفش الحذف كما في قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، وقول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ ٱلْحَسَنَاتِ ٱللَّهُ يَشْكُرُهَا ... وَٱلشَّرُّ بِٱلشَّرِّ عِنْدَ ٱللَّهِ مِثْلَانِ

وقيل: هي الموصولة، فيكون الحذف والإثبات جائزين، والأول أولى، وقال الزجاج: إثبات الفاء أجود، لأن الفاء مجازاة جواب الشرط، ومن حذف الفاء، فعلى أن ﴿ما﴾ في معنى الذي، وقال بعضهم: ﴿ما﴾ موصول مبتدأ، دخلت الفاء في خبره، لتضمنه معنى الشرط.

والمعنى: والذي أصابكم، فواقع بما كسبت أيديكم، قال الحسن: المصيبة هنا: الحدود على المعاصي، والأولى الحمل على العموم، كما يفيده وقوع النكرة في سياق النفي، ودخول من الاستغراقية عليها.

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ من الذنوب التي يفعلها العباد، فلا يعاقب عليها، ولولا عفوه وتجاوزه ما ترك على ظهرها من دابة، وهذا من تتمة قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

والمعنى[2]: أي وما يحل بكم أيها الناس، من المصائب في الدنيا، فإنما تصابون به عقوبة لكم، على ما اجترحتم من الآثام، واقترفتم من الشرور والمعاصي، ويعفو لكم عن كثير من جرائمكم، فلا يعاقبكم بها، وقد ثبتت الأدلة

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

الصحيحة، أن جميع ما يصاب به الإنسان في الدنيا. يؤجر عليه، أو يكفر عنه من ذنوبه، وقيل: هذه الآية مختصة بالكافرين، على معنى أن ما يصابون به، بسبب ذنوبهم، من غير أن يكون ذلك مكفراً عنهم لذنب، ولا محصلاً لثواب، ويترك عقوبتهم عن كثير من ذنوبهم، فلا يعاجلهم في الدنيا، بل يمهلهم إلى الدار الآخرة، والأولى حمل الآية على العموم، والعفو يصدق على تأخير العقوبة، كما يصدق على محو الذنب ورفع الخطاب به.

فاللّه سبحانه[1] جعل للذنوب أسباباً، لها نتائجها ومسبباتها، فشارب الخمر، يصاب بكثير من الأمراض الجسمية، والعقلية في الدنيا، وهي أثر من آثار ما اجترح من الذنوب، والتاجر غير الأمين، أو الكذاب، تصاب تجارته بالكساد، ويشهر بين الناس بالخيانة، فيحجمون عن معاملته، والحكام المرتشون، الظلمة، الذين يجمعون أموالهم بالسحت، يصابون بالفقر والعدم، ويصبحون مثلاً بين الناس، وإن لم يصبهم الفقر.. يصب أولادهم، فيصبحوا بحال يرثى لها، ويصيروا أحاديث الخاصة والعامة، والأمم الظالمة، التي لا تناصر بين أفرادها، بل بينها التقاطع، ويبتز بعض أفرادها أموال بعض آخر، تصاب بالمهانة بعد العظمة، والذلة بعد العزة، وما الأمثال في ذلك بعزيزة.

وقد تقدم أن قلنا في غير موضع: إن عقاب الأفراد في الدنيا ليس بالمطرد، إذ كثيراً ما نرى سكيراً عربيداً، لا يصاب بأذى مما يفعل، ونرى تاجراً يخون الأمانة، ولا يصاب بكساد في تجارته، وحينئذٍ يكون عقاب كل منهما مؤجلاً ليوم الحساب، إن شاء ربك عاقب، وإن شاء عفا بعد التوبة، عما فرط منهما من الذنوب، والآثام.

وأما عقاب الأمم على ما تجترح من السيئات، فهو محقق في الدنيا، ولدينا عظة التاريخ في القديم والحديث، فما من أمة تركت أوامر دينها، وخالفت نواميس العمران، إلا زالت وصارت كأمس الدابر، وأصبحت عبرة للباقين. ومثلاً

---

(١) المراغي.

للآخرين ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾. وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده، ما يصيب المؤمن من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة يشاكها».

ولما نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما من خدش عود، ولا اختلاج عرق، ولا عثرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر». وروى الترمذي، وجماعة عن علي ـ كرم الله وجهه ـ قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله، حدثنا بها رسول الله ﷺ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ قال ﷺ: «وسأفسرها لك يا علي، ما أصابكم من مرض، أو عقوبة، أو بلاء في الدنيا، فبما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يعود بعد عفوه»، والآثار في هذا الباب كثيرة.

وقال الواحدي: وهذه أرجى آية في كتاب الله، لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين، صنف كفره عنهم بالمصائب، وصنف عفا عنه في الدنيا، وهو كريم لا يرجع في عفوه، فهذه سنة الله مع المؤمنين، وأما الكافر فإنه لا يعجل له عقوبة ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة انتهى.

والخلاصة: أنه يكفر عن العبد بما يصيبه من المصائب، ويعفو عن كثير من الذنوب.

ولما كان من يعاقب بدون الموت، ربما ظن أنه عاجز فائت، قال: ﴿وَمَآ أَنتُم﴾ أيها الناس، أجمعون عربكم وعجمكم ﴿بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: بفائتين عليه تعالى. هرباً في الأرض. ولا في السماء، لو كنتم فيها، لو أراد محقكم بالكلية، يعني: لو أراد الله سبحانه، ابتلاءكم وعقوبتكم.. فلا تفوتونه حيثما كنتم، ولا تسبقونه، ولا تقدرون أن تمنعوه من تعذيبكم، بل ما قضاه عليكم من المصائب واقع عليكم، نازل بكم ﴿وَمَا لَكُم﴾ أيها الناس، عند الاجتماع. فكيف عند الانفراد ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى المحيط بكل شيء عظمة وكبراً وعزة ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يوالي أموركم بالاستقلال، فيحميكم مما قضاه الله

من المصائب ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعها عنكم، أو يمنعكم من عذاب الله، في الدنيا والآخرة.

والمعنى[1]: أي وما لكم من دون الله ولي يليكم، بالدفاع عنكم، إذا أراد عقوبتكم على معصيتكم، ولا لكم نصير ينصركم، إذا هو عاقبكم فينتصر لكم، فاحذروا معاصيه، واتقوا مخالفة أوامره، فإنه لا دافع لعقوبته إذا أحلها بعبد من عباده.

ثم ذكر سبحانه، آية أخرى من آياته العظيمة، الدالة على توحيده، وصدق ما وعد به، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾؛ أي: ومن دلائل قدرته وباهر حكمته وعظيم سلطانه ﴿ٱلْجَوَارِ﴾؛ أي: السفن الجارية ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: في الماء الكثير العميق؛ أي: تسخيره البحر، لتجري فيه الفلك بأمره، حالة كون تلك الجواري ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ في عظمها وارتفاعها؛ أي: كالجبال الشاهقة، والمدن العالية.

أي[2]: ومن دلائل قدرته تعالى، السفن الجارية في البحر، لما فيها من عظيم دلائل القدرة، من جهة أن الماء جسم لطيف، شفاف، يغوص فيه الثقيل، والسفن تشخص بالأجسام الثقيلة الكثيفة. ومع ذلك جعل تعالى، للماء قوة يحملها بها، ويمنع من الغوص، ثم جعل الرياح سبباً لسيرها، فإذا أراد أن ترسو، أسكن الريح فلا تبرح عن مكانها، والجواري جمع جارية، وأصله: السفن الجواري، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه، وحسن ذلك قوله: ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ فدل ذلك على أنها صفة للسفن. وإلا فهي صفة غير مختصة. فكان القياس أن لا يحذف الموصوف، ولا يقام مقامه. ويمكن أن يقال: إنها صفة غالبة، كالأبطح فجاز أن تلي العوامل، بغير ذكر الموصوف، وقرىء ﴿الجواري﴾ بالياء ودونها، وسمع من العرب الإعراب في الراء. و﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ متعلق بالجواري، و﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ في موضع الحال، والأعلام: الجبال، ومنه قول الخنساء:

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

وَإِنَّ صَخْرَاً لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ   كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِيْ رَأْسِهِ نَارُ

قال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم. وقال مجاهد: الأعلام القصور، واحدها علم.

﴿إِن يَشَأْ﴾ الله سبحانه وتعالى. وهو شرط، جوابه قوله: ﴿يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تجريها ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾؛ أي: فيصرن[1] تلك السفن من ظل، بمعنى صار، أي: يصرن تلك السفن، بعد ما كانت جواري بريح طيبة ﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾؛ أي: ثوابت على ظهر البحر. غير جاريات ولا متحركات أصلاً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يَشَأْ﴾ بالهمزة، وقرأ ورش عن نافع بلا همزة، وقرأ جمهور السبعة: ﴿ٱلرِّيحَ﴾: بالإفراد، وقرأ نافع ﴿الرياح﴾ بالجمع، وقرأ الجمهور: ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾: بفتح اللام الأولى، وقرأ قتادة بكسرها، وهي لغة قليلة، والقياس الفتح لأن الماضي بكسر العين، فالكسر في المضارع شاذ.

والمعنى: إن يشأ الله، الذي قد أجرى هذه السفن في البحر، أن لا تجري فيه، أسكن الريح التي تجري بها، فتثبت في موضع واحد، وتقف على ظهر الماء، لا تتقدم ولا تتأخر.

ثم أتى بجملة معترضة بين ما مضى وما سيأتي فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من أمر السفن، اللاتي يجرين تارة، ويركدن تارة أخرى، على حسب مشيئة الله تعالى ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في العدد، دالة على ما ذكر من شؤونه ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾؛ أي: لكل من كان كثير الصبر على احتمال البلايا في طاعة الله تعالى ﴿شَكُورٍ﴾؛ أي: كثير الشكر على نعمائه، باستعمال كل عضو من الأعضاء، فيما خلق له، قال قطرب: نعم العبد الصبار الشكور، الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتُلي صبر، قال عون بن عبد الله:

فَكَمْ مِنْ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ غَيْرُ شَاكِرِ   وَكَمْ مِنْ مُبْتَلَىً غَيْرُ صَابِرِ

---

(١) روح البيان.   (٢) الشوكاني والبحر المحيط.

ويجوز أن يكون[1] مجموع صبار، شكور كناية عن الآتي بجميع ما كلف من الأفعال والتروك، فالمعنى: لكل مؤمن كامل في خصائل الإيمان، وثمراتها ترجع كلها إلى الصبر والشكر، فإن الإيمان نصفه صبر عن المعاصي، ونصفه شكر، وهو الإتيان بالواجبات.

والمعنى: أي إن في جري هذه الجواري في البحر، بقدرته تعالى، لحجة بينة على قدرته على ما يشاء، لكل ذي صبر على طاعته، شكور لنعمه وأياديه عنده، والمؤمن إذا كان في ضراء كان من الصابرين، وإذا كان في السراء كان من الشاكرين.

وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ معطوف على ﴿يُسْكِنِ﴾؛ أي: يُهلكهن الله تعالى بالغرق، والمراد: أهلهن بما كسبوا من الذنوب، وقيل: بما أشركوا. والأول أولى، فإنه يهلك في البحر المشرك وغير المشرك، يقال: أوبقه إذا أهلكه كما في «القاموس».

والمعنى: إن يشأ يسكن الريح، فيركدن على ظهره، أو يرسلها بشدة، فيغرقهن بعدله، وإيقاع الإيباق عليهن، مع أنه حال أهلهن للمبالغة والتهويل، يعني: أن المراد إهلاك أهلها بسبب ما كسبوا من الذنوب الموجبة للهلاك.

قال سعدي المفتي[2]: والظاهر أنه لا مانع من إبقاء الكلام على حقيقته فالآية مثل قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ إلخ؛ أي: يوبق سفائنهم بشؤم ما كسبوا ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ فلا يوبق أموالهم، انتهى. وإجراء حكمه على العفو، في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ لما أن المعنى: أو يرسلها فيوبق ناساً، وينجي آخرين، بطريق العفو.

وقرأ الأعمش[3]: ﴿ويعفو﴾ بالواو، وعن أهل المدينة ﴿ويعفو﴾ بنصب

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

الواو، وقرأ الجمهور: ﴿وَيَعْفُ﴾: مجزوماً، عطفاً على ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾، فأما قراءة الأعمش، فإنه أخبر تعالى، أنه يعفو عن كثير؛ أي: لا يؤاخذ بجميع ما اكتسب الإنسان، فهو كلام مستأنف، وأما النصب، فبإضمار أن بعد الواو، كالنصب بعد الفاء في قراءة من قرأ ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ﴾، وبعد ﴿الواو﴾ في قول الشاعر:

فَإِنْ يَهْلِكْ أَبُو قَابُوسَ يَهْلِكْ رَبِيعُ ٱلنَّاسِ وَٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ
وَنَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ أَجَبَّ ٱلظَّهْرِ لَيْسَ لَهُ سَنَامُ

رُوي بنصب (ونأخذ) ورفعه وجزمه، وفي هذه القراءة يكون العطف على مصدر متوهم؛ أي: يقع إيباق، وعفو عن كثير، وأما الجزم فإنه داخل في حكم جواب الشرط. إذ هو معطوف عليه. وهو راجع في المعنى إلى قراءة النصب، لكن هذا عطف فعل على فعل، وفي النصب عطف مصدر مقدر على مصدر متوهم.

والمعنى[1]: أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف، فيغرق السفن بذنوب راكبيها، ولكنه يعفو عن كثير من ذنوبهم، ولو آخذهم بجميع ما يجترحون منها، لأهلك كل من ركب البحر.

والخلاصة: أنه لو شاء أسكن الريح. فوقفت السفن رواكد على ظهر البحر، ولو شاء لأرسلها عاتية قوية، فأخرتها عن سيرها، وصرفتها ذات اليمين، وذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق، ولا تصل إلى مقصد حتى تغرق، ولكن من رحمته ولطفه يرسلها بقدر الحاجة، لينتفع بها الملاحون لقضاء أوطارهم.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ بالرفع. مستأنف على أنه جملة فعلية، ويكون الموصول فاعلاً. أو على أنه جملة اسمية، فيكون خبراً لمبتدأ محذوف، يعود على الله، ويكون الموصول مفعولاً؛ أي: وهو سبحانه يعلم الذين يجادلون إلخ. وهذه قراءة ظاهرة المعنى واضحة اللفظ، وبالنصب معطوف على تعليل مقدر

---

(١) المراغي.

للإغراق؛ أي: يغرقهم لينتقم منهم، ويعلم الذين يجادلون ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالتكذيب ويسعون في دفعها ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: من مهرب من عذاب الله، وجملة النفي سدت مسد مفعولي يعلم، والنفي معلق عن العمل، وبالجزم عطفاً على المجزوم قبله على معنى: وإن يشأ يجمع بين أمور ثلاثة: إهلاك قوم، ونجاة قوم، وتحذير آخرين؛ لأن قوله: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ إلخ يتضمن تحذيرهم من عقاب الله تعالى. وعلى هذه القراءة، فلا يوقف على كثير، بخلاف القراءتين الأوليين، فالوقف عليه تام. أما القراءة الأولى، أعني[1]: قراءة الرفع، فقرأ بها الأعرج وأبو جعفر وشيبة ونافع وابن عامر وزيد بن علي، وأما الثانية أعني: قراءة النصب، فقرأ بها الجمهور، وأما القراءة الثالثة فشاذة.

والمعنى[2]: أي وليعلم الذين ينازعون في آياتنا على جهة التكذيب، لها أنه لا مخلص لهم، ولا مهرب إذا وقفت السفن، أو إذا عصفت الريح، فيكون ذلك سبباً لاعترافهم، بأن الإله النافع الضار، ليس إلا الله سبحانه وتعالى.

والخلاصة: فكما لا مخلص لهم إذا وقفت، أو عصفت الرياح؛ كذا لا مهرب لهم من عذابه بعد البعث، فلا بد من الاعتراف بأن الضار والنافع ليس إلا الله، وأن كل أمر حدث فإنما هو بتأثيره.

ولما ذكر سبحانه دلائل التوحيد.. ذكر التنفير عن الدنيا، فقال: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾؛ أي: أعطيتم أيها الناس ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ مما ترغبون فيه، وتتنافسون به، من الغنى، والسعة في الرزق، والمال، والبنين ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: فهو متاعها ومنفعتها، تتمتعون وتنتفعون به مدة حياتكم القليلة، فيزول ويفنى؛ ولله در القائل:

إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا فَنَاءٌ   لَيْسَ لِلدُّنْيَا ثُبُوتْ
إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَبَيْتٍ   نَسَجَتْهُ ٱلْعَنْكَبُوتْ

وفي هذا، تحقير لشأن هذه الحياة، وزينتها، وما فيها من النعيم الزائل،

---

(١) البحر المحيط.   (٢) المراغي.

﴿فما﴾[1] موصولة، متضمنة لمعنى الشرط، من حيث إن إيتاء ما أوتوا سبب للتمتع به في الحياة الدنيا، ولذا دخلت الفاء في جوابها، وقدر المبتدأ لأن الجواب لا يكون إلا جملة. يعني: أن سببيته مقصود فيها الإعلام لتضمنها الترغيب في الشكر، بخلاف الثانية أعني: قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ إلخ، فإن المقصود فيها، بيان حال أن ما عند الله، سبب للخيرية والدوام، وقيل: إن ﴿ما﴾ شرطية، على أنها مفعول ثان لـ﴿أُوتِيتُم﴾ بمعنى أعطيتم، والأول هو ضمير المخاطبين، قائم مقام الفاعل، ومن شيء بيان لها، لما فيها من الإبهام.

ثم رغبهم في ثواب الآخرة، وما عند الله من النعيم المقيم فقال: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، من ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ ذاتاً، لخلوص نفعه من المكدرات ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ زماناً، حيث لا يزول ولا يفنى، بخلاف ما في الدنيا، أي: وما عند الله تعالى من ثواب الطاعات والجزاء عليها، والنعيم المقيم خير من زهرة الدنيا؛ لأنه باق سرمدي، وما في الدنيا زائل فانٍ، والعقل قاض بترجيح الباقي على الفاني، وفيه إشارة إلى أن الراحات في الدنيا لا تصفو، ومن الشوائب لا تخلو، وإن اتفق لبعضهم منها في الأحايين، فإنها سريعة الزوال وشيكة الارتحال، وما عند الله من الثواب الموعود، خير وأبقى من هذا القليل الموجود، بل ما عند الله من الألطاف الخفية والمقامات العلية، والمواهب السنية خير وأبقى مما في الدنيا والآخرة.

ثم بين سبحانه، أنه لا يكون خيراً إلا لمن اتصف بصفات:

١ - ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تنازع فيه كل من خير، وأبقى؛ أي: ما عند الله تعالى خير، للذين صدقوا وحدانية الله، وآمنوا برسوله، وعملوا على ما يوجبه الإيمان.

٢ - ﴿و﴾ خير للذين ﴿على ربهم يتوكلون﴾؛ أي وخير للذين على من رباهم بإحسانه يعتمدون، وإليه يفوضون أمورهم. ولا يلتفتون إلى غيره في مهام أمورهم. رُوي: أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تصدق

---

(١) روح البيان.

بماله. فلامه المسلمون، وخطأه الكافرون.

٣ ـ ﴿و﴾ خير لـ﴿الذين يجتنبون﴾ ويبتعدون ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ وعظائم الذنب، كالقذف والشرب والسرقة والغيبة والنميمة ﴿و﴾ يبتعدون ﴿الفواحش﴾ التي ينكرها الشرع والعقل والطبع السليم، من قول أو فعل، اختص بصيغة الفحش، وهي فوق الكبائر، كالزنا واللواط، والموصول في محل الجر، معطوف[1] على الذين آمنوا عطف الصفة على الصفة؛ لأن الذات واحدة، والعطف إنما هو بين الصفات، والكبائر: جمع كبيرة، وهي ما أوجب الله عليه الحد في الدنيا. والعذاب في الآخرة، كالقذف والشرب والسرقة. والفواحش: جمع فاحشة، بمعنى قبيحة مفرطة في القبح، وهي ما اختص من الكبائر بصفة الفحش، فكأنها فوقها كالشرك، والقتل والزنا واللواط وعقوق الوالدين، فيكون عطف الفواحش على الكبائر، من عطف البعض على الكل، إيذاناً بكمال شناعته، وقيل: هما واحد، والعطف لتغاير الوصفين، وقرأ الجمهور ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾ بالجمع هنا وفي النجم، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿كبير الإثم﴾ بالإفراد، وهو يفيد مفاد الكبائر، لأن الإضافة للجنس كاللام.

و﴿إذا﴾ في قوله:

٤ ـ ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ ظرفية مجردة عن معنى الشرط، متعلقة بيغفرون، و﴿ما﴾ زائدة، و﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَغۡفِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية هي المعطوفة على الصلة، وهي ﴿يَجۡتَنِبُونَ﴾ عطف اسمية على فعلية، والتقدير: والذين يجتنبون كبائر الإثم وهم يغفرون، لا أنها شرطية، والاسمية جوابها لخلوها عن الفاء الرابطة. والغضب: ثوران دم القلب إرادَة الانتقام، ولذلك قال عليه السلام: «اتقوا الغضب فإنه جمرة توقد في قلب ابن آدم. ألم تر إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه». والمغفرة هنا بمعنى العفو والتجاوز والحلم وكظم الغيظ، والمعنى والذين هم، يعفون ويتجاوزون ويحلمون ويكظمون الغيظ،

---

(١) روح البيان.

وقت غضبهم على أحد، ويتجرعون كاسات الغضب النفسانية، بأفواه القلوب الروحانية الربانية ويسكنون صورة الصفة الشيطانية، وفيه دلالة على أنهم الأخصاء بالمغفرة حال الغضب لعزة منالها، لا يزيل الغضب أخلاقهم، كسائر الناس، وذلك لأن تقديم الفاعل المعنوي، أو التقديم مطلقاً يفيد الاختصاص.

والخلاصة: أي[١] وإذا ما غضبوا كظموا غيظهم، إذ من سجاياهم الصفح والعفو، وليس من طباعهم الانتقام، وقد ثبت في «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ، ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمات الله.

وقوله:

٥ - ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾، أي: أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من توحيده. والبراءة من عبادة كل ما يعبد من دونه، معطوف[٢] على الموصول الأول عطف خاص على عام، لمزيد التشريف، وذلك لأن الاستجابة داخلة في الإيمان، قيل: نزلت الآية في الأنصار، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان، فاستجابوا له من صميم القلب، ولا يلزم منه أن تكون الآية مدنية، فإن كثيراً منهم أسلموا بمكة قبل الهجرة، وفيه إشارة إلى أن الاستجابة للرسول استجابة للمرسل.

وقوله:

٦ - ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة؛ أي: أدوها لمواقيتها بشروطها وأركانها وهيئاتها، معطوف على استجابوا، فهو من أوصاف الأنصار أيضاً، وخص الصلاة من بين أركان الدين، كالزكاة والصوم والحج لما لها من الخطر في صفاء النفوس، وتزكية القلوب، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولأنه[٣] ما بين العبد والإيمان إلا إقامة الصلاة كما أنه ما بينه وبين الكفر إلا ترك الصلاة، فإذا أقام الصلاة فقد آمن، وأقام الدين، كما أنه إذا تركها فقد كفر وهدم الدين، وفي

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

الحديث: «أول ما يحاسب العبد يوم القيامة بصلاته، فإن صلحت أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر».

وقوله:

٧ - ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ معطوف على الصلة. أعني: استجابوا عطف اسمية على فعلية. وشورى مصدر. كالفتيا بمعنى التشاور؛ أي: وأمرهم ذو تشاور بينهم لا ينفردون برأي، حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه.

قال سعدي المفتي: فإن قلت: لا حاجة إلى إضمار المضاف لظهور صحة: وشأنهم تشاور بينهم.

قلت: المصدر المضاف من صيغ العموم، فيكون المعنى: جميع أمورهم تشاور، ولا صحة له إلا أن يقصد المبالغة في كثرة ملابستهم به، وعلى هذا فيجوز أن يكون قوله: ذو شورى لبيان حاصل المعنى انتهى.

وكانوا قبل الهجرة وبعدها إذا حزبهم أمر اجتمعوا وتشاوروا، وذلك من فرط تدبرهم وتفقههم في الأمور، وفي «عين المعاني»: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ حين[١] سمعوا بظهوره ﷺ، فاجتمع رأيهم في دار أبي أيوب، على الإيمان به والنصر له، وقيل: لها العموم؛ أي: لا يستبدون برأيهم فيما لا وحي فيه من أمر الدين، بل يشاورون الفقهاء، وقيل: في كل ما يعرض من الأمور، انتهى.

وقال علي رضي الله عنه: نعم الموازنة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد قال حكيم: اجعل سرك إلى واحد، ومشورتك إلى ألف، وقيل: من بدأ بالاستخارة وثني بالاستشارة لحقيق أن لا يضل رأيه، وقال الإسكندر: لا يستحقر الرأي الجزيل من الرجل الحقير، فإن الدرة لا يستهان بها لهوان غائصها، يقال: أعقل الرجال لا يستغني عن مشاورة أولي الألباب، وأفره الدواب لا يستغني عن السوط، وأورع النساء لا يستغني عن الزوج.

وعن الحسن[٢]: ما تشاور قوم؛ إلا هدوا لأرشد أمرهم. وقال ابن

---

(١) عين المعاني.

(٢) المراغي.

العربي: الشورى ألفة للجماعة، وصقال للعقول، وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم إلا هدوا، ولأمرٍ ما أصبحت الحكومات في العصر الحاضر، لا تبتُّ في مهام الأمور، إلا إذا عرضت على مجالس الشورى ـ البرلمان، مجلس الشيوخ، والنواب ـ وكأني بك قد سمعت قول بشار بن برد في فوائد الشورى:

إِذَا بَلَغَ ٱلرَّأْيُ ٱلْمَشُوْرَةَ فَٱسْتَعِنْ بِرَأْيِ لَبِيْبٍ أَوْ مَشُوْرَةِ حَازِمِ
وَلاَ تَجْعَلِ ٱلشُّوْرَىٰ عَلَيْكَ غَضَاضَةً فَرِيْشُ ٱلْخَوَافِي قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ
وَمَا خَيْرُ كَفٍّ أَمْسَكَ ٱلْغِلُّ أُخْتَهَا وَمَا خَيْرُ كَفٍّ لَمْ تُؤَيَّدْ بِقَائِمِ

وقد كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الكثير من الأمور، ولم يكن يشاورهم في الأحكام؛ لأنها منزلة من عند الله تعالى. أما الصحابة فكانوا يتشاورون فيها، ويستنبطونها من الكتاب والسنة، وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة، فإن النبي ﷺ لم ينص عليها حتى انتهى أمرهم إلى أبي بكر، وتشاوروا في قتال من ارتدوا، بعد وفاة رسول الله ﷺ، فاستقر رأي أبي بكر على القتال، وقد كان فيه الخيرة للإسلام والمسلمين، وشاور عمر رضي الله عنه الهرمزان حين وفد. ونحو الآية قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾.

وقوله:

٨ ـ ﴿و﴾ الذين ﴿مما رزقناهم﴾ من الأموال ﴿يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير، ويتصدقون منه على المحاويج، معطوف على الصلة أيضاً، ولالتفات إلى إنفاق الكافر، فإنه لم يستجب لربه بالإيمان والطاعة، فخيره محبط بكفره.

ولعل[1] فصله عن قرينه بذكر المشاورة، لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات، كما في «الإرشاد». قال سعدي المفتي: ثم إن إدخال هذه الجملة يعني: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ بين خصال الإيمان، لعله لمزيد الاهتمام بشأن المشاورة، للمبادرة إلى التنبيه على أن استجابتهم للإيمان كانت عن بصيرة، ورأي سديد، انتهى.

---

(١) روح البيان.

ثم ذكر سبحانه وتعالى، الطائفة التي تنتصر ممن ظلمها، فقال:

٩ - ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ﴾؛ أي: وصل إليهم الظلم ﴿يَنتَصِرُونَ﴾؛ أي: ينتقمون ممن ظلمهم معطوف على الموصول الأول.

والمعنى: إذا وصل إليهم الظلم، والتعدي من ظالم متعد، ينتقمون ويقتصون ممن بغىٰ عليهم، على الوجه الذي جعله الله، ورخصه لهم، لا يتجاوزون ذلك الحد المعين، وهو رعاية المماثلة، وأما غيرهم فليسوا كذلك، فهذا هو معنى التخصيص هنا، وقد ذكر[١] سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح، كما ذكر المغفرة عند الغضب في معرض المدح؛ لأن التذلل لمن بغىٰ، ليس من صفات من جعل الله له العزة، حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فالانتصار عند البغي فضيلة، كما أن العفو عند الغضب فضيلة. وقال في «الروح»: وهذا وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم، بسائر أمهات الفضائل، من الدين والتيقظ، والحلم والسخاء. وذلك لأن البغي إنما يصيبهم من أهل الشوكة والغلبة، فإذا انتقموا منهم على الحد المشروع، كراهة التذلل، باجتراء الفساق عليهم، وردعاً للجاني عن الجراءة على الضعفاء، فقد ثبت شجاعتهم وصلابتهم في دين الله، وكان النخعي رحمه الله تعالى، إذا قرأ هذه الآية يقول: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم، فتجترىء عليهم السفهاء. قال الشاعر:

وَلاَ يُقِيْمُ عَلَىٰ ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ ... إِلاَّ ٱلأَذَلاَّنِ عِيْرُ ٱلْحَيِّ وَٱلْوَتَدُ
هَذَا عَلَىٰ ٱلْخَسْفِ مَرْبُوْطٌ بِرُمَّتِهِ ... وَذَا يُشَجُّ فَلاَ يَرْثِيْ لَهُ أَحَدُ

أي: لا يصبر على ظلم يراد في حقه، إلا الأذلان هما في غاية الذل، وهما الحمار المربوط على الذل، بقطعة حبل بالية، والوتد الذي يدق ويشق رأسه، فلا يرحم له أحد. ولفظ البيت خبر، والمعنى: نهي عن الصبر على الظلم، وتحذير وتنفير للسامعين عنه.

واعلم[٢]: أن المؤمنين فريقان:

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

أ ـ فريق يعفو اتباعاً، لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

ب ـ فريق ينتصر ممن ظلمه، وهو المذكور في هذه الآية.

والخلاصة: أن العفو ضربان:

١ ـ ضرب يكون فيه العفو سبباً لتسكين الفتنة، وتهدئة النفوس، ومنع استفحال الشر، وهذا محمود، وحثت عليه الآيات الكريمة، التي ذكرت آنفاً.

٢ ـ ضرب يكون فيه العفو سبباً لجراءة الظالم، وتماديه في غيه، وهذا مذموم، وعليه تحمل الآية، التي نحن بصدد تفسيرها؛ فالعفو عن العاجز المعترف بجرمه محمود، والانتصار من المخاصم المصر على جرمه، والمتمادي في غيه محمود، وإلى هذا أشار المتنبي:

إذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ ٱلْكَرِيْمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ ٱللَّئِيْمَ تَمَرَّدَا
فَوَضْعُ ٱلنَّدَىٰ فِي مَوْضِعِ ٱلسَّيْفِ بِٱلعُلاَ مُضِرٌّ كَوَضْعِ ٱلسَّيْفِ فِي مَوْضِعِ ٱلنَّدَىٰ

الإعراب

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿لَطِيفٌ﴾ خبر. ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ متعلق: بـ﴿لَطِيفٌ﴾ والجملة مستأنفة، وجملة ﴿يَرْزُقُ﴾: خبر ثان. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول به لـ﴿يَرْزُقُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلتها، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿هو القوي﴾: مبتدأ وخبر ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ خبر ثان، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، في محل الجزم على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير مستتر يعود على ﴿مَن﴾، وجملة ﴿يُرِيدُ﴾: خبرها،

﴿حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾: مفعول يريد. ﴿نَزِدْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه جواب الشرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿نَزِدْ﴾، ﴿فِى حَرْثِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿نَزِدْ﴾ أيضاً، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية، مستأنفة، مسوقة لبيان الفرق بين عملي العاملين، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، ﴿كَانَ﴾: فعل شرط لها. وجملة ﴿يُرِيدُ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾: مفعول ﴿يُرِيدُ﴾، ﴿نُؤْتِهِۦ﴾ جواب الشرط ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بـ﴿نُؤْتِهِۦ﴾، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة من الأولى، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، أو حالية ﴿مَا﴾: نافية، أو حجازية عند من يجيز تقدم خبرها على اسمها، ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم، ﴿فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ حال، ﴿مِن﴾ حرف جر زائد، ﴿نَّصِيبٍ﴾ مبتدأ مؤخر، أو اسم ﴿ما﴾ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة من الشرطية، أو حال من ضمير المفعول في ﴿نُؤْتِهِۦ﴾، أي: نؤته منها حال كونه عادم النصيب في الآخرة.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام التوبيخي. ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿شُرَكَٰٓؤُا۟﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿شَرَعُوا۟﴾ صفة لـ﴿شُرَكَٰٓؤُا۟﴾، ﴿لَهُم﴾ متعلق بـ﴿شَرَعُوا۟﴾، ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾: حال من ﴿مَا﴾ الموصولة، المذكورة بعده، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول ﴿شَرَعُوا۟﴾، وجملة ﴿لَمْ يَأْذَنۢ﴾ صلة لما الموصولة ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ﴿يَأْذَنۢ﴾، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، ﴿وَلَوْلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود، و﴿كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف وجوباً والجملة الاسمية شرط لـ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿لَقُضِىَ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لولا﴾، ﴿قضي﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ظرف في محل الرفع، نائب فاعل لقضي، وجملة ﴿قضي﴾ جواب ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب؛ لأنها جواب شرط غير جازم، وجملة ﴿لولا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إن الظالمين﴾: ناصب

واسمه ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾، وجملة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿تَرَى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على أي مخاطب، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مفعول به؛ لأن رأى بصرية، والجملة مستأنفة. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ حال من الظالمين، ﴿مِمَّا﴾: متعلق بـ﴿مُشْفِقِينَ﴾، وجملة ﴿كَسَبُوا۟﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: مما كسبوه، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ﴾: ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هو واقع﴾: مبتدأ وخبر ﴿بِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿وَاقِعٌۢ﴾، والجملة حال من العائد المحذوف، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الذين﴾، مبتدأ، ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿لَهُم﴾ خبر مقدم، ﴿مَّا﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، أو حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، وجملة ﴿يَشَآءُونَ﴾: صلة لـ﴿مَّا﴾ الموصولة، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بالاستقرار العامل في لهم، ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْفَضْلُ﴾ خبر ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ صفة لـ﴿ٱلْفَضْلُ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلَّذِى﴾ خبره، والجملة مستأنفة، ﴿يُبَشِّرُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ﴿عِبَادَهُ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يبشر الله به عباده، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة للعباد، ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول،

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿لَّآ﴾: نافية، ﴿أَسْـَٔلُكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول أول، ﴿عَلَيْهِ﴾: حال من ﴿أَجْرًا﴾. و﴿أَجْرًا﴾ مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿ٱلْمَوَدَّةَ﴾: منصوب على الاستثناء، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً؛ أي: لا أسألكم عليه أجراً إلا هذا، وهو أن تودوا أهل قرابتي، ويجوز أن يكون منقطعاً؛ أي: لا أسألكم أجراً مالياً، ولكني أسألكم أن تودوا أهل قرابتي، الذين هم قرابتكم، ﴿فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: متعلق بـ﴿ٱلْمَوَدَّةَ﴾، أو حال منها، ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿من﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما، ﴿يَقْتَرِفْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿حَسَنَةً﴾: مفعول به، ﴿نَّزِدْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿نَّزِدْ﴾، ﴿فِيهَا﴾: حال من ﴿حُسْنًا﴾، و﴿حُسْنًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قُل﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿غَفُورٌ شَكُورٌ﴾: خبران له، وجملة إن مستأنفة. مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة، بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام التقريري. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على محمد ﷺ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول القول. ﴿فَإِن يَشَإِ﴾: الفاء: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿يَشَإِ ٱللَّهُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مجزوم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿يَخْتِمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿إن﴾

على كونه جواب الشرط. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: متعلق بـ﴿يَخْتِمْ﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يمح﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الواو المحذوفة لفظاً، لالتقاء الساكنين، المحذوفة خطاً، تبعاً للفظ، منع من ظهورها الثقل، ولفظ الجلالة فاعل، والجملة مستأنفة غير داخلة في جواب الشرط؛ لأنه تعالى يمحو الباطل مطلقاً. ﴿الْبَاطِلَ﴾: مفعول به، ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾. ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾: متعلق بـ﴿يحق﴾. ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبره. ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾: مبتدأ وخبره، ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، صلة الموصول، والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان قبول التوبة. ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾: متعلق بـ﴿يَقْبَلُ﴾. ﴿وَيَعْفُوا﴾: معطوف على يقبل، ﴿عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾: متعلق به. ﴿وَيَعْلَمُ﴾: معطوف على ﴿يَقْبَلُ﴾ أيضاً، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿تَفْعَلُونَ﴾: صلة الموصول.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يستجيب﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يَقْبَلُ﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله. ﴿الَّذِينَ﴾: في محل النصب بنزع الخافض؛ أي: ويستجيب للذين آمنوا دعاءهم، فحذف الجار، كما حذف في قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾؛ أي: كالوا لهم، وأجاز «السمين» أن يكون اسم الموصول فاعلاً، والجملة مستأنفة، والسين والتاء زائدتان؛ أي: يجيبون ربهم إذا دعاهم إلى طاعته، ويجوز أن يكون الموصول مفعولاً به، بعد أن تقررت زيادة السين والتاء؛ أي: يجيب الله الذين آمنوا، والأول أقوم، وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾ صلة الموصول ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿وَيَزِيدُهُم﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، معطوف على ﴿يستجيب﴾، ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾: متعلق بـ﴿يزيدهم﴾، ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾: مبتدأ، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ

مؤخر، ﴿شَدِيدٌ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية خبر لـ﴿الكافرون﴾، وجملة ﴿الكافرون﴾ مستأنفة.

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾: متعلق ببسط، ﴿لَبَغَوْا۟﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿بغوا﴾: فعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿لو﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾: الشرطية مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك مهمل، ﴿يُنَزِّلُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿بِقَدَرٍ﴾: حال من ﴿ما﴾ الموصولة، المذكورة بعده. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول ﴿يُنَزِّلُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلته. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٌۢ﴾، و﴿خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾: خبران لـ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾: فعل وفاعل مستتر. ومفعول به، والجملة صلة الموصول ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُنَزِّلُ﴾. ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿قَنَطُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة ما المصدرية، وهي مع مدخولها في تأويل مصدر، مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من بعد قنوطهم، ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هو الولي﴾: مبتدأ وخبر، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿ينشر﴾ و﴿يُنَزِّلُ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَمِنْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من آياته﴾: خبر مقدم. ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان بعض الأدلة على توحيده وقدرته تعالى. ﴿وَمَا﴾: في محل رفع، معطوف على ﴿خَلْقُ﴾، أو في محل جر، معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهذا الأخير أرجح، لسلامته من التقدير، إذ لا بد من تقدير مضاف على الأول؛ أي: خلق ما بث، و﴿بَثَّ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿فِيهِمَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: وما بثه فيهما، ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: حال من العائد المحذوف. ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾ حالية. ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ﴿جَمْعِهِمْ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: في محل جر بإضافة الظرف إليه. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿بَثَّ﴾.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿أَصَٰبَكُم﴾: فعل ومفعول به، في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على ﴿ما﴾، ﴿مِّن مُّصِيبَةٍ﴾: حال من فاعل ﴿أَصَٰبَكُم﴾، ﴿فَبِمَا﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية وجوباً، ﴿بما﴾: جار ومجرور، متعلق بواجب الحذف، لوقوعه خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: فذلك كائن بما كسبت أيديكم، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماض، ﴿أَيْدِيكُمْ﴾: فاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: فبما كسبته أيديكم، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ موصولة، والفاء: داخلة في الخبر، تشبيهاً للموصول بالشرط. ﴿وَيَعْفُواْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿يعفو﴾: فعل مضارع،

وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿عَن كَثِيرٍ﴾: متعلق بـ﴿يعفو﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ما﴾ الشرطية، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: حجازية. ﴿أَنتُم﴾: اسمها، ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾: الباء زائدة، معجزين خبر لـ﴿ما﴾، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾. أو حال من الضمير المستكن في ﴿معجزين﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾: نافية، أو حجازية ﴿لَكُم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من ﴿وَلِيٍّ﴾ و﴿نَصِيرٍ﴾، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿وَلِيٍّ﴾ مبتدأ مؤخر، أو اسم ما مؤخر، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾: معطوف عليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿ما﴾ الأولى.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿من آياته﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْجَوَارِ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لفظاً وخطاً. أو خطاً فقط، ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾: حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، أو متعلق بالجوار، ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾: حال ثانية على الوجه الأول، وعلى الوجه الثاني هي حال من الضمير في ﴿ٱلْجَوَارِ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿يَشَأْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿يُسْكِنِ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية، على كونه جواب شرط لها، ﴿ٱلرِّيحَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾: الفاء عاطفة، ﴿يظللن﴾: فعل مضارع ناقص، في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية، لكونه معطوفاً على ﴿يُسْكِنِ﴾، مبني على السكون، لاتصاله بنون النسوة، ونون النسوة في محل الرفع اسمها؛ لأنه من ظل الناقصة. ﴿رَوَاكِدَ﴾: خبرها. ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿رَوَاكِدَ﴾. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿آيات﴾: اسمها مؤخر. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، صفة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾، ﴿شَكُورٍ﴾: صفة

﴿صَبَّارٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أَوْ﴾: حرف عطف، ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾: فعل مضارع، معطوف على ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾؛ أي: يفرقهن بعصف الريح عليهن، قال الزمخشري: فإن قلت: علام عطف يوبقهن، قلت: على ﴿يُسْكِنِ﴾؛ لأن المعنى: إن يشأ يسكن الريح، فيركدن على ظهره، أو يعصفها فيفرقن بعصفها، أو بطروء خلل على أجهزتها، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾، و﴿ما﴾ إما موصولة أو مصدرية، والباء للسببية؛ أي: بسبب ما كسبوه من الذنوب، أو بسبب كسبهم، وجملة ﴿كَسَبُوا﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: بما كسبوه، أو صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿وَيَعْفُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يُسْكِنِ﴾ أيضاً، مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة ﴿عَن كَثِيرٍ﴾: متعلق بـ﴿يعف﴾، والمعنى: أو إن يشأ يهلك ناساً، وينج ناساً، على طريق العفو عنهم. ﴿وَيَعْلَمَ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿يعلم﴾: فعل مضارع، معطوف على تعليل مقدر تقديره: يفرقهم لينتقم منهم ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ وللمعطوف حكم المعطوف عليه، تبعه بالنصب، ﴿الَّذِينَ﴾: فاعل. ﴿يُجَادِلُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿فِي آيَاتِنَا﴾: متعلق بـ﴿يُجَادِلُونَ﴾، وقرىء ﴿يعلم﴾: بالرفع على الاستئناف، على أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: وهو سبحانه يعلم الذين، ويكون الموصول مفعولاً به، والفاعل ضمير يعود على المبتدأ المحذوف، وتكون الجملة اسمية، أو على أن الفاعل هو الموصول، وتكون الجملة فعلية، وقرىء بالجزم عطفاً على الجواب السابق، كأنه قال: وإن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور: هلاك قوم، ونجاة آخرين، وتحذير آخرين. ﴿مَا﴾: نافية أو حجازية. ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم، ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿مَّحِيصٍ﴾: مبتدأ مؤخر، أو اسم ما مؤخر. وجملة النفي، سدت مسد مفعولي يعلم المعلقة بالنفي عن العمل.

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَمَآ﴾: الفاء: استئنافية، ﴿ما﴾: اسم شرط جازم، في محل النصب، مفعول ثان مقدم لـ﴿أُوتِيتُم﴾. ﴿أُوتِيتُم﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل، في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، والمفعول الأول، هو ضمير المخاطبين، ﴿مِن شَيْءٍ﴾ بيان لـ﴿ما﴾، متعلق بمحذوف حال من ﴿ما﴾، ﴿فَمَتَٰعُ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط ﴿متاع﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: فهو متاع الحياة الدنيا. ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾: معطوف على ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿ما﴾ الشرطية، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أبقى﴾ أو بـ﴿خَيْرٌ﴾ على الخلاف المذكور في محله، ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿وَعَلَىٰ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿على ربهم﴾ متعلق بـ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، و﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾ على كونه صلة الموصول.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: في محل الجر معطوف على ﴿لِلَّذِينَ﴾، وجملة ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾: صلة الموصول. و﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾: معطوف على ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾. ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ﴿يَغْفِرُونَ﴾، ﴿مَا﴾: زائدة، ﴿غَضِبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَغْفِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ على كونها صلة الموصول، عطف اسمية على فعلية، والتقدير: والذين يجتنبون كبائر الإثم، وهم غافرون وقت

غضبهم، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول، وجملة ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾ صلة له. ﴿لِرَبِّهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾، ﴿وَأَمۡرُهُمۡ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿أمرهم﴾: مبتدأ، ﴿شُورَىٰ﴾: خبر. ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾: ظرف متعلق بـ﴿شُورَىٰ﴾؛ لأنه مصدر. كالرجعى والبشرى، أو صفة لـ﴿شُورَىٰ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾، ﴿وَمِمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مما﴾ متعلق بـ﴿يُنفِقُونَ﴾، ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾: فعل وفاعل، ومفعول، صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: مما رزقناهموه ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول أيضاً. ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ﴿يَنتَصِرُونَ﴾، ﴿أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إِذَآ﴾. ﴿هُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَنتَصِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية صلة الموصول، والتقدير: والذين هم منتصرون وقت إصابة البغي إياهم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ قال أبو علي رحمه الله: معنى اللطيف هو الذي ينشر من عباده المناقب، ويستر عليهم المثالب، وعلى هذا قول النبي ﷺ: «يا من أظهر الجميل وستر القبيح». وقيل: هو الذي يقبل القليل، ويبذل الجزيل، وقيل: هو الذي يجبر الكسير وييسر العسير، وقيل: هو الذي لا يخاف إلا عدله ولا يرجى إلا فضله، وقيل: هو الذي يعين على الخدمة، ويكثر المدحة، وقيل: هو الذي لا يعاجل من عصاه، ولا يخيب من رجاه، وقيل: هو الذي لا يرد سائله، ولا يؤيس آمله، وقيل: هو الذي يعفو عمن يهفو، وقيل: هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه، وقد ذكرنا هذه المعاني في «الكتاب الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى»، عند اسمه اللطيف، ولله الحمد، اهـ. وقيل: هو العالم بخفيات الأمور، وقيل: هو معطي الإحسان في صورة الامتحان. كإعطاء يوسف الصديق، الملك في صورة الابتلاء برقه، لأنه من اللطف، وهو إيصال النفع على وجه فيه دقة، كما ذكرناه في كتابنا: «هدية الأذكياء في شرح طيبة الأسماء».

﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ من القوة، والقوة في الأصل: صلابة البنية وشدتها المضادة للضعف، وهي محالة على الله سبحانه وتعالى، فهي في حقه تعالى بمعنى القدرة، لكونها مسببة عن القوة، فمعنى القوي: هو ذو القدرة التامة، التي يوجد بها كل شيء من الكائنات، ويعدمه على طبق مراده، كما ذكرناه في كتابنا المذكور.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ والحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض، ويطلق على الزرع الحاصل منه، ويستعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها، بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهها بالغلال، الحاصلة من البذور، المتضمن لتشبيه الأعمال بالبذور، اهـ «أبو السعود». من حيث إنها فائدة تحصل بعمل الدنيا.

﴿نَزِدْ لَهُۥ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين، أصله: نزيد فعل مضارع جزم لوقوعه جواب الشرط. فلما سكن آخره التقى ساكنان، فحذفت الياء بعد نقل حركتها إلى الزاي، فصار وزنه نفل. ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ وزنه نفعه لحذف لامه، لمناسبة جزم الفعل، الواقع جواباً للشرط.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾؛ أي: في الكفر، وهم الشياطين. ﴿شَرَعُواْ لَهُم﴾؛ أي: زينوا لهم. ﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا فحسب. ﴿كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ هي القضاء، والحكم السابق منه بالنظرة إلى يوم القيامة. ﴿فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ جمع روضة، والروضة: مستنقع الماء والخضرة، وروضات الجنات أطيب بقاعها وأنزهها. ﴿يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ والبشارة الإخبار بحصول ما يسر في المستقبل. ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ المودة: مودة الرسول ﷺ. والقربى: مصدر، كالزلفى بمعنى القرابة التي هي بمعنى الرحم.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ قال الراغب: أصل القرف والاقتراف: قشر اللحاء عن الشجرة والجليدة عن الجذع، وما يؤخذ منه قرف، واستعير الاقتراف للاكتساب حسنياً كان أو سوئياً، وفي الإساءة أكثر استعمالاً، ولهذا يقال: الاعتراف يزيل الاقتراف. ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ والفرق بين الافتراء والكذب: أن الافتراء هو افتعال الكذب من قول نفسه، والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه.

﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ وزنه يفع، حذفت منه الواو في رسم المصحف لغير داع، ولا يصح عطفه على ﴿يَخْتِمْ﴾؛ لأن الباطل ممحو لا محالة، فالمشيئة تتعلق بمحوه لا محالة، ولهذا الحذف نظائر في المصحف، كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ الإسراء، وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ القمر. وقوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ العلق. وقوله: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ التحريم.

قوله: ﴿لَبَغَوْا۟﴾ أصله: لبغيوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فالتقى ساكنان، فحذفت الألف. ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ أصله: أصوبكم بوزن أفعل، نقلت حركة الواو إلى الصاد، ثم قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال. ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ أصله: مصوبة بوزن مفعلة، نقلت حركة الواو إلى الصاد، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مدّ.

﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ أصله: يعفو، بوزن يفعل، سكنت ﴿الواو﴾ لوقوعها متطرفة إثر ضمة. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال أهل اللغة: أعجزته: أي: صيرته عاجزاً، وأعجزته فيه سبقته. ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السفن، وهي بحذف الياء في الخط؛ لأنها من ياءات الزوائد، وبإثباتها وحذفها في اللفظ في كل من الوصل والوقف، وقد قرىء بها جميعها. قال أبو حيان: جمع جارية، وهي صفة جرت مجرى الأسماء، فوليت العوامل.

وقال الشهاب الحلبي: فإن قلت: الصفة متى لم تكن خاصة بموصوفها، امتنع حذف الموصوف، فلا تقول: مررت بماش؛ لأن المشي عام، وتقول: مررت بمهندس وكاتب، والجري ليس من الصفات الخاصة بالموصوف، وهو السفن، فلا يجوز حذفه.

والجواب: أن محل الامتناع إذا لم تجر الصفة مجرى الجوامد، بأن تغلب عليها الاسمية، كالأبطح والأبرق، وإلا جاز حذف الموصوف، وعلى هذا فقوله: ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ حالان، انتهى. وإلى هذا يشير صنيع الجلال، حيث فسر الجوار بالسفن فقط، ولم يفسرها بالسفن الجارية، ففيه إشارة إلى أن المراد

بالجواري ذاتُ السفن، لا مع وصف الجري. ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ جمع عَلَم بفتحتين، كسبب وأسباب، وهو الجبل، وكل مرتفع. قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ ٱلْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِيْ رَأْسِهِ نَارُ

﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ من ظل، بمعنى صار. ﴿رَوَاكِدَ﴾؛ أي: ثوابت لا تجري، يقال: ركدت السفينة إذا سكنت وثبتت، وركد الماء ركوداً من باب قعد، وسكن، والشمس إذا قامت مقام الظهيرة، وكل ثابت في مكان فهو راكد، وركد الميزان استوى، وركد القوم هدؤوا، والمراكد: المواضع التي يركد فيها الإنسان وغيره اهـ «قرطبي». ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكهنّ يقال: وبق يبق مثل: وعد يعد، ووبق يبق من باب تعب يتعب وبقاً، بسكون الباء ووبق يوبق وبقاً، بفتح الباء ووبوقاً وموبقاً، واستوبق هلك، فهو وبق، وأوبقه إيباقاً، أهلكه وذلله وحبسه. ﴿مَّحِيصٍ﴾ أصله: محيص بوزن مفعل، اسم مكان، نقلت حركة الياء إلى الحاء، فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مد.

﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ والإثم الذنب، والكبائر جمع كبيرة، والهمزة فيه مبدلة من الياء الموجودة في المفرد، لوقوعها حرف مد ثالثاً، زائداً في اسم مؤنث ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ جمع فاحشة، وهي القبيحة، أو المفرطة في القبح، قال في «القاموس»: الفاحشة الزنا، وما يشتد قبحه من الذنوب، فيكون عطف الفواحش على الكبائر من عطف البعض على الكل، إيذاناً بكمال شناعته، وقيل: هما واحد، والعطف لتغاير الوصفين، كأنه قيل: يجتنبون المعاصي، وهي عظيمة عند الله تعالى في الوزن، وقبيحة في العقل والشرع.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ والغضب: ثوران دم القلب إرادة الانتقام، والمغفرة هنا بمعنى: العفو والتجاوز والحلم وكظم الغيظ.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ مصدر كالفتيا، بمعنى التشاور، وأصله: من الشور: وهو الإخراج، سميت المشاورة به، لأن كل واحد من المتشاورين في الأمر، يستخرج من صاحبه ما عنده.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاكتفاء في قوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: ويحرم من يشاء.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ حيث شبه ما يعمله العامل من العمل الصالح بالحرث، الذي هو إلقاء البذر في الأرض، أو الزرع الحاصل منه، ثم حذف المشبه، وهو العمل الصالح، وأبقي المشبه به، وهو الحرث، للدلالة على نتائج الأعمال وثمراتها، وشبه بالزرع، من حيث إنه فائدة تحصل بعمل الدنيا، ولذلك قيل: الدنيا مزرعة الآخرة.

ومنها: الطباق بين ﴿حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ و﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾.

ومنها: المشاكلة أو التهكم في قوله: ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾؛ لأن ذكر الدين للمشاكلة؛ لأنه في مقابلة دين الله تعالى، أو للتهكم بهم.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿شَرَعُوا۟﴾ حيث أسند التشريع إلى الشركاء التي هي الأصنام، مع كونها بمعزل عن الفاعلية، فهو من قبيل إسناد الفعل إلى السبب؛ لأنها سبب ضلالتهم وافتتانهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تسجيلاً عليهم بالظلم، ودلالة على أن العذاب الأليم، الذي لا يكتنه كنهه، إنما يلحقهم بسبب ظلمهم وإنهماكهم فيه.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: إلا المحبة لأهل قرابتي حيث أطلق الحال، وهو القرابة، وأراد المحل، وهو أهلها فقد جعلوا مكاناً ومقراً لها.

ومنها: الطباق بين ﴿يمحُ﴾ و﴿يحق﴾ وبين ﴿ٱلْحَقَّ﴾ و﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾ في قوله

تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ﴾ حيث أثبت الإشفاق في الظالمين، أولاً: دليلاً على حذف الأمن، ثانياً: في الذين آمنوا، وأثبت الجنات ثانياً في الذين آمنوا، دليلاً على حذف النيران أولاً في الظالمين.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية، في قوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾؛ لأن الاقتراف حقيقة في قشر اللحاء عن الشجرة، والجليدة عن الجذع، فاستعير للاكتساب مطلقاً، حسناً كان أو سوءاً.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في شكور، من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ حيث شبهت الإثابة والتفضل بالشكر، الذي هو فعل ينبيء عن تعظيم المنعم لكونه منعماً، لامتناع أن ينعم عليه تعالى أحد حتى يقابل بالشكر؛ أي: شبهت الإثابة بالشكر، من حيث إن كل واحد منهما يتضمن الاعتداد بفعل الغير، وإكراماً لأجله، فاستعير اسم المشبه به الذي هو الشكر، للمشبه الذي هو الإثابة، ثم اشتق من الشكر، بمعنى الإثابة شكور، بمعنى: مثيب على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ دلالة على الاستمرار.

ومنها: صحة التفسير، في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ وهو أن يأتي المتكلم في أول كلامه بمعنى، لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه، لكونه مجملاً يحتاج إلى بيان المراد منه، وقد يكون بيانه بعد الجار والمجرور، كما في هذه الآية، وقد جاءت صحة التفسير فيها مؤذنة بمجيء الرجاء بعد اليأس، والفرج بعد الشدة، والمسرة بعد الحزن، ليكون ذلك أحلى موقعاً في القلوب.

ومنها: عطف العام على الخاص، في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ فالغيث خاص، والرحمة عام.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية، في قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: يثيبهم على أعمالهم؛ لأن الإجابة مجاز عن الإثابة؛ لأن الطاعة لما شبهت بدعاء ما يترتب عليها من الثواب، كانت الإثابة عليها بمنزلة إجابة الدعاء، فعبر بها عنها.

ومنها: إطلاق اسم المسبب، وهو الدابة على السبب، في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ﴾ فإن الدبيب مجاز أريد به سببه، وهو الحياة، فتكون الدابة بمعنى الحي، فتتناول الملائكة أيضاً كما مر. وقيل: إنه من نسبة الشيء إلى الكل مراداً به البعض؛ لأن الدابة إنما تكون في الأرض، والمراد بضمير التثنية: الأرض فقط، كما في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ وإنما يخرجان من البحر الملح لا العذب.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل، في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: كالجبال في الضخامة والعظم.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ أي: عظيم الصبر كبير الشكر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] مدح فيما سلف الذين ينتصرون لأنفسهم، ممن بغى عليهم.. أردف ذلك بما يدل على أن ذلك الانتصار، مقيد بالمثل؛ لأن النقصان حيف، والزيادة ظلم، والتساوي هو العدل الذي قامت به السموات والأرض، ثم

---

(١) المراغي.

ندب إلى العفو والإغضاء من الزلات، ثم ذكر أنه لا مؤاخذة على من ينتصر لنفسه، وإنما المؤاخذة على من يظلم الناس، ويبغي في الأرض بغير الحق، وأن الصبر وغفران السيئة مما حث عليه الدين، وأجزل ثواب فاعله.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله لما ذكر أن الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق، لهم عذاب أليم على ما اجترحوا من البغي، والعدوان بغير الحق.. أردف ذلك ببيان أن من أضله فلا هادي له، وأن الكافرين حين يرون العذاب يوم القيامة، يطلبون الرجوع إلى الدنيا، وأنهم يعرضون على النار، وهم خاشعون أذلاء، ينظرون من طرف خفي، وأن الذين آمنوا يقولون: إن الكافرين لفي خسران مبين، فقد أضاعوا النفس والأهل، ولا يجدون لهم، ناصراً يخلصهم مما هم فيه من العذاب.

قوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر ما سيكون يوم القيامة، من الأهوال وعظائم الأمور، حذر من هذا اليوم. فبين أن الكافرين لا يجدون حينئذٍ ملجأ يقيهم من عذاب الله تعالى، ولا ينكرون ما اقترفوه؛ لأنه مكتوب في صحائف أعمالهم. ثم أرشد رسوله إلى أنهم إن أعرضوا عن دعوتك، فلا تأبه بهم، ولا تهتم بشأنهم. ثم أعقب هذا بذكر طبيعة الإنسان، وأنه يفرح حين النعمة، ويجحد نعم ربه حين الشدة، ثم قسم هبته لعباده في النسل أربعة أقسام: فمنهم من وهب الإناث، ومنهم من وهب الذكران، ومنهم من أعطي الصنفين ومنهم العقيم الذي لا نسل له.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر تقسيم النعم الجسمانية التي يهبها لعباده.. أردفها تقسيم النعم الروحية، وأن الناس محجوبون عن

---

(١) المراغي.

ربهم؛ لأنهم في عالم المادة، وهو منزه عنها، ولكن من رق حجابه وخلصت نفسه، وأصبح في مقدوره أن يتصل بالملأ الأعلى.. يستطيع أن يكلم ربه على أحد أوجه ثلاثة:

١ ـ أن يحس بمعان تلقى في قلبه، أو يرى رؤياً منامية، كرؤيا الخليل إبراهيم عليه السلام ذبح ولده.

٢ ـ أن يسمع كلاماً من وراء حجاب، كما سمع موسى عليه السلام، من غير أن يبصر من يكلمه، فهو قد سمع كلاماً، ولم ير المتكلم.

٣ ـ أن يرسل إليه ملكاً، فيوحي ذلك الملك ما يشاء إلى النبي ﷺ، ثم ذكر أنه كما أوحى إلى الأنبياء قبله، أوحى إليه القرآن، وما كان قبله يعلم ما القرآن، وما الشرائع التي بها هداية البشر، وصلاحهم في الدارين.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ﴾؛ أي: جناية ﴿سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: جناية ﴿مِّثْلُهَاۖ﴾؛ أي: مماثلة للأولى في الكم والكيف، بيان لوجه كون الانتصار من الخصال الحميدة، مع كونه في نفسه إساءة إلى الغير، بالإشارة إلى أن البادىء هو الذي فعله لنفسه، فإن الأفعال مستتبعة لأجزيتها حتماً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌ، وفيه تنبيه على حرمة التعدي.

والمعنى: أي وجزاء سيئة المسيء، عقوبته بما شرعه الله من عقوبة مماثلة لجرمه. وإطلاق[1] السيئة على الثانية، مع أنها جزاء مشروع مأذون فيه، وكل مأذون حسن لا سيء، لأنها تسوء من نزلت به، كما في آية أخرى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ﴾، يريد ما يسوؤهم من المصائب والبلايا، أو للمشاكلة، لتشابههما في الصورة. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ﴾ وعلى هذا فالسيئة مقابل الحسنة، بخلافها في الوجه الأول.

---

(١) روح البيان.

والخلاصة: أنه يجب، إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة، قال الحسن: إذا قال: لعنك الله، أو أخزاك الله، فلك أن تقول: أخزاك الله، أو لعنك الله، وإذا شتمك فلك أن تشتمه بما شتم ما لم يكن فيه حد، كلفظ الزنا، أو كلمة لا تصلح، فلا تجري المقابلة في الكذب والبهتان، قال في «التنوير»: لو قال لآخر: يا زاني، فقال له الآخر: لا بل أنت الزاني، حدا بخلاف ما لو قال له: مثلاً يا خبيث، فقال: أنت، تكافئا، ولو لم يجب، بل رفع الأمر إلى القاضي ليؤدبه جاز، وظاهر الآية العموم. وقال مقاتل والشافعي وأبو حنيفة وسفيان: إن هذا خاص بالمجروح، ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره.

وفي الآية حث على العفو؛ لأن الانتصار إنما يحمد إذا حصلت المماثلة في الجزاء، وتقديرها عسر شاق، وربما صار المظلوم حين استيفاء القصاص ظالماً.

ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾، وقوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

وقد أمر ﷺ برد الشتم على الشاتم، أخرج النسائي وابن ماجه وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت علي زينب وعندي رسول الله ﷺ، فأقبلت علي تسبني، فردعها النبي ﷺ، فلم تنته، فقال لي: «سبيها»، فسببتها حتى جف ريقها في فمها، ووجه رسول الله ﷺ يتهلل سروراً. وكان هذا بمنزلة التعزيز منه لزينب، بلسان عائشة، لما أن لها حقاً في الرد، وقد رأى فيه المصلحة.

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المستبان ما قالا من شيء فعلى البادىء حتى يعتدي المظلوم»، ثم قرأ: «﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾».

وقصارى ذلك[1]: أن كل جناية على النفس، أو المال، تقابل بمثلها

---

(١) المراغي.

قصاصاً؛ لأن إهدارها يوجب فتح باب الشرور والمفاسد، إذ في طبع الإنسان الظلم والبغي والعدوان، فإذا لم يزدجر عنه تمادى فيه ولم يتركه، والزيادة على قدر الذنب ظلم، والشرائع تنزه عن ذلك، ومن ثم شرع الله القصاص، وندب إلى الفضل، وهو العفو، فقال: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾.

وعن بعض الفقهاء في هذه الآية[1]: وقد قيل: إنه الشافعي رحمه الله تعالى: أن للإنسان أن يأخذ من مال من خانه، مثل ما خانه من غير علمه، واستشهد على ذلك بقول النبي ﷺ لهند، زوجة أبي سفيان: «خذي من ماله ما يكفيك وولدك»، فأجاز لها أخذ ذلك بغير إذنه، كذا ذكره القرطبي في «تفسيره».

وجاء تتمة لهذه الآية، قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عن المسيء إليه جنايته؛ أي: ترك القصاص وسامح له ﴿وَأَصْلَحَ﴾ ما بينه وبين من يعاديه، بالعفو والإغضاء عما صدر منه، قال في «الحواشي السعدية»: الفاء للإفصاح؛ أي: إذا كان الواجب في الجزاء رعاية المماثلة من غير زيادة، وهي عسرة جداً، وأردتم بيان ما هو الأولى، فأقول: الأولى العفو، والإصلاح، إذا كان قابلاً للإصلاح بأن لم يصر على البغي. وفي الحديث: «ما زاد الله العبد بالعفو إلا عزاً».

﴿فَأَجْرُهُۥ﴾؛ أي: فأجر عفوه وإصلاحه حق واجب ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، بطريق وعده المحتوم، فيجزيه أعظم الجزاء، وهذه عدة منبئة عن عظمة شأن الموعود، وخروجه عن الحد المعهود، وفي إبهام[2] الأجر وجعله حقاً على العظيم الكريم جل شأنه، زيادة في الترغيب في العفو والحث عليه، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، أمر الله منادياً ينادي: ألا، ليقم من كان له على الله أجر، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا وذلك قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا...﴾» الآية.

ثم ذكر سبحانه خروج الظلمة عن محبته، التي هي سبب الفوز والنجاة،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: المتجاوزين الحد في الانتقام، وفي هذا تصريح، بما تضمنه سالف الكلام، من حسن رعاية طريق المماثلة، وأنها قلما تخلو عن الاعتداد والتجاوز عن الواجب، ولا سيما حال الحرد والتهاب الحمية، وحينئذٍ، يدخل المنتقمون في زمرة من لا يحبهم الله سبحانه وتعالى.

وفي «الروح»: قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: البادئين بالسيئة، والمتعدين في الانتقام، وهو استئناف تعليل، متعلق بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ﴾ إلخ. وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ إلخ، اعتراض يعني: إنما شرعت المجازاة وشرطت المساواة؛ لأنه لا يحب الظالمين.

واللام في قوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾: لام[1] الابتداء، وجعلها الحوفي وابن عطية للقسم، وليس بجيد إذا جعلنا ﴿مَنْ﴾ شرطية، و﴿مَنْ﴾ شرطية لدخول الفاء في جوابها، وهو قوله: (فأولئك)، أو موصولة، ودخلت الفاء لشبه الموصول بالشرط، وقوله: بعد ظلمه من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: بعد ما ظلم. وقرىء به، وتذكير الضميرين باعتبار لفظ ﴿مَنْ﴾.

والمعنى: ولمن انتقم، واقتص بعد ظلم الظالم إياه، يعني: في الحقوق المالية ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنتصرون. فهو إشارة إلى ﴿مَنْ﴾ والجمع باعتبار المعنى. ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ للمعاقب ولا للمعاتب والمعايب. والسبيل: الطريق الذي فيه سهولة، والآية دفع لما تضمنه السياق، من إشعار سد باب الانتصار.

والمعنى: ولمن انتصر ممن ظلمه بعد ظلمه إياه، فأولئك المنتصرون، لا سبيل للمنتصر منهم أن يوجهوا إليهم عقوبة ولا أذى، لأنهم انتصروا منهم بحق، ومن أخذ حقه ممن وجب له عليه، ولم يتعد ولم يظلم، فلا سبيل لأحد عليه بالمعاتبة، أو المعاقبة.

ولما نفى سبحانه وتعالى السبيل على من انتصر بعد ظلمه.. بين من عليه

---

(١) روح البيان.

السبيل، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالمعاقبة والمؤاخذة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: يبتدئونهم بالإضرار، أو يعتدون في الانتقام ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يعملون في الأرض البغي والعدوان والإفساد بقتل الأنفس، وأخذ الأموال ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بلا حق يكون لهم في ذلك، كذا قال الأكثر، وقال مقاتل: بغيهم عملهم بالمعاصي، وقيل: يتكبرون ويتجبرون ويتطاولون على الناس، وقيل: ظلم الناس صدُّهم عن سبيل الله، وبغيهم: أخذ أموالهم، وقتل أنفسهم بلا حق يكون لهم في ذلك، قيل[1]: ويظلمون الناس، أي: يضعون الأشياء في غير مواضعها، من القتل وأخذ الأموال، والأذى باليد واللسان، والبغي بغير الحق، فهو نوع من أنواع الظلم، خصه بالذكر تنبيهاً على شدته، وسوء حال صاحبه.

والمعنى: أي إنما الحرج والإثم على الذين يبتدئون الناس بالظلم، أو يزيدون في الانتقام ويتجاوزون ما حد لهم، أو يتكبرون في الأرض تجبراً وفساداً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الظلم، والبغي بغير الحق ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم بسبب بغيهم وظلمهم.

ثم رغب سبحانه وتعالى في الصبر والعفو، فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى، معطوف على قوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾. وجملة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ إلخ. اعتراض، اهـ «سمين». واللام فيه للابتداء، و﴿من﴾ موصولة مبتدأ ﴿وَغَفَرَ﴾؛ أي: عفا لمن ظلمه ولم ينتصر، وفوض أمره إلى الله تعالى، وكرره اهتماماً بالصبر، ترغيباً فيه، والصبر هنا: هو الإصلاح المتقدم. فأعيد هنا، وعبر عنه بالصبر؛ لأنه من شأن أولي العزم، وأشار إلى أن العفو المحمود ما نشأ عن التحمل لا عن العجز، اهـ «شهاب».

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الصبر والمغفرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾؛ أي: من معزومات الأمور ومهماتها وواجباتها؛ أي: من الأمور التي يجب عزم العبد عليها بإيجابها على نفسه، وتصميم قلبه عليها. لكونه من الأمور المحمودة عند

---

(١) البحر المحيط.

الله سبحانه وتعالى، فإن الصبر والعفو مندوب إليه، وقد ينعكس الأمر في بعض الأحوال، ويكون ترك العفو مندوباً إليه، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي، وقطع مادة الأذى.

وحكي: أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن، رحمه الله تعالى، فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام، فتلا هذه الآية، فقال الحسن: عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ فإن قلت: قاله هنا بلام التأكيد، وقاله في ﴿لُقْمَٰنَ﴾ بدونها، فما الفرق بين الموضعين.

قلت: لأن الصبر على مكروه حدث بظلم، كقتل ولد أشد من الصبر على مكروه حدث بلا ظلم، كموت ولد، كما أن العزم على الأول أوكد منه على الثاني، وما هنا من القبيل الأول، فكان أنسب بالتوكيد وما في ﴿لُقْمَٰنَ﴾ من القبيل الثاني، فكان أنسب بعدمه اهـ «كرخي».

والمعنى: أي ولمن صبر عن الانتصار بغير انتقام ولا شكوى، وستر السيئة، فقد فعل ما يشكر عليه ويستحق به الأجر وجزيل الثواب، ورُوي أنه ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظلم بمظلمة، فيغضي عنها إلا أعزه الله تعالى بها ونصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة، يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجل بها قلة».

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: يخلق فيه الضلالة من الهوى، أو بتركه على ما كان عليه من ظلم الناس ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أمره، وناصر ينصره ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد خذلانه تعالى إياه. وظاهر الآية: العموم، وقيل: هي خاصة بمن أعرض عن النبي ﷺ، ولم يعمل بما دعاه إليه، من الإيمان بالله والعمل بما شرعه، والأول أولى.

والمعنى: أي أنه ما شاء الله كان، ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن، فمن

هداه الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له.

والخلاصة: أن من خذله الله لسوء استعداده، وتدسيته نفسه، باجتراح الآثام والمعاصي، فليس له من ولي يهديه إلى سبيل الرشاد، ويوصله إلى طريق الفوز والفلاح.

ثم ذكر تمني الكافرين الرجوع إلى الدنيا، فقال: ﴿وَتَرَى﴾ أيها المخاطب؛ لأن الخطاب[1] لكل من يتأتى منه الرؤية البصرية ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: المشركين المكذبين بالبعث ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: حين يرون العذاب يوم القيامة، وينظرونه، وصيغة الماضي، للدلالة على التحقق، حال كونهم ﴿يَقُولُونَ﴾ فالجملة في موضع الحال من ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأن الرؤية هنا بصرية ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾؛ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾؛ أي: طريق، فالمرد: مصدر ميمي بمعنى الرد، وهل للاستفهام المضمن معنى التمني ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾؛ أي: تبصر الظالمين أيها الرائي حال كونهم ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على النار المدلول عليها بالعذاب، حال كونهم ﴿خَٰشِعِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يُعْرَضُونَ﴾. و﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ للتعليل متعلقة بـ﴿خَٰشِعِينَ﴾. وقرأ طلحة: ﴿من الذل﴾ بكسر الذال[2]. والجمهور: بالضم؛ أي: يعرضون عليها خاضعين حقيرين، بسبب ما لحقهم من الذل والهوان، ويصح تعلقها بينظرون، ويوقف على خاشعين، و﴿مِن﴾ في قوله: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾؛ أي: ضعيف. لابتداء الغاية.

والمعنى: حال كونهم يبتدىء نظرهم إلى النار، من تحريك لأجفانهم ضعيف، يعني: يسارقون النظر إلى النار، خوفاً منها، وذلة في أنفسهم، كالمقتول ينظر إلى السيف، فلا يقدر أن يملأ عينيه منه، وهكذا الناظر إلى المكاره، لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها، ويملأ عينيه منها، كما يفعل في نظره إلى المحابِّ، وقيل: هل المراد بالطرف: العين، أو المصدر، قلنا: كلاهما يناسب المقام، وقال الكلبي: ينظرون بأبصار قلوبهم، ولا ينظرون بأبصار ظواهرهم؛ لأنهم

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

يسحبون على وجوههم، أو لأنهم يحشرون عمياً، فينظرون كنظر الأعمى إذا خاف حساً، يقول الفقير: لا حاجة إلى حمل الآية على ما ذكر من الوجهين؛ لأن لهم يوم القيامة أحوالاً شتى، بحسب المواطن، فكل من النظر والسحب والحشر أعمى، ثابت صحيح. وقال يونس[1]: إن ﴿مِن﴾ في ﴿مِن طَرْفٍ﴾ بمعنى الباء؛ أي: ينظرون بطرف ضعيف من الذل والخوف، وبه قال الأخفش.

وفي الآية: إشارة إلى أن النفوس التي لم تقبل الصلاح بالعلاج في الدنيا، تتمنى الرجوع إلى الدنيا يوم القيامة، لتقبل الصلاح، بعلاج الرياضات الشرعية، وتخشع، إذ لم تخشع في الدنيا من القهّار، فلا تنفعها ندامة، ولا تسمع منها دعوة، ولها نظر من طرف خفي، من خجالة المؤمنين، إذ يعيرونها بما ذكروها، فلم تسمع وهي نفوس الظالمين.

وحاصل المعنى[2]: أي وترى الكافرين بالله، حين يعاينون العذاب يوم القيامة، يتمنون الرجعة إلى الدنيا، ويقولون: هل من رجعة لنا إليها، وتراهم أيضاً في ذلك اليوم، يعرضون على النار وهم خاشعون أذلاء؛ لأنهم عرفوا ذنوبهم وانكشف لهم عظمة من عصوه يسارقون النظر إليها خوفاً منها، وحذراً من الوقوع فيها، كما ينظر من قدم للقتل إلى السيف، فلا يقدر أن يملأ عينيه منه، وإنما ينظر ببعضها.

ولما وصف حال الكفار، حكى ما يقوله المؤمنون فيهم، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وجاهدوا في الله تعالى حق جهاده، وربحوا على ربهم، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: المتصفين بحقيقة الخسران، وهو انتقاص رأس المال، وينسب إلى الإنسان فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، ويستعمل ذلك في القنيات الخارجة، كالمال والجاه في الدنيا، وهو الأكثر. وفي القنيات النفيسة، كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب، وهو الذي جعله الله سبحانه الخسران، وكل خسران ذكره الله في القرآن

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

الكريم، فهو على هذا المعنى الأخير، دون الخسران المتعلق بالقنيات الدنيوية، والتجارات البشرية، وخبر ﴿إن﴾ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ﴾؛ أي: إن الكاملين في الخسران، هم هؤلاء الذين جمعوا بين خسران الأنفس والأهلين ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾والظرف إما متعلق بـ﴿خَسِرُوٓاْ﴾ فيكون القول في الدنيا، أو متعلق بـ﴿قال﴾؛ أي: يقولون لهم حين يرونهم على تلك الحالة، وعبر بالماضي، إشعاراً بتحققه، كما مر آنفاً، أما خسرانهم لأنفسهم فلكونهم صاروا في النار معذبين بها، وأما خسرانهم لأهليهم، فلأنهم إن كانوا معهم في النار. فلا ينتفعون بهم، وإن كانوا في الجنة، فقد حيل بينهم وبينهم، وقيل: خسران الأهل، أنهم لو آمنوا، لكان لهم في الجنة أهل من الحور العين.

وفي «التأويلات النجمية»: إن الخاسرين هم الذين خسروا أنفسهم، بإبطال استعدادهم، إذ صرفوه في طلب الدنيا وزخارفها والالتذاذ بها، وخسروا أهليهم، إذ لم يقوا أنفسهم وأهليهم ناراً، بقبول الإيمان، وأداء الشرائع ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: المشركين الذين كانوا في جهنم، شهوات النفس جثياً في الدنيا ﴿فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ في الآخرة؛ أي: دائم لا ينقطع إلى الأبد، وهذا إما من تمام كلام المؤمنين، أو من كلام الله سبحانه تصديقاً لهم.

والمعنى: أي ويقول المؤمنون يوم القيامة: إن المغبونين غبناً لا غبن بعده، هم الذين خسروا أنفسهم، فأدخلوا في النار، وحرموا نعيم الأبد، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم وذوي قراباتهم.

ثم صدقهم ربهم فيما قالوا، فقال: ألا إن الكافرين لفي عذاب سرمدي، لا مهرب لهم منه ولا خلاص، ثم أيأسهم من الفكاك منه بأي سبيل، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾؛ أي: للظالمين ﴿مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم﴾ بدفع العذاب عنهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا؛ أي: لا يجدون لهم أعواناً وأنصاراً ينقذونهم، مما حل بهم من العذاب، فأصنامهم التي كانوا يعبدونها لتشفع لهم، لا تستطيع أن تتقدم إليهم بشفاعة ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يرد الله إضلاله بأن يشغله بغيره ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ يؤدي سلوكه إلى النجاة؛ أي:

ومن يضلله الله تعالى، لما علم من استعداده للشر والفساد وارتكاب الشرور والآثام، فلا سبيل له إلى الوصول إلى الحق في الدنيا، ولا إلى الجنة في الآخرة.

حكي: أن شيخاً حج مع شاب، فلما أحرم قال: لبيك، فقيل له: لا لبيك، فقال الشاب للشيخ: ألا تسمع هذا الجواب، فقال: كنت أسمع هذا الجواب منذ سبعين سنة، قال: فلأي شيء تتعب، فبكى الشيخ، فقال: فإلى أي باب ألتجىء فقيل له: قد قبلناك. فهذا من هداية الله الخاصة، فافهم جيداً.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ إذا دعاكم إلى الإيمان، على لسان نبيه ﷺ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة، أو يوم الموت ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ و﴿مِّن﴾ إما متعلقة بـ﴿يَأْتِىَ﴾؛ أي: من قبل أن يأتي من الله يوم، لا يقدر أحد على رده، ودفعه، أو متعلقة بـ﴿مَرَدَّ﴾؛ أي: لا يرده الله، بعد أن حكم به على عباده، ووعدهم به.

والمعنى: أجيبوا داعي الله، وهو رسوله ﷺ وآمنوا به، واتبعوه فيما جاءكم به من عند الله تعالى، من قبل أن يأتي يوم لا يستطيع أحد أن يرده، إذا جاء به الله.

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ تلتجئون إليه، ولا مفر تفرون إليه؛ أي[1]: ما لكم مخلص ما، من العذاب على ما دل عليه، تأكيد النفي بـ﴿من﴾ الاستغراقية ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾؛ أي: إنكار ما لما اقترفتموه؛ لأنه مدون في صحائف أعمالكم، وتشهد عليكم جوارحكم، ولعل المراد: الإنكار المنجي، وإلا فهم يقولون ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وغير ذلك، ولذلك تشهد عليهم أعضاؤهم، أي: ما لكم من إنكار يومئذٍ، بل تعترفون بذنوبكم. والنكير: اسم مصدر بمعنى الإنكار، وقال مجاهد: ﴿مالكم من نكير﴾؛ أي: ناصر ينصركم، وقيل: النكير بمعنى المنكر، كالأليم بمعنى المؤلم؛ أي: لا تجدون يومئذٍ منكراً لما ينزل بكم من العذاب، قاله الكلبي وغيره، والأول أولى.

---

(١) روح البيان.

والمعنى: أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا تستطيعون إنكار ما اجترحتموه من السيئات؛ لأنه قد كتب في صحفكم، وتشهد به ألسنتكم وجوارحكم، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ أعمالهم حتى تحاسبهم عليها، ولا موكلاً بهم رقيباً عليهم، تلوين للكلام، وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة، وتوجيه منه إلى الرسول ﷺ؛ أي: فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم إليه، فما أرسلناك رقيباً ومحاسباً عليهم، وحافظاً لأعمالهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ أي: ما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة، وقد فعلت فلا يهمنك إعراضهم، وهذا منسوخ بآية السيف.

والمعنى: أي فإن أعرض هؤلاء المشركون عما أتيتهم به من الحق، ودعوتهم إليه من الرشد، ولم يستجيبوا لك، وأبوا قبوله منك، فدعهم وشأنهم، فإنا لم نرسلك رقيباً عليهم، تحفظ أعمالهم وتحصيها، فما عليك إلا أن تبلغهم، ما أرسلناك به إليهم، فإذا أنت بلغته فقد أديت ما كلفت به، ونحو الآية﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

قال الغزالي رحمه الله تعالى في «شرح الأسماء»: الحفيظ من العباد: من يحفظ جوارحه وقلبه، ويحفظ دينه من سطوة الغضب، وخلابة الشهوة وخداع النفس وغرور الشيطان، فإنه على شفا جرف هار، وقد اكتنفته هذه المهلكات المفضية إلى النار، وقد عرف كلها من لسان الشارع ﷺ، فليسارع العبد إلى دفع الموبقات، وجلب المنجيات بإصلاح النفس، والتخلق بالأخلاق الإلهية، فإن النفس طاغية مؤدية إلى الإفلاس والخسار.

وبعدئذٍ ذكر طبيعة الإنسان، وغريزته في هذه الحياة، فقال: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: إذا أعطينا الإنسان ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾؛ أي: نعمة صادرة من جهتنا، كالصحة والغنى ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ بطراً لأجلها. والمراد بالإنسان: الجنس لا الواحد، ولهذا قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾؛ أي: الإنسان ﴿سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: بلاء وشدة ومرض

وفقر ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما عملته أنفسهم من كفرانهم، بنعم الله تعالى وعصيانهم فيها، وذكر الأيدي؛ لأن أكثر الأعمال تباشر بها، فجعل كل عمل كالصادر بالأيدي على طريق التغليب. ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: جنسه ﴿كَفُورٌ﴾؛ أي: بليغ الكفر، ينسى النعمة بالكلية، ويذكر البلية ويستعظمها، ولا يتأمل سببها، بل يزعم أنها أصابته بغير استحقاق لها؛ أي: كثير الكفر لما أنعم به عليه من نعمه، غير شكور له عليها، وإسناد هذه الخصلة إلى الجنس مع كونها من خواص المجرمين، لغلبتهم فيما بين الأفراد، يعني: أنه حكم على الجنس بحال أغلب أفراده، للملابسة على المجاز العقلي، وتصدير الشرطية الأولى بإذا المفيدة للتحقق مع إسناد الإذاقة إلى نون العظمة، للتنبيه على أن إيصال النعمة محقق الوجود كثير الوقوع، وأنه مقتضى الذات، كما أن تصدير الثانية بـ﴿إن﴾ وإسناد الإصابة إلى السيئة وتعليلها بأعمالهم، للإيذان بندرة وقوعها. وأنها بمعزل عن الانتظام في سلك الإرادة، والإظهار في مقام الإضمار للتسجيل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم، كما سيأتي جميع ذلك في مبحث البلاغة.

والمعنى: أي وإنا إذا أغنينا ابن آدم، فأعطيناه من لدنا سعة في الرزق، أو في الصحة، أو في الأمن سر بما آتيناه، وإن أصابته فاقة، أو مرض بما أسلف من معصية ربه، جحد نعمتنا، وأيس من الخير، والإنسان من طبعه الجحد والكفران بالنعم حين الشدة.

والخلاصة: أن الإنسان إن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن ابتلي بمحنة يئس وقنط.

واعلم: أن نعمة الله تعالى، وإن كانت في الدنيا عظيمة، إلا أنها بالنسبة إلى سعادات الآخرة، كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلذلك سمي الإنعام بها إذاقة فالإنسان إذا حصل له هذا القدر الحقير في الدنيا فرح به، ووقع في العجب والكبر، وظن أنه فاز بكل المنى، ودخل في قصر السعادات، ولذا ضعف اعتقاده في سعادات الآخرة، وإلا لاختار الباقي على الفاني؛ لأن الفاني كالخزف مع أنه قليل، والباقي كالذهب مع أنه كثير.

ثم ذكر سبحانه سعة ملكه ونفاذ تصرفه، فقال: ﴿لِّلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: له التصرف فيهما بما يريد، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع؛ أي: يختص به سبحانه ملك العالم كله، لا يقدر أن يملكه أحد سواه، فله التصرف فيه، وقسمة النعمة والبلية على أهله، وليس عليهم إلا الشكر في النعمة، والصبر في البلية، والرضى والتسليم للأحكام الأزلية.

والمعنى: أي إنه تعالى خالق السمٰوات والأرض، ومالكهما، والمتصرف فيهما، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ مما يعلمونه، ومما لا يعلمونه على أي صورة شاء ﴿يَهَبُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ لا ذكور معهن مثل ما وهب لشعيب ولوط عليهما السلام، والهبة: أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض، والوهاب هو الله سبحانه وتعالى؛ لأنه يعطي كلاً على قدر استحقاقه ولا يريد عوضاً، والجملة بدل من يخلق بدل البعض، وإنما قدم الإناث على الذكور مع شرفهم؛ لأنها أكثر لتكثير النسل، أو لتطييب قلوب آبائهن، إذ في التقديم تشريف لهن، وإيناس بهن، ولذلك جعلن من مواهب الله تعالى مع ذكر اللام الانتفاعية أو لرعاية الترتيب الواقع أولاً في الهبة بنوع الإنسان، فإنه تعالى وهب لآدم أولاً زوجته حواء عليهما السلام، بأن ولَّدها منه، وخلقها من قصيراه، وهي أسفل الأضلاع، أو آخر ضلع في الجنب، كما في «القاموس».

قال في «الكواشي»: ويجوز أنهن قدمن توبيخاً لمن كان يئدهن، ونكرن إيماء إلى ضعفهن ليرحمن، فيحسن إليهن. وقال في «الشرعة وشرحه»: وليزداد فرحاً بالبنات، مخالفة لأهل الجاهلية، فإنهم يكرهونها، بحيث يدفنونها في التراب في حال حياتها، وفي الحديث: «من بركة المرأة تبكيرها بالبنات»؛ أي: يكون أول ولدها بنتاً، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ الآية، حيث بدأ بالإناث ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ لا إناث معهم، كما وهب إبراهيم عليه السلام، من غير أن يكون في ذلك مدخل لأحد، ومجال اعتراض.

وعرف الذكور للمحافظة على الفواصل، أو لجبر التأخير، يعني: أن الله تعالى أخر الذكور، مع أنهم أحقاء بالتقديم، فتدارك تأخيرهم بتعريفهم؛ لأن في التعريف العهدي تنويهاً وتشهيراً، كأنه قيل: ويهب لمن يشاء الفرسان، الأعلام، الذين لا يخفون عليكم. وفي الحديث: «إن أولادكم هبة الله لكم، يهب لمن يشاء إناثاً، ويهب لمن يشاء الذكور، وأموالهم لكم إن احتجتم إليها».

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾؛ أي: يقرن بين الإناث والذكور، فيجعلهم ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ فيصير أولاده ذكراناً وإناثاً، فيهبهما جميعاً لمن يشاء، بأن يولد له الذكور والإناث، مثل ما وهب لنبينا محمد ﷺ، إذ كان له من البنين ثلاثة على الصحيح، قاسم، وعبد الله، وإبراهيم. ومن البنات أربع: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة رضي الله عنهن. قال مجاهد: معنى يزوجهم: هو أن تلد المرأة غلاماً، ثم تلد جارية. ثم تلد غلاماً، ثم تلد جارية، وقال محمد بن الحنفية: هو أن تلد توأماً، غلاماً وجارية ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ لا يولد له ذكر ولا أنثى، فـ﴿مَن﴾ عبارة عن الرجل والمرأة. فلا يلد ولا تلد. والعقيم: الذي لا يولد له، يقال: رجل عقيم؛ أي: لا يولد له، وامرأة عقيم؛ أي: لا تلد، كما في عيسى ويحيى عليهما السلام، فإنهما ليس لهما أولاد، أما عيسى فلم يتزوج، وإن كان يتزوج حين نزوله في آخر الزمان، ويكون له البنات كما قيل: وأما يحيى فقد تزوج، ولكن لم يقرب لكونه عزيمةً في شريعته، وبعضهم لم يكن له أولاد، وإن حصل له قربان النساء.

ومعنى الآية:[1] أي يخلق ما يشاء، فيرزق من يشاء البنات فحسب، ويرزق من يشاء البنين فحسب، ويعطي من يشاء الزوجين الذكر والأنثى، ويجعل من يشاء لا نسل له، وفي هذا إيماء إلى أن الملك ملكه من غير منازع ولا مشارك، يتصرف فيه كيف يشاء، ويخلق ما يشاء، فليس لأحد أن يعترض عليه، أو يدبر بحسب هواه، وتصرفه لا يكون إلا على أكمل وجه وأتم نظام، وقد قيل: ليس في الإمكان أبدع مما كان ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق كل نوع من هذه

---

(١) المراغي.

الأنواع ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يريد أن يخلق، فيفعل ما يفعل بحكمة وعلم.

وفي «فتح الرحمٰن»: فإن قلت[1]: لم قدم الإناث مع أن جهتهن التأخير، ولم عرف الذكور دونهن؟.

قلت: لأن الآية سيقت لبيان عظمة ملكه ومشيئته، وأنه فاعل ما يشاء، لا ما يشاء عبيده، كما قال: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ ولما كان الإناث مما لا يختاره العباد، قدمهن في الذكر، لبيان نفوذ إرادته ومشيئته وانفراده بالأمر، ونكرهن وعرف الذكور لانحطاط رتبتهن، لئلا يظن أن التقديم كان لأحقيتهن به ثم أعطى كل جنس حقه من التقديم والتأخير، ليعلم أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن، بل لمقتضى آخر فقال: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾.

وقال أبو حيان: ولما[2] ذكر الهبة في الإناث، والهبة في الذكور، اكتفى عن ذكرها في قوله: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾، ولما كان العقيم ليس بمحمود قال: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾، وهو قسيم لمن يولد له، وتغيير العاطف في الثالث؛ لأنه قسيم المشترك بين القسمين، ولم يحتج إليه في الرابع لإفصاحه، بأنه قسيم المشترك بين الأقسام الثلاثة، ذكره «البيضاوي»، ولما كان الخنثى مما يحزن بوجوده لم يذكره سبحانه وتعالى، قالوا: وكانت الخلقة مستمرة ذكراً وأنثى إلى أن وقع في الجاهلية الأولى الخنثى، فسئل فارض العرب ومعمرها، عامر بن الظرب عن ميراثه، فلم يدر ما يقوله وأرجأهم، فلما جن عليه الليل، جعل يتقلب وتذهب به الأفكار، وأنكرت خادمته حاله، فسألته، فقال: بهرت لأمر لا أدري ما أقول فيه، فقالت له: ما هو، فقال شخص له ذكر وفرج، كيف يكون حاله في الميراث، قالت له الأمة: ورثه من حيث يبول، فعقلها وأصبح، فعرضها عليهم فرضوا بها، وجاء الإسلام على ذلك، وقضى بذلك علي كرم الله وجهه.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾؛ أي: وما صح لفرد من أفراد البشر يا محمد ﴿أَن

---

(1) فتح الرحمٰن. (2) البحر المحيط.

﴿يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه بوجه من الوجوه، إلا بإحدى طرق ثلاث:

١ - ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ استثناء من أعم الأحوال؛ أي: ما كان له أن يكلمه الله في حال من الأحوال، إلا حالة كونه وحياً وإلهاماً، وإلقاء من الله تعالى في روعه وقلبه، كما أوحى إلى أم موسى، وإلى إبراهيم في ذبح ولده، وكما روى ابن حبان في «صحيحه»، أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نفث في روعي، إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب».

٢ - ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾؛ أي: أو إلا حالة كونه من وراء حجاب، بأن يسمعه كلامه جهرة، من غير أن يبصر السامع من يكلمه، فهو تمثيل له بحال الملك المحتجب، الذي يكلم بعض خواصه من وراء الحجاب، يسمع صوته، ولا يرى شخصه، وإلا فالله تعالى منزه عن الاستتار بالحجاب، الذي هو من خواص الأجسام، فالحجاب يرجع إلى المستمع، لا إلى الله تعالى المتكلم، وذلك كما كلم الله تعالى موسى في طوى والطور، ولذا سمي كليم الله؛ لأنه سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى، من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسباً لأحد من الخلق.

٣ - ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾؛ أي: أو إلا حالة كونه بأن يرسل رسولاً؛ أي: ملكاً من الملائكة، إما جبرئيل أو غيره ﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك الرسول إلى المرسل إليه الذي هو الرسول البشري ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾؛ أي: بأمره تعالى وتيسيره ﴿مَا يَشَآءُ﴾ الله سبحانه أن يوحيه إليه من أمر أو نهي، كما كان جبريل ينزل على النبي ﷺ وعلى غيره من الأنبياء، وهذا هو الذي بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، في عامة الأوقات من الكلام، فيكون إشارة إلى التكلم بواسطة الملك.

رُوي: أن النبي ﷺ قال: «من الأنبياء من يسمع الصوت، فيكون بذلك نبياً، ومنهم من ينفث في أذنه وقلبه، فيكون بذلك نبياً، وإن جبرئيل يأتيني فيكلمني، كما يكلم أحدكم صاحبه».

وروى البخاري في «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها: أن الحارث بن

هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصة الجرس، وهو أشده عليَّ، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول»، قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي، في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد يسيل عرقاً.

قال الزجاج: المعنى أن كلام الله للبشر، إما أن يكون بإلهام يلهمهم، أو يكلمهم من وراء حجاب، كما كلم موسى، أو برسالة ملك إليهم، وتقدير الكلام: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحي وحياً، أو يكلمه من وراء حجاب، كما كلم موسى، أو يرسل رسولاً. وقرأ الجمهور: ﴿حِجَابٍ﴾: مفرداً. وابن أبي عبلة ﴿حجباً﴾: جمعاً. وقرأ الجمهور بنصب ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾، وبنصب ﴿فَيُوحِيَ﴾ على تقدير أن، وتكون أن وما دخلت عليه معطوفين على وحياً، ووحياً في محل الحال والتقدير: إلا موحياً، أو مرسلاً، ولا يصح عطف ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ على ﴿أَن يُكَلِّمَهُ﴾؛ لأنه يصير التقدير: وما كان لبشر أن يرسل رسولاً، وهو فاسد لفظاً ومعنى. وقرأ نافع وأهل المدينة ﴿أو يرسلُ رسولاً فيوحي﴾. بالرفع فيهما، على أنه خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أو هو يرسل. وجملة قوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ﴾؛ أي: متعال عن صفات المخلوقين؛ لا يأتي جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم إلا بأحد الوجوه المذكورة ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما تقتضيه حكمته، فيكلمه تارة بواسطة، وتارة بغير واسطة، إما إلهاماً، وإما خطاباً من وراء حجاب تعليل لما قبلها.

قال المفسرون: فلما قالت اليهود للنبي ﷺ: ألا تكلم الله وتنظر إليه، إن كنت نبياً كما كلمه موسى، نزل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ والكاف صفة لمصدر محذوف. والروح[1]: هو القرآن الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان، حيث يحييها حياة طيبة؛ أي: يحصل لها به ما هو مثل الحياة،

---

(١) روح البيان.

وهو العلم النافع، المزيل للجهل الذي هو كالموت. وقال الراغب: سمي القرآن روحاً لكونه سبباً للحياة الأخروية، الموصوفة في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾. ومعنى ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾؛ أي: روحاً ناشئاً، ومبتدأ من أمرنا، والمعنى: وإيحاء مثل إيحائنا إلى سائر رسلنا، أوحينا إليك روحاً وقرآناً ناشئاً بأمرنا وإرادتنا، ونازلاً من عندنا رحمةً وحياةً لعبادنا.

وقيل: الروح هو جبرائيل عليه السلام، والمعنى: أوحينا إليك جبرائيل بأمرنا وإرادتنا، كما أوحيناه إلى سائر رسلنا، فإن قلت: كيف علم الرسول ﷺ في أول الأمر، أن الذي تجلى له جبرائيل، وأن الذي سمعه كلام الله تعالى؟

قلت: خلق الله تعالى له علماً ضرورياً، علم به ذلك، والعلم الضروري يوجب الإيمان الحقيقي، ويتولد من ذلك اليقين، فإن الخشية على قدر المعرفة.

ثم ذكر سبحانه صفة رسوله، قبل أن يوحي إليه، فقال: ﴿مَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿تَدۡرِي﴾ وتعلم قبل النبوة في أربعين سنة. وجملة ﴿مَا كُنتَ﴾ حال من كاف ﴿إِلَيۡكَ﴾ كما في تفسير «الكواشي» ﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ والقرآن، أي: أي شيء هو.

والمعنى: ما تدري جواب هذا الاستفهام، والكلام على حذف مضاف؛ لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وذلك أدخل في الإعجاز، وأدل على صحة نبوته، والاستفهام معلق للفعل عن العمل، وما بعده ساد مسد المفعولين ﴿وَلَا﴾ تدري ما ﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ بتفاصيل ما في تضاعيف القرآن، من الأمور التي لا تهتدي إليها العقول، لا الإيمان بما يستقل به العقل والنظر، فإن درايته ﷺ له مما لا ريب فيه قطعاً، فإن أهل العلم اتفقوا على أن الرسل عليهم السلام، كانوا مؤمنين قبل الوحي، معصومين من الكبائر، ومن الصغائر الموجبة، لنفرة الناس عنهم، قبل البعثة وبعدها، فضلاً عن الكفر، وهو مراد من قال: لا يعرف القرآن قبل الوحي، ولا شرائع الإيمان ومعالمه، وقيل: المراد بالإيمان: الكلمة التي بها دعوة الإيمان والتوحيد، وهي لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ، والإيمان بهذا التفسير إنما علمه بالوحي لا بالعقل.

قال ابن قتيبة: لم تزل العرب على بقايا من دين إسماعيل، من الحج

والختان والنكاح، وإيقاع الطلاق، والغسل من الجنابة، وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والمصاهرة، وكان رسول الله ﷺ على ما كانوا عليه في مثل هذه الشرائع، وكان يوحد، ويبغض اللات والعزى، ويحج ويعتمر، ويتبع شريعة إبراهيم عليه السلام، ويتعبد بها حتى جاءه الوحي، وجاءته الرسالة.

والمعنى: أي[1] ما كنت قبل الأربعين، وأنت بين ظهراني قومك، تعرف ما القرآن، ولا تفاصيل الشرائع، ومعالمها على النهج الذي أوحينا به إليك، وقيل: معنى الآية: ما كنت تدري قبل الوحي كيف تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: الروح الذي أوحينا إليك، والجعل بمعنى التصيير، لا بمعنى الخلق، وحقيقته أنزلناه؛ أي: ولكن جعلنا الروح والقرآن الذي أوحيناه إليك ﴿نُورًا﴾ وضياء، ودليلاً على التوحيد ﴿نَّهْدِى﴾ ونرشد ﴿بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ هدايته ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ بالتوفيق، وهو الذي يصرف اختياره نحو الاهتداء به ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ بهذا النور، وترشد من نشاء هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وطريق قويم الذي هو الإسلام، وسائر الشرائع والأحكام، وقوله[2]: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ تقرير لهدايته تعالى، وبيان لكيفيتها ومفعول ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ محذوف ثقة بغاية الظهور، كما قدرناه.

والمعنى: أي ولكن جعلنا هذا القرآن نوراً عظيماً، نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا، ونرشده إلى الدين الحق، وإنك لتهدي بذلك النور، من نشاء هدايته إلى الحق القويم. ونحو الآية قوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ الآية.

وقرأ الجمهور[3] ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ مبنياً للفاعل مضارع هدى، وقرأ ابن حوشب: مبنياً للمفعول، إجابة سؤاله ﷺ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾. وقرأ ابن السميقع: بضم التاء وكسر الدال، من أهدى الرباعي، وعن الجحدري مثلها، ومثل قراءة

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

حوشب، وفي قراءة أبي ﴿وإنك لتدعو﴾.

ثم بين الصراط المستقيم بقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل من الصراط الأول، وفي إضافة الصراط إلى الاسم الشريف، من التعظيم له، والتفخيم لشأنه ما لا يخفى ووصف الجلالة بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً لتقرير استقامته، وتأكيد وجوب سلوكه، فإن كون جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى، خلقاً وملكاً وتصرفاً، مما يوجب ذلك أتم إيجاب.

وقال بعضهم[1]: معنى الآية: دعونا يا محمد أقواماً في الأزل، فأجابوا، فأنت تهديهم إلينا وتدلهم علينا، وإنما كان عليه السلام هادياً؛ لأنه نور كالقرآن، ولمناسبة نوره مع نور الإيمان والقرآن قيل: كان خلقه القرآن.

وحاصل المعنى: أي هذا الطريق، هو الطريق الذي شرعه الله، مالك السموات والأرض والمتصرف فيهما، والحاكم الذي لا معقب لحكمه.

﴿أَلَآ﴾ كلمة تذكرة لتبصرة، أو تنبيه لحجة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا إلى غيره ﴿تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ أي: ترجع أمور ما فيهما قاطبةً بارتفاع الوسائط والتعلقات، يعني: يوم القيامة، فيحمل لفظ تصير على الاستقبال؛ أي: انتبهوا وتذكروا أن أمور الخلائق يوم القيامة تصير إلى الله، لا إلى غيره، فيضع كلاً منهم في موضعه الذي يستحقه من نعيم أو جحيم، وفي هذا وعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم ووعيد للظالمين، وفيه وعد بالبعث المستلزم للمجازاة. وقال في «بحر العلوم»: إلى الله سبحانه، تصير أمور الخلائق كلها، في الدنيا والآخرة، فلا يدبرها إلا هو، حيث لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره.

وعن سهل بن أبي الجعد: احترق مصحف، فلم يبق إلا قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ وغرق مصحف، فانمحى كل شيء إلا ذلك، كذا في «عين المعاني» للسجاوندي انتهى «قرطبي».

---

(١) روح البيان.

الإعراب

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿جزاء سيئة﴾: مبتدأ، ﴿سَيِّئَةٞ﴾ خبر، ﴿مِّثۡلُهَاۖ﴾: صفة لـ﴿سَيِّئَةٞ﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾، أو مستأنفة، ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾: الفاء: فاء الإفصاح؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن جزاء سيئة سيئة مثلها، وأردت بيان أجر من عفا وأصلح.. فأقول لك: ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما كما مر مراراً، ﴿عَفَا﴾: فعل ماض في محل الجزم فعل شرط، ﴿وَأَصۡلَحَ﴾: معطوف عليه، ﴿فَأَجۡرُهُۥ﴾ الفاء: رابطة الجواب وجوباً، ﴿أجره﴾: مبتدأ، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل الجزم جواب الشرط، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَلَمَنِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، ﴿ٱنتَصَرَ﴾ فعل ماض في محل الجزم فعل شرط، ﴿بَعۡدَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿ٱنتَصَرَ﴾. ﴿ظُلۡمِهِۦ﴾ مضاف إليه للظرف، وهو مضاف إلى الهاء، من إضافة المصدر إلى مفعوله، وتؤيده قراءة من قرأ: ﴿من بعد ما ظلم﴾ بالبناء للمفعول، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الفاء: رابطة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿ما﴾: نافية، ﴿عَلَيۡهِم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾: مبتدأ مؤخر. و﴿من﴾: زائدة، والجملة خبر عن اسم الإشارة، وجملة الإشارة في محل جزم جواب الشرط، وجملة الشرط وجوابه خبر لـ﴿من﴾ الشرطية، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿ٱلسَّبِيلُ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿يَظۡلِمُونَ

﴿ٱلنَّاسَ﴾: صلة الموصول، والجملة الاسمية مستأنفة معترضة، ﴿وَيَبْغُونَ﴾: معطوف على ﴿يَظْلِمُونَ﴾، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿يبغون﴾، ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: حال من فاعل ﴿يبغون﴾؛ أي: حال كونهم غير محقين، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾ والجملة خبر لاسم الإشارة. وجملة اسم الإشارة مستأنفة، أو حال من الموصول، ﴿وَلَمَن﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء. كما مر نظيره، ﴿من﴾: اسم موصول مبتدأ، ﴿صَبَرَ﴾ صلته ﴿وَغَفَرَ﴾: معطوف عليه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: اللام: مؤكدة للأولى. ﴿من عزم الأمور﴾ جار ومجرور خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الرفع خبر لـ﴿من﴾ الموصولة، وفي الرابط قولان:

أحدهما: هو اسم الإشارة إذا أريد به المبتدأ، ويكون حينئذٍ على حذف مضاف، تقديره: إن صبر ذلك لمن عزم الأمور.

الثاني: أنه ضمير محذوف، تقديره: لمن عزم الأمور منه أو له، وجملة قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ معطوفة على قوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾، وجملة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ...﴾ إلخ، معترضة، وجوز الحوفي وغيره أن تكون ﴿من﴾: شرطية، و﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: جوابها على حذف الفاء، على حد حذفها في البيت المشهور:

مَنْ يَفْعَلِ ٱلحَسَنَاتِ ٱللَّهُ يَشْكُرُهَا

وعلى جعل اللام للقسم، فإن ذلك جواب القسم المقدر، وحذف جواب الشرط للدلالة عليه، وتقدر الفاء الرابطة للجواب.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم، في محل النصب مفعول مقدم، ﴿يُضْلِلِ﴾: فعل شرط مجزوم بـ﴿مَنْ﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، ﴿فَمَا﴾ الفاء رابطة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم. ﴿مِّن وَلِيٍّ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿من﴾ زائدة، ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾: صفة لـ﴿وَلِيٍّ﴾، والجملة الاسمية جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية. وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على الجمل التي قبلها، أو مستأنفة، ﴿وَتَرَى﴾

﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ترى﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على أي مخاطب، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مفعول به، لأن رأى هنا بصرية. ﴿لَمَّا﴾ ظرف بمعنى حين، متعلق بـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به. والجملة مضاف إليه لـ﴿لما﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿هَلۡ﴾: حرف استفهام واستخبار مع الدهشة ﴿إِلَىٰ مَرَدّٖ﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن سَبِيلٖ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿من﴾ زائدة. والجملة الاستفهامية مقول القول لـ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿ترى الظالمين﴾، ﴿يُعۡرَضُونَ﴾: فعل مغير الصيغة ونائب فاعل ﴿عَلَيۡهَا﴾ متعلق بـ﴿يُعۡرَضُونَ﴾ وجملة ﴿يُعۡرَضُونَ﴾ حال من مفعول ﴿تراهم﴾، حال أولى، أو حال من واو ﴿يُعۡرَضُونَ﴾، ﴿خَٰشِعِينَ﴾ حال ثانية. ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ متعلق بـ﴿خَٰشِعِينَ﴾، وجملة ﴿يَنظُرُونَ﴾ حال ثالثة، أو من مرفوع ﴿يُعۡرَضُونَ﴾، ﴿مِن طَرۡفٍ﴾ متعلق بـ﴿يَنظُرُونَ﴾، ﴿خَفِيّٖ﴾ صفة ﴿طَرۡفٍ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قال الذين﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، صلة الموصول، ﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾: معطوف على ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾، منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾: ظرف، متعلق بـ﴿خَسِرُوٓاْ﴾، ويصح أن يتعلق بـ﴿قال﴾ كما مر. ﴿أَلَآ﴾: حرف استفتاح وتنبيه، ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِي عَذَابٖ﴾: خبره، ﴿مُّقِيمٖ﴾ صفة ﴿عَذَابٖ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، إن قلنا من كلام الله سبحانه، تصديقاً لكلامهم، أو مقول لـ﴿قال﴾ إن قلنا من تمام كلامهم.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص.

﴿لَهُم﴾: خبرها مقدم. ﴿مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾: اسمها مؤخر، و﴿من﴾ زائدة، وجملة ﴿يَنصُرُونَهُم﴾ صفة لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل النصب، مفعول مقدم، ﴿يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿فَمَا﴾ الفاء: رابطة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿لَهُ﴾: خبر مقدم. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿سَبِيلٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية جواب ﴿مَن﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على ما قبلها.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟﴾: فعل وفاعل، بمعنى ﴿أجيبوا﴾. مبني على حذف النون، ﴿لِرَبِّكُم﴾ متعلق به، ﴿مِّن قَبْلِ﴾ متعلق به أيضاً؛ أي: أجيبوه بالتوحيد والعبادة. ﴿أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من قبل إتيان يوم. ﴿لَّا﴾: نافية للجنس، ﴿مَرَدَّ﴾: اسمها، ﴿لَهُۥ﴾: خبرها، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿مَرَدَّ﴾؛ لأنه مصدر ميمي، وأجاز بعضهم تعلقه بـ﴿يَأْتِىَ﴾؛ أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يتاح لأحد رده. وجملة ﴿لَا﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿يَوْمٌ﴾، ﴿مَا لَكُم﴾ ﴿ما﴾: نافية، ﴿لَكُم﴾ خبر مقدم، ﴿مِّن مَّلْجَإٍ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿من﴾: زائدة. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف متعلق، بمحذوف حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، أو من ضمير المخاطبين، والجملة مستأنفة، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿لَكُم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن نَّكِيرٍ﴾: مبتدأ، و﴿مِن﴾ زائدة، والجملة معطوفة على التي قبلها. ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾: الفاء: استئنافية، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿أَعْرَضُوا۟﴾: فعل ماض وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿فَمَآ﴾ الفاء: رابطة الجواب وجوباً، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾: فعل

وفاعل ومفعول به، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿حَفِيظًا﴾، و﴿حَفِيظًا﴾ حال من مفعول ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، والأولى أن يكون جواب الشرط محذوفاً، والفاء عاطفة على الجواب المحذوف، المقدر بما يناسب المقام؛ أي: فلا تبتئس ولا تحاول اقتسارهم. ﴿إن﴾: نافية، ﴿عَلَيْكَ﴾: خبر مقدم، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿الْبَلَاغُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، ﴿وَإِنَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنا﴾: ناصب واسمه ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط، متعلق بالجواب الآتي، ﴿أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، ﴿مِنَّا﴾: حال من ﴿رَحْمَةً﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول ثان، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿فَرِحَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿الْإِنْسَانَ﴾. ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿فَرِحَ﴾، والجملة جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية. ﴿وإِنْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنْ﴾ حرف شرط، ﴿تُصِبْهُمْ﴾: فعل مضارع، ومفعول به، مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿سَيِّئَةٌ﴾ فاعل، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ﴿تُصِبْهُمْ﴾، و﴿ما﴾ موصولة، وجملة ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ صلة، والعائد محذوف؛ أي: قدمته. وعبر بالأيدي؛ لأن أكثر الأعمال تزاول بها كما مر. ﴿فَإِنَّ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية، أو علة للجواب المقدر، والتقدير: وإن تصبهم سيئة نسوا النعمة فوراً؛ لأن الإنسان كثير كفران النعمة، ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجزم جواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الشرطية.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾.

﴿لِلَّهِ﴾: خبر مقدم ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة

الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان سعة ملكه، ﴿يَخْلُقُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر. و﴿ما﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، وجملة ﴿يَخْلُقُ﴾: في محل النصب حال من الجلالة، ﴿يَهَبُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله تعالى، ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ متعلق بـ﴿يَهَبُ﴾، ﴿إِنَٰثًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَهَبُ﴾: بدل من جملة ﴿يَخْلُقُ﴾: بدل مفصل من مجمل، وجملة ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾: معطوفة على ما قبلها، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف، ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على اللَّه، ومفعول به، ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ مفعول به ثان، بدليل ما بعده، على تضمينه معنى التصيير؛ أي: يجعل أولاده ذكوراً وإناثاً. واختار أبو البقاء والخطيب إعراب ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ حالين. ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول أول، و﴿عَقِيمًا﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ثان له، والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿لِبَشَرٍ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾: فعل مضارع، ومفعول وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع مدخولها، في تأويل مصدر، مرفوع على كونه اسما لـ﴿كَانَ﴾، والتقدير: وما كان تكليم الله سبحانه، إنساناً كائناً له، في حال من الأحوال، إلا في حالة كونه وحياً، إلخ. وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة. مسوقة لبيان كيفية تكليم الله لعباده، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء من أعم الأحوال، ﴿وَحْيًا﴾: مصدر واقع موقع الحال؛ أي: موحياً، أو مفعول مطلق لفعل محذوف، والتقدير: إلا أن يوحي إليه وحياً ﴿أَوْ﴾ حرف عطف، ﴿مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾: متعلق بمقدر، معطوف على المقدر العامل في وحياً؛ أي: أو إلا أن يكلمه الله من وراء حجاب، أو مسمعاً من وراء حجاب، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف، ﴿يُرْسِلَ﴾: فعل مضارع، منصوب بأن

مضمرة جوازاً بعد أو، العاطفة على اسم خالص، أعني: وحياً، كما قال ابن مالك:

وَإنْ عَلَى ٱسْمٍ خَالِصٍ فِعْلٌ عُطِفْ تَنْصِبُهُ إنْ ثَابِتاً أَوْ مُنْحَذِفْ

وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿رَسُولًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر، معطوف على وحياً تقديره: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً، أو إرسال رسول، فكأنه قال إلا موحياً، أو مرسلاً رسولاً، أو إلا أن يوحي، أو ﴿يُرْسِلَ﴾ ﴿رَسُولًا﴾، ﴿فَيُوحِىَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿يُوحِى﴾: فعل مضارع، معطوف على يرسل، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَسُولًا﴾، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يُوحِى﴾، ﴿ما﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، والكاف صفة لمصدر محذوف؛ أي: إيحاء مثل إيحائنا إلى غيرك، ﴿أَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿أَوْحَيْنَآ﴾، ﴿رُوحًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾: نعت لـ﴿رُوحًا﴾. وقيل: حال، و﴿من﴾ تبعيضية؛ أي: حال كون هذا الروح، وهو القرآن بعض ما نوحيه إليك؛ لأن الموحى إليه لا ينحصر في القرآن، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كُنتَ﴾ فعل ناقص واسمه، والجملة حال من كاف إليك، ﴿ما﴾: استفهامية معلقة لـ﴿تَدْرِى﴾ عن العمل، في محل رفع مبتدأ، و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل نصب، سدت مسد مفعولي ﴿تَدْرِى﴾، ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾: عطف على ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾. ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: حالية، أو عاطفة، ﴿لكن﴾ حرف استدراك مهمل، ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿نُورًا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب، حال من ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾، أو معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾،

﴿نَهۡدِي﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿نَّهۡدِي﴾. ﴿مَنۡ﴾: مفعول به، وجملة ﴿نَّشَآءُ﴾: صلة ﴿مَنۡ﴾ الموصولة، ﴿مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ حال من ﴿مَنۡ﴾ الموصولة، أو من عائده المحذوف، وجملة ﴿نَّهۡدِي﴾ في محل النصب، صفة لـ﴿نُورًا﴾. ﴿وَإِنَّكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿إنك﴾ ناصب واسمه، ﴿لَتَهۡدِيٓ﴾ اللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿تهدي﴾: في محل الرفع خبر﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ متعلق بـ﴿تهدي﴾. ﴿مُّسۡتَقِيمٍ﴾ صفة لـ﴿صِرَٰطٍ﴾: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل من ﴿صِرَٰطٍ﴾ الأول، بدل معرفة من نكرة ﴿ٱلَّذِي﴾: نعت للجلالة، ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم، ﴿مَا﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ معطوف على ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة الاسمية صلة الذي ﴿أَلَآ﴾: حرف استفتاح، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تَصِيرُ﴾. ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾: فاعل. والمراد بهذا المضارع الديمومة، كقولك: زيد يعطي ويمنع؛ أي: من شأنه ذلك، وليس المراد حقيقة المستقبل؛ لأن الأمور منوطة به تعالى كل وقت.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ﴾ والسيئة: فعيلة من السوء، وهو القبيح. ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ﴾؛ أي: سعي في نصر نفسه بجهده. ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾؛ أي: من عقاب وعتاب، والسبيل في الأصل: الطريق الذي فيه سهولة. ﴿لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾؛ أي: لمن الأمور المشكورة عند الله تعالى، والأفعال التي ندب إليها عباده، ولم يرخص بالتهاون فيها من العزم، والعزم: عقد القلب على إمضاء الأمر. والعزيمة: الرأي الجد كما في «المفردات» ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾؛ أي: أجيبوا، فالسين والتاء فيه زائدتان.

﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾؛ أي: لا يرده بعد ما حكم به. أصله: مردد بوزن مفعل بفتح العين، نقلت حركة الدال الأولى إلى الراء، فسكنت فأدغمت في الدال الثانية. ﴿مِن طَرۡفٍ خَفِيٍّۗ﴾ قيل المراد به: العضو، وهو العين، وقيل المراد به: المصدر، يقال: طرفت عينه تطرف طرفاً؛ أي: ينظرون نظراً خفياً. وفي «المصباح»: طرف البصر طرفاً، من باب ضرب تحرك، وطرف العين نظرها، ويطلق على الواحد وغيره، لأنه مصدر اهـ، وفي «المختار»: وطرف بصره من باب ضرب، إذا أطبق

أحد جفنيه على الآخر، والمرة منه طرفة، يقال: أسرع من طرفة العين ﴿خَفِيٍّ﴾ أصله: خفيي بوزن فعيل، أدغمت ياء فعيل في لام الكلمة ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ من الخسران، وهو انتقاص رأس المال، وينسب إلى الإنسان، فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، كما سبق. ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ قال ابن الملك في «شرح المشارق»: الأهل يفسر بالأزواج والأولاد. وبالعبيد والإماء، وبالأقارب، وبالأصحاب، وبالمجموع. ﴿مِّن مَّلْجَإٍ﴾؛ أي: ملاذ تلجؤون إليه، ومهرب ومفر تفرون إليه، وفي «المصباح»: لجأ إلى الحصن وغيره، لجأ من بابي نفع وتعب، والتجأ إليه اعتصم به، فالحصن ملجأ بفتح الميم والجيم، وألجأته إليه ولجأته بالهمزة والتضعيف، اضطررته إليه وأكرهته، اهـ. ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الملك بالضم: الاستيلاء على الشيء والتمكن من التصرف فيه، وفي «المصباح»: وملك على الناس أمرهم ملكاً، من باب ضرب، إذا تولى السلطنة، فهو ملك، والاسم الملك بضم الميم اهـ.

﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ قال الراغب: كفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها. وأعظم الكفر: جحودهم الوحدانية والنبوة، فمعنى كفور: نسّاء للنعمة، ذكّار للبلية. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ والهبة: أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض، وفي «المختار»: وهب له شيئاً يهبه وهباً، بوزن وضع يضع وضعاً، ووهَباً أيضاً بفتح الهاء، وهبة بكسر الهاء، والاسم الموهب والموهبة بكسر الهاء فيهما، والاتهاب: قبول الهبة، والاستيهاب: سؤال الهبة اهـ. فأصل يهب: يوهب؛ لأنه حذفت فاؤه فوزنه يعل. ﴿إِنَٰثًا﴾ جمع أنثى خلاف الذكر. ﴿ٱلذُّكُورَ﴾ جمع ذكر، وهو ضد الأنثى، والخنثى: إنسان له ذكر وفرج، وأول ظهوره في الجاهلية الأولى، زمن عامر بن الظرب ملك العرب، كما سبق. ﴿ذُكْرَانًا﴾ جمع ذكر أيضاً. ﴿عَقِيمًا﴾ وفي «المصباح»: العقيم الذي لا يولد له، يطلق على الذكر والأنثى، وفي «القاموس» العقم بالضم: هرمة تقع في الرحم، فلا تقبل الولد، يقال: عقمت كفرح ونصر وكرم عقماً وعقماً، ويضم، وعقمها الله تعقيماً وأعقمها، ورحم عقيمة وامرأة معقومة، وامرأة عقيم، والجمع عقائم وعقم، ورجل عقيم كأمير لا يولد له، والجمع عقماء وعقام، اهـ. وفي «الروح»: وأصل العقم:

اليبس المانع من قبول الأثر، والعقيم من النساء التي لا تقبل ماء الفحل، فالعقم كما يقع صفة للمرأة، يقع صفة للرجل، بأن يكون في مائه ما يمنع العلوق من الأعذار. ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ قال الراغب: ومعنى الوحي: الإشارة السريعة، يقال: أمر وحي؛ أي: سريع، ثم اختص في عرف اللغة بالأمر الإلهي الملقى إلى الأنبياء، وفي «المصباح»: الوحي: الإشارة، والرسالة، والكتابة، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه وحي كيف كان، قاله ابن فارس، وهو مصدر وحى إليه يحي من باب وعى، وأوحى إليه بالألف مثله، وجمعه وحي، أصله: وحوي بوزن فعول، مثل: فلوس، وبعض العرب تقول: وحيت إليه، ووحيت له، وأوحيت إليه وله، ثم غلب استعمال الوحي فيما يلقى إلى الأنبياء من عند الله تعالى، ولغة القرآن الفاشية أوحى بالألف، اهـ.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ والصراط من السبيل مالا التواء فيه؛ أي: لا اعوجاج بل يكون على سبيل القصد. ﴿تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أصله: تصير بوزن تفعل نقلت حركة الياء إلى الصاد، فسكنت الياء إثر كسرة فصارت حرف مد.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس المزاوجة اللفظي في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾؛ لأن إطلاق السيئة على الثانية، مع أنها جزاء وقصاص مشروع مأذون فيه، وكل مأذون حسن لا سيء لقصد المزاوجة، ويعبر عنها بعضهم بالمشاكلة، ومثله قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ فسمى جزاء الاعتداء اعتداء، مع أنه مأذون فيه، ليكون في نظم الكلام مزاوجة؛ أي: مشاكلة.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ للدلالة على تحقق وقوعه؛ لأن مقتضى الظاهر أن يقال: لما يرون العذاب لاستقباله.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ اهتماماً بشأن الصبر وترغيباً فيه، والصبر هنا: هو الإصلاح المتقدم فأعيد هنا، وعبر عنه بالصبر؛ لأنه من شأن أولي العزم، وأشار إلى أن العفو المحمود ما نشأ عن التحمل، لا عن العجز، اهـ «شهاب».

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛ لأن مقتضى الظاهر: أن يقال: ألا إنهم في عذاب مقيم، تسجيلاً عليهم باسم الظلم.

ومنها: تلوين للكلام، وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة، وتوجيه له إلى الرسول ﷺ في قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ﴾؛ أي: فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم إليه، فما أرسلناك رقيباً.

ومنها: تصدير الشرطية الأولى بإذا المفيدة للتحقيق، مع إسناد الإذاقة إلى نون العظمة في قوله: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَاۖ﴾ للتنبيه على أن إيصال النعمة أمر محقق الوجود كثير الوقوع، وأنه مقتضى الذات، كما أن تصدير الشرطية الثانية في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بـ﴿إن﴾ المفيدة للشك، مع إسناد الإصابة إلى السيئة وتعليلها بأعمالهم، للإيذان بندرة وقوعها، وأنها بمعزل عن الانتظام في سلك الإرادة بالذات.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ للتسجيل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم، وفيه أيضاً المجاز العقلي، حيث أسند هذه الخصلة إلى الجنس والكل، مع كونها من صفات المجرمين فقط، نظراً لغلبتهم فيما بين الأفراد، يعني: أنه حكم على الجنس بحال أغلب أفراده، لعلاقة الملابسة.

ومنها: التقسيم في قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ﴾.

ومنها: الطباق بين الذكور والإناث.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾؛ لأنه حقيقة فيما يحيي به الروح، فاستعير للقرآن بجامع حصول الحياة بكل منهما، وإن كانت مختلفة.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾؛ لأنه كناية عن الأحكام المشروعية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) كان الفراغ من تفسير هذه السورة الكريمة، في تاريخ: ٢٥/ ١١/ ١٤١٤ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية، في عصر يوم الجمعة، بعد صلاته، قبيل الغروب، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، تسليماً كثيراً.

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من الموضوعات

١ ـ إنزال الوحي على رسوله ﷺ.

٢ ـ اختلاف الأديان ضروري للبشر.

٣ ـ أصول الشرائع واحدة لدى جميع الرسل.

٤ ـ اختلاف المختلفين في الأديان بغي وعدوان منهم.

٥ ـ إنكار نبوة محمد ﷺ، بعد أن قامت الأدلة على صدقه.

٦ ـ استعجال المشركين لمجيء الساعة، وإشفاق المؤمنين منها.

٧ ـ من يعمل للدنيا يؤت منها، وما له حظ في الآخرة، ومن يعمل للآخرة، يوفقه الله للخير.

٨ ـ ينزل الله الرزق بقدر، بحسب ما يرى من المصلحة.

٩ ـ من الأدلة على وجود الخالق خلق السمٰوات والأرض، وجرى السفن في البحار.

١٠ ـ متاع الآخرة خير وأبقى من متاع الدنيا.

١١ ـ جزاء السيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله سبحانه.

١٢ ـ تمني المشركين يوم القيامة العودة إلى الدنيا، حين يرون العذاب.

١٣ ـ نظر المشركين إلى النار بطرف خفي، إذا عرضوا عليها خاشعين من الذل.

١٤ ـ ليس على الرسول إلا البلاغ.

١٥ ـ يهب الله سبحانه لمن يشاء الإناث، ولمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً، ويجعل من يشاء عقيماً.

١٦ ـ أقسام الوحي إلى البشر.

١٧ ـ الرسول ﷺ قبل الوحي، ما كان يدري شيئاً من الشرائع.

١٨ ـ هدايته إلى صراط مستقيم.

والله أعلم

* * *

سورة الزخرف

سورة الزخرف: قال القرطبي: هي مكية بالإجماع، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة حم الزخرف بمكة، قال مقاتل: إلا قوله: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ يعني: فإنها نزلت بالمدينة.

وآياتها[1]: تسع وثمانون آية، وكلماتها: ثمان مئة وثلاث وثلاثون كلمة. وحروفها: ثلاثة آلاف وأربع مئة حرف.

التسمية: سميت سورة الزخرف، لما فيها من التمثيل الرائع، لمتاع الدنيا الزائل، وبريقها الخادع، بالزخرف اللامع الذي ينخدع به الكثيرون، مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة. ولهذا يعطيها الله تعالى للأبرار والفجار، وينالها الأخيار والأشرار، أما الآخرة فلا يمنحها الله تعالى إلا لعباده المتقين، فالدنيا دار الفناء، والآخرة دار البقاء.

ووجه مناسبتها لما قبلها[2]: أن مفتتح هذه يشاكل مختتم تلك.

والحاصل: أن مناسبة هذه السورة لما قبلها من آل حم من وجهين.

الأول: تشابه مطلع هذه السورة مع مطلع وخاتمة السورة المتقدمة، في وصف القرآن الكريم، وبيان مصدره، وهو الوحي الإلهي.

الثاني: التشابه في إيراد الأدلة، القاطعة على وجود الله عز وجل ووحدانيته، ووصف أحوال الآخرة ومخاوفها، وأهوال النار التي تعرض لها الكفار، ومقارنته بنعيم الجنة، وإعداده للمؤمنين المتقين، انتهى من «التفسير المنير».

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

فضلها: روي عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الزخرف، كان ممن يقال لهم يوم القيامة: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ولكن فيه مقال.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله محمد بن حزم[1]: سورة الزخرف جميعها محكم غير آيتين:

أولاهما: قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ (الآية ٨٣) نسخت بآية السيف.

والثانية: قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ (الآية ٨٩) نسخت أيضاً بآية السيف.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الناسخ والمنسوخ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

المناسبة

قد تقدم آنفاً بيان المناسبة بين السورتين، بأن هذه بدئت بذكر الكتاب المبين، الذي فيه بيان الصراط المستقيم، الذي ختمت به السورة السابقة.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أن المشركين منهمكون في كفرهم، وإعراضهم عما جاء به القرآن، من توحيد الله تعالى والبعث. . أبان هنا أن أفعالهم تخالف أقوالهم، فإن سألتهم عن الخالق لهذا الكون، من سمائه وأرضه ليقولن الله، وهم مع اعترافهم به يعبدون الأصنام والأوثان، ثم ذكر سبحانه وتعالى جليل أوصافه، فأرشد إلى أنه هو الذي جعل الأرض فراشاً، وجعل فيها طرقاً لتهتدوا بها في سيركم، ونزل من السماء ماء بقدر الحاجة، يكفي زرع النبات وسقي الحيوان، وخلق أصناف المخلوقات، من حيوان ونبات، وسخر لكم السفن والدواب لتركبوها، وتشكروا الله على ما آتاكم، وتقولوا لولا لطف الله بنا ما كنا لذلك بمطيقين، وإنا يوم القيامة إلى ربنا راجعون، فيجازي كل نفس بما كسبت إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝١٥ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أنهم يعترفون بالألوهية، وأنه خالق السمٰوات والأرض. . أردف هذا ببيان أنهم متناقضون مكابرون، فهم مع اعترافهم لله بخلق السمٰوات والأرض، يصفونه بصفات المخلوقين، المنافية لكونه خالقاً لهما، إذ جعلوا الملائكة بنات له، ولا غرو، فالإنسان من طبعه الكفران، وجحود الحق، ومن عجيب أمرهم أنهم أعطوه أخس صنفي الأولاد، وما لو بشر به أحدهم اسودَّ وجهاً وامتلأ غيظاً، ومن يتربى في الزينة، وهو لا يكاد يبين حين الجدل، فلا يظهر حجة، ولا يؤيد رأياً، واختاروا لأنفسهم الذكران، ثم أعقبه بالنعي عليهم في جعلهم الملائكة إناثاً، وزاد في الإنكار عليهم ببيان أن مثل هذا الحكم لا يكون إلا عن مشاهدة، فهل هم شهدوا ذلك، ثم توعدهم على هذه المقالة، وأنه يوم القيامة يجازيهم بها.

ثم حكي عنهم شبهة أخرى، قالوا لو شاء الله أن لا نعبد الملائكة ما عبدناها، لكنه شاء عبادتها، لأنها هي المتحققة فعلاً، فتكون حسنة، ويمتنع

النهي عنها، ثم رد مقالهم بأن المشيئة إنما هي ترجيح بعض الأشياء على بعض، ولا دخل لها في حسن أو قبح، وبعد أن أبطل استدلالهم العقلي.. نفى أن يكون لهم دليل نقلي على صحة ما يدعون، ثم أبان أن ما فعلوه إنما هو بمحض التقليد عن الآباء، دون حجة ولا برهان، وهم ليسوا ببدع في ذلك، فكثير من الأمم قبلهم، قالوا مثل مقالهم، مع أن الرسل بينوا لهم الطريق السويّ، فكفروا به واتبعوا سنن من قبلهم حذو القذة بالقذة، فكان عاقبة أمرهم أن حل بهم نكالنا، كما يشاهدون ويرون من آثارهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا...﴾ الآيات، سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن المنذر عن قتادة قال: قال ناس من المنافقين: إن الله صاهر الجن فخرجت من بينهم الملائكة، فنزل فيهم: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا...﴾ الآيات.

التفسير وأوجه القراءة

﴿حمٓ ①﴾ يحتمل[2] كونه اسماً للقرآن؛ أي: هذا القرآن يسمى بـ﴿حمٓ﴾، أو اسماً للسورة؛ أي: هذه السورة تسمى بـ﴿حمٓ﴾، وقيل: ﴿حمٓ﴾ إشارة إلى الاسمين الجليلين من أسمائه تعالى، وهما: الحنان والمنان.

فالحنان: هو الذي يقبل على من أعرض عنه. وفي «القاموس»: الحنان كشداد، اسم لله تعالى ومعناه: الرحيم انتهى.

والمنان: هو الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال، كما في «القاموس»: المنان من أسماء الله تعالى، المعطي ابتداء، انتهى. وقد جعل في داخل الكعبة ثلاث اسطوانات. الأولى: اسطوانة الحنان. والثانية: اسطوانة المنان، والثالثة: اسطوانة الديان، وإنما أضيفت إلى الله تعالى تعظيماً لها، كما قيل: بيت الله،

---

(١) لباب النقول.
(٢) روح البيان بتصرف.

وناقة الله، فأشار بهذه الأسماء الثلاثة، حيث جعلت في داخل الكعبة، المشار بها إلى الذات الأحدية، إلى أن مقتضى الذات هو الرحمة، والعطاء في الدنيا، والمجازاة والمكافأة في الآخرة، وبرحمته أنزل القرآن، كما قال مقسماً به: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ بالجر على أنه مقسم به، إما ابتداء أو عطفاً على ﴿حمٓ ۝١﴾ على تقدير كونه مجروراً بإضمار باء القسم، على أن مدار العطف المغايرة في العنوان، ومناط تكرير القسم المبالغة في تأكيد مضمون الجملة القسمية، ومعنى إقسام الله بالأشياء: استشهاده بما فيها من الدلالة على المقسم عليه، اهـ «بيضاوي». ﴿ٱلْمُبِينِ﴾؛ أي: البين لمن أنزل عليهم، لكونه بلغتهم وعلى أساليبهم، فيكون من أبان بمعنى بان؛ أي: ظهر، أو المبين لطريق الهدى من طرق الضلالة، الموضح لكل ما يحتاج إليه في أبواب الديانة، فيكون من أبان بمعنى أظهر وأوضح.

وقال سهل: بين فيه الهدى من الضلالة، والخير من الشر، وبين سعادة السعداء، وشقاوة الأشقياء، وقال بعضهم[1]: المراد بالكتاب: الخط والكتابة، يقال: كتبه كتباً وكتاباً خطه، أقسم به تعظيماً لنعمته فيه، إذ فيه كثرة المنافع، فإن العلوم إنما تكاملت بسبب الخط والكتابة، فالمتقدم إذا استنبط علماً وأثبته في كتاب، وجاء المتأخر وزاد عليه، تكاثرت به الفوائد، يقول الفقير: لعل السبب في حمل الآية على هذا المعنى الغير الظاهر، لزوم اتحاد المقسم به والمقسم عليه، على تقدير حملها على القرآن، وليس بذلك، كما سيأتي، وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: أقسمت لك بالكتاب المبين، إنا صيرنا ذلك الكتاب ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ بإنزاله بلغة العرب ولسانها، ولم نصيره أعجمياً بإنزاله بلغة العجم، مع كونه كلامنا وصفتنا قائمة بذاتنا، عرية عن كسوة العربية، منزهة عنها وعن توابعها ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لكي تفهموا القرآن العربي، وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق، والمعنى الفائق، ولتقفوا على ما تضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر، وتعرفوا حق النعمة في ذلك، وتنقطع أعذاركم بالكلية،

---

(١) روح البيان.

إذ لو أنزلناه بغير لغة العرب ما فهمتموه، فلعل هنا مستعارة لمعنى كي، وهو التعليل، وسببية ما قبلها لما بعدها، لكون حقيقة الترجي والتوقع ممتنعة في حقه تعالى. لكونها مختصة بمن لا يعلم عواقب الأمور.

وحاصل معناها: الدلالة على أن الملابسة بالأول لأجل إرادة الثاني، من شبه الإرادة بالترجي، فقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في موضع النصب على المفعول له، وإنما سمي ﴿قُرْءَانًا﴾؛ لأنه جعل بعض سوره مقروناً بآخر.

فإن قلت: إن قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ يدل على أن القرآن مجعول، والمجعول مخلوق، وقد قال ﷺ: «القرآن كلام الله غير مخلوق».

قلت: المراد بالجعل هنا: تصيير الشيء على حالة دون حالة، وقال بعضهم: أقسم بالقرآن على أنه جعله قرآناً عربياً، فالقسم والمقسم عليه من بدائع الأقسام لكونهما من واحد، فالمقسم به ذات القرآن العظيم، والمقسم عليه وصفه، وهو جعله قرآناً عربياً، فتغايرا، فكأنه قيل: والقرآن إنه ليس بمجرد كلام مفترى على الله وأساطير، بل هو الذي تولينا إنزاله على لغة العرب، فهذا هو المراد بكونه جواباً لا مجرد كونه عربياً، إذ لا يشك فيه.

وإنما جعله مقسماً به إشارة إلى أنه ليس عنده شيء أعظم قدراً، وأرفع منزلة منه حتى يقسم به، فإن المحب لا يؤثر على محبوبه شيئاً، فأقسم به، ليكون قسمه في غاية الوكادة، وكذا لا أهم من وصفه فيقسم عليه.

والمعنى(١): أي أقسمت بالكتاب المبين، لطريق الهدى والرشاد، الموضح لما يحتاج إليه البشر في دنياهم ودينهم، ليفوزوا بالسعادة على أننا جعلناه قرآناً عربياً، إذ كنتم أيها المنذرون به عرباً لتعقلوا ما فيه من عبر ومواعظ، ولتتدبروا معانيه، ولم ينزله بلسان العجم حتى لا تقولوا: نحن عرب، وهذا كلام أعجمي لا نفقه شيئاً مما فيه.

ثم بين شرفه في الملأ الأعلى تعظيماً له، وليطيعه أهل الأرض، فقال:

---

(١) المراغي بتصرف.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإن ذلك الكتاب يعني: القرآن ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ وهو خبر أول لـ﴿إن﴾، والجملة معطوفة على جواب القسم، وسمي[1] اللوح المحفوظ أم الكتاب؛ لأنه أصل الكتب السماوية، فإن جميعها مثبتة فيه على ما هي عليه عند الأنبياء، ومأخوذة مستنسخة منه. وقوله: ﴿لَدَيۡنَا﴾ بدل من الجار والمجرور قبله، أو حال من الضمير المستكن فيه.

والمعنى: وإن هذا القرآن مثبت في اللوح المحفوظ، ومحفوظ لدينا، أو حال كونه محفوظاً لدينا عن تبديل وتغيير. وقوله: ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ خبران آخران لـ﴿إن﴾ أيضاً؛ أي: وإن هذا الكتاب لعليّ؛ أي: لرفيع القدر من بين الكتب السماوية شريف حكيم؛ أي: ذو حكمة بالغة، أو محكم النظم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض، أو محكم لا يتطرق إليه نسخ بكتاب آخر، ولا تبديل.

والمعنى[2]: أي وإن هذا الكتاب في علمه الأزلي رفيع الشأن، لاشتماله على الأسرار والحكم التي فيها سعادة البشر، وهدايتهم إلى سبيل الحق، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بضم الهمزة، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي بكسرها، وعزاها ابن عطية يوسف بن عمرو إلى العراق غفلة منه، وقال ابن جريج: المراد بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية، وقال قتادة: أخبر عن منزلته وشرفه وفضله؛ أي: إن كذبتم به يا أهل مكة، فإنه عندنا شريف رفيع، محكم من الباطل، انتهى.

وبعد ما بين سبحانه علو شأن القرآن العظيم، وحقق أن إنزاله على لغتهم ليعقلوه، ويؤمنوا به، ويعملوا بموجبه، عقب ذلك بإنكار أن يكون بخلافه، فقال: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ﴾ والهمزة[3] فيه للاستفهام الإنكاري، داخلة على مقدر

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

يقتضيه المقام، والفاء عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير؛ أي: أنهملكم يا أهل مكة إهمالاً، فننحي عنكم الذكر والقرآن، ونبعده عنكم، ونمسك عن إنزاله لكم.

والمعنى: أنمسك عن إنزال ما لم ينزل منه، ونرفع ونزيل ما نزل منه، ونترك عنكم الأمر والنهي والوعد والوعيد، مأخوذ من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض؛ أي: طردها عنه. والمراد بالغرائب: البعران الأجانب؛ لأن الإبل إذا وردت الماء ودخلت فيها ناقة غريبة من غيرها ذبت وطردت عن الحوض، وقوله: ﴿صَفْحًا﴾ مفعول لأجله؛ أي: أفنضرب عنكم الذكر ونرفعه صفحاً وإعراضاً عنكم، أو حال من فاعل نضرب، أي: نضرب عنكم الذكر صافحين؛ أي: معرضين عنكم، أو مصدر معنوي لنضرب، فإن تنحية الذكر عنهم إعراض؛ أي: أفنعرض عنكم بترك إنزال الذكر صفحاً وإعراضاً لأجل ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾؛ أي: منهمكين في الإسراف، مجاوزين الحد في المعاصي، مصرين عليها على معنى: أن حالكم وإن اقتضى تخليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر والضلالة، وتبقوا في العذاب الخالد، لكنا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك، بل نهديكم إلى الحق بإرسال الرسول الأمين ﷺ، وإنزال الكتاب المبين. قال قتادة: والله لو كان هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن عاد بعائدته ورحمته، فكرره عليهم عشرين سنة، أو ما شاء الله سبحانه. وقرأ[1] نافع وحمزة والكسائي ﴿إن كنتم قوماً مسرفين﴾ بكسر الهمزة على أنها الشرطية. والجواب محذوف لدلالة ما قبله عليه، وقد تشكل هذه القراءة بأن إسرافهم كان متحققاً. فكيف دخلت عليه إن الشرطية التي لا تدخل إلا على غير المتحقق، أو على المتحقق الذي انبهم زمانه. وقرأ الجمهور ﴿أَن كُنتُمْ﴾ بفتح الهمزة؛ أي: من أجل أن كنتم، واختار أبو عبيد قراءة الفتح لما ذكر. وقرأ زيد بن علي ﴿إذ كنتم﴾ بالذال مكان النون.

والمعنى[2]: أي أنترك إنذاركم وتذكيركم بالقرآن لانهماككم في الكفر والإعراض عن أوامره ونواهيه، كلا لا نفعل ذلك رحمةً بكم، وقد كانت حالكم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

تدعو إلى تخليتكم، وما تريدون حتى تموتوا على الضلال، أراد أنه تعالى من رحمته ولطفه بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير، وإلى الذكر الحكيم، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل يأمر به ليهتدي من قدر له الهداية، وتقوم الحجة على من كتب له الشقاوة.

ثم قال مسلياً رسوله ﷺ على تكذيب قومه، آمراً له بالصبر، مهدداً للمشركين، منذراً لهم بشديد العقاب: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾ ﴿كَمْ﴾ خبرية[1] بمعنى عدد كثير في موضع النصب، على أنه مفعول مقدم لأرسلنا، و﴿مِن نَّبِيٍّ﴾ تمييز و﴿في الأولين﴾ متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، أو بمحذوف مجرور على أنه صفة لنبي.

والمعنى: كثيراً من الأنبياء أرسلنا في الأمم الأولين والقرون الماضين. ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾ ضمير يأتيهم إلى الأولين، وهو حكاية حال ماضية مستمرة، كما سيأتي؛ لأن ﴿مَآ﴾ إنما تدخل على مضارع في معنى الحال، أو على ماض قريب منها؛ أي: وما أتى وجاء أولئك الأولين نبي من الأنبياء والمرسلين ﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي إلا كانوا يستهزؤون بذلك النبي ويكذبونه؛ أي: إلا كانوا مستمرين على التكذيب. يعني: أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق، هو التكذيب والاستهزاء، كما استهزأ قومك بك، فلا ينبغي لك أن تتأذى من قومك بسبب تكذيبهم واستهزائهم إياك؛ لأن المصيبة إذا عمت خفت ﴿فَأَهْلَكْنَآ﴾ واستأصلنا بسبب تكذيبهم أنبياءهم قوماً ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾؛ أي: أشد بطشاً وأخذاً وصولة، من هؤلاء القوم المسرفين. وهم قريش؛ أي: أهلكنا قوماً أشد قوة وجلداً، وأكثر عُدداً وعَدداً، من هؤلاء القوم الذين كذبوك، بسبب تكذيبهم أنبياءهم، و﴿بَطْشًا﴾ تمييز، وهو الظاهر، أو حال من فاعل ﴿أَهْلَكْنَا﴾؛ أي: باطشين. والبطش: تناول الشيء بصولة، والأخذ بشدة، كما سيأتي في مبحث المفردات. وهذا وعد له ﷺ ووعيد لهم بمثل ما جرى على الأولين، ووصفهم بأشدية البطش؛ لإثبات حكمهم لهؤلاء المشركين بطريق

---

(١) روح البيان.

الأولوية.

والمعنى: أي[1] وكثيراً ما أرسلنا في الأمم الغابرة رسلاً قبلك، كما أرسلناك إلى قومك قريش، وكلما أتى نبي أمته يدعوهم إلى الهدى وطريق الحق، استهزؤوا به، وسخروا منه، كما يفعل قومك بك، فقومك ليسوا ببدع في الأمم، ولا أنت ببدع في الرسل، فلا تأس على ما تجد منهم، ولا يشقن ذلك عليك، فهم قد سلكوا سبيل من قبلهم، واحتذوا حذوهم، ونهجوا نهجهم حذو القذة بالقذة، وكن كما كان أولو العزم من الرسل، واصبر كما صبروا على ما أوذوا في سبيل الله.

ثم ذكر عقبى تكذيبهم واستهزائهم برسله، تسلية لرسوله وتحذيراً لهم، فقال: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾؛ أي: فأهلكنا المكذبين بالرسل، ولم يقدروا على دفع بأسنا إذ أتاهم، وقد كانوا أشد بطشاً من قومك، وأشد قوة، فأحرى بهؤلاء أن لا يعجزونا، ونحو الآية: قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ الآيـة. ﴿وَمَضَىٰ﴾؛ أي: سلف، وسبق في القرآن غير مرة ﴿مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: ذكر صفتهم وبيان قصتهم وخبرهم وشديد عقوبتهم، التي حقها أن تسير مسير المثل، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم.

وفي هذا كما مر، تهديد شديد؛ لأنه يتضمن أن الأولين أهلكوا بتكذيب الرسل، وهؤلاء إن استمروا على تكذيبك والكفر بما جئت به، هلكوا مثلهم، وفي الآية[2] إشارة إلى كمال ظلومية نفس الإنسان وجهوليته، وكمال حلم الله سبحانه وكرمه، وفضل ربوبيته، بأنهم وإن بالغوا في إظهار أوصافهم الذميمة، وأخلاقهم اللئيمة، بالاستهزاء من الأنبياء والمرسلين، والاستخفاف بهم إلى أن كذبوهم، وسعوا في قتلهم من أهل الأولين والآخرين، وكذلك يفعل أهل كل زمان مع ورثة الأنبياء، من العلماء العاملين الناصحين لهم، والداعين إلى الله،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والهادين لهم، فاللّه تعالى لم يقطع عنهم مراحم فضله وكرمه، وكان يبعث إليهم الأنبياء، وينزل عليهم الكتب، ويدعوهم إلى جنابه، وينعم عليهم بعفوه وغفرانه، ومن غاية إفضاله وإحسانه تأديباً وترهيباً بعباده، أهلك بعض المتمردين المتمادين في الباطل، ليعتبر المتأخرون من المتقدمين.

والخلاصة: أي وقد مضت سنتنا في المكذبين لرسلهم من قبلكم، ورأيتم ما حل بهم، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم، ونحو الآية: قوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾، وقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن سألت يا محمد هؤلاء الكفار من قومك ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: من خلق هذه الأجرام العلوية والسفلية ﴿لَيَقُولُنَّ﴾؛ أي: ليقولن هؤلاء المشركون من قومك اعترافاً بالصانع، وإقراراً بربوبيته ﴿خَلَقَهُنَّ﴾؛ أي: خلق هذه الأجرام المذكورة، وأوجدها الخالق ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في حكمه وملكه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوال خلقه، وذلك أسوأ لحالهم وأشد لعقوبتهم؛ لأنهم عبدوا بعض مخلوقات الله، وجعلوه شريكاً له، بل عمدوا إلى ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر من المخلوقات، وهي الأصنام، فجعلوها شركاء لله سبحانه.

قال في «الإرشاد»: ليسندن خلقها، وينسبنه إلى من هذا شأنه في الحقيقة، وفي نفس الأمر، لا أنهم يعبرون عنه بهذا العنوان، وقد جوز أن يكون ذلك عين عبارتهم. وفي «فتح الرحمٰن»: ومقتضى جواب قريش أن يقولوا: خلقهن الله، فلما ذكر الله تعالى المعنى، جاءت العبارة عن الله بالعزيز العليم، ليكون ذلك توطئة لما عدده بعد من أوصافه التي ابتدأ الإخبار بها، وقطعها عن الكلام الذي حكي معناه عن قريش، وهو قوله: الذي... إلخ.

والمعنى[1]: أي ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين من قومك: من

---

(١) المراغي.

خلق السمٰوات والأرض؟ لأجابوك بقولهم: خلقهن العزيز في سلطانه، وانتقامه، من أعدائه، العليم بهن، وما فيهن، لا يخفى عليه شيء من ذلك.

والخلاصة: أنهم يعترفون بأنه لا خالق لهما سواه، وهم مع هذا، يعبدون معه تعالى غيره من الأصنام والأوثان.

ثم وصف سبحانه نفسه، بما يدل على عظيم نعمته على عباده، وكمال قدرته في مخلوقاته، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ وصير ﴿لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾؛ أي: فراشاً وبساطاً، وهذا كلام مستأنف غير متصل بما قبله، ولو كان متصلاً بما قبله من جملة مقول الكفار.. لقالوا: الذي جعل لنا الأرض مهاداً. وقرأ[1] الجمهور: ﴿مِهَٰدًا﴾. وقرأ الكوفيون ﴿مهدا﴾. والمهد والمهاد: المكان الممهد الموطأ، لقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾؛ أي: بسطها لكم تستقرون فيها، وفي «بحر العلوم» جعل الأرض مسكناً لكم تقعدون عليها، وتنامون، وتتقلبون كما يتقلب أحدكم على فراشه ومهاده. وفي «الخازن»: معناه: جعلها واقفة ساكنة يمكن الانتفاع بها، ولما كان المهد موضع راحة الصبي، شبهها به، وسمى الأرض مهاداً لكثرة ما فيها من الراحة للخلق، انتهى. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿سُبُلًا﴾؛ أي: طرقاً تسلكونها في أسفاركم، إلى حيث تريدون، لقضاء حوائج الدين والدنيا، وقيل: معايش تعيشون بها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بها، وتصلون إلى مقاصدكم ومنافعكم، أو بالتفكر فيها إلى التوحيد الذي هو المقصد الأصلي.

والمعنى[2]: والعزيز العليم هو الإلٰه الذي مهد لكم **الأرض**، وجعلها لكم وطاءاً تطؤونها بأقدامكم. وتمشون عليها بأرجلكم، وجعل لكم فيها طرقاً تنتقلون فيها من بلد إلى آخر، ومن إقليم إلى إقليم لمعاشكم ومتاجركم وابتغاء رزقكم.

والخلاصة: أن الخلق كلهم يتربون على الأرض، وهي موضع راحتهم كما يربي الصبي على مهده.

---

(١) الشوكاني.　　(٢) المراغي.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؛ أي: وهو الإله الذي نزل من السماء ماء ﴿بِقَدَرٍ﴾؛ أي: بمقدار ووزن ينفع العباد والبلاد ولا يضرهم؛ أي: ينزله بقدر الحاجة، وحسبما تقتضيه المصلحة، ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم حتى يهلك زروعكم، ويهدم منازلكم، ويهلككم بالغرق كما في الطوفان، ولا دونها حتى تحتاجوا إلى الزيادة، وعلى حسب ما تقتضيه مشيئته في أرزاق عباده بالتوسيع تارة، والتقتير أخرى.

وهذه[١] عادة الله سبحانه في عامة الأوقات، وقد ينزل بحسب الحكمة ما يحصل به السيول فيضرهم، وذلك في عشرين أو ثلاثين سنة مرة ابتلاء منه لعباده، وأخذاً لهم بما اقترفوا كما جرب ذلك ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ﴾؛ أي: فأحيينا بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾؛ أي: أرضاً مقفرة من النبات والنماء، خالية منه بالكلية، والإنشار: إحياء الميت، شبه زوال النماء عنها بزوال الحياة عن البدن، وتذكير ميتا، لأن البلدة في معنى البلد، أو المكان، أو الفضاء. وقال سعدي المفتي: لا يبعد، والله تعالى أعلم أن يكون تأنيث البلدة، وتذكير الميت إشارة إلى بلوغ ضعف حاله الغاية. والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظم خطره كما سيأتي في مبحث البلاغة، وميتاً مخففاً من الميت مشدداً، قرأ الجمهور[٢]: ﴿ميتا﴾ بالتخفيف. وقرأ عيسى وأبو جعفر بالتشديد.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الإحياء الذي هو في الحقيقة إخراج النبات من الأرض ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم، وتبعثون أحياء، فإن من قدر على هذا قدر على ذلك، فتشبيه إحيائهم بإحياء البلدة الميت، كما يدل على قدرة الله تعالى وحكمته مطلقاً، فكذلك يدل على قدرته على القيامة والبعث. وفي التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذي هو إحياء الموتى، وعن إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات، وتهوين لأمر البعث لتقويم سند الاستدلال، وتوضيح منهاج القياس.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تُخْرَجُونَ﴾ مبنياً للمفعول، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وعبد الله بن جبير المصبح وعيسى وابن عامر والأخوان حمزة والكسائي: ﴿تَخْرُجون﴾ مبنياً للفاعل.

والمعنى: أي[2] وهو الإله الذي ينزل من السماء ماء بقدر الحاجة، فلا يجعله كثيراً حتى لا يكون عذاباً، كالطوفان الذي أنزل على قوم نوح، ولا قليلاً لا يكفي النبات والزرع، لئلا تهلكوا جوعاً، فتحي به الأقاليم التي كانت خالية من النبات والشجر، وكما أحيينا الأرض بعد موتها بالماء نحييكم ونخرجكم من قبوركم أحياء ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾؛ أي: خلق أصناف المخلوقات بأسرها، كما قال: ﴿مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يشذ شيء منها عن إيجاده واختراعه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الأزواج: الضروب والأنواع، كالحلو والحامض، والأبيض والأسود. والذكر والأنثى، وقيل: كل ما سوى الله فهو زوج كفوق وتحت، ويمين وشمال، وقدام وخلف، وماض ومستقبل، وذات وصفات، وأرض وسماء، وبر وبحر، وشمس وقمر، وليل ونهار، وصيف وشتاء، وجنة ونار إلى غير ذلك مما لا يحصى، وكونها أزواجاً يدل على أنها ممكنة الوجود، وأن محدثها فرد منزه عن المقابل والمعارض ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ﴾؛ أي: من السفن الجارية في البحر ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾؛ أي: من الإبل والدواب، أعني: الخيل والبغال والحمير ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾؛ أي: ما تركبونه في البحر والبر على تغليب إحدى اعتباري الفعل لقوته على الآخر، فإن ركب يعدى إلى الأنعام بنفسه، يقال: ركبت الدابة وإلى الفلك بواسطة حرف الجر، يقال: ركبت في الفلك، وتقديم البيان على المبين للمحافظة على الفاصلة النونية. وتقديم الفلك على الأنعام، لأن الفلك أدل دليل على القدرة الباهرة، والحكمة البالغة.

والمعنى: أي وهو الإله الذي خلق سائر الأصناف، مما تنبت الأرض من

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

نبات، وأشجار، وثمار، وأزاهير، ومن الحيوان على اختلاف أجناسها وألوانها ولغاتها، وجعل لكم من السفن ما تركبونه في البحار، إلى حيث تقصدون لمعايشكم ومتاجركم، ومن الأنعام ما تركبونه في البر، كالإبل والخيل والبغال والحمير، ومما سَيَجِدُّ من وسائل المواصلات، وطرق النقلة براً وبحراً، كما جاء في سورة النحل، من قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ من الباخرة، والطائرة، والسيارة إلى غير ذلك. ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾؛ أي: لتستعلوا على ظهور ما تركبونه من الفلك والأنعام، والظهور للأنعام حقيقة لا للفلك، فدل على تغليب الأنعام على الفلك، وإيراد لفظ ظهور بصيغة الجمع، مع أن ما أضيف إليه مفرد، نظراً للمعنى؛ لأن مرجع الضمير جمع في المعنى، وإن كان مفرداً في اللفظ ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟﴾ بقلوبكم ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ عليكم ﴿إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ﴾ وارتفعتم ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على ظهر ما تركبونه. والمراد: الذكر بالقلوب؛ لأنه هو الأصل، وله الاعتبار، فقد ورد «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم، بل إلى قلوبكم ونياتكم»، وبه يظهر وجه إيثار تذكروا على تحمدوا.

والمعنى: ثم تذكروا نعمة ربكم بقلوبكم إذا استعليتم عليه، معترفين بها مستعظمين لها، ثم تحمدوا عليها بألسنتكم ﴿وَتَقُولُوا۟﴾ متعجبين من ذلك ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ﴾ وذلل ﴿لَنَا هَـٰذَا﴾ المركوب، وقرأ علي بن أبي طالب ﴿سبحان من سخر لنا هذا﴾ ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ﴾؛ أي: لهذا المركوب ﴿مُقْرِنِينَ﴾؛ أي: مطيقين بتذليلها، وقرىء ﴿مقترنين﴾ اسم فاعل من اقترن، يعني: ليس عندنا من القوة والطاقة، أن نقرن هذه الدابة والفلك، وأن نضبطها، فسبحان من سخر لنا هذا بقدرته وحكمته، وهذا من[1] تمام ذكر نعمته تعالى، إذ بدون اعتراف المنعم عليه، بالعجز عن تحصيل النعمة، لا يعرف قدرها، ولا حق المنعم بها ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ ومالك أمرنا، لا إلى غيره ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: راجعون بالموت، فيجازي كل نفس بما عملت، فاستعدوا لهذا اليوم، ولا تغفلوا عن ذكره في حلكم وترحالكم

---

(١) روح البيان.

يوم ظعنكم وإقامتكم، وهذا تمام ما يقال عند ركوب الدابة أو السفينة، وفيه إقرار بالرجوع إلى الله بالبعث، لأن الراكب في مظنة الهلاك بالغرق إذا ركب الفلك، وبعثور الدابة، إذ ركوبها أمر فيه خطر، ولا تؤمن السلامة فيه.

وجاء في الحديث: أنه ﷺ كان إذا وضع رجله في الركاب قال: «بسم الله»، فإذا استوى على الدابة قال: «الحمد لله على كل حال، سبحان الذي سخر لنا هذا» إلى قوله: «لمنقلبون»، وكبر ثلاثاً، وهلل ثلاثاً.

وقالوا: إذا ركب في السفينة، أو الباخرة، أو الطائرة، أو السيارة قال ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾. ويقال عند النزول منها: «اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً، وأنت خير المنزلين»، كما يدل عليه قصة ركوب نوح عليه السلام السفينة، ونزوله منها.

ومعنى الآية[1]: أي لكي تستووا، على ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام، ثم تذكروا نعمة ربكم، الذي أنعم بها عليكم، فتعظموه وتمجدوه، وتقولوا تنزيهاً له عما يصفه المشركون: سبحان الذي سخر لنا هذا الذي ركبناه، وما كنا لولا تسخيره وتذليله بمطيقين ذلك، فالأنعام مع قوتها ذللها للإنسان، ينتفع بها حيث شاء وكيفما أراد، ولولا ذلك ما استطاع الانتفاع بها، ولقد أشار إلى نحومن هذا العباس بن مرداس، فقال في وصف الجمل:

وَتَضْرِبُهُ الوَلِيْدة بِالْهَرَاوىٰ   فلا غيرٌ لَدَيْهِ وَلاَ نَكِيْرُ

واعلم: أنه سبحانه وتعالى، عين لنا ذكراً خاصاً حين ركوب السفينة، وهو قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾، وذكراً آخر حين ركوب الأنعام، وهو قوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا﴾، وذكراً ثالثاً حين دخول المنازل، وهو قوله: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

---

(١) المراغي.

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان إذا سافر ركب راحلته، ثم كبر ثلاثاً، ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾. قال القرطبي: علمنا[1] سبحانه وتعالى ما نقول، إذا ركبنا الدواب، وعرفنا في آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن، فكم من راكب دابة عثرت به، أو شمست، أو تقحمت[2] أو طاح عن ظهرها، فهلك، وكم من راكب سفينة انكسرت به فغرق.

فلما كان الركوب مباشرة أمر محظور، واتصالاً بسبب من أسباب التلف، أمر أن لا ينسى عند اتصاله به موته، وأنه هالك لا محالة، فمنقلب إلى الله عز وجل، غير منفلت من قضائه، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه، حتى يكون مستعداً للقاء الله والحذر من أن يكون ركوبه ذلك، من أسباب موته في علم الله، وهو غافل عنه، انتهى.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر الكفار، الذين تقدم ذكرهم، فقال: ﴿وَجَعَلُوا﴾؛ أي: وجعل بعض مشركي العرب ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ومخلوقاته، والمراد بالعباد: الملائكة، وهو حال من ﴿جُزْءًا﴾؛ أي بنات وإناثاً، والجاعلون[3] هم قبائل من العرب قالوا: إن الله صاهر الجن فولدت له الملائكة وقال بعضهم: الآية ردٌّ على بني مليح حيث قالوا: الملائكة بنات الله ومليح بالحاء المهملة مصغراً كزبير حي من خزاعة كما في «القاموس» والجعل هنا بمعنى الحكم بالشيء والاعتقاد به قال في «القاموس»: الجزء البعض، وأجزأت الأم ولدت الإناث.

﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾؛ أي: إناثاً انتهى. وإنما عبر عن الولد بالجزء لأنه بعض أبيه وجزء منه كما قال ﷺ: «إن فاطمة مني»؛ أي: قطعة مني وقال

---

(١) القرطبي.

(٢) يقال: تقحم الفرس براكبه إذا ألقاه على وجهه.

(٣) روح البيان.

أيضاً: «فاطمة بضعة مني» والبضعة القطعة والجزء عند أهل العربية البنات، يقال: قد أجزأت المرأة إذا ولدت البنات ومنه قول الشاعر:

إذا اجـزأت حـرة يـومـاً فـلا عـجـب   قـد تـجـزىء الـحـرة الـمـذكـار أحـيـانـاً

وقد جعل صاحب «الكشاف» تفسير الجزء بالبنات من بدع التفسير وصرح بأنه مكذوب على العرب. ويجاب عنه بأنه قد رواه الزجاج والمبرد، وهما إماما اللغة العربية وحافظاها ومن إليهما المنتهى في معرفتها، ويؤيد تفسير الجزء بالبنات ما سيأتي قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ وقيل: المراد بالجزء هنا: الملائكة، فإنهم جعلوهم أولاد الله سبحانه وتعالى، قاله مجاهد والحسن.

ومعنى الآية[1]: واعتقد المشركون، وحكموا، وأثبتوا له تعالى ولداً حال كون ذلك الولد من الملائكة الذين هم عباده، فقالوا: الملائكة بنات الله بعد اعترافهم بألسنتهم، واعتقادهم أن خالق السمٰوات والأرض هو الله، فكيف يكون له ولد، والولادة من صفات الأجسام، وهو خالق الأجسام كلها، ففيه تعجيب من جهلهم، وتنبيه على قلة عقولهم حيث وصفوه بصفات المخلوقين، وإشارة إلى أن الولد لا يكون عبد أبيه، والملائكة عباد الله فكيف تكون البنات عباداً، وقيل: الجزء ههنا بمعنى النصيب، كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾؛ أي: نصيب.

ومعنى الآية: معنى قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ وذلك أنهم جعلوا البنات لله والبنين لأنفسهم كما سيأتي.

والحاصل[2]: أن مقالتهم هذه، أعني قولهم: إن الملائكة بنات الله، تقتضي الكفر من وجهين:

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

الأول: كون الخالق جسماً محدثاً، لمشابهة الولد له، فلا يكون إلٰهاً ولا خالقاً.

والثاني: الاستخفاف به، إذ جعلوا له أضعف نوعي الإنسان وأخسهما.

ثم أكد كفرهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: إن الكافر، يعني: قائل ذلك ﴿لَكَفُورٌ﴾؛ أي: لجحود بنعم ربه التي أنعمها عليه ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر كفره لمن تأمل حاله وتدبر أمره، لأن نسبة الولد إليه كفر، والكفر أصل الكفران كله، ولذلك يقولون ما يقولون سبحانه وتعالى عما يصفون.

ثم زاد في الإنكار عليهم والتعجب من حالهم، فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وأم[1] منقطعة، مقدرة ببل الإضرابية، وبالهمزة، على أنها للإنكار والتوبيخ، والتعجيب من شأنهم، وتنكير بنات لتربية الحقارة، كما أن تعريف البنين في قوله: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ لتربية الفخامة، وقدم البنات لكون المنكر عليهم نسبتهن إلى الله تعالى، فكان ذكرهن أهم بالنظر إلى مقصود المقام، والالتفات إلى خطابهم لتأكيد الإلزام وتشديد التوبيخ، والإصفاء: الإيثار.

والمعنى[2]: بل أأتخذ من خلقه البنات، التي هي أخس الصنفين، واختار لكم البنين، الذين هم أفضلهما على معنى: هبوا أنكم اجترأتم على إضافة جنس الولد إليه سبحانه وتعالى، مع ظهور استحالته وامتناعه، أما كان لكم شيء من العقل، ونبذة من الحياء، حتى اجترأتم على ادعاء أنه تعالى آثركم على نفسه، بخير الصنفين وأعلاهما، وترك لنفسه شرهما وأدناهما، فإن الإناث كانت أبغض الأولاد عندهم، ولذا وأدوهن، ولو اتخذ لنفسه البنات، وأعطى البنين لعباده، لزم أن يكون حال العبد أكمل، وأفضل من حال الله، ويدفعه بديهة العقل، فما أنتم إلا حمقى جهلاء، ونحو الآية قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ جائرة.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

ثم زاد في توبيخهم وتقريعهم والإنكار عليهم، فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾؛ أي: أخبر أحد المشركين الذين جعلوا الملائكة بنات الله، كبني مليح ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾؛ أي: بولادة ما جعله شبهاً للرحمٰن، والالتفات هنا إلى الغيبة للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم، أن يعرض عنهم ويحكي لغيرهم تعجباً منها، وضرب هنا بمعنى جعل، المتعدي إلى مفعولين، حذف الأول منهما، لا بمعنى بين، ومثلاً بمعنى شبيه، لا بمعنى القصة العجيبة، كما في قولهم: ضرب له المثل بكذا.

والمعنى: وإذا أخبر أحد المشركين بولادة ما جعله مثلاً للرحمٰن، وشبيهاً له تعالى، إذ الولد لا بد أن يجانس الوالد ويماثله ﴿ظَلَّ﴾ من الظلول بمعنى الصيرورة؛ أي: صار ﴿وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾؛ أي: شديد السواد من سوء ما بشر به، ولذا قيل: من رأى في المنام أن وجهه أسود، ولدت له بنت، ويحتمل أن يكون اسوداد الوجه عبارة عن الكراهة، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ أي: حزين؛ أي: والحال أنه مملوء من الكرب والكآبة، يقال: رجل كظيم ومكظوم؛ أي: مكروب كما في «القاموس».

وقرىء[1]: ﴿مسود ومسواد﴾ بالرفع، واسم ظل حينئذٍ إما ضمير يعود على أحد، وجملة ﴿وجهه مسود﴾ من المبتدأ والخبر خبرها، وإما وجهه فمسود، خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو مسود، فتقع هذه الجملة موقع خبر ظل.

والمعنى[2]: أي وإذا بشر أحد هؤلاء المشركين، بما جعله مشابهاً للرحمٰن، وهو الأنثى.. أنف من ذلك، واغتم، وعلته الكآبة من سوء ما بشر به، فصار وجهه متغيراً، وأضحى ممتلئاً غيظاً، شديد الحزن، كثير الكرب، فكيف تأنفون أنتم من البنات، وتنسبونها إلى الله سبحانه وتعالى.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ

(١) المراح والبيضاوي.

(٢) التفسير المنير.

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ ﴿٥٨﴾ الآية وروي[1]: أن بعض العرب وضعت امرأته أنثى، فهجر البيت الذي ولدت فيه، فقالت:

مَـا لأَبِـي حَـمْـزَةَ لاَ يَـأْتِـيـنَـا يَـظَـلُّ فِـي ٱلْـبَـيْـتِ ٱلَّـذِيْ يَـلِـيْـنَـا
غَـضْـبَـانَ أَنْ لاَ نَـلِـدَ ٱلْـبَـنِـيْـنَـا لَـيْـسَ لَـنَـا مِـنْ أَمْـرِنَـا مَـا شِـيْـنَـا
وَإِنَّـمَـا نَـأْخُـذُ مَـا أُعْـطِـيْـنَـا

يقول الفقير: هذه[2] صفة المشركين، فإنهم جاهلون بالله، غافلون عن خفي لطفه، تحت جلي قهره، وأما الموحدون فحالهم الاستبشار، بما ورد عن الله أيا كان، إذ لا يفرقون بين أحد من رسله، كما أن الكريم لا يغلق بابه على أحد من الضيفان، والفاني عما سوى الله تعالى ليس له مطلب، وإنما مطلبه ما أراد الله تعالى.

ثم كرر الإنكار وأكده، فقال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ الهمزة فيه للاستفهام الإنكاري الاستقباحي داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿مَن﴾ واقعة على الأنثى، والتنشئة: التربية، والحلية ما يتحلى به الإنسان ويتزين، والتقدير[3]: أيجترئون ويبلغون الغاية في إساءة الأدب ويجعلون لله تعالى الأنثى التي تنشأ وتربى وتكبر في الحلية والزينة لنقصها، إذ لو كملت في نفسها، لما تكملت بالزينة، وهي أيضاً ناقصة العقل، لا تقدر على إقامة الحجة عند الخصام كما قال ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: ذلك المنشأ في «الحلية» ذكر الضمير باعتبار لفظ من؛ أي: وهو مع ما ذكر من نقص ذاتها ﴿فِى ٱلْخِصَامِ﴾؛ أي: مع من يخاصمه ويجادله؛ أي: في الجدال الذي لا يكاد يخلو الإنسان منه في العادة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾؛ أي: غير قادر على تقرير دعواه، وإقامة حجته، كما يقدر الرجل عليه، لنقصان عقله وضعف رأيه، وربما يتكلم عليه، وهو يريد أن يتكلم له، وهذا بحسب الغالب، وإلا فمن الإناث من هو أهل الفصاحة، والفاضلات على الرجال.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) الفتوحات.

قال الأحنف: سمعت كلام أبي بكر رضي الله عنه حتى مضى، وكلام عمر رضي الله عنه حتى مضى، وكلام عثمان رضي الله عنه حتى مضى، وكلام علي رضي الله عنه حتى مضى، لا والله، ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله عنها وقال معاوية رضي الله عنه: ما رأيت أبلغ من عائشة، ما أغلقت باباً، فأرادت فتحه، إلا فتحته، ولا فتحت باباً، فأرادت إغلاقه إلا أغلقته، ويدل عليه قوله ﷺ في حقها: «إنها ابنة أبي بكر» إشعارا بحسن فهمها، وفصاحة منطقها.

والمعنى[1]: أي أو قد جعلوا لله الأنثى التي تتربى في الزينة، وإذا خوصمت لا تقدر على إقامة حجة، ولا تقرير دعوى، لنقصان عقلها وضعف رأيها، وما كان ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك.

وفي قوله ﴿يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ إيماً[2] إلى ما فيهن من الدعة والراحة ورخاوة الخلق، بضعف المقاومة الجسمية واللسانية، كما أن فيه دلالة على أن النشوء في الزينة، ونعومة العيش من المعايب والمذام للرجال، وهو من محاسن ربات الحجال، فعليهم أن يجتنبوا ذلك، ويأنفوا منه، ويربؤوا بأنفسهم عنه، قال شاعرهم:

كُتِبَ ٱلْقَتْلُ وَٱلْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ ٱلْغَانِيَاتِ جَرُّ ٱلذُّيُوْلِ

ورُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: اخشوشنوا في الطعام، واخشوشنوا في اللباس، وتمعددوا؛ أي: تزيوا بزي معد في تقشفهم، وفي الآية، دلالة على أن التحلي بالذهب والحرير مباح للنساء، وأنه حرام على الرجال؛ لأنه تعالى جعل ذلك عنوانا على الضعف والنقصان، وإنما زينة الرجال الصبر على طاعة الله تعالى، والتزين بزينة التقوى.

وفيها إشارة[3] إلى أن المرء المتزين كالمرأة، فالعاقل يكتفي بما يدفع الحر والبرد، ويجتهد في تزيين الباطن، فإنه المنظر الإلٰهي، ولو كانت للنساء عقول

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

راجحة، لما ملن إلى التزين بالذهب والفضة والحلي والحلل.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ينشأ﴾ مبنيا للفاعل؛ أي: بفتح الياء وإسكان النون. وقرأ الجحدري في رواية مبنيا للمفعول مخففا. وقرأ ابن عباس وزيد بن علي والحسن ومجاهد والجحدري في رواية والأخوان ـ حمزة والكسائي ـ وحفص والمفضل وأبان وابن مقسم وهارون، عن أبي عمرو وخلف: بضم الياء، وفتح النون، وتشديد الشين، مبنيا للمفعول، وقرأ الحسن في رواية ﴿يناشؤ﴾ على وزن يفاعل، مبنيا للمفعول، والمناشأة بمعنى: الإنشاء. كالمعالاة بمعنى الإعلاء، واختار قراءة الجمهور أبو حاتم، واختار أبو عبيد قراءة ابن عباس، قال الهروي الفعل على القراءة الأولى لازم، وعلى الثانية متعد ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾؛ أي: سموا الملائكة ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ وحكموا لهم بذلك، وهذا بيان لتضمن كفرهم المذكور لكفر آخر، وتقريع لهم بذلك، وهو جعلهم أكمل العباد، وأكرمهم على الله، أنقصهم رأيا وأخسهم صنفا، وفيه رد لقولهم: الملائكة بنات الله، وفي قولهم هذا كفر من ثلاثة أوجه:

١ ـ أنهم نسبوا إلى الله الولد.

٢ ـ أنهم أعطوه أخس النصيبين.

٣ ـ أنهم استخفوا بالملائكة بجعلهم إناثا، وقرأ الجمهور: ﴿إِنَـٰثًا﴾، وقرأ زيد بن علي ﴿أنثا﴾: جمع الجمع.

وقرأ عمر بن الخطاب والحسن وأبو رجاء وقتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج والابنان ـ ابن كثير وابن عامر ـ ونافع: ﴿عند الرحمٰن﴾ بالنون ظرفا، وهو أدل على رفع المنزلة، وقرب المكانة، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، وقرأ عبد الله وابن عباس وابن جبير وعلقمة وباقي السبعة: ﴿عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ جمع عبد لقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، وقرأ الأعمش ﴿عباد الرحمٰن﴾ جمعاً، وبالنصب

---

(١) البحر المحيط.

حكاها ابن خالويه، قال: وهي في مصحف ابن مسعود كذلك، والنصب على إضمار فعل، أي: الذين هم خلقوا عباد الرحمٰن، وأنشؤوا عباد الرحمٰن إناثاً، وقرأ أبي: ﴿عبد الرحمٰن﴾ مفرداً، ومعناه الجمع؛ لأنه اسم جنس.

وقد رد الله سبحانه وتعالى مقالهم، فقال: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ والهمزة للاستفهام الإنكاري، وهو من الشهود[1] بمعنى الحضور، لا من الشهادة؛ أي: أحضروا خلق الله تعالى إياهم، فشاهدوهم إناثاً حتى يحكموا بأنوثتهم، فإن ذلك إنما يعلم بالمشاهدة، وهو تجهيل لهم وتهكم بهم، فإنهم إنما سمعوه من آبائهم، وهم أيضاً كذابون جاهلون، وفيه تخطئة للمنجمين، وأهل الحكمة المموهة في كثير من الأمور، فإنهم بعقولهم القاصرة حكموا على الغيب.

قال العماد الكاتب: أجمع المنجمون في سنة اثنتين وثمانين، وخمس مئة في جميع البلاد، على خراب العالم في شعبان، عند اجتماع الكواكب الستة، في الميزان، بطوفان الريح، وخوفوا بذلك ملوك الأعاجم والروم، فشرعوا في حفر مغارات، ونقلوا إليها الأزواد، والماء، وتهيؤوا، فلما كانت الليلة التي عينها المنجمون، بمثل ريح عاد، ونحن جلوس عند السلطان، والشموع تتوقد فلا تتحرك، ولم نر ليلة في ركودها مثلها.

ونحو الآية قوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ وفي هذا تجهيل لهم، ورمي لهم بالسفه والحمق، وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَشَهِدُواْ﴾: بهمزة الاستفهام، داخلة على شهدوا، ماضياً مبنياً للفاعل؛ أي: أحضروا خلقهم، وليس ذلك من شهادة تحمل المعاني التي تطلب أن تؤدىٰ، وقرأ نافع بهمزة استفهام، داخلة على أشهدوا رباعياً، مبنياً للمفعول ﴿أشهدوا﴾: بلا مد بين الهمزتين، ورُوي عنه بمدة بينهما، وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد، وفي رواية أبي عمرو، ونافع بتسهيل الثانية بلا مد، وقرأ جماعة كذلك بمد بينهما، وعن علي والمفضل عن عاصم، تحقيقهما بلا مد، وقرأ الزهري وناس

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

﴿أشهدوا﴾ بغير استفهام مبنياً للمفعول رباعياً، فقيل: المعنى على الاستفهام، حذفت الهمزة لدلالة المعنى عليها.

وقيل: سألهم الرسول ﷺ: «ما يدريكم أنهم إناث»، فقالوا: سمعنا ذلك من آبائنا، ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا، فقال الله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها في الآخرة؛ أي: ستكتب شهادتهم هذه، التي شهدوا بها في الدنيا، أي: يكتب الملك ما شهدوا به على الملائكة، في ديوان أعمالهم، ويسألون عنها يوم القيامة، ليأتوا ببرهان على صحتها، ولن يجدوا لذلك سبيلاً.

وقال سعدي المفتي[1]: السين في ﴿سَتُكْتَبُ﴾ للتأكيد، ويحتمل أن تكون للاستعطاف إلى التوبة، قبل كتابة ما قالوه، وفي الحديث: «كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيئات على يساره، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة، قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح الله أو يستغفره». وفي هذا دليل على أن القول بغير برهان منكر، وأن التقليد لا يغني من الحق شيئاً، ثم في الآية إشارة إلى أن الله تعالى أمهل عباده، ولم يأخذهم بغتة في الدنيا، ليرى العباد أن العفو والإحسان، أحب إليه من الأخذ والانتقام، وليتوبوا من الكفر والمعاصي.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سَتُكْتَبُ﴾ بالتاء من فوق، مبنياً للمفعول، ﴿شَهَٰدَتُهُمْ﴾ بالرفع مفرداً، وقرأ الزبيري كذلك، إلا أنه بالياء، وقرأ الحسن كذلك إلا أنه بالتاء، وجمع شهادتهم، وقرأ ابن عباس وزيد بن علي وأبو جعفر وأبو حيوة وابن أبي عبلة والجحدري والأعرج ﴿سنكتب﴾ بالنون مبنياً للفاعل. ﴿شهادتهم﴾: على الإفراد، وقرأت فرقة ﴿سيكتب﴾ بالياء مبنياً للفاعل؛ أي: الله ﴿شهادتهم﴾ بالنصب.

ثم حكى الله سبحانه وتعالى عنهم، فنّاً آخر من فنون كفرهم بالله، جاؤوا به

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

للاستهزاء والسخرية، فقال: ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: وقال[1] المشركون العابدون للملائكة: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ﴾ عدم عبادتنا للملائكة مشيئة ارتضاء ﴿مَا عَبَدْنَاهُم﴾؛ أي: ما عبدنا الملائكة، أرادوا بذلك أن ما فعلوه حق مرضي عنده تعالى، وأنهم إنما يفعلونه بمشيئة الله تعالى، لا الاعتذار من ارتكاب ما ارتكبوه، بأنه بمشيئة الله إياه منهم، مع اعترافهم بقبحه، ومبنىٰ كلامهم الباطل على مقدمتين:

إحداهما: أن عبادتهم لهم بمشيئة الله تعالى.

والثانية: أن ذلك مستلزم لكونها مرضية عنده تعالى، ولقد أخطؤوا في الثانية. حيث جهلوا أن المشيئة عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعض كائناً ما كان، من غير اعتبار الرضى والسخط في شيء من الطرفين.

والمعنى[2]: أي وقال عباد الملائكة: لو أراد الله تعالى عدم عبادتنا للملائكة ما عبدناهم، فإنه قادر على أن يحول بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التي هي على صورة الملائكة التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك، وهو قد أقرنا عليه، فنحن لا نؤاخذ بذلك، إذ هو وفق مشيئته تعالى، ويريدون بذلك القول أن الله راض بعبادتهم للأصنام، وهو احتجاج بالقدر، وكلمة حق يراد بها باطل، لأن المشيئة لا تستلزم الأمر إذ هي بترجيح بعض الممكنات على بعض بحسب. . .؟ والله يأمر بالخير والإيمان ونحن لا نعلم مشيئته أو إرادته إلا بعد وقوع الفعل منا، وقد جمعوا في هذا القول أفانين من الكفر وضروباً من الترهات والأباطيل ذكره ابن كثير ومنها:

١ - أنهم جعلوا لله ولداً، تقدس سبحانه وتعالى عن ذلك.

٢ - دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، إذ جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمٰن إناثاً.

٣ - عبادتهم لهم بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله عز وجل، بل بالرأي

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

والهوى وتقليد الأسلاف وتخبط الجاهلية.

٤ ـ احتجاجهم بتقدير الله ذلك، وقد جهلوا في هذا جهلاً كبيراً، فإنه تعالى أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ أن بعث الرسل وأنزل الكتب، يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾. وقال عز وجل: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾. ونحو الآية: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُۥ﴾.

ثم رد الله سبحانه عليهم مقالهم، وبين جهلهم بقوله: ﴿مَا لَهُم﴾؛ أي: ما لهؤلاء المشركين ﴿بِذَٰلِكَ﴾؛ أي[1]: بصحة ما قالوا، واحتجوا به من كون ما فعلوه بمشيئة الارتضاء، لا بمطلق المشيئة، فإن ذلك أمر محقق، ينطق به ما لا يحصى من الآيات الكريمة ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ ويقين يستند إلى دليل وبرهان ما ﴿إِنْ هُمْ﴾؛ أي: ما هم ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ أي: يكذبون، فإن الخرص: الكذب، وكل قول بالظن والتخمين سواء طابق الواقع أو لا؛ أي: ما هم إلا كاذبون فيما قالوا، متمحلون تمحلاً باطلاً، متقولون على الله ما لم يقله، فإن الله يأمر بالحق والإيمان والخير، ولا يرضى لعباده الكفر والفحشاء، والآية دليل على جهلهم الفاضح وكذبهم وافترائهم الباطل، وقاله هنا بلفظ ﴿يَخْرُصُونَ﴾، وفي الجاثية بلفظ ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ لأن ما هنا متصل بقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ الآية؛ أي: قالوا: الملائكة بنات الله، وأن الله سبحانه قد شاء منا عبادتنا إياهم، وهذا كذب، فناسبه ﴿يَخْرُصُونَ﴾، وما هناك متصل بخلطهم الصدق بالكذب، فإن قولهم: نموت ونحيا صدق، وكذبوا في إنكارهم البعث، وقولهم: وما يهلكنا إلا الدهر، فناسبه ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ أي: يشكون فيما يقولون، اهـ «كرخي».

---

(١) روح البيان.

يقول الفقير: إسناد المشيئة إلى الله إيمان وتوحيد، إن صدر من المؤمن، وإلا فكفر وشرك؛ لأنه من العناد والعصبية والجهل بحقيقة الأمر فلا يعتبر.

وبعد أن بين بطلان قولهم بالعقل، أتبعه ببطلانه بالنقل، فقال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أم منقطعة، تقدر ببل الإضرابية وبهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل أأعطيناهم ﴿كِتَٰبًا﴾ ينطق بصحة ما يدعونه من عبادة غير الله، وكون الملائكة بناته ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: من قبل القرآن، أو من قبل الرسول ﷺ أو من قبل ادعائهم هذه الدعوى ﴿فَهُم بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الكتاب المعطى لهم ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾؛ أي: متمسكون آخذون عاملون به، وعليه معولون.

والمعنى[1]: أي بل أأعطيناهم كتاباً من قبل هذا القرآن ينطق بصحة ما يدّعون مكتوباً فيه اعبدوا غير الله فهم بذلك الكتاب متمسكون وعليه معولون؛ أي: وليس الأمر كذلك.

والخلاصة: أنه لا كتاب لهم، ولما بين أنهم لا حجة لهم على ذلك من عقل ولا نقل.. ذكر أن الحامل لهم على ما جنحوا إليه إنما هو التقليد، فقال: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟﴾؛ أي: بل لا حجة لهم يتمسكون بها، لا من حيث العيان ولا من حيث العقل ولا من حيث السمع إلا قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾ وأسلافنا ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ أي: على دين وطريقة ساروا عليها في عبادتهم الأصنام فقلدناهم ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ ورأيهم؛ أي: على دينهم وطريقتهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾؛ أي: سائرون سالكون، و﴿مهتدون﴾ خبر ﴿إنا﴾ والظرف صلة له، قدم عليه للاختصاص واستعمل بعلى لتضمنه معنى الثبوت؛ أي: ثابتون مستمرون على طريقتهم، وهذا اعتراف صريح منهم بأنه ليس لهم مستند ولا حجة.

والمعنى: أي ليس لهم مستند على ما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، وقد قالوا: إنهم أرجح منا أحلاماً وأصح أفهاماً ونحن سائرون على طريقتهم وسالكون نهجهم ولم نأت بشيء من عند أنفسنا ولم نغلط في الاتباع

---

(١) المراغي.

واقتفاء الآثار، كما قال قيس بن الخطيم:

كُنَّا عَلَىٰ أُمَّةِ آبائِنَا وَيَقْتَدِيْ بِالأوّلِ الآخِرُ

والخلاصة: أنهم اعترفوا بأن لا مستند لهم من حيث العيان ولا من حيث العقل ولا من حيث النقل، وإنما يستندون إلى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أمة﴾ بضم الهمزة أي على دين. وقرأ عمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة والجحدري بكسر الهمزة وهي الطريقة الحسنة، لغة في الأمة بالضم، قاله الجوهري. وقرأ ابن عباس ﴿أمة﴾ بفتح الهمزة؛ أي: على قصد وحال، والخلاف في الحرف الثاني كهو في الأول.

ثم بين سبحانه، أن مقال هؤلاء قد سبقهم إلى مثله أشباههم، ونظراؤهم من الأمم السالفة، المكذبة للرسل، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي[2]: والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة، وتشبثهم بذيل التقليد، فهو خبر لمبتدأ محذوف، كما قدرنا، وما بعده مستأنف ﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿فِى قَرْيَةٍ﴾ من القرى ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ أي: من نبي منذر قومه من عذاب الله ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾؛ أي: متنعموها وأغنياؤها وجبابرتها ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾ وأسلافنا ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ أي: على طريقة ودين ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ وطريقتهم ﴿مُّقْتَدُونَ﴾؛ أي: متبعون وقوله: ﴿مَآ أَرْسَلْنَا﴾ كلام مستأنف دال على أن التقليد فيما بينهم ضلال قديم، ليس لأسلافهم أيضاً سند غيره، وخص[3] المترفين بتلك المقالة، للإيذان بأن التنعيم وحب الطالة، هو الذي صرفهم عن النظر إلى التقليد، يقال: أترفته النعمة أطغته، والمراد بالمترفين: الأغنياء والرؤساء، الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش في الدنيا، وأشغلتهم عن نعيم الآخرة، ويدخل فيهم كل من يتمادى في الشهوات، ويتبالغ في النفرة من لوازم الدين، من الشرائع والأحكام، ويحتمل كون كذلك صفةً لمصدر محذوف مع فعله، والمعنى عليه؛ أي[4]: ومثل هذا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

المقال الشنيع، المتناهي في الشناعة، قالت الأمم السالفة لأخوانك الأنبياء، فلم نرسل قبلك في قرية رسولاً، إلا قال رؤساؤها وكبراؤها لرسولهم المرسل، للإنذار من عذاب الله، إنا وجدنا آباءنا على ملة ودين، وإنا على منهاجهم سائرون، نفعل مثل ما فعلوا، ونعبد ما كانوا يعبدون، فقومك أيها الرسول، ليسوا ببدع في الأمم، فهم قد سلكوا نهج من قبلهم، من أهل الشرك، في جواباتهم، بما أجابوك به، واحتجاجهم بما احتجوا به، لمقامهم على دينهم الباطل.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ وإنما قال أولاً: ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾. وثانياً: ﴿مُّقۡتَدُونَ﴾؛ لأن الأول وقع في محاجتهم النبي ﷺ، وادعائهم أن آباءهم كانوا مهتدين، وأنهم مهتدون كآبائهم، فناسبه ذكر ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ والثاني، وقع حكاية عن قوم، ادعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء، فناسبه ذكر ﴿مُّقۡتَدُونَ﴾، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ، ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك، ضلال قديم.

ثم ذكر تعالى جواب الرسل لأقوامهم عن التقليد، فقال: ﴿قَٰلَ﴾ كل نذير من أولئك المنذرين لأممهم، عند تعللهم بتقليد آبائهم ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، داخلة على محذوف. والواو: عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم ﴿بِأَهۡدَىٰ﴾؛ أي: بدين أهدى وأرشد ﴿مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾؛ أي: من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء وإنما عبر عنها بذلك، مجاراة معهم على مسلك الإنصاف؛ أي: قال لهم رسولهم: أتتبعون آباءكم، وتسيرون على طريقتهم، ولو جئتكم من عند ربكم بدين أهدى إلى طريق الحق، وأدل على سبيل الرشاد، مما وجدتم عليه آباءكم من الدين والملة.

وتلخيص ذلك: أتتبعون آباءكم وتقلدونهم، ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم، وقرأ ابن عامر وحفص: ﴿قال أولو جئتكم﴾ بصيغة الماضي، وقرأ الجمهور ﴿قل﴾ بصيغة الأمر؛ أي: قل يا محمد لقومك: أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من الدين، الذي وجدتم عليه آباءكم. وهذا تجهيل لهم، حيث

يقلدون ولا ينظرون في الدلائل، وقرأ الجمهور[1]: ﴿جِئْتُكُم﴾: بتاء المتكلم، وقرأ أبو جعفر وشيبة وابن مقسم والزعفراني وأبو شيخ الهنائي وخالد ﴿جئناكم﴾: بنون المتكلمين، وقيل: إن كلا القراءتين حكاية لما جرى بين الأنبياء وقومهم، كأنه قال لكل نبي قل بدليل قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: قال كل أمة لنذيرها، مجيبين إجابة تيئيس من اتباعهم له على كل حال، ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون﴾، وإن كان أهدى مما كنا فيه؛ أي: ثابتون على دين آبائنا، لا ننفك عنه، ولو جئتنا بما هو أهدى منه، فكأنهم يقولون: إنهم لو علموا صحة ما جئتهم به، ما انقادوا لك لسوء قصدهم، ومكابرتهم للحق وأهله، وحينئذ لم يبق لهم عذر، ومن ثم قال: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: من هؤلاء المكذبين لرسلهم الجاحدين بربهم بالاستئصال، وذلك الانتقام مثل ما أوقعه بقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، من الأمم المكذبة لرسلها، أو بالقحط والقتل والسبي، كما في هذه الأمة ﴿فَٱنظُرْ﴾ أيها الرسول ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ من الأمم المذكورة؛ أي: كيف كان عاقبة أمرهم ومآله، حين كذبوا بآياتنا، ألم نهلكهم ونجعلهم عبرة لغيرهم، فأنت لا تكترث بتكذيب قومك، فإن الله ينتقم منهم باسم المنتقم، القاهر القابض، كما انتقم من أولئك الأمم المكذبة لرسلها.

وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ، وإرشاد له إلى عدم الاكتراث بتكذيب قومه له، ووعيد وتهديد لهم.

وحاصل معنى الآية[2]: أي قالوا: لا نعمل برسالتك، ولا سمع لك، ولا طاعة، وإنا كافرون جاحدون بما أرسلتم به، ومستمرون ثابتون على دين الآباء والأسلاف، والمراد: أنهم لو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به أيها الرسول، لما انقادوا لذلك، لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله، وقوله: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ يعني: بكل ما أرسل به الرسل، فالخطاب للنبي ﷺ، ولفظه لفظ الجمع؛ لأن

(١) البحر المحيط.

(٢) التفسير المنير.

تكذيبه تكذيب لمن سواه، وما بعد الإصرار على الكفر، إلا النقمة والإهلاك، فقال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ إلخ؛ أي: فانتقمنا من الأمم المكذبة للرسل، بأنواع من العذاب كعذاب قوم نوح وعاد وثمود، فانظر أيها المخاطب كيف كان مصير أمر المكذبين من تلك الأمم، كيف بادوا وهلكوا، وإن آثارهم موجودة عبرة للناظر المعتبر، وهذا وعيد وتهديد لأهل مكة، وسلوة للرسول ﷺ، وإرشاد له، إلى عدم الاكتراث بشأن قومه من رسالته.

الإعراب

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾.

﴿حمٓ ۝١﴾: تقدم القول فيه معنى وإعراباً، فلا عود ولا إعادة، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم، ﴿الكتاب﴾: مقسم به، مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم، محذوف وجوباً، وجملة القسم مسأنفة، أو معطوفة على القسم قبله، إن قلنا إن ﴿حم﴾ قسم أيضاً، ﴿ٱلْمُبِينِ﴾: صفة لـ﴿الكتاب﴾، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿قُرْءَٰنًا﴾: مفعول ثان، ﴿عَرَبِيًّا﴾: صفة ﴿قُرْءَٰنًا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾: ﴿لعل﴾ حرف نصب وتعليل، مستعارة لكي التعليلية، والكاف: اسمها، وجملة ﴿تَعْقِلُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لعل﴾: جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب، أو مجرورة بلام التعليل، المقدرة المتعلقة بـ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنه﴾: ناصب واسمه، ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلق بمحذوف خبر ﴿إنّ﴾؛ أي: مثبت ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿لَدَيْنَا﴾ ظرف متعلق بمحذوف حال، من ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أو بدل من الجار والمجرور قبله؛ أي: محفوظ لدينا، ﴿لَعَلِىٌّ﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿عليّ﴾: خبر ثان لـ﴿إنّ﴾، ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثالث لها، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولى، على كونها جواباً

ثانياً للقسم، واعترض بعضهم على هذا الإعراب؛ لأن فيه تقديم الخبر غير المقرون باللام على المقرون بها، وقال أبو البقاء: ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يتعلق بـ﴿عليّ﴾، واللام: لا تمنع من ذلك، و﴿لَدَيْنَا﴾ بدل من الجار والمجرور، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿الكتاب﴾، ﴿أو من أم﴾، ولا يجوز أن يكون واحد من الظرفين خبراً لـ﴿إن﴾ الخبر قد لزم أن يكون ﴿علي﴾: من أجل اللام، ولكن يجوز أن يكون كل واحد منهما صفة للخبر، فصارت حالاً يتقدمها، انتهى.
﴿أَفَنَضْرِبُ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أنهملكم فنضرب عنكم الذكر، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿نضرب﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿عَنكُمُ﴾: متعلق بـ﴿نضرب﴾، ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿صَفْحًا﴾ مفعول مطلق معنوي لنضرب، أو حال من فاعل نضرب؛ أي: صافحين، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه في محل النصب بأن المصدرية، ﴿قَوْمًا﴾ خبرها، ﴿مُّسْرِفِينَ﴾ صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر، مجررو بلام التعليل المقدرة، والتقدير: أفنضرب عنكم الذكر لأجل كونكم قوماً مسرفين، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نضرب﴾، وقرىء بكسر الهمزة، فهي حينئذ شرطية، جوابها محذوف، تقديره: إن كنتم قوماً مسرفين، نضرب عنكم الذكر، وجملة الشرط مستأنفة.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

﴿وَكَمْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿كم﴾: خبرية، بمعنى عدد كثير، في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ وجوباً، مبني على السكون لشبهها بالحرف شبهاً معنوياً، ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِن نَّبِيٍّ﴾: تمييز لـ﴿كم﴾ الخبرية، ﴿فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية، ﴿يأتيهم﴾: فعل مضارع، ومفعول به، ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿نَّبِيٍّ﴾: فاعل

﴿يأتيهم﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، من أعم الأحوال، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾: خبر ﴿كَانُوا﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب على الحال، من أعم الأحوال؛ أي: وما يأتيهم من نبي في حال من الأحوال، إلا حال كونهم مستهزئين به. ﴿فَأَهْلَكْنَآ﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، ﴿أهلكنا﴾ فعل وفاعل، ﴿أَشَدَّ﴾: مفعول به، ﴿مِنْهُم﴾: متعلق بـ﴿أَشَدَّ﴾، ﴿بَطْشًا﴾ تمييز منصوب باسم التفضيل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: وما يأتيهم من نبي، مفرعة على استهزائهم، ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مضى مثلُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أهلكنا﴾. ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مضاف إليه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿سَأَلْتَهُم﴾: فعل ماض وفاعل ومفعول أول، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿مَّنْ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: خبره، والجملة الاستفهامية في محل النصب، مفعول ثاني لـ﴿سَأَلْتَهُم﴾ المعاقة عن العمل بالاستفهام. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: اللام: واقعة في جواب القسم، مؤكدة الأولى؛ لأنه المتقدم كما هي القاعدة، ﴿يقولن﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون للتوكيد، ولو كان مجزوماً في جواب الشرط لكان الحذف للجازم، ولكنه لا يجوز للقاعدة، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: وإن سألتهم من خلق السموات والأرض؟ يقولوا: خلقهن العزيز العليم، وجملة الشرط معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين القسم وجوابه، ﴿خَلَقَهُنَّ﴾: فعل ومفعول، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: فاعل، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: صفة لـ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، وكرر الفعل للتأكيد، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول ليقولن، ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الرفع،

صفة ثانية لـ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾، أو بدل منه، أو خبر لمبتدأ محذوف، ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ﴿لَكُمُ﴾ متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾ إن كان بمعنى خلق، وإن كان بمعنى صير فيكون متعلقاً، بمحذوف حال من مهداً، ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾: مفعول به أول و﴿مَهۡدٗا﴾ مفعول ثان، أو حال، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ الأول، ﴿لَكُمۡ﴾ متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾، أو في موضع المفعول الثاني، ﴿فِيهَا﴾ حال من ﴿سُبُلٗا﴾، و﴿سُبُلٗا﴾ مفعول به، ﴿لَّعَلَّكُمۡ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَهۡتَدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ١١ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ١٢﴾.

﴿وَٱلَّذِي﴾: معطوف على الموصول الأول، وجملة ﴿نَزَّلَ﴾: صلته، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿نَزَّلَ﴾، ﴿مَآءَۢ﴾: مفعول به، ﴿بِقَدَرٖ﴾: متعلق بـ﴿نَزَّلَ﴾ أيضاً، أو صفة لـ﴿مَآءَۢ﴾، ﴿فَأَنشَرۡنَا﴾: الفاء: عاطفة، ﴿أنشرنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿نَزَّلَ﴾، وفيه التفات، وسيأتي سره في مبحث البلاغة. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أنشرنا﴾، ﴿بَلۡدَةٗ﴾ مفعول به، ﴿مَّيۡتٗاۚ﴾: صفة ﴿بَلۡدَةٗ﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، ﴿تُخۡرَجُونَ﴾: فعل ونائب فاعل؛ أي: تخرجون من قبوركم بالبعث، إخراجاً. مثل إخراج النبات من الأرض، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِي﴾: معطوف أيضاً على الموصول الأول. ﴿خَلَقَ﴾: فعل وفاعل مستتر، ﴿ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾: مفعول به، ﴿كُلَّهَا﴾: توكيد لـ﴿الأزواج﴾، ﴿وَجَعَلَ﴾: معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، داخل في حيز الصلة، ﴿لَكُم﴾: في محل المفعول الثاني لـ﴿جعل﴾، ﴿مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ﴾ حال من ﴿مَا﴾ الموصولة المذكورة بعده، ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ معطوف على ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿جعل﴾، وجملة ﴿تَرۡكَبُونَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما تركبونه.

﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾.

﴿لِتَسْتَوُۥا﴾: اللام: لام كي، ﴿تستووا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن المضمرة جوازاً، في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لاستوائكم على ظهوره، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جعل﴾. ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ متعلقان به ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿تَذْكُرُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تستووا﴾، ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾: مفعول به، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ﴿تَذْكُرُواْ﴾، ﴿ٱسْتَوَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق به، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إِذَا﴾؛ أي: وقت استوائكم عليه. ﴿وَتَقُولُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَذْكُرُواْ﴾، ﴿سُبْحَٰنَ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً؛ أي: نسبح الذي سخر لنا هذا سبحاناً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿تقولوا﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الجر، مضاف إليه، لـ﴿سُبْحَٰنَ﴾، ﴿سَخَّرَ﴾: فعل وفاعل مستتر صلة الموصول، ﴿لَنَا﴾: متعلق به، ﴿هَٰذَا﴾: مفعول به، لـ﴿سَخَّرَ﴾، ﴿وَمَا﴾: الواو حالية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿مُقْرِنِينَ﴾، ﴿مُقْرِنِينَ﴾: خبر ﴿كُنَّا﴾، وجملة ﴿كُنَّا﴾ في محل النصب، حال من ضمير لنا، ﴿وَإِنَّآ﴾: الواو، حالية أيضاً، ﴿إنا﴾: ناصب واسمه، ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾: متعلق بـ﴿منقلبون﴾، ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿منقلبون﴾ خبر ﴿إنَّ﴾ مرفوع الواو، والجملة الاسمية في محل النصب، حال ثانية من ضمير لنا.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَجَعَلُواْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿جعلوا﴾: فعل وفاعل، ﴿لَهُۥ﴾ في محل المفعول الثاني. ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: حال من ﴿جُزْءًا﴾، و﴿جُزْءًا﴾ مفعول أول لـ﴿جعل﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكَفُورٌ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿كفور﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿كفور﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة، لتعليل ما قبلها، ﴿أَمِ﴾: منقطعة، بمعنى بل الإضرابية،

وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿اتَّخَذَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور، في موضع المفعول الثاني لـ﴿اتَّخَذَ﴾، وجملة ﴿يَخْلُقُ﴾. صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿بَنَاتٍ﴾ مفعول أول لـ﴿اتَّخَذَ﴾، وجملة ﴿اتَّخَذَ﴾ مستأنفة، ﴿وَأَصْفَاكُم﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿اتَّخَذَ﴾، ﴿بِالْبَنِينَ﴾ متعلق بـ﴿أصفاكم﴾، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط، ﴿بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ﴿بُشِّرَ﴾، ﴿ضَرَبَ﴾: فعل ماض بمعنى ﴿جعل﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿أَحَدُهُم﴾، ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿مَثَلًا﴾، والمفعول الأول محذوف، تقديره: بما ضربه. ﴿مَثَلًا﴾ مفعول ثاني لـ﴿ضَرَبَ﴾، وجملة ﴿ضَرَبَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد ضمير المفعول المحذوف، ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُسْوَدًّا﴾ خبره، والجملة جواب ﴿إذا﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ضمير وجهه؛ لأن المضاف كان جزءا للمضاف إليه

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، والواو: عاطفة لفعل محذوف على ذلك المحذوف، والتقدير: أيجترؤون على الله، ويبالغون في إساءة الأدب، ويجعلون لله من ينشأ في الحلية، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿يجعلون﴾: فعل وفاعل، ﴿لله﴾: في محل المفعول الثاني، ﴿من﴾: اسم موصول، في محل النصب مفعول أول، لـ﴿يجعلون﴾ المقدر، ﴿يُنَشَّؤُا﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ الموصولة، ﴿فِي الْحِلْيَةِ﴾ متعلق بـ﴿يُنَشَّؤُا﴾، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾ حالية. ﴿هو﴾: مبتدأ، ﴿فِي الْخِصَامِ﴾: متعلق بـ﴿مُبِينٍ﴾ المذكور بعده، ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ خبر المبتدأ، والجملة

الاسمية في محل النصب حال من نائب فاعل ﴿يُنَشَّؤُا﴾، ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، معطوف على قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾، ﴿الَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾، ﴿هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية صلة الموصول، ﴿إِنَاثًا﴾: مفعول ثان لـ﴿جعلوا﴾، ﴿أَشَهِدُوا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿شهدوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿خَلْقَهُمْ﴾: مفعول ﴿شهدوا﴾ ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾: فعل مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة مستأنفة أيضاً، ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿سَتُكْتَبُ﴾، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: ويسألون شهادتهم في الآخرة.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢)﴾.

﴿وَقَالُوا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان نوع آخر من أنواع كفرهم، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿شَاءَ الرَّحْمَنُ﴾: فعل وفاعل، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: عدم عبادتنا الملائكة، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿عَبَدْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿بِذَلِكَ﴾: متعلق بـ﴿عِلْمٍ﴾ المذكور بعده ﴿مِنْ﴾: زائدة، ﴿عِلْمٍ﴾ مبتدأ مؤخر، ولك أن تجعل ﴿مَا﴾ حجازية، على رأي من يجيز تقديم خبرها على اسمها، والجملة مستأنفة، ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، وجملة ﴿يَخْرُصُونَ﴾: خبر المبتدأ؛ أي: ما هم إلا خارصون كاذبون، والجملة مستأنفة، ﴿أَمْ﴾: منقطعة، بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري، ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿كِتَابًا﴾: مفعول ثان، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ متعلق بـ﴿آتينا﴾، أو صفة لـ﴿كِتَابًا﴾، ﴿فَهُمْ﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، ﴿هُمْ﴾:

مبتدأ، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بما بعده، ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ خبر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ مفرعة عليها، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء، ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿وَجَدْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿ءَابَآءَنَا﴾: مفعول أول لـ﴿وَجَدْنَآ﴾، ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ في موضع المفعول الثاني، وجملة ﴿وَجَدْنَآ﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾، ﴿وَإِنَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنا﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾: متعلق بـ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، و﴿مُّهْتَدُونَ﴾: خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولى على كونها مقولاً لـ﴿قَالُوٓا۟﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿كذلك﴾: جار ومجرور، خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: والأمر كائن كذلك، والجملة مستأنفة مستقلة جيء بها للتخلص، والانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر، ﴿مَآ﴾: نافية، ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان أن التقليد بهم ضلال قديم، ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿فِى قَرْيَةٍ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أيضاً، أو حال من ﴿نَّذِيرٍ﴾، ﴿مِّن﴾ زائدة، ﴿نَّذِيرٍ﴾: مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء من أعم الأحوال، ﴿قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب على الحال؛ أي: وما أرسلنا من نذير في قرية، في حال من الأحوال، إلا حال كون مترفيها قائلين: إنا وجدنا آباءنا إلخ. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ في محل المفعول الثاني لـ﴿وَجَدْنَآ﴾، وجملة ﴿وَجَدْنَآ﴾: خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَإِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ متعلق بـ﴿مُّقْتَدُونَ﴾، و﴿مُّقْتَدُونَ﴾: خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولى.

﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر، يعود على الـ﴿نَّذِيرٍ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والواو: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم، إلخ، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم ﴿جِئْتُكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ متعلق بـ﴿جِئْتُكُم﴾، وجواب ﴿لو﴾ محذوف، تقديره: تقتدون بآبائكم، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿مِمَّا﴾ متعلق بـ﴿أهدى﴾. ﴿وَجَدتُّمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾: في موضع المفعول الثاني لـ﴿وَجَدتُّمْ﴾، ﴿ءَابَآءَكُمْ﴾ مفعول أول لـ﴿وَجَدتُّمْ﴾، وجملة ﴿وجد﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿بِمَآ﴾ متعلق بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾ المذكور بعده، ﴿أُرْسِلْتُم﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿أُرْسِلْتُم﴾، وجملة ﴿أُرْسِلْتُم﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿كَٰفِرُونَ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾، ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ الفاء: عاطفة ﴿انتقمنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالُوٓا۟﴾ مفرع عليه، ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق بـ﴿انتقمنا﴾ ﴿فَٱنظُرْ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، أو على أي مخاطب، والجملة معطوفة على جملة ﴿انتقمنا﴾، ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب، خبر كان مقدم عليه وجوباً، ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: فعل ناقص واسمه، ومضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مفعول ﴿انظر﴾ معلق عنها باسم الاستفهام.

التصريف ومفردات اللغة

﴿حمٓ ۝١﴾ هذه الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وعلى خطورة الأحكام المبينة في السورة. ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن. ﴿ٱلْمُبِينِ﴾؛ أي: الموضح لطريق الهدى، المبعد من الضلالات، قال الراغب: قوله: ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ. والكتاب في الأصل: اسم للصحيفة مع المكتوب فيها. ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ يقال: ضربت عنه، وأضربت عنه؛ أي: تركته،

﴿صَفْحًا﴾ الصفح: الإعراض، يقال: صفح كمنع أعرض وترك، وصفح عنه عفا، وصفح السائل رده، كأصفحه، وسمي العفو صفحاً، لأنه إعراض عن الانتقام من صفحة الوجه؛ لأن من أعرض عنك، فقد أعطاك صفحة وجهه، والمعنى هنا: إعراضاً عنكم، كما مر. ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان. ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ قال الراغب: البطش تناول الشيء بصولة، والأخذ بشدة. ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ومضى فيه إعلال بالقلب، أصله: مضي بوزن فعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها، قلبت ألفا فصار مضى. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أصله: يقولونن، حذفت نون علامة الرفع لتوالي الأمثال، والواو لالتقاء الساكنين، فصار يقولن. ﴿مَهْدًا﴾ والمهد والمهاد: المكان الممهد الموطأ ﴿سُبُلًا﴾ جمع سبيل، وهو من الطريق ما هو معتاد السلوك، وقال الراغب: السبيل: الطريق الذي فيه سهولة. ﴿مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾؛ أي: بمقدار ما تحتاجون إليه، فلا يكون قليلاً لا ينفع، ولا يكون كثيراً فيؤذي ويضر.

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أحيينا، وفي «المبصاح»: ونشر الموتى نشوراً. أحياهم ونشرهم الله يتعدى ولا يتعدى، ويتعدى بالهمزة أيضاً، فيقال: أنشرهم الله، ونشرت الأرض نشوراً أيضاً حييت وأنبتت، ويتعدى بالهمزة، فيقال: أنشرتها إذا أحييتها بالماء، والإنشار: الإحياء. ﴿مَّيْتًا﴾ مخفف من الميت بالتشديد؛ أي: خاليةً عن النماء والنبات بالكلية. ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أصله: تستويون استثقلت الضمة على الياء، فحذفت تخفيفاً، فلما سكنت التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الواو، لمناسبة واو الجماعة بعدها، فوزنه لتفتعوا؛ لأن نون الرفع حذفت للناصب بعد لام التعليل. ﴿مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين، يقال: أقرن الشيء إذا أطاقه. قال الزمخشري: وحقيقة أقرنه وجده قرينته وما يقرن به لأن الصعب لا يكون قرينةً للضعيف، وقال الأخفش وأبو عبيدة: ومقرنين ضابطين. وقيل: مماثلين في الأيدي، والقوة من قولهم: هو قرن فلان، إذا كان مثله في القوة، ويقال: فلان مقرن لفلان؛ أي: ضابط له، وأقرنت كذا؛ أي: أطقته، وأقرن له أطاقه وقوي عليه، كأنه صار له قرناً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾؛ أي: مطيقين. قال في «القاموس»: أقرن للأمر، أطاقه وقوي عليه، كاستقرن،

وعن الأمر ضعف ضد انتهى.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ والجعل هنا، بمعنى: الحكم بالشيء، والاعتقاد به، يقال: جعلت زيداً أفضل الناس؛ أي: حكمت به ووصفته. وقال في «القاموس»: الجزء البعض، وأجزأت الأم ولدت الإناث، ويفتح، والجمع أجزاء، وبالضم موضع ورملٌ، وَجزأَهُ كَجَعَلَهُ قَسَّمَهَ أجزاءً كَجَزَّأَهَ بالتضعيف وبالشيء اكتفى، كاجتزأ وتجزأ.

﴿وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ أصله: أصفوكم من الصفوة قلبت الواو ياءً. لوقوعها رابعةً، ثم قلبت ألفاً لتحركها بعد فتح، ومعناه: اختار لكم. ﴿ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: جعل ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: مشابهاً بنسبة البنات إليه، لأن الولد يشبه الوالد. ﴿كَظِيمٌ﴾؛ أي: ممتلىء غيظاً وغماً. ﴿يُنَشَّؤُا﴾؛ أي: يربى. ﴿فِي الْحِلْيَةِ﴾؛ أي: في الزينة، والحلية ما يتحلى به الإنسان ويتزين، والجمع حلي بكسر الحاء وضمها وفتح اللام. ﴿يَخْرُصُونَ﴾؛ أي: يكذبون. وفي «المصباح»: وخرص الكافر خرصاً، من باب قتل كذب فهو خارص. وفي «القاموس» و«التاج»: الخراص الكذاب. وقال الراغب: الخرص: كل قول مقول عن ظن وتخمين، يقال له: خرص، سواء كان ذلك مطابقاً للشيء، أو مخالفاً له، من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم، ولا غلبة ظن، ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين، كفعل الخارص في خرصه، وكل من قال قولاً على هذا النحو، يسمى كاذباً. وإن كان مطابقاً للقول المخبر به.

﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ يقال: استمسك به إذا اعتصم به. وفي «المفردات»: إمساك الشيء: التعلق به وحفظه، واستمسكت بالشيء، إذا تحريت الإمساك، انتهى. ﴿عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ الأمة: الدين والطريقة التي تؤم؛ أي: تقصد. قال الراغب: الأمة كل جماعة يجمعهم أمر، إما دين واحد أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً. ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ وفي «الروح»: الأثر بفتحتين بقية الشيء. والآثار الأعلام، وسنن النبي ﷺ آثاره، قال الراغب: أثر الشيء حصول ما يدل على وجوده، ومن هذا يقال للطريق المستدل به على

من تقدم آثاره. ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ جمع مهتد، أصله: مهتديون استثقلت الحركة على الياء، فحذفت فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت الدال لمناسبة الواو. ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ جمع مترف اسم مفعول. وفي «القاموس»: وترف كفرح، تنعم، وأترفته النعمة أطغته، أو نعمته كترفته تتريفاً، والمترف كمكرم، المتروك، يصنع ما يشاء فلا يمنع، والمتنعم لا يمتنع من تنعمه، انتهى. ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ جمع مقتد، أصله: مقتديون استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت الدال لمناسبة الواو، ومعناه: سالكون طريقتهم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: فن التناسب في قوله: ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ الآية، فقد أقسم سبحانه بالقرآن، وإنما يقسم بعظيم، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن، بأنه قرآن عربي، مرجو له أن يعقل به العالمون، فكان جواب القسم مصححاً للقسم، وتم التناسب بين القسم والمقسم به؛ لأنهما من واد واحد.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ لأن لفظ الأم حقيقة في الأنثى الوالدة، فاستعار للوح المحفوظ، بجامع الأصالة في كل.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ لأنه استعار كلمة ﴿لعل﴾ الموضوعة للترجي، والتوقع لمعنى كي، وهو التعليل لكون حقيقة الترجي والتوقع ممتنعةً في حقه تعالى، لكونها مختصةً بمن لا يعلم عواقب الأمور.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾ شبه حال الذكر وتنحيته، بحال غرائب الإبل وذود هاشم، استعمل ما كان مستعملاً في تلك القصة ههنا، بجامع التنحية والإبعاد في كل.

ومنها: حكاية حال ماضية في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾؛ لأن ﴿ما﴾ إنما تدخل على مضارع في معنى الحال، أو على ماض قريب منها.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾؛ أي: كالمهد والفراش، حذفت من الأداة، ووجه الشبه فأصبح بليغاً.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَأَنشَرْنَا﴾؛ لأن الإنشار حقيقة في إحياء الميت وبعثه، فاستعاره لإنبات الأرض فاستعير الإنشار بمعنى إحياء الأموات لإنبات الأرض، فاشتق منه أنشرنا، بمعنى: أنبتنا على طريقة الاستعارة التبعية.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم، حيث عبر بنون العظمة، لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء، والإشعار بعظم خطره.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ حيث استعار الميت، الذي هو حقيقة فيمن خرجت روحه، للمكان الخالي من النبات.

ومنها: التعبير عن إخراج النبات بالإنشار، الذي هو إحياء الموتى حيث قال: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ﴾، وعن إحياء الموتى بالإخراج حيث قال: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ تفخيماً لشأن الإنبات، وتهويناً لأمر البعث، لتقويم سند الاستدلال، وتوضيح منهاج القياس.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فقد حذف الموصوف، وهو الله تعالى، وأقام صفاته مقامه؛ لأن الكلام مجزأ، فبعضه من قولهم، وبعضه من قول الله تعالى، فالذي هو من قولهم: خلقهن، وما بعده، هو من قول الله تعالى، وأصل الكلام أنهم قالوا: خلقهن الله، بدلالة قوله في آية أخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ثم لما قالوا: خلقهن الله، وصف الله تعالى ذاته بهذه الصفات، وأقيمت مقام الموصوف، كأنه كلام واحد، ونظير هذا أن تقول للرجل: من أكرمك من القوم؟ فيقول: أكرمني زيد، فتقول: أنت، واصفاً له، الكريم الجواد المفضال الذي من صفته كذا وكذا.

ومنها: تنكير بنات في قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ لتربية الحقارة.

ومنها: تعريف البنين في قوله: ﴿وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ لتربية الفخامة.

ومنها: الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم أن يعرض عنهم، ويحكي لغيرهم تعجباً منها.

ومنها: التأكيد بـ﴿إِنَّ﴾ واللام، مع صيغة المبالغة في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأن فعولاً وفعيلاً من صيغ المبالغة.

ومنها: الأسلوب التهكمي للتوبيخ والتقريع في قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾.

ومنها: الطباق بين لفظ البنين والبنات.

ومنها: التجهيل لهم والتهكم بهم في قوله: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ فإنهم إنما سمعوه من آبائهم وهم أيضاً كذابون جاهلون.

ومنها: فن الإلجاء في قوله: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ وهو أن يبادر المتكلم الخصم، بما يلجئه إلى الاعتراف بحقيقة نفسه، ودخيلة قلبه، فالتعبير في الآية بالتفضيل المقتضي أن ما عليه آباؤهم فيه هداية، لم يكن إلا لإلجائهم إلى الاعتراف بحقيقة نياتهم، التي يضمرونها، كأنه يتنزل معهم إلى أبعد الحدود، ويرخي لهم العنان إلى أقصى الآماد، ليعترفوا بالتالي بمكابرتهم التي لا تجدي معها المناصحة في القول، ولا ينفع في تذليلها الإتيان بالحجة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ (٤٤) وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ (٥٦)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر[1] في الآية السالفة أن الذي دعا الكفار إلى اعتناق العقائد الزائغة، هو تقليد الآباء والأجداد، وبين أنه طريق باطل ونهج فاسد، وأن الرجوع إلى الدليل أولى من التقليد.. أردف هذا بأن ذكر لهم أن أشرف آبائهم، وهو إبراهيم عليه السلام، ترك دين الآباء، وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعتهم، فيجب عليكم تقليده، وحين عدل عن طريق آبائه، جعل الله دينه باقياً في عقبه إلى يوم القيامة، وأديان آبائه درست وبطلت.

ثم ذكر أن قريشاً وآباءهم مدَّ لهم في العمر والنعمة، فاغتروا بذلك واتبعوا الشهوات، وأعرضوا عن توحيد الله تعالى، وشكره على آلائه، حتى جاءهم الرسول منبهاً لهم، مذكراً بالنظر إلى من فطرهم وفطر السموات والأرض، وآتاهم من فضله ما يتمتعون به من زينة هذه الحياة، فكذبوه وقالوا: ساحر كذاب، ثم حكى عنهم، قالوا: هلا نزل هذا القرآن على رجل عظيم الجاه، كثير المال، من إحدى القريتين، مكة والطائف، فرد عليهم مقالهم، بأنه قسم الحظوظ الدنيوية بين عباده، فجعل منهم الغني والفقير، والسيد والمسود، والملوك والسوقة، والأقوياء والضعفاء، ولم يغير أحد ما حكم به في أحوال دنياهم على حقارتها، فكيف يعترضون على حكمه فيما هو أرفع درجةً وأشرف غايةً وأعظم مرتبةً وهو منصب النبوة.

ثم ذكر أن التفاوت في شؤون الدنيا هو الذي يتم به نظام المجتمع، والسير به على النهج القويم، فلولاه ما صرف بعضهم بعضاً في حوائجه، ولا تعاونوا في تسهيل وسائل المعيشة، ثم أعقب هذا ببيان أنه لولا أن يرغب الناس في الكفر، إذا رأوا الكفار في سعة من الرزق، لمتعهم بكل وسائل النعيم، فجعل لبيوتهم

---

(١) المراغي.

أبواباً من فضة وسقفا وسرُرُاً ومصاعد عليها يظهرون، وزينة في كل شيء، ولكن كل هذا متاع قليل زائل، والآخرة هي الباقية، وهي لمن يتقي الله تعالى، ويجتنب الكفر والمعاصي ولم يفعل ذلك بالمؤمنين، فيوسع عليهم جميعاً ليكون سبب اجتماعهم على الإيمان العقيدة المنبعثة عن الاطمئنان النفسي؛ لأنه لو فعل ذلك لاجتمعوا عليه طلباً للدنيا، وهذا إيمان المنافقين، ومن ثم ضيق الرزق على بعض المسلمين ووسع على بعض، ليكون من يدخله فإنما يدخله للدليل والبرهان، وابتغاء رضوان الله ومثوبته.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] بين أن المال متاع الدنيا، وهو عرض زائل، ونعيم الآخرة هو النعيم المقيم الدائم، الذي أعده الله سبحانه للمتقين.. ذكر هنا أن من فاز بالمال والجاه، صار كالأعشى عن ذكر الله، وصار من جلساء الشياطين، الضالين المضلين، الذين يصدونه عن السبيل القويم، ويظن أنه مهتد، لأنه يتلقى من الشياطين ما يلائم أخلاقه، فيألفه ولا ينكره، ثم ذكر أنه إذا جاء يوم القيامة، تبرأ الكافر من الشيطان قرينه، وقال له: ليت بيني وبينك بعد ما بين المشرقين، ثم أعقب هذا ببيان أن اشتراك الكافر مع قرينه الشيطان في العذاب لا يخفف عنه شيئاً منه، لاشتغال كل منهما بنفسه.

ثم ذكر لرسوله أن دعوته لا تؤثر في قلوبهم، وقلما تجديهم المواعظ، فإذا أسمعتهم القرآن كانوا كالصم، وإذا أريتهم معجزاتك كانوا كالعمي، وإنما كانوا كذلك لضلالهم المبين، ثم سلى رسوله، وبين له أنه لا بد أن ينتقم منهم، إما حال حياته أو بعد موته، ثم أمره أن يستمسك بما أمره الله به، فيعمل بموجبه، فإنه الصراط المستقيم النافع في الدين والدنيا، وفيه الشرف العظيم له ولقومه، وسوف يسألون عما قاموا به من التكاليف التي أمرهم بها، ثم أرشد إلى أن بغض

---

(١) المراغي.

الأصنام وبغض عبادتها جاء على لسان كل نبي، فمحمد ﷺ ليس بدعاً من بينهم في الإنكار عليها، حتى يعارض ويبغض.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين أن كفار قريش طعنوا في نبوة محمد ﷺ، لكونه فقيراً عديم المال والجاه.. بين هنا أن موسى بعد أن أورد المعجزات الباهرة، أورد فرعون هذه الشبهة التي ذكرها كفار قريش، فقال: إني غني كثير المال، عظيم الجاه، فلي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري تحتي، وموسى فقير مهين، وليس له بيان ولا لسان، وهذا شبيه بما قاله كفار قريش، وأيضاً فإنه لما قال: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ ذكر هنا قصة موسى وعيسى عليهما السلام، وهما أكثر الأنبياء أتباعاً، وقد جاءا بالتوحيد، ولم يكن فيما جاءا به، إباحة اتخاذ آلهة من دون الله تعالى.

ثم ذكر سبحانه أن فرعون قال: هلا ألقي إلى موسى مقاليد الملك، فطوق بسوار من ذهب إن كان صادقاً، زعماً منه أن الرياسة من لوازم الرسالة، أو جاء معه جمع من الملائكة يعينونه على من خالفه، وأعقب هذا، بأن ذكر أنه حين دعا قومه إلى تكذيب موسى في دعواه الرسالة، أطاعوه لضلالهم وغوايتهم، ولما لم تجد فيهم المواعظ غضبنا وانتقمنا منهم، وجعلناهم قدوةً للكافرين، وضربنا بهم الأمثال للناس ليكونوا عبرةً لهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ...﴾ الآيتين، سبب نزولهما[1]: ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس: أن العرب قالوا: وإذا كان النبي بشراً، فغير محمد ﷺ أحق بالرسالة، حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ يكون أشرف من محمد ﷺ، يعنون: الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف، فأنزل الله ردا عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ

---

(١) لباب النقول.

رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يعني النبوة، فيضعونها حيث شاؤوا.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي: أن قريشاً قالت: قيضوا لكل رجل من أصحاب محمد ﷺ رجلاً يأخذه، فقيضوا لأبي بكر الصديق طلحة بن عبيد الله، فأتاه وهو في القوم، فقال أبو بكر: إلام تدعوني، قال: أدعوك إلى عبادة اللات والعزى، قال أبو بكر: وما اللات؟ قال: ربنا، قال: وما العزى؟ قال: بنات الله، قال أبو بكر: فمن أمهم فسكت طلحة فلم يجبه، فقال طلحة لأصحابه: أجيبوا الرجل، فسكت القوم، فقال طلحة: قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فأنزل الله سبحانه هذه الآية: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ...﴾ سبب نزولها: ما رُوي: أنه كان رسول الله ﷺ يتعب نفسه في دعاء قومه، وهم لا يزيدون إلا غياً، فنزلت الآية ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قريش، وقت قول إبراهيم عليه السلام، بعد الخروج من النار ﴿لِأَبِيهِ﴾ تارخ الشهير بآزر، وكان ينحت الأصنام ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾ المنْكَبِّين على التقليد وعبادة الأصنام، كيف تبرأ مما هم فيه بقوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ وتمسك بالبرهان ليسلكوا مسلك الاستدلال، أو ليقتدوا به إن لم يكن لهم بد من التقليد، فإنه أشرف آبائهم، وبراء مصدر بمعنى اسم الفاعل؛ أي: بريء، كما سيأتي في مبحث التصريف.

والمعنى[2]: أني بريء من عبادتكم لغير الله، إن كانت ما مصدرية، أو من

---

(١) التفسير المنير.

(٢) روح البيان.

معبودكم إن كانت موصولة حذف عائدهما ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وخلقني استثناء[1] منقطع إن كانوا عبدة الأصنام؛ أي: لكن الذي خلقني لا أبرأ منه، أو متصل على أن ما تعم أولي العلم وغيرهم، وأنهم يعبدون الله والأصنام، أو صفة على أن ما موصوفة؛ أي: إني بريء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني، فإن ﴿إلا﴾، بمعنى غير، لا يوصف بها إلا جمع منكور غير محصور، وهو هنا آلهة، كما هو مذهب ابن الحاجب ﴿فَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: فإن الذي فطرني ﴿سَيَهْدِينِ﴾؛ أي: سيثبتني على الهداية، أو سيهديني إلى ما وراء الذي هداني إليه إلى الآن، ولذا أورد كلمة التسويف هنا، بعد ما قال في الشعراء: فهو يهدين بلا تسويف، والأوجه أن السين للتأكيد دون التسويف، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار؛ أي: دوام الهداية حالاً واستقبالاً، فهو هاديه في المستقبل والحال.

والمعنى: أي واذكر[2] أيها الرسول لقومك قريش المنكبين على تقليد الآباء والأجداد في عبادة الأصنام، كيف تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه، حين رآهم عاكفين على عبادة الأصنام، حين قال لهم: إني بريء مما تعبدون إلا من عبادة الله الذي خلقني، وخلق الناس جميعاً، وإنه سيهديني إلى سبيل الرشاد، ويوفقني إلى اتباع الحق؟ وقد جزم بذلك لثقته بربه ولقوة يقينه. فينبغي لكم يا أهل مكة أن تقتدوا به في ترك تقليد آبائكم الأقربين وترجعوا إلى النظر واتباع الحق.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿بَرَآءٌ﴾ بفتح الباء وألف وهمزة بعد الراء، وهو مصدر يستوي فيه المفرد والمذكر ومقابلهما، يقال: نحن البراء منك، وهي لغة أهل العالية، وبها قرأ الأعمش. وقرأ الزعفراني والقورحي عن أبي جعفر وابن المناذري عن نافع بضم الباء بزنة طوال، يقال: طويل وطوال وبريء وبراء، وهي لغة نجد وقرأ الأعمش: ﴿إنّي﴾ بنون مشددة دون نون الوقاية، والجمهور ﴿إِنَّنِى﴾ بنونين الأولى مشددة.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

فإن قلت: قال هنا: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ بزيادة سين التسويف، وقال في الشعراء: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨﴾ بلا زيادة سين الاستقبال، فما الفرق بين الموضعين.

قلت: زاد السين للتأكيد؛ لأن المقام مقام التبرُّؤ من عبادة الأصنام، فهو أشد حاجة إلى التأكيد، وما في الشعراء بيان لعداوة الأصنام له، فلا حاجة إلى التأكيد، هكذا ظهر الفرق لي بعد تأمل شديد، والله أعلم بأسرار كتابه.

﴿وَجَعَلَهَا﴾؛ أي[1]: وجعل إبراهيم كلمة التوحيد، التي كان ما تكلم به من قوله: إنني براء إلى سيهدين عبارةً عنها، يعني: أن البراءة من كل معبود سوى الله تعالى، توحيد للمعبود بالحق، وقول بلا إله إلا الله ﴿كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً﴾؛ أي: دائمة مستمرة جارية ﴿فِي عَقِبِهِۦ﴾ وذريته حيث وصاهم بها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ الآية، فالقول المذكور بعد الخروج من النار، وهذا الجعل بعد حصول الأولاد الكبار، فلا يزال فيهم نسلاً بعد نسل، من يوحد الله سبحانه، ويدعو إلى توحيده، وتفريده إلى قيام الساعة، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ علة[2] للجعل، والضمير للعقب، وإسناد الرجوع إليهم من وصف الكل بحال الأكثر، والترجي راجع إلى إبراهيم عليه السلام؛ أي: جعلها باقيةً في عقبه وخلفه، رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحد منهم.

فائدة: قال بعضهم في سبب تكريم وجه علي بن أبي طالب: بأن يقال: كرم الله وجهه، أنه نقل عن والدته فاطمة بنت أسد بن هاشم: أنها كانت إذا أرادت أن تسجد للصنم، وهو في بطنها، يمنعها من ذلك. وقرأ حميد بن قيس ﴿كلمة﴾ بكسر الكاف وسكون اللام، وقرىء ﴿في عقبه﴾ بسكون القاف؛ أي: في ذريته، وقرىء ﴿في عاقبه﴾؛ أي: من عقبه؛ أي: من خلفه، ذكره في «البحر».

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والمعنى: أي[١] وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، جعلها دائمةً في ذريته، يقتدي به فيها من هداه الله تعالى منهم، فلا يزال فيهم من يوحد الله سبحانه إلى يوم القيامة، رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم، كأهل مكة، بدعاء الموحد منهم، فإنهم إذا ذكروا أباهم الأعظم الذي بني لهم البيت، وأورثهم ذلك الفخر، تبعوه في ملته الحنفية، وتأثروا بأبوته إن كانوا يدعون تقليد الآباء. قال قتادة: لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة، وقال ابن العربي[٢]: إنما كانت لإبراهيم في الأعقاب موصولة بالأحقاب، بدعوتيه المجابتين، إحداهما قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فقد قال: إلا من ظلم منهم فلا عهد له. ثانيتهما قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

وقيل[٣]: الفاعل في جعلها الله سبحانه وتعالى؛ أي: وجعل الله عز وجل كلمة التوحيد باقيةً في عقب إبراهيم، وقيل: الضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ راجع إلى أهل مكة؛ أي: لعل أهل مكة يرجعون إلى دينك الذي هو دين إبراهيم، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: فإنه سيهدين لعلهم يرجعون، وجعلها إلخ، قال السدي: لعلهم يتوبون فيرجعون عما هم عليه إلى عبادة الله تعالى.

ثم ذكر سبحانه نعمته على قريش، ومن وافقهم من الكفار المعاصرين لهم، فقال: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ﴾ إضراب عن محذوف؛ أي: فلم يحصل ما رجاه، بل متعت وأنعمت منهم هؤلاء المعاصرين لمحمد ﷺ من أهل مكة ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ بالمد في العمر والبسط في النعمة، فاغتروا بالمهلة وانهمكوا في الشهوات، وشغلوا بها عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ﴾؛ أي: جاء هؤلاء المعاصرين لمحمد ﷺ ﴿الْحَقُّ﴾ أي: القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، محمد ﷺ ظاهر الرسالة واضحها بالمعجزات الباهرة، أو مبين التوحيد بالآيات البينات والحجج الواضحات، أو مبين لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين، فلم يجيبوه ولم يعملوا بما أنزل عليه، فحتى ليست

---

(١) التفسير المنير.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

غاية للتمتع، بل لما تسبب عنه من الاغترار المذكور وما يليه.

والمعنى[1]: أي بل متعت هؤلاء المشركين، من أهل مكة وآباءهم من ذرية إبراهيم بطول العمر، والسعة في الرزق، وأنعمت عليهم في كفرهم فاغتروا بالمهلة، وأكبوا على الشهوات وطاعة الشيطان، وشغلوا بالتنعم عن كلمة التوحيد، إلى أن جاءهم الحق وهو القرآن العظيم، والرسول المبين، الذي أوضح مبدأ التوحيد بالبراهين الساطعة، وشرع الله وأحكامه بالأدلة القاطعة، وهو محمد ﷺ.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ بتاء المتكلم، وقرأ قتادة والأعمش: ﴿بل متعت﴾ بتاء الخطاب، ورواها يعقوب عن نافع، قال صاحب «اللوامح»: وهي من مناجاة إبراهيم عليه السلام ربه تعالى، والظاهر: أنه من مناجاة محمد ﷺ؛ أي: قال: يا رب بل متعت، وقرأ الأعمش: ﴿بل متعنا﴾ بنون العظمة، وهي تعضد قراءة الجمهور، قال الزمخشري: فإن قلت: فما وجه من قرأ: ﴿بل متعت﴾ بفتح التاء؟.

قلتُ: كأن الله سبحانه وتعالى خاطب نفسه، واعترض على ذاته في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾، فقال مخاطباً لنفسه: بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق، حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد، وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم؛ لأنه إذا متعهم بزيادة النعم، وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان، لا أن يشركوا به ويجعلوا له أنداداً، فمثاله: أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه، ثم يقبل على نفسه فيقول: أنت السبب في ذلك، بمعروفك وإحسانك، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله.

ثم بين سبحانه ما صنعوه عند مجيء الحق، فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾؛ أي: ولما جاء أهل مكة القرآن العظيم، الذي هو الحق من الله، لينبههم عما هم

---

(١) التفسير.
(٢) البحر المحيط.

فيه من الغفلة، ويرشدهم إلى التوحيد، ازدادوا كفراً وعتوا، وضموا إلى كفرهم السابق معاندة الحق، والاستهانة به حيث ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا﴾ الحق والقرآن ﴿سِحْرٌ﴾ وهو[1] إراءة الباطل في صورة الحق؛ أي: هذا القرآن كلام باطل، ليس من عند الله تعالى: ﴿وَإِنَّا بِهِۦ﴾؛ أي: بكون هذا القرآن من عند الله تعالى ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: جاحدون منكرون، فسموا القرآن سحراً وكفروا به واستحقروا رسول الله ﷺ.

والمعنى[2]: أي وحينما جاءهم القرآن والرسول المؤيد بالمعجزات دليلاً على صدقه، وصفوا ما جاء به بأنه سحر وأباطيل، وليس بوحي من عند الله تعالى، وقالوا: إنا بما أرسل به جاحدون، مكابرةً وعناداً وحسداً وبغياً، فضموا إلى شركهم وضلالهم تكذيب الحق ورفضه والاستهزاء به، والتصريح بالكفر برسالته وإنكار نبوته.

ثم ذكر فناً آخر من أفانين كفرهم فقال: ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: وقال كفار مكة ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض؛ أي: هلا ﴿نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ إن كان حقاً من عند الله تعالى ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ﴾ إحدى ﴿ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ مكة والطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ ذلك الرجل بالمال والجاه، كالوليد بن المغيرة بمكة، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف، فهو على نهج قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: من أحدهما، وذلك[3] لأن من للابتداء، وكون الرجل الواحد من القريتين بعيد، فقدر المضاف، ومنهم من لم يقدر مضافاً وقال: أراد على رجل كائن من القريتين كلتيهما، والمراد به: عروة المذكور؛ لأنه كان يسكن مكة والطائف جميعاً. وكان له في مكة أموال يتَّجرُ بها، وكان له في الطائف بساتين وضياع، فكان يتردد إليهما، فصار كأنه من أهلهما، يقول الفقير: هنا وجه خفي، وهو أن النسبة إلى القريتين قد تكون بالمهاجرة من إحداهما إلى الأخرى، كما يقال: المكي، المدني، والمصري، الشامي وذلك بعد الإقامة في إحداهما أربع سنين، صرح

---

(١) روح البيان.
(٢) التفسير المنير.
(٣) روح البيان.

بذلك أهل أصول الحديث.

ثم إنهم لم يتفوهوا[1] بهذه الكلمة العظيمة، حسداً على نزوله على الرسول ﷺ، دون من ذكر من عظمائهم، من اعترافهم بقرآنيته، بل استدلالاً على عدمها، بمعنى أنه لو كان قرآنا، لنزل على أحد هذين الرجلين، بناءً على ما زعموا، من أن الرسالة منصب جليل. لا يليق به إلا من له جلالة من حيث المال والجاه، ولم يدروا أن العظيم من عظّمه الله، وأعلى قدره في الدارين، لا من عظمه الناس، إذ رب عظيم عندهم حقير عند الله تعالى، وبالعكس، وأن الله يختص برحمته من يشاء، وهو أعلم حيث يجعل رسالته. وفي قوله: ﴿عَظِيمٍ﴾ تعظيم لرسول الله ﷺ، وعظم شأنه وفخم.

والمعنى[2]: أي وقال كفار قريش وأمثالهم: هلا أنزل هذا القرآن على أحد رجلين عظيمين من مكة أو الطائف، وهما الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف.

وهذا اعتراض منهم على الله، الذي أنزل القرآن على رسوله، فأنكر الله سبحانه عليهم ذلك، وجهلهم، وعجب من حالهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ﴾ استفهام إنكار، وتجهيل لهم، وتعجيب من تحكمهم، والمراد بالرحمة: النبوة، أو ما هو أعم، يعني: أبيدهم مفاتيح الرسالة والنبوة، فيضعونها حيث شاؤوا.

ثم بين سبحانه: أنه هو الذي قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا، فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم﴾؛ أي: بين أهل الأرض ﴿مَّعِيشَتَهُمْ﴾؛ أي: أسباب معيشتهم، والمعيشة: ما يعيش به الإنسان ويتغذى به، ويجعله سبباً في قوام بنيته، إذ العيش الحياة المختصة بالحيوان، وهو يعم الحلال والحرام عند أهل السنّة ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ﴾ قسمةً تقتضيها مشيئتنا، المبنية على الحكم والمصالح، ولم نفوض أمرنا إليهم، علماً منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية، كما دل عليه

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.

تقديم المسند إليه، وهو نحن، إذ هو للاختصاص.

والحاصل[١]: نحن قسمنا أرزاقهم فيما بينهم، وهو أدنى من الرسالة، فلم نترك اختيارها إليهم وإلا لضاعوا وهلكوا فما ظنهم في أمر الدين؛ أي: فكيف نفوض اختيار ما هو أفضل وأعظم، وهو الرسالة، وليس لأحد من العباد أن يتحكم في شيء، بل الحكم لله وحده؟ وإذا كان الله سبحانه، هو الذي قسم بينهم أرزاقهم، ورفع درجات بعضهم على بعض، فكيف لا يقنعون بقسمته في أمر الرسالة وتفويضها إلى من يشاء من خلقه؟

قال مقاتل: يقول تعالى: أبأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا! وفي قوله[٢]: ﴿قَسَمْنَا بَيْنَهُم﴾ تزهيد في الإكباب على طلب الدنيا، وحث على التوكل على الله تعالى. وقرأ الجمهور: ﴿مَّعِيشَتَهُمْ﴾ بالإفراد، وعبد الله والأعمش وابن عباس ومجاهد وابن محيصن وسفيان ﴿معائشهم﴾ على الجمع.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق وسائر مبادىء المعاش ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ نصب[٣] بنزع الخافض؛ أي: إلى درجات متفاوتة، بحسب القرب والبعد، حسبما تقتضيه الحكمة، فمن ضعيف وقوي وفقير وغني وخادم ومخدوم وحاكم ومحكوم، أو تمييز محول عن المفعول ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ أي: خادماً وعاملاً وأجيراً من التسخير، بمعنى: الاستخدام، ولكون المراد هنا الاستخدام دون الهزء؛ لأنه لا يليق التعليل به، أجمع القراء على ضم السين في الرواية المشهورة عنهم، فما كان من التسخير فهو مضموم، وما كان من الهزء فهو مكسور، وقرأ الجمهور[٤]: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين، وعمرو بن ميمون وابن محيصن وابن أبي ليلى وأبو رجاء والوليد بن مسلم، وابن عامر بكسرها، وهو من التسخير بمعنى الاستعباد والاستخدام والاستعمال. ويبعد أن يكون ﴿سُخْرِيًّا﴾ هنا من الهزء، وقد قال بعضهم؛ أي: يهزأ الغني بالفقير، وهذا وإن كان مطابقاً

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

للمعنى اللغوي، ولكنه بعيد من معنى القرآن، ومناف لما هو مقصود السياق.

والمعنى[1]: فاضلنا بينهم فجعلنا بعضهم أفضل من بعض، في الدنيا بالرزق والرياسة والقوة والحرية والعقل والحلم، ليستخدم بعضهم بعضاً، فيستخدم الغني الفقير والرئيس المرؤوس والقوي الضعيف والحر العبد والعاقل من هو دونه في العقل، والعالم الجاهل، وهذا في غالب أحوال أهل الدنيا، وبه تتم مصالحهم وينتظم معاشهم، ويصل كل واحد منهم إلى مطلوبه، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين، فجعل البعض محتاجاً إلى البعض لتحصيل المساواة بينهم في متاع الدنيا، ويحتاج هذا إلى هذا ويعطي هذا هذا.

وحاصل معنى الآية[2]: أي إن هؤلاء المشركين تجازوا حدودهم وأقدارهم، فأرادوا أن يجعلوا ما لله لأنفسهم، وليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه لا ينزلها إلا على من بلغ مرتبة روحانية خاصةً، وكان ذا فضائل قدسية، وكمالات خلقية، مستهيناً بالزخارف الدنيوية التي انغمسوا فيها، فهم ليسوا لها بأهل، فضلاً عن أن يهبوها لمن يشاؤون، ونحن الذين قسموا الأرزاق والحظوظ بين العباد، ونفضل بعضهم على بعض درجات في القوة، والضعف والعلم والجهل والشهرة والخمول والغنى والفقر؛ لأنا لو سوينا بينهم في هذه الأحوال لم يتعاونوا فيما بينهم، ولم يتمكنوا من استخدام بعضهم بعضاً، فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض، وإلا فسد نظام العالم، وليس المعنى في الاستخدام أو الاستئجار، أو الاستعمال على عمل شيء من الذل والمهانة؛ لأن حقوق العامل مصونة في الإسلام، وعلى صاحب العمل واجبات خلقية ومادية كثيرة، توجب عليه الترفع عن الغبن، والظلم والأذى والإساءة، فإذا عجزوا عن تغيير نظام الدنيا، فكيف يعترضون على حكمنا بتخصيص الرسالة والنبوة في بعض العباد، وقصارى ذلك: أنا قسمنا بينهم أرزاقهم، أفلا يقنعون بقسمتنا في أمر النبوة وتفويضها إلى من نشاء من عبادنا؟

---

(١) الشوكاني.
(٢) التفسير المنير والمراغي.

ثم علل ما سلف بقوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ وفضله بالنبوة، وما يتبعها من وحي وكتاب ينزل ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ أي: مما يجمع هؤلاء الكفار من حطام الدنيا الدنية الفانية، فالدنيا على شفا جرف هار، ومظاهرها فانية لا قيمة لها، فهو قد أغدقها على الدواب والأنعام، وكثير من جهلة بني آدم، والعظيم من رزق من تلك الرحمة العظيمة، لا مما يجمعون من الدنيء الحقير، يظنون أن العظمة به.

وفيه[1]: إشارة إلى أن الله يعطي الفقير من فقراء البلد، لا يؤبه به ما لا يعطي لعلمائه، وأفاضله من حقائق القرآن، وأسراره، فإن قسمة العلم والمعرفة بيده سبحانه، كقسمة النبوة والرسالة، فما لا يحصل بالدرس قد يحصل بالوهب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. قوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ ترسم[2] هذه التاء مجرورةً في الموضعين من هذه السورة، اتباعاً لرسم مصحف الإمام عثمان رضي الله عنه، وكذا ترسم مجرورةً في سورة الأعراف في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وفي سورة الروم في قوله: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ وفي سورة هود في قوله: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، وفي سورة مريم في قوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾، وفي البقرة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾، وفيما عدا هذه السبعة المواضع، ترسم مربوطةً على صورة الهاء، وأبو عمرو وابن كثير والكسائي يقفون عليها بالهاء كسائر الهاءات الداخلة على الأسماء، كفاطمة وقائمة، وهي لغة قريش، والباقون يقفون عليها بالتاء تغليباً لجانب الرسم، وهي لغة طيء.

ثم بين الله سبحانه وتعالى، حقارة الدنيا وخستها بقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ وهنا لا بد[3] من تقدير مضاف، فإن لولا لانتفاء الثاني، لوجود الأول، ولا تحقق لمدلول لولا ظاهراً؛ أي: ولولا كراهة أن يرغب الناس في الكفر، إذا رأوا الكفار في سعة وتنعم لحبهم الدنيا، وتوهم أن ذلك لفضيلة

---

(١) روح البيان.

(٢) الفتوحات.

(٣) روح البيان.

في الكفار، ويجتمعوا على الكفر، ويكونوا في الكفر أمةً واحدة ﴿لَّجَعَلْنَا﴾ لحقارة الدنيا، وهوانها عندنا ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لشر الخلائق وأدناهم منزلة، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾. ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمال[1] من ﴿لِمَن﴾ أو اللام بمعنى على، وجمع الضمير باعتبار معنى من، كما أن إفراد المستكن في ﴿يَكْفُرُ﴾ باعتبار لفظها، والبيوت جمع بيت، وهو اسم لمبني مسقف، مدخله من جانب واحد، كما سيأتي في مبحث اللغة ﴿سُقُفًا﴾ متخذة ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ جمع سقف، وهو سماء البيت.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سُقُفًا﴾ بضمتين، كرهن ورهن، قال أبو عبيدة: ولا ثالث لهما، وقرأ أبو رجاء بضم فسكون وهي لغة تميم، وهي أيضاً جمع سقف، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح السين وسكون القاف على الإفراد. وقال الفراء: جمع سقيف كرغيف ورغف وكثيب وكُثُب، وقرىء بفتحتين، كأنه لغة في سقف، وقرىء سقوفاً جمعاً على فعول، نحو: كعب وكعوب، والفضة: جسم ذائب، صابر، منطرق، أبيض رزين، كما سيأتي في مبحث اللغة ﴿وَمَعَارِجَ﴾ معطوف على ﴿سُقُفًا﴾، جمع معرج بفتح الميم وكسرها، بمعنى: السلم، والمعارج: المصاعد، والسلالم، وقرأ الجمهور: ﴿وَمَعَارِجَ﴾ جمع معرج، وطلحة ﴿ومعاريج﴾ جمع معراج، والمعنى: وجعلنا لهم مصاعد ومراقي من فضة، حذف لدلالة الأول عليه. ﴿عَلَيْهَا﴾؛ أي: على المعارج ﴿يَظْهَرُونَ﴾؛ أي: يصعدون إلى العلالي والسطوح ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾؛ أي: وجعلنا لبيوتهم، ولعل تكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير ﴿أَبْوَٰبًا﴾ جمع باب، وهو مدخل الشيء ومخرجه؛ أي: مداخل ﴿وَسُرُرًا﴾ جمع سرير، وهو الذي يجلس عليه أو ينام فيه؛ أي: وجعلنا لبيوتهم أبواباً وسرراً من فضة ﴿عَلَيْهَا﴾؛ أي: على السرر ﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾؛ أي: يعتمدون ويجلسون عليها من الاتكاء، وهو الاعتماد على الشيء والاستناد إليه، وقرأ الجمهور ﴿سُرراً﴾ بضم السين. وقرىء بفتحها، وهي لغة لبعض تميم وبعض كلب، وذلك في جمع فعيل المضعف، إذا كان اسماً باتفاق، وصفةً نحو: ثوب

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

جديد وثياب جدد، باختلاف بين النحاة ذكره في «البحر» ﴿وَزُخْرُفًاۚ﴾ إما معطوف على ﴿سُقُفًا﴾، والزخرف حينئذ بمعنى ما يزين به البيت من أثاث وأمتعة ومواعين كالأواني والمفارش وما يزين به الجدار؛ أي: ولجعلنا لبيوتهم زينةً تزوق بها البيوت من الأثاث والمواعين، أو معطوف على محل ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ فيكون بمعنى الذهب، فيكون أصل الكلام: ولجعلنا لبيوتهم سقفاً من فضة ومن زخرف يعني: بعض السقف من فضة وبعضها من ذهب، فيكون نصبه على هذا بنزع الخافض؛ أي: أبواباً وسرراً من فضة ومن ذهب، فلما حذف الخافض انتصب.

والمعنى[1]: أي ولولا كراهية أن يكون الناس كلهم على ملة الكفر ميلا إلى الدنيا وزخرفها، فلا يبقى في الأرض مؤمن، لأعطينا الكفار ثروات طائلةً، وجعلنا سقف بيوتهم وسلالمهم ومصاعدهم التي يرتقون ويصعدون عليها، وأبواب البيوت والسرر التي يتكئون عليها من فضة خالصة وذهب خالص وزينةٍ ونقوش، فائقة لهوان الدنيا عند الله تعالى.

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ﴾ إن نافية، ولما بالتشديد بمعنى إلا؛ أي: وما كل ذلك المذكور من البيوت الموصوفة بالصفات المفصلة إلا شيء يتمتع به في الحياة الدنيا لا دوام له ولا حاصل إلا الندامة والغرامة، وقرىء بتخفيف لما على أنّ ﴿إن﴾ هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وما صلة، والتقدير: وإن الشأن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا ﴿وَٱلْأَخِرَةُ﴾ بما فيها من فنون النعم التي يقصر عنها البيان حال كونها مدخرة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ كائنةً ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي؛ أي: لمن اتقى الشرك والمعاصي، وآمن بالله وحده، وعمل بطاعته، فإنها الباقية التي لا تفنى ونعيمها الدائم الذي لا يزول.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لَمَا﴾ بفتح اللام وتخفيف الميم، وإن: هي المخففة من الثقيلة، واللام: هي الفارقة بين الإيجاب والنفي، و﴿ما﴾: زائدة، و﴿مَتَٰعُ﴾: خبر ﴿كُلُّ﴾، وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وعيسى وعاصم وحمزة ﴿لمّا﴾

---

(١) التفسير المنير.

(٢) البحر المحيط.

بتشديد الميم، و﴿إن﴾: نافية، و﴿لما﴾ بمعنى إلا، كما مر آنفاً. وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة ﴿لما﴾ بكسر اللام، وخرجوه على أن ﴿ما﴾ موصولة، والعائد محذوف تقديره: للذي هو متاع الحياة الدنيا، كقوله: تماماً على الذي هو أحسن، وإن في هذا التخريج هي المخففة من الثقيلة، وكل مبتدأ وخبره في المجرور؛ أي: وإنه كل ذلك كائن، أو مستقر للذي هو متاع الحياة الدنيا ذكره في «البحر المحيط». وعبارة «المراغي» في معنى هذه الآية؛ أي: ولولا أن يعتقد كثير من الجهلة، أن إعطاءنا المال للكفار دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر ويرغبوا فيه، إذا رأوا سعة الرزق عندهم لجعلنا لبيوتهم سقفاً من فضة، ومصاعد من فضة وسرراً من فضة عليها يتكئون، وزينةً في كل ما يرتفق به من شؤون الحياة.

ثم بين أن هذه المتعة قصيرة الأمد، سريعة الزوال، فهي متاع الحياة الفانية، فقال: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ إلخ؛ أي: وما كل ذلك إلا متاع قصير زائل، والآخرة بما فيها من ضروب النعيم التي لا يحيط بها عد ولا إحصاء، أعدها الله لمن اتقى الشرك والمعاصي، وعمل بطاعته، وآثر الآخرة على الدنيا.

وكذلك لو أعطيت هذه النعم والسرر والأبواب المصنوعة من الذهب والفضة للؤمنين، حتى يصير الناس كلهم مبسوطين، لأخلت بالمقصود من الإيمان؛ لأن الترف والنعيم يحجب العقول عن عالم الروحانيات، والرقي العقلي، فقل من يتخلص من شرك هذه الآفات، فالشهوات والزينة والزخارف للعقول، أشبه بالقاذورات للأجسام، والأجسام القذرة يحوم حولها الذباب، فيلقي فيها بيوضه لتفرخ في القروح والعيون، ويخرج ذباب يعيش من تلك القاذوات، وهكذا النفوس الضعيفة تعيش فيها النفوس المماثلة لها من عالم الشياطين، وتلقي إليها بذور الفساد، فتزرع فيها وتحصدها النفوس خزياً وعاراً في الدنيا والآخرة، وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ...﴾ إلخ.

وأخرج الترمذي وابن ماجه والبغوي والطبراني عن سهل بن سعد رضي الله

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء». ومعنى هوان الدنيا على الله، أنه سبحانه، لم يجعلها مقصودةً لنفسها، بل جعلها طريقاً موصلاً إلى ما هو المقصود لنفسه، وأنه لم يجعلها دار إقامة ولا جزاءٍ، وإنما جعلها دار رحلة وبلاء، وأنه ملّكها في الغالب الجهلة والكفرة، وحماها الأنبياء والأولياء، وأبغضها وأبغض أهلها، ولم يرض العاقل فيها إلا بالتزود للارتحال عنها.

﴿وَمَن يَعْشُ﴾ هذه الآية متصلة بقوله أول السورة: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾، أي: لا نضربه عنكم، بل نواصله لكم، فمن يعش عن ذلك الذكر بالإعراض عنه، إلى تأويل المضلين وأباطيلهم، نقيض له شيطاناً. و﴿يَعْشُ﴾: من عشا يعشو عشاً إذا تعاشى بلا آفة وتعامى؛ أي: نظر نظر العشا، ولا آفة في بصره، والعشا بالفتح والقصر ظلمة تعرض في العين، كما سيأتي. و﴿من﴾ فيه شرطية؛ أي: ومن يتعام عن القرآن ويعرض ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ سبحانه ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ﴾؛ أي: نهيىء له ﴿شَيْطَٰنًا﴾ ونسلطه عليه ونضمه إليه ليستولي عليه استيلاء القيض على البيض، وهو القشر الأعلى اليابس ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: ذلك الشيطان ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك العاشي والمعرض ﴿قَرِينٌ﴾؛ أي: مصاحب وملازم له، لا يفارقه ولا يزال يوسوسه ويغويه، ويزين له العمى على الهدى، والقبيح بدل الحسن، أو هو ملازم للشيطان لا يفارقه، بل يتبعه في جميع أموره، ويطيعه في كل ما يوسوس به إليه، والعشا في العين ضعف البصر، والمراد هنا: عشا البصيرة.

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أراد الله بعبد شراً، قيض له شيطاناً قبل موته بسنة، فلا يرى حسناً إلا قبحه عنده، حتى لا يعمل به، ولا يرى قبيحاً إلا حسنه حتى يعمل به، وينبغي أن يكون هذا الشيطان غير قرينه الجني الكافر، وإلا فكل أحد له شيطان هو قرينه، كما قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة»، قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: «وإياي، ولكن الله أعانني عليه، فأسلم فلا يأمرني إلا بخير» أخرجه مسلم بمعناه.

والمعنى: أي ومن يتعام عن ذكر الله، ويعرض عنه، وينهمك في لذات الدنيا وشهواتها.. نسلط عليه شياطين الإنس والجن، يزينون له أن يرتع في الشهوات، ويلغ في اللذات، فلا يألو جهداً في ارتكاب الآثام، والمحرمات على ما جرت به سنتنا الكونية، كما نسلط الذباب على الأجسام القذرة، ونخلق الحيات والعقارب والحشرات في المحالّ العفنة، لتلطف الجو وترحم الناس والحيوان، وهكذا النفوس الموسوسة للضعفاء توقعهم في الذنوب لاستعدادهم لها، فينالون جزاءهم من عقاب الله وعقوبات البشر واحتقارهم لهم إلى ما ينالهم من الأمراض الفتاكة، والأدواء التي لا يجدي فيها علاج، فيكون ذلك عبرة لهم ولغيرهم، وأنّى لهم أن تنفعهم تلك الذكرى، فقد فات الأوان ولا ينفع الندم على فائت.

نَدِمَ ٱلْبُغَاةُ وَلاَتَ سَاعَةَ مَنْدَمِ ... وَٱلْبَغْيُ مَرْتَعُ مُبْتَغِيْهِ وَخِيْمُ

قال الزجاج: معنى الآية: إن من أعرض عن القرآن، وما فيه من الحكم إلى أباطيل المضلين، يعاقبه الله بشيطان يقيضه له حتى يضله، ويلازمه قريناً له، فلا يهتدي مجازاةً له، حين آثر الباطل على الحق المبين اهـ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ بضم الشين من عشا يعشو كدعا يدعو؛ أي: يتعام بلا آفة في بصره، كعرج بفتح الراء، ويتجاهل عن ذكره وهو يعرف الحق، وقيل: يقل نظره في شرع الله، ويغمض جفونه عن النظر في ذكر الله، والذكر هنا يجوز أن يراد به القرآن، ويحتمل أن يكون مصدراً أضيف إلى المفعول؛ أي: يعش عن أن يذكر الرحمٰن. وقرأ ابن عباس وعكرمة ويحيى بن سلام البصري: ﴿ومن يعش﴾ بفتح الشين، يقال: عشي الرجل يعشى عشياً، من باب رضي إذا عمي وكان في بصره آفة، كعرج بكسر الراء، وقرأ زيد بن علي ﴿يعشو﴾ بالواو. قال الزمخشري: على أن ﴿من﴾: موصولة غير متضمنة معنى الشرط، وحق هذا القارىء أن يرفع ﴿نُقَيِّضْ﴾ انتهى، ولا يتعين ما قاله، بل يصح أن تكون ﴿مَنْ﴾ شرطية، ﴿يعشو﴾ مجزوم بحذف الحركة تقديراً، وقرأ الجمهور:

---

(١) البحر المحيط.

﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ﴾ بالنون. وقرأ السلمي وعلي بن زيد وابن أبي إسحاق ويعقوب وعصمة عن عاصم وعن الأعمش وأبو عمرو بخلاف عنه، والعليمي عن أبي بكر ﴿يقيض﴾ بالياء مبنياً للفاعل؛ أي: يقيض الرحمٰن. وقرأ ابن عباس ﴿يقيض له﴾ بالبناء للمفعول ﴿شيطان﴾ الرفع؛ أي[1]: ييسر له شيطان ويعد له، وهذا عقاب على الكفر بالختم ﴿وَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: وإن الشياطين الذين قيض كل واحد منهم، لكل واحد ممن يعشو ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾؛ أي: ليمنعون قرناءهم، فمدار جمع الضميرين اعتبار معنى من، كما أن مدار إفراد الضمائر السابقة اعتبار لفظها ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: عن الطريق المستبين الذي من حقه أن يسبل، وهو الذي يدعو إليه القرآن ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾؛ أي: والحال أن العاشين يظنون ﴿أَنَّهُم﴾؛ أي: أن الشياطين ﴿مُّهْتَدُونَ﴾؛ أي: إلى السبيل المستقيم؛ أي: يحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم، وإلا لما اتبعوهم، أو يحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة، أنهم في أنفسهم مهتدون، لأن اعتقاد كون الشياطين مهتدين، مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك، لاتحاد مسلكهما.

والمعنى[2]: أي وإن هؤلاء الشياطين، الذين يقيضهم الله سبحانه وتعالى لكل من يعشو عن ذكر الرحمٰن، ليحولن بينهم وبين سبيل الحق، ويوسوسن لهم، أنهم على الجادة، وسواهم على الباطل، فيطيعونهم ويكرهون إليهم الإيمان بالله، والعمل بطاعته.

ثم ذكر حال الكافر مع القرين يوم القيامة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ حتى ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية، ومع هذا غاية لما قبلها، فإن الابتدائية لا تنافيها. والمعنى: يستمر العاشون على ما ذكر من مقارنة الشياطين والصد والحسبان الباطل، حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة، وقرأ أبو جعفر[3] وشيبة وقتادة والزهري والجحدري وأبو بكر والحرميان ـ نافع وابن كثير ـ ﴿حتى إذا جاآنا﴾ على التثنية؛ أي: العاشي والقرين إعادةً على لفظ ﴿من﴾، والشيطان:

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

القرين وإن كان من حيث المعنى صالحاً للجمع. وقرأ الأعمش[1] والأعرج وعيسى وابن محيصن والأخوان ـ حمزة والكسائي ـ ﴿جاءنا﴾ على الإفراد، والضمير عائد على لفظ ﴿من﴾، أعاد أولاً على اللفظ، ثم جمع على المعنى، ثم أفرد على اللفظ، ونظير ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ أفرد أولاً، ثم جمع في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ثم أفرد في قوله: ﴿رِزْقًا﴾.

رُوي: أنهما يجعلان يوم البعث في سلسلة، فلا يفترقان حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار ﴿قَالَ﴾ العاشي الكافر، مخاطباً لشيطانه ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾؛ أي: يا هذا القرين، أتمنى لو كان بيني وبينك في الدنيا بعد كالبعد الذي بين المشرق والمغرب، حتى لا تصدني عن سبيل الله سبحانه، أو تمنى ذلك في الآخرة وهو الظاهر؛ لأنه جواب إذا التي للاستقبال؛ أي: بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق، فغلب المشرق فثناهما، كما قالوا: العمران في أبي بكر وعمر، والقمران في الشمس والقمر، واختار تغليب المشرق على المغرب لمناسبة الشيطان؛ لأنه حيث يطلع قرن الشيطان، كما في الحديث الصحيح. وقال مقاتل: أي مشرقي الشمس، مشرقها في أقصر يوم من السنة، ومشرقها في أطول يوم من السنة، قاله ابن السائب أيضاً، يعني: أن بينهما بعد مشرق أطول يوم في السنة، من مشرق أقصر يوم في السنة، والأول[2] أولى، وبه قال الفراء ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾؛ أي: الصاحب المقارن لي، والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: أنت أيها الشيطان.

والمعنى[3]: أي يستمر العاشون على ما ذكر من مقارنة الشياطين، حتى إذا وافى الكافر يوم القيامة إلينا، وعرض عليها، أعرض عن قرينه، الذي وكل به، وتبرأ منه، وقال: ليت بيني وبينك بعد ما بين المشرق والمغرب، فبئس القرين، أنت أيها الشيطان؛ لأنك قد أضللتني وأوصلتني إلى هذا العذاب المهين،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

والخزي الدائم، والعيش الضنك، والمحل المقض المضجع.

ثم حكى ما سيقال لهم حينئذ، توبيخاً وتأنيباً، فقال: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: في هذا اليوم، يعني: يوم القيامة، فهو حكاية لما سيقال لهم حينئذ، من جهة الله تعالى، توبيخاً وتقريعاً؛ أي: لن ينفعكم اليوم تمنيكم لمباعدتهم ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾؛ أي: لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا، باتباعكم إياهم في الكفر والمعاصي، وإذ للتعليل، متعلق بالنفي، كما قال سيبويه، إنها بمعنى التعليل، حرف بمنزلة لام العلة ﴿إِنَّكُمْ﴾؛ أي: أنتم وشياطينكم ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ تعليل لنفي النفع؛ أي: لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وشياطينكم القرناء في العذاب، كما كنتم في الدنيا مشتركين في سببه، ويؤيد هذا المعنى قراءة ابن عامر، على اختلاف عليه فيها، بكسر همزة ﴿إنّ﴾. وقرأ الجمهور: بفتح همزة ﴿أنّ﴾ على أنها وما بعدها في محل رفع على الفاعلية لينفعكم؛ أي: لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب، بمعنى لن يحصل لكم التشفي، بكون قرنائكم معذبين مثلكم، حيث كنتم تدعون عليهم بقولكم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾، ونظائره: لتشفوا بذلك، قال المفسرون: لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب؛ لأن لكل أحد الكفار والشياطين الحظ الأوفر منه.

وفي الآية[1]: إشارة إلى حال التابع والمتبوع، من أهل الأهواء والبدع، فإن المتبوع منهم، كان شيطان التابع في الإضلال عن طريق السنة، فلما فات الوقت وأدرك المقت، وقعوا في التمني الباطل، قيل:

فَضِّلِ ٱلْيَوْمَ عَلَىٰ ٱلْغَدِ   إِنَّ لِلتَّأْخِيرِ آفَاتِ

فعلى العاقل تدارك حاله وتفكر مآله، والهرب من الشيطان الأسود والأبيض، قبل أن يهرب هو منه.

ومعنى الآية: أي[2] ولن ينفعكم في هذا اليوم اشتراككم في العذاب، أنتم

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وقرناؤكم، كما كان ينفع في الدنيا الاشتراك في المهام الدنيوية، إذ يتعاونون في تحمل أعبائها، ويتقاسمون شدتها وعناءها، فإن لكل منهم من العذاب ما لا تبلغه طاقته ولا قدرة له على احتماله

وقد يكون المعنى: ولن ينفعكم ذلك من حيث التأسي، فإن المكروب في الدنيا يتأسى ويستروح بوجدان المشارك في البلوى، فيقول أحدهم: لي في البلاء والمصيبة أسوة، فيسكن ذلك من حزنه، كما قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً:

يُذَكِّرُنِيْ طُلُوْعُ ٱلشَّمْسِ صَخْرَا ... وَأَذْكُرُهُ بِكُلِّ مَغِيْبِ شَمْسِ
فَلَوْلاَ كَثْرَةُ ٱلْبَاكِيْنَ حَوْلِيْ ... عَلَىٰ إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِيْ
وَمَا يَبْكُوْنَ مِثْلَ أَخِيْ وَلَكِنْ ... أُعَزِّيْ ٱلنَّفْسَ عَنْهُ بِٱلتَّأَسِّيْ

وقصارى ذلك: أنه لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب، إذ لكل منهم الحظ الأوفر منه، وقد يكون المعنى: ولن ينفعكم اليوم الاعتذار والندم، فأنتم وقرناؤكم مشتركون في العذاب، كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا، ولما وصفهم فيما سلف بالعشى، وصفهم هنا بالعمىٰ والصمم، من قبل أن الإنسان لاشتغاله بالدنيا يكون كمن حصل بعينه ضعف في البصر، وكلما زاد انهماكه فيها، كان ميله إلى الجسمانيات أشد، وإعراضه عن الروحانيات أكمل، فقال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ الهمزة فيه للاستفهام الإنكاري التعجبي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام. والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أأنت تتعب نفسك يا محمد، في دعاء قومك إلى التوحيد، فأنت تسمع الحق الصم؛ أي: الذين تصامّوا عن سماعه ﴿أَوْ تَهْدِى﴾ وترشد إلى الحق ﴿ٱلْعُمْىَ﴾؛ أي: الذين تعاموا عن إبصاره ﴿و﴾ تهدي ﴿من كان في ضلال مبين﴾؛ أي: بين لا يخفى على أحد؛ أي: ومن كان في علم الله، أنه يموت على الضلالة، فهو معطوف على العمى، باعتبار تغاير الوصفين؛ أي: أنت لا تسمعهم؛ أي: لا ينتفعون بسماعك، يشير[1] إلى أن من سددنا بصيرته، ولبسنا عليه رشده، ومن

(١) روح البيان.

صببنا في مسامع قلبه رصاص الشقاء والحرمان، لا يمكنك يا محمد مع كمال نبوتك هدايته، وإسماعه من غير عنايتنا السابقة، ورعايتنا اللاحقة، وكان ﷺ يتعب نفسه في دعاء قومه، وهم لا يزيدون إلا غياً وتعامياً عما يشاهدونه من شواهد النبوة، وتصامّاً عما يسمعونه من بينات القرآن، فنزلت الآية، وهو إنكار تعجيب، من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم، بعد تمرنهم على الكفر، واستغراقهم في الضلال، بحيث صار عشاهم عمى مقروناً بالصمم، فنزل منزلة من يدعي أنه قادر على ذلك لإصراره على دعائهم قائلاً: أنا أسمع وأهدي، على قصد تقوي الحكم، لا التخصيص، فعجب تعالى منه.

ومدار الإنكار هو التمكن والاستقرار في الضلال المفرط، بحيث لا ارعواء له عنه، لا توهم القصور من قبل الهادي، ففيه رمز إلى أنه لا يقدر على ذلك إلا الله وحده بالقسر والإلجاء، يعني: لا يقدر على إسماع الصم وهداية العمي، وجعل الكافر مؤمناً إلا الله وحده، لعظم قدرته وإحاطة تعلقها بكل مقدور.

ومعنى الآية: أي أفأنت[1] تسمع من قد سلبهم الله استماع حججه التي ذكرها في كتابه، أو تهدي إلى طريق الحق، من أعمى قلوبهم عن أبصارها، واستحوذ عليهم الشيطان، فزين لهم طريق الردى.

والخلاصة: أن ذلك ليس إليك إنما ذلك إلى من بيده تصريف القلوب، وتوجيهها إلى حيث شاء، فعليك البلاغ وعلينا الحساب.

وبعد أن أيأسه من إيمانهم، سلاه بالانتقام منهم لأجله، إما حال حياته، أو بعد مماته، فقال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أصله[2]: إن ما على أن ﴿إن﴾ للشرط و﴿ما﴾ مزيدة للتأكيد، بمنزلة لام القسم في استجلاب النون المؤكدة؛ أي: فإن قبضناك وأمتناك يا محمد، وأذهبناك من الدنيا، قبل أن نبصرك عذابهم، ونشفي بذلك صدرك، وصدر المؤمنين ﴿فَإِنَّا مِنْهُم﴾؛ أي: من هؤلاء المشركين ﴿مُّنتَقِمُونَ﴾ لا محالة في الدنيا والآخرة ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ﴾ أو إن أردنا أن

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

نريك العذاب الذي وعدناهم ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ لا يفوتوننا، لأنهم تحت قهرنا وقدرتنا. وفي الآية تسلية النبي ﷺ، بأنه تعالى ينتقم من أعدائه ومنكريه، إما في حال حياته، وإما بعد مماته، وإنه قادر على انتقامهم بواسطته كما كان في يوم بدر، أو بغير واسطة، كما كان في زمن أبي بكر - رضي الله عنه وغيره. وقرىء ﴿نرينك﴾ بالنون الخفيفة.

ومعنى الآية[1]: أي فإن نذهب بك أيها الرسول من بين أظهر المشركين، بموت أو غيره، فإنا منهم منتقمون، كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأمم، المكذبة لرسلها، أو نرينك الذي وعدناك من الظفر بهم، وعلائك عليهم، فإنا عليهم مقتدرون، فنظهرك عليهم، ونخزيهم بيديك، وأيدي المؤمنين، وفي التعبير بالوعد، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، إشارة إلى أن ذلك سيقع حتماً، وهكذا كان، فإنه لم يقبض رسوله ﷺ حتى أقر عينيه من أعدائه، وحكمه في نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيهم، قاله السدي، واختاره ابن جرير.

ثم أمر رسوله ﷺ أن يستمسك بما أوحى به إليه، فيعمل به، فقال: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾ يا محمد ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: تمسك بالقرآن الذي أنزل عليك بمراعاة أحكامه، وإن كذب به من كذب، سواء عجلنا لك الموعود، أو أخرناه إلى يوم الآخرة ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: طريق سوي لا عوج له، وهو طريق التوحيد ودين الإسلام، والجملة تعليل لقوله: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾.

وفي «التأويلات النجمية»: فاعتصم بالقرآن، فإنه حبل الله المتين، بأن تتخلق بخلقه وتدور معه حيث يدور، وقف حيث ما أمرت، وثق بربك فإنك على صراط مستقيم، تصل به إلى حضرة جلالنا ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإن هذا القرآن الذي أوحي إليك ﴿لَذِكْرٌ﴾؛ أي: لشرف عظيم ﴿لَّكَ﴾ خصوصاً ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾؛ أي: لأمتك عموماً كما قال عليه السلام: «إن لكل شيء شرفاً يباهى به، وإن أمتي تباهي وشرفها القرآن»

(١) المراغي.

فالمراد بالقوم[1]: الأمة، كما قال مجاهد، وقال بعضهم: ولقومك من قريش حيث يقال: إن هذا الكتاب العظيم، أنزله الله على رجل من هؤلاء، قال في «الكواشي»: أولاهم بذلك الشرف الأقرب، فالأقرب منه ﷺ، كقريش، ثم بني هاشم، وبني المطلب. قال ابن عطاء: شرف لك بانتسابك إلينا، وشرف لقومك بانتسابهم إليك؛ أي: لأن الانتساب إلى العظيم عظم، وإلى الشريف شرف.

ثم جمع الله النبي ﷺ مع قومه فقال: ﴿وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ يوم القيامة عنه وعن قيامكم بحقوقه، وعن تعظيمكم وشرككم على أن رزقتموه، وخصصتم به من بين العالمين. وقال القرطبي والصحيح: أنه شرف لمن عمل به كان من قريش، أو من غيرهم، انتهى.

ومعنى الآية[2]: أي فخذ يا محمد بهذا القرآن، المنزل على قلبك، فإنه هو الحق المفضي إلى الصراط المستقيم، والموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم، وإنه لشرف عظيم لك، ولقومك؛ لأنه نزل بلغتهم على رجل منهم، فهم أفهم الناس به، فينبغي أن يكونوا أسبق الناس إلى العمل به، وسوف تسألون يوم القيامة عن حقه، وأداء شكر النعمة فيه.

أخرج الطبراني وابن مردويه عن عدي بن حاتم قال: كنت قاعداً عند النبي ﷺ فقال: «ألا إن الله تعالى، علم ما في قلبي من حبي لقومي، فبشرني فيهم»، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ الآية، فجعل الذكر والشرف لقومي، إلى أن قال: «فالحمد للّه الذي جعل الصديق من قومي، والشهيد من قومي، وإن الله قلب العباد ظهراً وبطناً، فكان خير العرب قريش، وهي الشجرة المباركة». ثم قال عدي: ما رأيت رسول الله ﷺ ذكرت عنده قريش بخير، إلا سره، حتى يتبين ذلك السرور في وجهه للناس كلهم اهـ.

ونظير الآية، قوله في سورة الأنبياء: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

أي: شرفكم، فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خاطب، فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم، وصاروا عيالاً عليهم، حتى يقفوا على معانيه من أمر ونهي، وأنباء وقصص، وحكمة وأدب.

وروى الترمذي عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش، لا ينازعهم فيه أحد، إلا أكبه الله تعالى على وجهه، ما أقاموا الدين». وفي الآية، إيماء إلى أن الذكر الجميل، والثناء الحسن، أمر مرغوب فيه، ولولا ذلك ما امتن الله على نبيه محمد ﷺ به، ولما طلبه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ وقال ابن دريد:

إِنَّمَا ٱلْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ ... كُنْ حَدِيْثاً حَسَناً لِمَنْ وَعَىٰ

وقال المتنبي:

ذِكْرُ ٱلْفَتَىٰ عُمْرُهُ ٱلثَّانِيْ وَحَاجَتُهُ ... مَا قَاتَهُ وَفُضُوْلُ ٱلْعَيْشِ أَشْغَالُ

وخلاصة ما سلف: أن القرآن نزل بلغة العرب، وقد وعد الله بنشر هذا الدين، وأبناء العرب هم العارفون بهذه اللغة، فهم الملزمون بنشرها، ونشر هذا الدين للأمم الأخرى، فمتى قصروا في ذلك، أذلهم الله تعالى في الدنيا، وأدخلهم النار في الآخرة، فعسى أن يقرأ هذا أبناء العرب، ويعلموا أنهم هم المعلمون للأمم، فينشروا هذا القرآن، ويكتبوا المصاحف باللغة العربية، ويضعوا على هوامشها تفاسير بلغات مختلفة، كالإنجليزية والألمانية والروسية والأرومية، تعرِّف الأمم كلها هذا الدين، معرفةً حقةً خاليةً من الخرافات، التي ألصقها به المبتدعون ويعود سيرته الأولى، وما ذلك على الله بعزيز.

ثم وبخ مشركي قريش، بأن ما هم عليه من عبادة الأوثان والأصنام، لم يأت في شريعة من الشرائع فقال: ﴿وَسْئَلْ﴾ يا محمد ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ في محل النصب على أنه مفعول ﴿اسأل﴾، وهو على حذف المضاف. لاستحالة السؤال من الرسل حقيقةً، والمعنى: واسأل أمم من أرسلنا ﴿مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ وعلماء دينهم.

وفائدة هذا المجاز: التنبيه على أن المسؤول عنه، عين ما نطقت به ألسنة الرسل، لا ما يقوله أممهم وعلماؤهم من تلقاء أنفسهم ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾؛ أي: هل حكمنا بعبادة الأوثان، وهل جاءت في ملة من مللهم، والمراد به: الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه، حتى يكذب ويعادى له، فإنه أقوى ما حملهم على التكذيب والمخالفة.

قال ابن الشيخ: السؤال يكون لرفع الالتباس، ولم يكن رسول الله يشك في ذلك، وإنما الخطاب له والمراد غيره، قالت عائشة رضي الله عنها: لما نزلت هذه الآية، قال ﷺ: «ما أنا بالذي أشك، وما أنا بالذي أسأس».

والمعنى(١): أي واسأل أمم من أرسلنا من قبلك من الرسل، هل حكمنا بعبادة غير الله؟ وهل جاء ذلك في ملة من الملل، أو المراد بهذا الاستشهاد بيان إجماع المسلمين على التوحيد، والتنبيه على أن محمداً ﷺ ليس ببدع من بين الرسل في الأمر، حتى يكذب ويعادى له؟

وقصارى ذلك: أن الرسل جميعاً دعوا إلى ما دعا إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام، ونحو الآية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾. وجعل الزمخشري السؤال في الآية مجازاً على النظر في أديانهم، والفحص عن مللهم، على أنه نظير قولهم: سل الأرض من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك.

وللآية وجه آخر(٢)، بحملها على ظاهرها من غير تقدير مضاف، وهو ما روى أنه ﷺ، لما أُسري به إلى المسجد الأقصى، حشر إليه الأنبياء، والمرسلون من قبورهم، ومثلوا له، فأذّن جبرائيل، ثم أقام، وقال: يا محمد تقدم فصل بإخوانك الأنبياء والمرسلين، فلما فرغ من الصلاة، قال له جبرائيل: زعمت قريش، أن لله شريكاً، وزعمت اليهود والنصارى، أن لله ولداً، سل يا محمد، هؤلاء النبيين، هل كان لله شريك؟ ثم قرأ ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الآية، فقال ﷺ: لا أسأل، وقد اكتفيت، ولست بشاكّ فيه، فلم يشك فيه، ولم يسأل، وكان أثبت يقيناً من ذلك.

قال أبو القاسم، المفسر في كتاب «التنزيل» له: إن هذه الآية أنزلت على النبي ﷺ ببيت المقدس، ليلة المعراج، فلما أنزلت وسمعها الأنبياء عليهم السلام، أقروا لله تعالى بالوحدانية، وقالوا: بعثنا بالتوحيد، انتهى.

قصة موسى عليه السلام مع فرعون اللعين

ولما أعلم سبحانه نبيه بأنه منتقم له من عدوه، وذكر اتفاق الأنبياء على التوحيد، أتبعه بذكر قصة موسى وفرعون، وبيان ما نزل بفرعون وقومه من النقمة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد بعثنا موسى بن عمران عليه السلام، حال كونه متلبساً ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ ومعجزاتنا التسع الدالة على صحة نبوته ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ اللعين ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾؛ أي: أشراف قومه، والإرسال إلى الأشراف إرسال إلى الأراذل؛ لأنهم تابعون لهم ﴿فَقَالَ﴾ موسى لهم ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليكم فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ موسى ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ ليسعدوا وينتهوا وينتفعوا بها، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ مرتب على محذوف، تقديره: فطلبوا منه الآيات الدالة على صدقه، فلما جاءهم إلخ، كما يدل عليه ما في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ﴾ إلخ. ﴿إِذَا﴾ فجائية رابطة لجواب لما الشرطية ﴿هُم مِّنْهَا﴾؛ أي: من تلك الآيات ﴿يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بها، ويسخرون منها، ويهزؤون بها؛ أي: فاجؤوا المجيء بها بالضحك، سخرية من غير توقف، ولا تأمل، وإذا هنا حرف فجأة لا ظرف، كما زعمه الزمخشري؛ أي: استهزؤوا بها، وكذبوها أول ما رأوها، ولم يتأملوا فيها، وقالوا: سحر وتخييل ظلماً وعلواً.

والمعنى[1]: أي فلما جاءهم موسى بالأدلة على صدق قوله، فيما يدعوهم إليه من توحيد الله، وترك عبادة الآلهة، إذا فرعون وقومه يضحكون من تلك

---

(١) المراغي.

المعجزات، كما أن قومك يسخرون مما جئتهم به، وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ على، ما كان يلقاه من قومه المشركين، وإعلام له بأن قومه لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم، الذين كانوا على منهاجهم في الكفر بالله، وتكذيب رسله، وندب له أن يستن بسنة أولي العزم من الرسل، في الصبر على أذى أقوامهم، وتكذيبهم لهم، وإخبار بأن عقبى أمرهم الهلاك، كسنته في الكافرين قبلهم، وظفره بهم، وعلو أمره، كما فعل بموسى عليه السلام وقومه، الذين آمنوا معه من إظهارهم على فرعون وملئه.

﴿وَمَا نُرِيهِم﴾؛ أي: وما أرينا فرعون وملأه ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من تلك الآيات؛ أي: حجة من حججنا الدالة على صدق رسولنا في دعواه الرسالة ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾؛ أي: إلا كانت أعظم من سابقتها في الحجية عليهم، وآكد في الدلالة على صحة ما يأمر به من توحيد الله؛ أي: كل واحدة من آيات موسى أكبر مما قبلها، وأعظم قدراً، مع كون التي قبلها عظيمة في نفسها.

وقيل المعنى[1]: إن الأولى تقتضي علماً، فإذا ضمت الثانية إلى الأولى ازداد الوضوح، ومعنى الأخوة بين الآيات: أنها متشاكلة متناسبة في دلالتها على صحة نبوة موسى، كما يقال: هذه صاحبة هذه؛ أي: هما قرينتان في المعنى، وقيل: المعنى أن كل واحدة من الآيات إذا انفردت ظن الظان أنها أكبر من سائر الآيات، ومثل هذا: قول القائل:

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ   مِثْلُ ٱلنُّجُوْمِ ٱلَّتِيْ يَسْرِيْ بِهَا ٱلسَّارِيْ

وجملة قوله: ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ في محل جر، صفة لـ﴿ءَايَةٍ﴾.

ثم بين ما جوزوا به على تكذيبهم، فقال: ﴿وَأَخَذْنَاهُم﴾؛ أي: أخذنا فرعون وقومه ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ وعاقبناهم بالسنين، والطوفان والجراد والدم والطمس ونحوها، وكانت هذه الآيات دلالات ومعجزات لموسى، وزجراً وعذاباً للكافرين ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: لكي يرجعوا[2] عما هم عليه من الكفر، فإن من جهولية نفس

---

(١) الشوكاني.   (٢) روح البيان.

الإنسان، أن لا يرجع إلى الله على أقدام العبودية، إلا أن يجر بسلاسل البأساء والضراء إلى الحضرة الإلٰهية، فكلمة لعل، مستعارة لمعنى كي، وهو التعليل كما سبق في أول هذه السورة؛ أي: عاقبناهم بالعذاب لكي يرجعوا عما هم عليه من الكفر إلى الإيمان بالله وطاعته، والتوبة مما هم عليه مقيمون من المعاصي، ولما عاينوا ما جاءهم به من الآيات البينات، والدلالات الواضحات، ظنوا أن ذلك من قبيل السحر ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: فرعون وقومه في كل مرة من العذاب، لما ضاق نطاق بشريتهم ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ نادوه بذلك في مثل تلك الحالة؛ أي: عند طلب كشف العذاب بدعائه، لغاية عتوهم وغاية حماقتهم، أو سبق ذلك إلى لسانهم، على ما ألفوه من تسميتهم إياه بالساحر لفرط حيرتهم، قال سعدي المفتي: والأظهر: أن النداء كان باسمه العلم، كما في الأعراف، لكن حكى الله تعالى هنا كلامهم لا بعبارتهم، بل على وفق ما أضمرته قلوبهم، من اعتقادهم أنه ساحر، لاقتضاء مقام التسلية ذلك، فإن قريشاً أيضاً سموه ساحراً، وسموا ما أتى به سحراً، وعن الحسن قالوه على الاستهزاء، وقال بعضهم: قالوه تعظيماً، فإن السحر كان عندهم علماً عظيماً، وصفةً ممدوحةً والساحر فيهم عظيم الشأن، فكأنهم قالوا: يا أيها العالم بالسحر الكامل، الحاذق فيه، ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ليكشف عنا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾؛ أي: بسبب ما أخبرتنا من عهده إليك، أنا إن آمنا به كشفه عنا، أو بعهده عندك، وهو النبوة، فإن النبوة تسمى عهد الله، والباء حينئذ للقسم؛ أي: ادع الله بحق ما عندك من النبوة، أو بما عهده عندك من استجابة دعوتك في كل شيء.

قال في «التأويلات النجمية»: ما قالوا مع هذا الاضطرار: يا أيها الرسول، وما قالوا: ادع لنا ربنا؛ لأنهم ما رجعوا إلى الله بصدق النية، وخلوص العقيدة. ليروه بنور الإيمان رسولاً، ويروا الله ربهم، وإنما رجعوا بالاضطرار لخلاص أنفسهم، لا لخلاص قلوبهم ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾؛ أي: لمؤمنون على تقدير كشف العذاب عنا بدعوتك وعد منهم، معلق بشرط الدعاء، ولهذا تعرضوا للنبوة على تقدير صحتها، وقالوا: ربك، لا ربنا، فإنه إنما يكون ربهم بعد الإيمان؛ لأنهم قائلون بربوبية فرعون.

وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ مرتب على محذوف تقديره: فدعا موسى ربه فكشف عنهم العذاب، فلما كشفنا وأزلنا عنهم العذاب النازل بهم ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾؛ أي: فاجؤوا نقض عهدهم بالاهتداء، وهو الإيمان؛ أي: بادروا النكث ولم يؤخروه، وعادوا إلى كفرهم، وأصروا عليه، ولما نقضوا عهودهم صاروا ملعونين، ومن آثار لعنهم الغرق كما يأتي، فعلى العاقل الوفاء بالعهد، وقرأ أبو حيوة ﴿ينكثون﴾ بكسر الكاف.

والمعنى: فدعانا موسى فكشفنا عنهم العذاب فلم يؤمنوا، ونقضوا العهد، وقد كان هذا ديدنهم مع موسى، يعدونه في كل مرة أن يؤمنوا به، إذا كشف الرجز، ثم ينقضون ما عاهدوا الله عليه، ونحو الآية: ما جاء في سورة الأعراف من قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

ثم أخبر سبحانه، عن تمرد فرعون وعتوه وعناده، فقال: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه، أو بمناد أمره بالنداء ﴿فِي قَوْمِهِ﴾؛ أي: في مجمعهم وفيما بينهم، بعد أن كشف العذاب عنهم، مخافة أن يؤمنوا فـ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ يريد الأقباط ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ الهمزة فيه للاستفهام التقريري. لا ينازعني فيه أحد، ولا يخالفني مخالف، وهي أربعون فرسخاً في أربعين، وفي «فتح الرحمٰن»: وهو من نحو الإسكندرية إلى أسوان بطول النيل، وأسوان بالضم، بلد بصعيد مصر، كما في «القاموس». قال في «روضة الأخبار»: مصر بلدة معروفة، بناها مصر بن حام بن نوح، وبه سميت مصر مصراً.

﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: أنهار[1] النيل، فاللام عوض عن المضاف إليه، والمراد بها: الخلجان الكبار الخارجة من النيل، ومعظمها أربعة أنهر، نهر

---

(١) روح البيان.

الملك وهو نهر الإسكندرية، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تنيس، وهو بوزن سكين بلدة بجزيرة من جزائر بحر الروم، قرب دمياط، ينسب إليها الثياب الفاخرة، كما في «القاموس» ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾؛ أي: من تحت قصري، أو بأمري، والواو في قوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إما عاطفة لهذه الأنهار على ملك، فجملة ﴿تَجْرِي﴾ حال منها، أو ﴿الواو﴾ للحال، فـ﴿هذه﴾ مبتدأ و﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفتها، و﴿تَجْرِي﴾ خبر للمبتدأ.

قال في «خريدة العجائب»: ليس في الدنيا نهر أطول من النيل؛ لأن مسيرته شهران في الإسلام، وشهران في الكفر، وشهران في البرية، وأربعة أشهر في الخراب، ومخرجه من بلاد جبل القمر، خلف خط الاستواء، وسمي جبل القمر؛ لأن القمر لا يطلع عليه أصلاً، لخروجه عن خط الاستواء، وميله عن نوره، وضوءه يخرج من بحر الظلمة؛ أي: البحر الأسود، ويدخل تحت جبل القمر، وليس في الدنيا نهر يشبه النيل إلا نهر مهران، وهو نهر السند، وقال الضحاك[1]: أراد بالأنهار القوّاد والرؤساء والجبابرة، وأنهم تحت لوائه، وقيل: أراد بالأنهار الأموال، والأول أولى؛ لأن هذين التفسيرين يشبهان تفسير الباطنية، والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتتعامون فلا تبصرون عظمتي وقدرتي، وعجز موسى، و﴿أم﴾ في قوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ منقطعة، تقدر ببل الإضرابية، وبهمزة الاستفهام التقريري؛ لأن غرضه حملهم على الإقرار بخيريته، كأنه قال إثر ما عدد أسباب فضله، ومبادىء خيريته، أَثَبَت عندكم واستقر لديكم، أني أنا خير من هذا الذي هو مهين؛ أي: بل أنا خير ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ الساحر ﴿ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾؛ أي: ضعيف، حقير، فقير، ذليل، لا قدر ولا ملك له، من المهانة، وهي الذلة ﴿وَلَا يَكَادُ﴾؛ أي: لا يقرب ﴿يُبِينُ﴾ الكلام، ويوضحه ويبينه للكنة، ورتة في لسانه، فكيف يصلح للنبوة والرسالة، يريد أنه ليس معه من آيات الملك والسياسة، ما يعتضده ويتقوى به، كما قالت

---

(١) الشوكاني.

قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وهو في نفسه، خال عما يوصف به الرجال من الفصاحة والبلاغة، وكان الأنبياء كلهم فصحاء بلغاء، قاله افتراءً على موسى، وتنقيصا له في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من نوع رتة، حدثت بسبب الجمرة، وقد كانت ذهبت عنه لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ والرتة: غير اللثغة، وهي حبسة في اللسان، تمنعه من الجريان، وسلاسة التكلم، واللثغة: إبدال حرف بحرف، كإبدال الراء غيناً، والسين ثاء مثلثة. وفي «التأويلات النجمية»: تشير الآية، إلى أن من تعزز بشيء من دون الله، فحتفه وهلاكه في ذلك الشيء، فلما تعزز فرعون بملك مصر، وجري النيل بأمره، كان فيه هلاكه، وكذلك من استصغر أحداً سلط عليه، كما أن فرعون استصغر موسى عليه السلام وحديثه، وعابه بالفقر واللكنة، فقال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾، فسلطه الله عليه، وكان هلاكه على يديه، وفيه إشارة أخرى، وهي أن قوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾، هو من خصوصية صفة إبليس، فكانت هذه الصفة توجد في فرعون، وكان من صفة فرعون قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ولم توجد هذه الصفة في إبليس، وقرأ الباقر ﴿يبين﴾ بفتح الياء، من بان إذا ظهر.

والمعنى(١): أي بل أنا ولا شك خير وأفضل بما لي من الملك والسلطة والسعة والجاه من هذا؛ أي: من موسى الذي هو ضعيف، حقير ممتهن في نفسه، لا عز له، ولا يكاد يبين الكلام، ويفصح عما يريد، لما في لسانه من العقدة بسبب الجمرة، وهذا حكم عليه بما يعلم منه في الماضي، دون أن يعلم أن الله الكريم، أزال عنه عقدته حين دعاه، فقال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ فحل عقدة لسانه، كما جاء في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

قال الحسن البصري: إنه قد بقي منها شيء لم يسأل زواله، وإنما سأل زوال ما يمنع الإبلاغ والإفهام اهـ. والأشياء الخلقية لا يعاب بها المرء ولا يذم،

---

(١) المراغي.

لكنه أراد الترويج على رعيته، وصدهم عن الإيمان به.

ثم ذكر شبهةً مانعة له من الرياسة، وهي أنه لا يلبس لبس الملوك، فلا يكون رئيساً ولا رسولاً لتلازمهما في زعمه، فقال: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ قاله توبيخاً[1] ولوماً على ترك الفعل، على ما هو مقتضى حرف التحضيض، الداخل على الماضي، والأسورة جمع سوار بالكسر والضم، وهو ما يلبس في الساعد، والذهب جسم ذائب صاف، منطرق، أصفر، كما سيأتي.

والمعنى: فهلا أُلقي على موسى، وأُعطي مقاليد الملك، إن كان صادقاً في مقالته في رسالته، فيكون حاله خيراً من حالي، والملقي هو رب موسى من السماء، وإلقاء الأسورة كناية عن إلقاء مقاليد الملك؛ أي: أسبابه التي هي كالمفاتيح له، وكانوا إذا سودوا رجلاً سوروه بسوارين، وطوقوه بطوق من ذهب علما على رياسته، ودلالة لسيادته؛ أي: فهلا ألقى رب موسى عليه أساور من ذهب، فيتحلى بها إن كان صادقاً، في أن له رباً أرسله إلينا، كما جرت عادتهم بذلك، وهذا شبيه بما قال كفار قريش في عظيم القريتين.

وقرأ الضحاك[2]: ﴿فلولا ألقى﴾: مبنيا للفاعل؛ أي: الله ﴿أساورة﴾: بالنصب، وقرأ الجمهور: ﴿أساورة﴾: بالرفع. وقرأ أبي وعبد الله: ﴿أساوير﴾ جمع إسوار، لغة في سوار، وقرأ الحسن وقتادة وأبو رجاء والأعرج ومجاهد وأبو حيوة وحفص: ﴿أَسْوِرَةٌ﴾ جمع سوار، نحو: خمار وأخمرة، وقرأ الأعمش ﴿أساور﴾، ورويت عن أبي وعن أبي عمرو.

ثم ذكر شبهةً أخرى، وهي أنه ليس له خدم من الملائكة تعينه، فقال: ﴿أَوْ﴾ هلا ﴿جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾؛ أي: حالة كونهم متقارنين متتابعين، أو مقرونين بموسى منضمين إليه: إن كان صادقاً يعينونه على أمره، ويشهدون له بالنبوة، ويمشون معه، كما نفعل نحن، إذا أرسلنا رسولاً في أمر هام يحتاج إلى دفاع، وفيه خصام ونزاع، وهو بهذا، أوهم قومه أن الرسل لا بدّ أن يكونوا على

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

هيئة الجبابرة، أو يكونوا محفوفين بالملائكة.

ثم ذكر أن هذه الخدع قد غلبت عليهم، و سحرت ألبابهم لغفلتهم، وضعف عقولهم، فاعترفوا بربوبيته، وكذبوا بنبوة موسى، فقال: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾؛ أي: فاستجهل قومه، واستحمق عقولهم بقوله وكيده، وبما أبداه لهم من عظمة الملك والرياسة، وجعلها مناطاً للعلم والنبوة، وأنه لو كانت هناك نبوة، لكان هو أولى بها ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: فامتثلوه فيما أمرهم به من تكذيب موسى وإقرار ربوبيته، وجملة قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾؛ أي: خارجين عن طاعة الله تعالى، تعليل لطاعتهم له؛ أي: أطاعوه فيما أمرهم به؛ لأنهم كانوا قوماً ذوي فسق وضلال وغي، ومن ثم أسرعوا إلى تلبية دعوة ذلك الفاسق، الغوي، اللعين.

ثم ذكر جزاءهم على ما اجترحوا من تكذيب رسوله، على وضوح الدليل، وظهور الحق، فقال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾؛ أي: أغضبونا بعنادهم وعظيم استكبارهم، وبغيهم في الأرض، والأسف محركاً: الغضب، وقيل: أشد الغضب، وقيل: السخط[1]، وحقيقته ثوران دم القلب إرادة الانتقام، فمتى كان ذلك على من دونه، انتشر فصار غضباً، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزناً.

والمعنى: فلما أغضبنا فرعون وقومه أشد الغضب، بالإفراط في العناد والعصيان، وغضب الله نقيض الرضى، أو إرادة الانتقام، أو تحقيق الوعيد، أو الأخذ الأليم، أو البطش الشديد، أو هتك الأستار والتعذيب بالنار، أو تغيير النعمة، وقيل: المعنى: أغضبوا رسولنا موسى عليه السلام. بتكذيبه وعدم طاعته ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: أردنا أن نعجل لهم انتقامنا وعذابنا، وأن لا نحلم عنهم، وفي «كشف الأسرار»: أحللنا بهم النقمة والعذاب ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ في «البحر»، تفسير للانتقام؛ أي: فأهلكناهم المطاع والمطيعين له ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بالإغراق في

---

(١) روح البيان.

اليم، لم نترك منهم أحداً، وإنما أهلكوا بالغرق ليكون هلاكهم بما تعززوا به، وهو الماء في قوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾.

أخرج أحمد والطبراني والبيهقي في «الشعب»، وابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه.. فإنما ذلك استدراج منه له»، وقرأ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾؛ أي: قدوة لمن عمل بعلمهم من الكفار، في استحقاق العذاب ككفار قومك.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿سَلَفًا﴾ بفتح السين واللام جمع سالف، كخدم وخادم وحرس وحارس، يعني: اسم جمع له؛ لأن فَعَلاً ليس من أبنية الجموع المكسرة، قال ابن عباس وزيد بن أسلم وقتادة؛ أي: جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون. وقرأ[2] أبو عبد الله. وأصحابه، وسعيد بن عياض والأعمش وطلحة والأعرج وحمزة والكسائي: ﴿وسلفا﴾ بضم السين وضم اللام جمع سليف، كسرر وسرير، وقال أبو حاتم: هو جمع سلف، كخشب وخشب، وقرأ علي وابن مسعود ومجاهد وأبو وائل والنخعي وحميد بن قيس والأعرج أيضاً ﴿وسلفا﴾ بضم السين وفتح اللام جمع سلفة، كغرفة وغرف، وهي الفرقة المتقدمة والقطيعة من الناس.

﴿و﴾ جعلناهم أيضاً ﴿مثلاً﴾ وعبرةً وتذكرةً ﴿لِّلْءَاخِرِينَ﴾؛ أي: لمن يأتي بعدهم من الكافرين؛ أي: جعلناهم حديثاً عجيب الشأن، سائراً مسير المثل، يحدث به الآخرون من الكفار، يقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون، فاللام متعلق بكل من ﴿سَلَفًا﴾ ﴿وَمَثَلًا﴾ على سبيل التنازع.

الإعراب

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر إذ قال إبراهيم، ﴿قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿لِأَبِيهِ﴾: متعلق بـ﴿قَالَ﴾. ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾: معطوف على ﴿أبيه﴾، ﴿إِنَّنِى﴾: ناصب واسمه، والنون نون الوقاية، ﴿بَرَآءٌ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مِمَّا﴾: متعلق بـ﴿بَرَآءٌ﴾، وجملة ﴿تَعْبُدُونَ﴾ صلة لما الموصولة ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿ٱلَّذِى﴾ مستثنى في محل النصب على الاستثناء، والاستثناء منقطع، كأنه قال: لكن الذي فطرني فإنه سيهدين، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا، بناء على أنهم كانوا يشركون مع الله الأصنام، ورجح أبو حيان كون الاستثناء منقطعاً، إذ كانوا لا يعبدون الله مع الأصنام، ﴿فَطَرَنِى﴾: فعل وفاعل مستتر، ونون وقاية ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ الفاء: تعليلية. ﴿إنه﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿سَيَهْدِينِ﴾ خبره، والسين للتأكيد، لا للاستقبال كما مر؛ أي: يديم هدايتي في المستقبل والحال، والمفعول به محذوف؛ أي: سيهديني لرعاية الفاصلة، وجملة ﴿إن﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَجَعَلَهَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿جعلها﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾، أو على الله، ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾، ﴿كَلِمَةً﴾: مفعول ثان، ﴿بَاقِيَةً﴾: صفة لـ﴿كَلِمَةً﴾، ﴿فِي عَقِبِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿بَاقِيَةً﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ناصب واسمه وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾ تعليلية، لا محل لها من الإعراب، ﴿بَلْ﴾ حرف عطف وإضراب عن محذوف، تقديره: فلم يحصل ما رجاه إبراهيم. ﴿مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على الجملة المحذوفة، ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾: معطوف على هؤلاء، أو مفعول معه ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية، ﴿جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾: فعل، ومفعول، وفاعل في محل النصب بأن المضمرة بعد حتى الجارة، ﴿وَرَسُولٌ﴾: معطوف على ﴿ٱلْحَقُّ﴾، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة رسول، والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، تقديره: إلى

مجيء الحق إياهم ورسول مبين، الجار والمجرور متعلق بـ﴿مَتَّعْتُ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٠ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل جواب لما، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ﴾، أو مستأنفة، ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿وَإِنَّا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾، و﴿كَٰفِرُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على ما قبلها، على كونها مقولاً لـ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿وَقَالُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على جملة ﴿قَالُوٓا﴾ الأولى ﴿لَوۡلَا﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا. ﴿نُزِّلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ﴿هَٰذَا﴾: نائب فاعل، ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾: بدل من اسم الإشارة،، أو عطف بيان له، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ متعلق بـ﴿نُزِّلَ﴾، ﴿مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾ صفة أولى لـ﴿رَجُلٖ﴾. ﴿عَظِيمٍ﴾ صفة ثانية له، ﴿أَهُمۡ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري التجهيلي، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَقۡسِمُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة إنشائية. ﴿رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، ﴿نَحۡنُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿قَسَمۡنَا﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿بَيۡنَهُم﴾: ظرف متعلق بـ﴿قَسَمۡنَا﴾، ﴿مَّعِيشَتَهُمۡ﴾: مفعول به، ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾: حال من ضمير ﴿مَّعِيشَتَهُمۡ﴾؛ لأن المضاف كالجزء من المضاف إليه، ﴿وَرَفَعۡنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿قَسَمۡنَا﴾، ﴿بَعۡضَهُمۡ﴾: مفعول به. ﴿فَوۡقَ بَعۡضٖ﴾: ظرف متعلق بـ﴿رفعنا﴾، ﴿دَرَجَٰتٖ﴾: تمييز محول عن المفعول، أو منصوب بنزع الخافض، كما مر، ﴿لِّيَتَّخِذَ﴾ اللام: حرف جر وتعليل. ﴿يتخذ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة

بعد لام كي، ﴿بَعْضُهُم﴾ فاعل، ﴿بَعْضًا﴾: مفعول أول لـ﴿يتخذ﴾. ﴿سُخْرِيًّا﴾: مفعول ثان له، والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لاتخاذ بعضهم بعضاً سخرياً، والجار والمجرور متعلق بـ﴿رفعنا﴾، ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿رحمت ربك﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿خَيْرٌ﴾: خبر، والجملة مستأنفة، ﴿مِمَّا﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، وجملة ﴿يَجْمَعُونَ﴾: صلة لما الموصولة، والعائد محذوف تقديره: مما يجمعونه.

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود، ﴿أَن﴾ حرف مصدر ونصب، ﴿يَكُونَ﴾: فعل ناقص منصوب بـ﴿أَن﴾، ﴿النَّاسُ﴾: اسمها. ﴿أُمَّةً﴾: خبرها، ﴿وَاحِدَةً﴾: صفة ﴿أُمَّةً﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر، مجرور بإضافة المبتدأ المقدر إليه، وخبر ذلك المبتدأ محذوف وجوباً، والتقدير: ولولا كراهية كون الناس أمة واحدة موجود، والجملة الاسمية شرط لـ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿لَّجَعَلْنَا﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لولا﴾. ﴿جعلنا﴾: فعل وفاعل، ﴿لِمَن﴾: في موضع المفعول الثاني لـ﴿جعلنا﴾، وجملة ﴿يَكْفُرُ﴾: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿بِالرَّحْمَٰنِ﴾: متعلق بـ﴿يَكْفُرُ﴾، ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمال من ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ بإعادة الجار، ﴿سُقُفًا﴾ مفعول أول لـ﴿جعلنا﴾، ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ صفة لـ﴿سُقُفًا﴾، وجملة ﴿جعلنا﴾ جواب ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة، ﴿وَمَعَارِجَ﴾ معطوف على ﴿سُقُفًا﴾، ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق بـ﴿يَظْهَرُونَ﴾، وجملة ﴿يَظْهَرُونَ﴾ صفة لـ﴿معارج﴾.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾: معطوف على قوله ﴿لبيوتهم﴾، وكرر لفظ البيوت لزيادة التقرير، ﴿أَبْوَابًا﴾ معطوف بعاطف مقدر على ﴿سُقُفًا﴾، أو منصوب بفعل محذوف،

مماثل للأول، فيكون من عطف الجمل؛ أي: ولجعلنا لبيوتهم أبواباً ﴿وَسُرُرًا﴾: معطوف على أبواباً، ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق بـ﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾، وجملة ﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾ صفة لـ﴿سرراً﴾، ﴿وَزُخْرُفًا﴾: معطوف على على أبواباً، أو مفعول به لفعل محذوف؛ أي: ولجعلنا لهم زخرفاً، وعطفه الزمخشري على محل ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾، كأنه قال: سقفاً من فضة وذهب؛ أي: بعضها من فضة وبعضها من ذهب. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: نافية، ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد، حرف بمعنى إلا الاستثنائية، استثناء مفرغاً، ﴿مَتَٰعُ﴾: خبر المبتدأ. ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾: مضاف إليه، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، وقرىء بتخفيف لما، و﴿إن﴾ حينئذ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوفاً، ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿لَمَّا﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿ما﴾: زائدة، ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ﴾: خبر المبتدأ، وجملة المبتدأ والخبر خبر لـ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة مستأنفة، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ مبتدأ، ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿الآخرة﴾ أو من الضمير المستكن في الخبر، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يَعْشُ﴾: فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: متعلق بـ﴿يَعْشُ﴾، ﴿نُقَيِّضْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿نُقَيِّضْ﴾، ﴿شَيْطَٰنًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿فَهُوَ﴾ الفاء: عاطفة تفريعية، ﴿هو﴾: مبتدأ، ﴿لَهُۥ﴾ حال من ﴿قَرِينٌ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿قَرِينٌ﴾ خبر هو، والجملة الاسمية معطوفة على جملة جواب الشرط، ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنهم﴾ ناصب واسمه، ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿يصدونهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ متعلق بـ﴿يصدونهم﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿من﴾ الشرطية، أو على جملة

الجواب ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على جملة ﴿إنّ﴾، ﴿أَنَّهُم﴾ ناصب واسمه، ﴿مُّهْتَدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي حسب؛ أي: يحسبون اهتداءهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء وغاية، لدخولها على الجملة ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿جَآءَنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعل مستتر يعود على العاشي، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على العاشي، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ الجارة، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: فهو له قرين، إلى قوله: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ وقت مجيئه إيانا. ﴿يَٰلَيْتَ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، والمنادى محذوف، تقديره: يا هذا القرين، ﴿ليت﴾: حرف تمن ونصب، ﴿بَيْنِى﴾ ظرف متعلق بمحذوف، خبر ﴿ليت﴾ مقدم على اسمها، ﴿وَبَيْنَكَ﴾: معطوف على ﴿بَيْنِى﴾، ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾: اسم ﴿ليت﴾ مؤخر، ومضاف إليه، وجملة النداء مع جملة التمني في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَبِئْسَ﴾: الفاء: استئنافية. ﴿بئس﴾ فعل ماض من أفعال الذم. ﴿ٱلْقَرِينُ﴾: فاعل، والمخصوص بالذم محذوف وجوباً تقديره: أنت، وجملة ﴿بئس﴾ في محل الرفع خبر لهذا المخصوص، المحذوف، والجملة الاسمية جملة إنشائية مستأنفة، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَلَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لن﴾ حرف نصب، ﴿يَنفَعَكُمُ﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿لن﴾، والكاف مفعول به، وفاعله ضمير مستتر يعود على التمني المفهوم من ﴿ليت﴾، والجملة مستأنفة، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَنفَعَكُمُ﴾، ﴿إِذ﴾: حرف تعليل بمعنى اللام، أو ظرف لما مضى من الزمان، بدل من اليوم، ﴿ظَّلَمْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف

لـ﴿إذ﴾، أو في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بـ﴿إذ﴾ التعليلية؛ أي: ولن ينفعكم تمنيكم اليوم، وندمكم لظلمكم في الدنيا، ﴿أَنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾ متعلق بـ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾، و﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ مسوقة لتعليل الظلم، لا محل لها من الإعراب، وقرىء أنكم بفتح الهمزة، ففاعل النفع حينئذ المصدر، المؤول من ﴿أن﴾ والتقدير: ولن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب، لظلمكم في الدنيا.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿أَفَأَنتَ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري التعجبي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أأنت تتعب نفسك، فأنت تسمع الصم، والجملة المحذوفة مستأنفة، مسوقة لتسليته ﷺ، ﴿أنت﴾: مبتدأ، ﴿تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف، ﴿تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿تُسْمِعُ﴾، ﴿وَمَن﴾: اسم موصول في محل النصب، معطوف على العمي، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾: خبرها، ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة ﴿ضَلَٰلٍ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكر، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك: ﴿إما نذهبن بك﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿ما﴾ زائدة ﴿نَذْهَبَنَّ﴾ فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد حرف، لا محل لها من الإعراب، وفاعله ضمير يعود على الله سبحانه، ﴿بِكَ﴾: متعلق بـ﴿نَذْهَبَنَّ﴾، ﴿فَإِنَّا﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إنا﴾ ناصب واسمه، ﴿مِنْهُم﴾ متعلق بـ﴿مُّنتَقِمُونَ﴾، و﴿مُّنتَقِمُونَ﴾ خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة،

﴿أَوۡ﴾ حرف عطف وتفصيل، ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية معطوف على ﴿نَذۡهَبَنَّ﴾ لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على الله، والكاف مفعول أول، ﴿ٱلَّذِى﴾ مفعول ثان لـ﴿أرى﴾، لأنها بصرية تعدت بالهمزة إلى مفعولين، ﴿وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: وعدناهموه، ﴿فَإِنَّا﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إنّا﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَيۡهِم﴾ متعلق بـ﴿مُّقۡتَدِرُونَ﴾، و﴿مُّقۡتَدِرُونَ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية المقدرة بالعطف على كونها جواباً لها.

﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك استمسك. ﴿استمسك﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، ﴿بِٱلَّذِىٓ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿أُوحِىَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿إِلَيۡكَۖ﴾: متعلق بـ﴿أُوحِىَ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ﴾ خبره ﴿مُّسۡتَقِيمٖ﴾: صفة ﴿صِرَٰطٖ﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنّه﴾: ناصب واسمه، ﴿لَذِكۡرٞ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿ذكر﴾ خبر ﴿إن﴾. ﴿لَّكَ﴾ متعلق بـ﴿ذكر﴾، أو صفة له، ﴿وَلِقَوۡمِكَۖ﴾: معطوف على ﴿لَّكَ﴾، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولى، ﴿وَسَوۡفَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿سوف﴾: حرف تسويف، ﴿تُسۡـَٔلُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾ عطف فعلية على اسمية، ﴿وَسۡـَٔلۡ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اسأل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة معطوفة على جملة ﴿استمسك﴾، ﴿مَنۡ﴾: اسم موصول في محل

النصب مفعول أول لـ﴿اسأل﴾، ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل، صلة من الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من أرسلناه. ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿مِن رُّسُلِنَآ﴾: حال من ﴿مَنْ﴾ الموصولة، أو من العائد المحذوف، ﴿أَجَعَلْنَا﴾: الهمزة: للاستفهام الاستخباري ﴿جعلنا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: في موضع المفعول الثاني لـ﴿جعلنا﴾، ﴿ءَالِهَةً﴾: مفعول أول لـ﴿جعلنا﴾، وجملة ﴿يُعْبَدُونَ﴾: صفة لـ﴿ءَالِهَةً﴾، وجملة ﴿جعلنا﴾ في محل النصب سدت مسد المفعول الثاني، لـ﴿سأل﴾ المعلق عنها بهمزة الاستفهام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: حال من موسى، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، ﴿فَقَالَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ناصب واسمه وخبره، ومضاف إليه، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: عاطفة على مقدر تقديره: فطلبوا منه الآيات، ﴿لما﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿جَآءَهُم﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ متعلق بـ﴿جَآءَهُم﴾، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿إِذَا﴾: حرف فجأة رابطة لجواب ﴿لما﴾، ﴿هُم﴾: مبتدأ. ﴿مِّنْهَا﴾: متعلق بـ﴿يَضْحَكُونَ﴾، وجملة ﴿يَضْحَكُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على الجملة المقدرة.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿نُرِيهِم﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أول، والجملة مستأنفة أو معطوفة على ما قبلها، ﴿مِّنْ﴾: زائدة، ﴿ءَايَةٍ﴾ مفعول ثان لـ﴿نُري﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿هِىَ أَكْبَرُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿مِنْ أُخْتِهَا﴾: متعلق بـ﴿أَكْبَرُ﴾، والجملة الاسمية صفة لـ﴿ءَايَةٍ﴾، ﴿وَأَخَذْنَٰهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ متعلق بـ﴿أخذنا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿نُرِيهِم﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَقَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿أخذناهم﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة في محل النصب، مبني على الضم. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة، مبني بسكون على الألف المحذوفة، للتخلص من التقاء الساكنين. ﴿ٱلسَّاحِرُ﴾ بدل من أي، أو نعت لها، وجملة النداء في محل النصب، مقول ﴿قالوا﴾. ﴿ٱدْعُ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، ﴿لَنَا﴾: متعلق به، ﴿رَبَّكَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول ﴿قالوا﴾ على كونها جواب النداء، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱدْعُ﴾، و﴿ما﴾ إما موصولة أو مصدرية، ﴿عَهِدَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿عِندَكَ﴾ متعلق بـ﴿عَهِدَ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، أو لـ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿إِنَّنَا﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿مُهْتَدُونَ﴾: خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿فَلَمَّا﴾ الفاء، عاطفة على مقدر، يقتضيه المقام تقديره: فدعا موسى، فكشفنا عنهم العذاب، فلما كشفنا عنهم العذاب إلخ، ﴿لمّا﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿كَشَفْنَا﴾ فعل وفاعل، فعل شرط لـ﴿لَمَّا﴾، ﴿عَنْهُمُ﴾: متعلق بـ﴿كَشَفْنَا﴾، ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ مفعول به ﴿إِذَا﴾: فجائية رابطة لجواب ﴿لما﴾ الشرطية، حرف لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على تلك المحذوفة، كما قدرنا آنفاً ﴿هُمْ يَنكُثُونَ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿نادى فرعون﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿فِى قَوْمِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿نادى﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، والجملة مفسرة لجملة ﴿نادى﴾، ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب، مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿أَلَيْسَ﴾: الهمزة: للاستفهام التقريري. لدخولها على النافي، ﴿ليس﴾: فعل ناقص، ﴿لِى﴾: خبرها مقدم، ﴿مُلْكُ مِصْرَ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿ليس﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَهَٰذِهِ﴾: في محل الرفع معطوف على اسم ﴿ليس﴾، ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بدل من اسم الإشارة، ﴿تَجْرِى﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ﴿مِن تَحْتِىٓ﴾ متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾، والجملة الفعلية حال من الأنهار، ويحتمل كون اسم الإشارة مبتدأ، و﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بدل منه، وجملة تجري خبره، والجملة الاسمية حال من ياء المتكلم في ﴿لِى﴾، والعامل فيه الاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور في ﴿لِى﴾، ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتتعامون فلا تبصرون، والجملة المحذوفة في محل النصب، مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿لا﴾: نافية، ﴿تُبْصِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة.

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل، وهمزة الاستفهام، ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾ خبره، ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾: بدل من اسم الإشارة، والجملة معطوفة على ما قبلها، على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿هُوَ مَهِينٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿يَكَادُ﴾: فعل مضارع من أفعال المقاربة، واسمها ضمير يعود على الموصول، وجملة ﴿يُبِينُ﴾: خبرها، وجملة ﴿يَكَادُ﴾: معطوفة على الجملة الابتدائية، على كونها صلة الموصول، ﴿فَلَوْلَآ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿لولا﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا،

﴿أُلْقِيَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿أُلْقِيَ﴾، ﴿أَسْوِرَةٌ﴾: نائب فاعل لـ﴿أُلْقِيَ﴾، ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾: صفة لـ﴿أَسْوِرَةٌ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل، ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض، ﴿مَعَهُ﴾: متعلق بـ﴿جَآءَ﴾، ﴿الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فاعل، ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾: حال من الملائكة، والجملة معطوفة على جملة ﴿أُلْقِيَ﴾، ﴿فَاسْتَخَفَّ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿استخف﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنُ﴾، ﴿قَوْمَهُ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿نادى﴾، ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿استخف﴾، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانُوا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿قَوْمًا﴾ خبره، ﴿فَٰسِقِينَ﴾ صفة ﴿قَوْمًا﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل إطاعتهم. ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكر من طاعتهم له، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك، ﴿لمّا آسفونا﴾، ﴿لمّا﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿ءَاسَفُونَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿انتَقَمْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿انتَقَمْنَا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لمّا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾: الفاء: عاطفة ﴿أغرقناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿انتَقَمْنَا﴾ عطفا تفسيريا، ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لضمير المفعول، ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿جعلناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿سَلَفًا﴾ مفعول ثان، ﴿وَمَثَلًا﴾: معطوف على ﴿سَلَفًا﴾. ﴿لِّلْآخِرِينَ﴾ صفة لـ﴿مثلا﴾ و﴿سَلَفًا﴾ على سبيل التنازع، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أغرقناهم﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾ بفتح الباء وألف وهمزة بعد الراء، وهو في الأصل وقع موقع الصفة مبالغة، ولذلك استوى فيه المذكر والمؤنث، والواحد والاثنان والجمع، يقال: نحن البراء. وأما البريء فهو يؤنث ويجمع، يقال: بريء وبريؤون وبريئة وبريئات. وفي «المختار»: وتبرأ من كذ فهو براء منه بالفتح والمد، لا يثنى ولا يجمع؛ لأنه مصدر. وفي «القاموس»: وأنا براء منه، لا يثنى ولا يجمع ولا

يؤنث؛ أي: بريء. ﴿فَطَرَنِي﴾ خلقني، والفطر: ابتداء خلق من غير مثال، من قولهم: فطرت البئر إذا أنشأت حفرها من غير أصل سابق. ﴿فِي عَقِبِهِۦ﴾؛ أي: في ذريته، قال الراغب: العقب مؤخر الرجل، واستعير للولد وولد الولد، انتهى. وفي «القاموس»: العقب ككتف الجري بعد الجري، والولد وولد الولد. ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ والسحر: إراءة الباطل في صورة الحق. ﴿مَّعِيشَتَهُمْ﴾ والمعيشة: ما يعيش به الإنسان، ويتغذى، ويجعله سبباً في قوام بنيته، إذ العيش الحياة المختصة بالحيوان، كما سبق. وأصل معيشة: بوزن مفعلة، نقلت حركة الياء إلى العين، فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مد. ﴿سُخْرِيًّا﴾ والسخري: هو الذي يقهر على العمل، وهو بضم السين نسبة إلى السخرة، وهي العمل بلا أجرة، وفي «القاموس»: وسخره كمنعه سخرياً بالكسر، ويضم كلفه ما لا يريد وقهره، ويبعد أن تكون من السخرية التي هي بمعنى الاستهزاء؛ أي: ليستهزىء الغني بالفقير، وهو هنا من التسخير، بمعنى الاستخدام والاستعمال.

﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ والبيوت والأبيات جمع بيت، وهو اسم لمبنى مسقف، مدخله من جانب واحد، بني للبيتوتة، قال الراغب: أصل البيت مأوى الإنسان بالليل، ثم قد يقال من غير اعتبار الليل فيه، والبيوت بالمسكن أخص، والأبيات بالشعر، ويقع ذلك على المتخذ من حجر ومدر، ومن صوف ووبر، وبه شبه بيت الشعر. ﴿سُقُفًا﴾ جمع سقف، كرهن ورهن، وهو سماء البيت وعلوه. ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ والفضة: جسم ذائب، صابر، صاف، منطرق، أبيض، رزين بالقياس إلى باقي الأجساد، سميت فضة لتفضضها وتفرقها في وجوه المصالح. ﴿وَمَعَارِجَ﴾ جمع معرج بفتح الميم وكسرها بمعنى: السلم، وهو المسمى الآن: سنسير، وهذا من معجزات القرآن، إذ لم يكن معروفاً في عصر التنزيل، قال الراغب: العروج: ذهاب في صعود، والمعارج المصاعد، وسميت المصاعد من الدرج معارج؛ لأن المشي عليها مثل مشي الأعرج. ﴿يَظْهَرُونَ﴾ يقال: ظهر على الشيء، إذا علاه وارتقى إليه، وأصل ظهر الشيء أن يحصل شيء على ظهر الأرض فلا يخفى، ثم صار مستعملاً في كل بارز للبصر والبصيرة، ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا﴾ جمع باب، والباب: يقال لمدخل الشيء، وأصل ذلك مداخل الأمكنة، كباب المدينة والدار

والبيت. ﴿وَسُرُرًا﴾ جمع سرير، قال الراغب: السرير الذي يجلس عليه من السرور إذا كان ذلك لأولي النعمة، وسرير الميت تشبيه به في الصورة، وللتفاؤل بالسرور الذي يلحق الميت برجوعه إلى الله، وخلاصه من السجن المشار إليه بقوله ﷺ: «الدنيا سجن للمؤمن».

﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾ من الاتكاء، وهو الاعتماد. ﴿وَزُخْرُفًاۚ﴾ هو في الأصل: بمعنى الذهب، ويستعار لمعنى الزينة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾. قال الراغب: الزخرف الزينة المزوقة، ومنه قيل للذهب زخرف، كما قال تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾؛ أي: ذهب مزوق. قال ابن زيد: الزخرف هو ما يتخذه الناس في منازلهم من الأمتعة، والأثاث. قال الحسن: النقوش، وأصله: الزينة، يقال: زخرفت الدار؛ أي: زينتها، وتزخرف فلان؛ أي: تزين. وأوردت معاجم اللغة معاني عديدة للزخرف، منها: الذهب، وحسن الشيء، وزخرف الكلام أباطيله المموهة، وزخرف الأرض ألوان نباتها، والجمع زخارف.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ويعش بضم الشين، من عشا يعشو عشا إذا تعاشى بلا آفة وتعامى؛ أي: نظر نظر العشا، ولا آفة في بصره، ويقال: عشي يعشى، كرضي يرضى إذا كان في بصره آفة مخلة بالرؤية. قال الراغب: العشا بالفتح والقصر ظلمة تعرض في العين، يقال: رجل أعشى، وامرأة عشواء. وفي «القاموس»: العشا سوء البصر بالليل والنهار، وخبطه خبط عشواء، ركبه على غير بصيرة، والناقة العشواء التي لا تبصر أمامها. ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ نسبب ونقدر ونسلط ونضمه إليه ليستولي عليه استيلاء القيض على البيض، وهو القشر الأعلى اليابس، ويقال قيض الله كذا، قدره له، وقيض الله فلاناً لفلان، جاءه به. ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أصله: يصددونهم بوزن يَفْعُلُون، نقلت حركة الدال الأولى إلى الصاد فسكنت، وأدغمت في الدال الثانية ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾، أي: بعد المشرق، وكثيراً ما تسمي العرب الشيئين المتقابلين باسم أحدهما، قال الفرزدق:

أَخَذْنَا بِآفَاقِ ٱلسَّمَاءِ عَلَيْكُمُ   لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُوْمُ ٱلطَّوَالِعُ

يريد الشمس والقمر، وبعد المشرقين بعد أحدهما من الآخر. ﴿فَٱسْتَمْسِكْ

﴿بِالَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾ أصله أؤحي بهمزتين الأولى مضمومة والثانية ساكنة، أبدلت الساكنة حرف مدٍّ مجانساً لحركة الأولى المضمومة فأبدلت واواً. ﴿إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ﴾ الأخت تأنيث الأخ، وجعلت التاء فيها كالعوض عن المحذوف منه. ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَ﴾ حذف الألف التي بعد الهاء من رسم المصحف العثماني هنا كما حذفت من قوله تعالى في سورة الرحمٰن: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ ومن قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ من سورة النور اتباعاً للخط تحت اللفظ. ﴿ادع﴾ وزنه افع لحذف لامه الواو، لبناء الأمر من معتل الآخر على ذلك، ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾ وأصل العهد بمعنى التوصية أن يتعدى بإلى إلا أنه أورد هنا بدلها لفظ ﴿عندك﴾ إشعاراً بأن تلك الوصية مرعية محفوظة عنده، لا مضيعة ملغاة. قال الراغب: العهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال وعهد فلان إلى فلان بعهد؛ أي: ألقى العهد إليه، وأوصاه بحفظه. ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾؛ أي ينقضون العهد، والنكث في الأصل: نقض الحبل والغزل ونحوه ذلك، واستعير هنا لنقض العهد كما سيأتي.

﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ وفي «القاموس»: مصّروا المكان تمصيراً: جعلوه مصراً فتمصّر، ومصر: علم للمدينة المعروفة، سميت لتمصّرها، أو لأنه بناها مصر بن حام بن نوح، وقال بعضهم: مصر بلد معروف، من مَصَرَ الشيء يمصره، إذا قطعه، سمي به لانقطاعه عن الفضاء بالعمارة، انتهى. ﴿مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ﴾ مهين صفة مشبهة بوزن فعيل بمعنىٰ ضعيف وحقير. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أصله يبين بوزن يفعل، نقلت حركته الياء إلى الباء فسكنت إثر كسرة. فصارت حرف مدٍّ. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بموسى لثغة في لسانه، واللثغة بالضم أن تصير الراء غيناً أو لاماً، والسين ثاءً، وقد لثغ من باب ضرب فهو ألثغ: ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ﴾ جمع سوار، كأخمرة جمع الخمار، على تعويض التاء من ياء أساوير، يعني الياء المقابلة لألف أسوار، ونظيره: زنادقة وبطارقة، فالهاء فيهما عوض عن ياء زناديق وبطاريق، المقابلة لياء زنديق وبطريق، قال في «القاموس»: السوار بالكسر والضم القلب، كالأسوار بالضم. والجمع أسورة وأساور وأساورة. وفي «المفردات»: سوار المرأة أصله: دستوراه، فهو فارسي

معرب عند البعض، انتهى. ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾ والذهب: جسم ذائب، صاف، منطرق، أصفر، رزين بالقياس إلى سائر الأجسام. ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾؛ أي: مقرونين به يعينونه على من خالفه.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ وجد أحلامهم خفيفة يغترون بالتلبيسات الباطلة، وقال الراغب: حملهم على أن يخفوا معه، أو وجدهم خفافاً في أبدانهم وعزائمهم. وفي «القاموس»: استخفه ضد استثقله، واستخف فلاناً عن رأيه حمله على الجهل والخفة، وأزاله عما كان عليه من الصواب. وأصله: استخفف بوزن استفعل، نقلت حركة الفاء الأولى إلى الخاء فسكنت، وأدغمت في الفاء الثانية. ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: فأطوعوه، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الطاء، فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها، في الحال. ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ منقول من أسف يأسف، كعلم يعلم إذا اشتد غضبه. وفي «القاموس»: الأسف محركة أشد الحزن، وأسف عليه غضب. وقال الراغب: الأسف الحزن والغضب معاً، وقد يقال: لكل منهما على الانفراد، وحقيقته ثوران دم القلب إرادة الانتقام، كما مر. وأصله: أأسفونا بهمزتين الأولى همزة التعدية، والثانية فاء الفعل، فأبدلت الثانية الساكنة حرف مد مجانساً لحركة الأولى المفتوحة، والمجانس لها هو الألف. ﴿سَلَفًا﴾ إما مصدر سلف يسلف، كطلب يطلب، بمعنى التقدم وصف به الأعيان للمبالغة، فهو بمعنى متقدمين ماضين، أو جمع سالف كخدم جمع خادم، ولما لم يكن التقدم متعدياً باللام، فسروه بالقدرة مجازاً لأن المتقدمين يلزمهم غالباً أن يكونوا قدوةً لمن بعدهم. ﴿لِّلْآخِرِينَ﴾ اللام متعلق بكل من ﴿سَلَفًا﴾ و﴿مَثَلًا﴾ على سبيل التنازع؛ أي: عظةً للكفار المتأخرين عنهم، والعظة ليس من لوازمها الاتعاظ، أو قصة عجيبةً تسير مسير الأمثال لهم، فيقال: مثلكم مثل قوم فرعون كما مر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾؛ لأن المراد بالكلمة الجملة التي قالها بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ ففيه إطلاق اسم الجزء على الكل.

ومنها: صيغة المضارع في قوله: ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ للدلالة على الاستمرار؛ أي: دوام الهداية حالاً واستقبالاً.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ لما فيه من إسناد ما للبعض إلى الكل نظراً بحال الأكثر؛ لأن الرجوع إنما يحصل من البعض لا من الكل.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فِي عَقِبِهِۦ﴾ لأن العقب حقيقة في مؤخر الرجل، فاستعير للولد وولد الولد، كما قاله الراغب.

ومنها: التكرير في قوله: ﴿وَلِبُيُوتِهِمۡ﴾ لزيادة التقرير.

ومنها: تقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾، وفي قوله: ﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾ رعاية للفاصلة.

ومنها: الجناس المماثل بين ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ﴾، وبين ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾ لأن حق العبارة، ليتخذوهم سخرياً لغرض الإيضاح والبيان.

ومنها: التجهيل والتعجيب من تحكمهم في قوله: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾.

ومنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾؛ لأن المراد بالرحمة هنا النبوة.

ومنها: تقديم المسند إليه، وهو نحن على المسند، وهو قسمنا، في قوله: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ﴾ لإفادة الاختصاص.

ومنها: التخصيص في قوله: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ لغرض التأكيد.

ومنها: التعريض إلى تعظيمه ﷺ، في وصف رجل بعظيم، في قوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لأنه في تقدير ولولا، كراهية أن يكون الناس... إلخ.

ومنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿وَزُخْرُفًا﴾؛ لأن الزخرف في الأصل اسم لكل ما يتزين به، والمراد به هنا: الذهب.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ في قوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ لأنه مستعار للإعراض عنه.

ومنها: النكرة الواقعة في سياق الشرط في قوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ لإفادة العموم، ولذلك أعاد عليه الضمير مجموعاً، في قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾؛ لأن فيه تغليب المشرق على المغرب، كالعمرين والقمرين.

ومنها: إعادة النكرة معرفة في قوله: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ إفادة بأنه نفس الأول، كما قال السيوطي في «عقود الجمان»:

ثُمَّ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلْمُشْتَهَرَهْ إِذَا أَتَتْ نَكِرَةً مُكَرَّرَهْ
تَغَايَرَتْ، وَإِنْ يُعَرَّفْ ثَانِ تَوَافَقَا كَذَا ٱلْمُعَرَّفَانِ

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ وفيه أيضاً الاستعارة التصريحية، حيث شبه الكفار بالصم العمي، بجامع عدم الاهتداء إلى المقصود في كل.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾؛ لأنه كناية عن الموت.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿بِالَّذِيَ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ لغرض التفخيم والتعظيم.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ لتغيير الشكل، وبعض الحروف بينهما، وفيه أيضاً المجاز المرسل، فقد أوقع السؤال على الرسل، مع أن المراد أممهم، لعلاقة الهداية المفضية بهم إلى معرفة اليقين، وقيل: هو على حذف مضاف، ففيه مجاز بالحذف؛ أي: واسأل أمم من أرسلنا من قبلك.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ لأن كلمة لعل مستعارة لمعنى كي، وهو التعليل.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾؛ لأن النكث في الأصل: نقض الحبل والغزل مثلاً، فاستعير لنقض العهد بجامع الانفكاك في كل.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ علاقته المحلية، فقد جعل قومه محلاً لندائه وموقعاً له، والمعنى: أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأماكنهم، وفيه أيضاً الإسناد المجازي؛ لأنه أسند النداء إلى نفسه، مع أن المنادى غيره كقولهم: قطع الأمير اللص إذا أمر بقطعه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات

لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] طرفاً من قصة موسى عليه السلام، ذكر طرفاً من قصة عيسى عليه السلام، وعن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره لما نزل ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾، ونزل: كيف خلق من غير فحل، قالت قريش: ما أراد محمد ﷺ من ذكر عيسى إلا أن نعبده، كما عبدت النصارى عيسى عليه السلام، فهذا كان صدودهم من ضربه مثلاً.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سلف: أن يوم القيامة سيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون.. أردف ذلك ببيان أحوال ذلك اليوم:

فمنها: أن الأخلاء يتعادون فيها، إلا من تخالوا على الإيمان والتقوى.

ومنها: أن المؤمنين لا يخافون من سلب نعمة يتمتعون بها، ولا يحزنون على فقد نعمة قد فاتتهم.

ومنها: أنهم يتمتعون بفنون من الترف والنعيم، فيطاف عليهم بصحاف من ذهب، فيها ما لذ وطاب من المآكل، وبأكواب وأباريق فيها شهي المشارب، ويقال لهم: هذا النعيم كفاء ما قدمتم، من عمل بأوامر الشرع ونواهيه، وأسلفتم من إخلاص لله وتقوى له.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[2] ما أعد لأهل الجنة من النعيم المقيم، والتمتع بفنون اللذات، من المآكل والمشارب والفواكه.. أعقب ذلك، بذكر ما يكون فيه الكفار من العذاب الأليم، الدائم، الذي لا يخفف عنهم أبداً، وهم في حزن لا ينقطع، ثم ذكر أن هذا ليس إلا جزاءً وفاقاً، لما دسوا به أنفسهم من سيء الأعمال، ثم أردف ذلك، بمقال أهل النار، لخزنة جهنم وطلبهم من ربهم، أن يموتوا حتى يستريحوا مما هم فيه من العذاب، ثم إجابته لهم عن ذلك، ثم وبخهم على ما عملوا في الدنيا واستحقوا به العذاب. ثم ذكر

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

ما أحكموا تدبيره من رد الحق، وإعلاء شأن الباطل، ظناً منهم أنا لا نسمع سرهم ونجواهم، وقد وهموا فيما ظنوا، فإن الله عليم بذلك، ورسله يكتبون كل ما صدر عنهم من قول، أو فعل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر مقال أهل النار لخزنة جهنم، وطلبهم من ربهم أن يموتوا حتى يستريحوا مماهم فيه من العذاب، وحسبانهم أن الله لا يسمع سرهم ونجواهم: أمر هنا نبيه ﷺ أن يقول للمشركين إحقاقاً للحق: إن مخالفته لهم في عبادة ما يعبدون، لم يكن بغضاً منه لهم، ولا عداوة لمعبوديهم، بل لاستحالة نسبة ما نسبوه إليهم، وبنوا عليه عبادتهم لهم، من كونهم بنات الله، تنزه ربنا عما يقولون. ثم أمره أن يتركهم وشأنهم حتى يأتي اليوم الذي يلاقون فيه جزاء أعمالهم وأقوالهم. ثم أخبر بأن لا معبود في السماء، ولا في الأرض سواه، وهو الحكيم العليم بكل شيء، وأن من يعبدونهم لا يشفعون لهم حين الجزاء والحساب. ثم ذكر أن أقوالهم تناقض أفعالهم، فهم يعبدون غير الله ويقولون: إن الخالق للكون سمائه وأرضه، هو الله سبحانه، ثم أردف هذا، بأنه لا يعلم الساعة إلا هو سبحانه، وأنه يعلم شديدَ حزنك على عدم إيمانهم وعدم استجابتهم لدعوتك، ثم ختم السورة بأمر رسوله بالإعراض عنهم وتركهم وشأنهم، وسيأتي اليوم الذي يلقون فيه الجزاء على سوء صنيعهم، وقبيح فعالهم من عبادة غير الله سبحانه وتعالى، والإشراك به ما لا ينفع ولا يضر من مخلوقاته.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه أحمد بسند صحيح، والطبراني عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال لقريش: «إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير»، فقالوا:

---

(١) لباب النقول.

ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً صالحاً، وقد عبد من دون الله، فأنزل الله ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا...﴾ الآية.

قال الواحدي[1]: وأكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في مجادلة عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمي، مع النبي ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.. قال ابن الزِّبَعْرَى: خصمتك ورب الكعبة، أليست النصارى يعبدون المسيح واليهود عزيراً، وبنو مليح الملائكة، ففرح قومه بذلك من قوله فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾، ونزلت هذه الآية المذكورة هنا. وقد مضى هذا في سورة الأنبياء، ولا يخفاك أن ما قاله ابن الزبعرى مندفع من أصله، وباطل برمته، فإن الله سبحانه قال: إنكم وما تعبدون، ولم يقل: ومن تعبدون حتى يدخل في ذلك العقلاء، كالمسيح، وعزير، والملائكة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها قرشيان، وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، فقال واحد منهم: ترون الله يسمع كلامنا، فقال آخر: إذا جهرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع، فنزلت هذه الآية: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ﴾ وجعل عيسى ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ عليه السلام ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: مثالاً ومشابهاً للأصنام، من حيث إن النصارى اتخذوه إلهاً، وعبدوه من دون الله؛ أي: ضربه عبد الله بن الزبعرى السهمي مثلاً لأصنامهم، كان من مردة قريش قبل أن يسلم. قال في «القاموس»: الزِّبَعْرَىٰ بكسر الزاي وفتح الباء والراء والد عبد الله الصحابي القرشي الشاعر، انتهى. ومعنى ضربه مثلاً أي[3]: جعله مثالاً ونظيراً

(١) الشوكاني.
(٢) لباب النقول.
(٣) روح البيان.

ومقياساً لأصنامهم في بيان إبطال ما ذكره رسول الله ﷺ، من كون معبودات الأمم دون الله ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ. . .﴾ الآية، حين قرأه على قريش فامتعضوا من ذلك امتعاضاً شديداً؛ أي: غضبوا وشق عليهم ذلك، فقال ابن الزبعرى بطريق الجدال: هذا لنا ولآلهتنا خاصة، أم لجميع الأمم»؟ فقال النبي ﷺ: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم، فقال: خصمتك ورب الكعبة، أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيراً، وبنو مليح الملائكة، فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون وآلهتنا معهم، ففرح به قومه، وضحكوا، وارتفعت أصواتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا﴾ فجائية ﴿قَوْمُكَ﴾ قريش يا محمد ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من ذلك المثل الذي ضربه ابن الزبعري؛ أي: لأجله وبسببه﴿يَصِدُّونَ﴾؛ أي: يضجون ويصيحون ويرفعون أصواتهم بالضحك، فرحاً بذلك المثل المضروب، ظنا منهم أن الرسول ﷺ صار ملزماً به، مغلوباً محجوجاً عليه، وقرأ أبو جعفر[1] والأعرج والنخعي وأبو رجاء وابن وثاب وعامر ونافع والكسائي ﴿يصدون﴾ بضم الصاد؛ أي: يعرضون عن الحق من أجل ضرب المثل. وقرأ ابن عباس وابن جبير والحسن وعكرمة وباقي السبعة بكسرها؛ أي: يصيحون ويضحكون فرحاً بضرب المثل.

قال الكسائي والفراء والزجاج والأخفش[2]: هما لغتان، مثل: عكف يعكف، ويعكف بالكسر والضم، ومعناهما يضجون. قال الجوهري: صد يصد صديداً؛ أي: ضج، وقيل: إنه بالضم الإعراض، وبالكسر الضجيج قاله قطرب قال أبو عبيد: لو كانت من الصدود عن الحق لقال: إذا قومك عنه يصدون، وقال الفراء: هما سواء منه وعنه. وقال أبو عبيدة: من ضم فمعناه: يعدلون، ومن كسر فمعناه: يضجون.

﴿وَقَالُوٓا۟﴾؛ أي: قال قومك قريش ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ﴾ عندك من عيسى، فإن آلهتهم خير عندهم من عيسى ﴿أَمْ هُوَ﴾؛ أي: أم عيسى خير من آلهتنا، وظاهر

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

أن عيسى خير من آلهتنا، فحيث كان هو في النار، فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها، فالاستفهام إنكاري؛ لأن المعنى: ليست خيراً منه، وقيل: معناه أآلهتنا خير أم هو؛ أي: محمد ﷺ فنعبده ونطيعه، ونترك آلهتنا، قاله قتادة، ويؤيد هذا المعنى قراءة ابن مسعود ﴿أآلهتنا خير أم هذا﴾، والأول أولى لتناسق الضمائر في قوله: إن هو إلا عبد، ذكره في «البحر». وقرأ الجمهور[1]: ﴿ءَأَآلِهَتُنَا﴾ بتسهيل الهمزة الثانية بين بين، وقرأ الكوفيون ويعقوب: بتحقيقها، وقرأ ورش في رواية أبي الأزهر: بهمزة واحدة على مثال الخبر، فاحتمل أن تكون همزة الاستفهام محذوفة لدلالة أم عليها، واحتمل أن يكون خبراً محضاً، حكوا: أن آلهتهم خير ثم عن لهم أن يستفهموا على سبيل التنزل من الخبر إلى الاستفهام المقصود به الإفحام، وهذا يتضمن أن آلهتهم خير من عيسى عليه السلام، فعلى قراءة[2] ورش تكون: ﴿أَمْ﴾ منقطعة لا عاطفة، تقدر ببل والهمزة، وأما على قراءة العامة، فتكون متصلة عاطفة على آلهتنا عطف المفردات، والتقدير: أآلهتنا أم هو خير؛ أي: أيهما خير، فالهمزة لطلب التعيين. وعلى قراءة ورش يكون هو مبتدأ، وخبره محذوف تقديره: بل أهو خير، وليست ﴿أَمْ﴾ حينئذ عاطفة اهـ «سمين».

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾؛ أي: ما ضرب قومك لك هذا المثل في عيسى، وما ذكروه ﴿إِلَّا﴾ ليجادلوك ويخاصموك ﴿جَدَلًا﴾؛ أي: جدالاً وخصاماً، ونزاعاً في الحق على أنه منصوب على المصدرية، أو ما ضربوه لك إلا لأجل الجدال والخصام، لا لطلب الحق، حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانك، أو إلا حال كونهم مجادلين على أنه مصدر وقع موقع الحال. وقرأ ابن مقسم: ﴿إلا جدالا﴾ بكسر الجيم وبألف.

وقال بعضهم: مرادهم بهذا الكلام؛ إن قال محمد ﷺ: آلهتكم خير من عيسى، فقد أقر بأنها معبودة، وإن قال: عيسى خير من آلهتكم، فقد أقر بأن عيسى يصلح لأن يعبد، وإن قال: ليس واحد منهم خيراً فقد نفى عيسى، فراموا

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

بهذا السؤال أن يجادلوه ولم يسألوه للاستفادة، فبين الله سبحانه: أن جدالهم ليس لفائدة، إنما هو لخصومة نفس الإنسان فقال: ﴿بَلْ هُمْ﴾؛ أي: قومك قريش ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾؛ أي: لدد شداد الخصومة بالباطل، مجبولون على اللجاج والخلاف، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ وذلك لأنهم قد علموا أن المراد من قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هؤلاء الأصنام بشهادة المقام، لكن ابن الزبعرى لما رأى الكلام محتملاً للعموم بحسب الظاهر، وجد مجالاً للخصومة. وفي الحديث: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أتوا الجدل»، ثم قرأ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾ الآية، أخرجه سعيد بن منصور، وأحمد في جماعة عن أبي أمامة.

ومعنى الآية[1]: أي ولما ضرب ابن الزبعرى عيسى بن مريم مثلاً، وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى له إذا قومك من هذا المثل، يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحاً وسروراً، كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا أعيوا في حجة، ثم فتحت عليهم، وقالوا: إن آلهتنا ليست خيراً من عيسى، فإذا كان عيسى من حصب جهنم، كان أمر آلهتنا أهون، ما ضربوا لك المثل إلا لأجل الجدل والغلبة في القول، لا لإظهار الحق، فإن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إنما ينطبق على الأصنام والأوثان، ولا يتناول عيسى والملائكة، ولكنهم قوم ذوو لدد في الخصومة، مجبولون على سوء الخلق واللجاج.

قال الزمخشري[2]: إن ابن الزبعرى بخبه وخداعه، وخبث دخلته، لما رأى كلام الله ورسوله محتملاً لفظه وجه العموم، مع علمه بأن المراد به أصنامهم، لا غير، وجد للحيلة مساغاً، فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله، على طريقة المحك والجدال، وحب المغالبة والمكابرة، وتوقح في ذلك فتوقر رسول الله ﷺ حتى أجاب عنه ربه، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ فدل به على أن الآية خاصة في الأصنام، انتهى.

---

(١) المراغي. (٢) الكشاف.

ثم بين أن عيسى عبد من عبيده، الذين أنعم الله عليهم بقوله: ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما عيسى بن مريم ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ مربوب ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بفضلنا[1] عليه بالنبوة، أو بخلقه بلا أب، أو بقمع شهوته لا ابن الله، والعبد لا يكون مولى ولا إلهاً، كالأصنام ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ أي: آية وعبرة ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعرفون به قدرة الله سبحانه حيث خلقه من غير أب، وكان يحيي الموتى، ويبرىء الأكمه والأبرص، وكل مريض؛ أي: جعلناه أمراً عجيباً حقيقاً، بأن يسير ذكره، كالأمثال السائرة.

والمعنى[2]: أي ما عيسى بن مريم إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة وروادفها، فهو رفيع المنزلة على القدر، وقد جعلناه آية على قدرتنا، بأن خلقناه من غير أب وشرفناه بالنبوة، وصيرناه عبرة سائرة تفتح للناس باب التذكر والفهم، وليست مخالفة العادة بموجبه لعبادته كما يزعم النصارى، بل مذكرة بعبادة الخالق الحكيم ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ ﴿لو﴾ للمضي، وإن دخل على المضارع ولذا لا يجزمه، ويتضمن ﴿لو﴾ معنى الشرط؛ أي: ولو شئنا ﴿لـ﴾ أهلكناكم يا كفار مكة و﴿جعلنا﴾ بدلاً ﴿مِنْكُمْ مَلَائِكَةً﴾ يسكنون ﴿فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ عنكم؛ أي: يكونون خلفاً عنكم يعمرون الأرض، ويعبدونني، ويطيعونني، ومقصود الآية: أنا لو شئنا لأسكنا الملائكة الأرض، وليس في إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا، أو يقال لهم: بنات الله، قاله السدي. ونحوه عن مجاهد.

وقيل المعنى[3]: ولو شئنا ﴿لَجَعَلْنَا﴾؛ أي: أولدنا؛ أي: لخلقنا بطريق التوالد ﴿مِنْكُمْ﴾ وأنتم رجال من الإنس ليس من شأنكم الولادة. كما ولدنا حواء من آدم، وعيسى من غير أب، وإن لم تجر العادة بذلك ﴿مَلَائِكَةً﴾ كما خلقناهم بطريق الإبداع ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مستقرين فيها كما جعلناهم مستقرين في السماء ﴿يَخْلُفُونَ﴾؛ أي: يخلفونكم، ويصيرون خلفاء بعدكم مثل أولادكم فيما تأتون وتذرون، ويباشرون الأفاعيل المنوطة بمباشرتكم، مع أن شأنهم التسبيح، والتقديس في السماء، فمن شأنهم بهذه المثابة بالنسبة إلى القدرة الربانية، كيف

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

يتوهم استحقاقهم للمعبودية، أو انتسابهم إليه بالولادة. يعني: أن الملائكة مثلكم في الجسمية واحتمال خلقها توليداً لما ثبت أنهم أجسام، والأجسام كلها متماثلة، فيجوز على كل منها ما يجوز على الآخر، كما جاز خلقها إبداعاً، وذات القديم الخالق لكل شيء متعالية عن مثل ذلك.

فقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ...﴾ إلخ، لتحقيق[1] أن مثل عيسى ليس ببدع من قدرة الله، وأنه تعالى قادر على أبدع من ذلك، وهو توليد الملائكة من الرجال، مع التنبيه على سقوط الملائكة أيضاً عن درجة المعبودية، والمعنى الأول أولى وفي الآية إشارة، إلى أن الإنسان لو أطاع الله تعالى، لأنعم الله عليه، بأن جعله متخلقاً بأخلاق الملائكة، ليكون خليفة الله في الأرض بهذه الأخلاق، ليستعد بها إلى أن يتخلق بأخلاق الله، فإنها حقيقة الخلافة.

والمعنى على القول الأول: ولو شئنا لأهلكناكم، وجعلنا بدلكم في الأرض ملائكة يعمرونها ويعبدوننا، وفي الآية على هذا المعنى تهديد وتخويف لكفار قريش، وقد يكون المعنى: ولو شئنا لجعلنا ذريتكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، كما يخلفكم أولادكم، كما خلقنا عيسى من أنثى بلا ذكر، وجعلناه رجلاً.

والخلاصة[2]: أننا لو شئنا لجعلنا في الأرض عجائب، كأمر عيسى بحيث يلد الرجل ملكاً فيخلفه، فباب العجائب وتغير السنن لا حد له عندنا، فكم من نواميس خافية عليكم بيدنا تصريفها.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: وإن عيسى بن مريم عليه السلام بنزوله في آخر الزمان ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي[3]: لشرط من أشراط الساعة، يعلم بنزوله قربها، وتسميته علماً لحصوله به، فهي على المبالغة في كونه مما يعلم به، فكأنه نفس العلم بقربها، أو المعنى: إن حدوثه بغير أب، أو إحياءه الموتى دليل على صحة البعث، الذي

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

هو معظم ما ينكره الكفرة من الأمور الواقعة في الساعة، وهذا المعنى قاله[1] ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والسدي والضحاك وابن زيد، يعني: عود الضمير على عيسى عليه السلام. وقال الحسن وقتادة أيضاً وابن جبير: الضمير يعود على القرآن؛ أي: وإن هذا القرآن يدل إنزاله على قرب الساعة، أو إنه به تعلم الساعة وأهوالها. وقالت فرقة: الضمير يعود على النبي ﷺ إذ هو آخر الأنبياء تميزت به الساعة نوعاً وقدراً من التمييز، ونفي التحديد التام الذي انفرد الله تعالى بعلمه، والأول أولى، إذ الظاهر في الضمائر السابقة أنها عائدة على عيسى.

وروي: أن عيسى عليه السلام، ينزل على ثنية بالأرض المقدسة، يقال لها: أفيق بوزن أمير، قرية بين حوران والغور، وعليه ممصرتان، يعني: ثوبين مصبوغين بالأحمر، فإن المصر الطين الأحمر، والممصر المصبوغ به، كما في «القاموس» وشعر رأسه دهين، وبيده حربة وبها يقتل الدجال، فيأتي بيت المقدس، والناس في صلاة الصبح، وفي رواية في صلاة العصر، فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد ﷺ، ثم يقتل الخنازير، ويكسر الصليب، ويخرب البيع والكنائس، ويقتل اليهود والنصارى إلا من آمن به. وفي حديث آخر: الأنبياء أولاد علات، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم ليس بيني وبينه نبي، وفي «صحيح مسلم»: «ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية»، وزاد غيره «وتهلك في زمانِه الملل كُلها إلا الإسلام»، دل آخر الحديث، على أن المراد بوضع الجزية: تركها ورَفْعُها عن الكفار بأن لا يقبل إلا الإسلام، صرح بذلك النووي. ولعل المراد بالكسر والقتل المذكورين ليس حيقتهما، بل إزالة آثار الشرك عن الأرض.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لَعِلْمٌ﴾ بصيغة المصدر، جعل المسيح علماً، مبالغة لما يحصل من العلم بحصولها عند نزوله. وقرأ ابن عباس وأبو هريرة، وأبو مالك الغفاري وزيد بن علي وقتادة ومجاهد والضحاك ومالك بن دينار والأعمش

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

والكلبي قال ابن عطية وأبو نصرة ﴿لعلم﴾ بفتحتين؛ أي: لعلامة. وقرأ عكرمة به. قال ابن خالويه وأبو نصرة: ﴿للعلم﴾ معرفاً بفتحتين.

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾؛ أي: فلا تشكن يا كفار مكة في وقوع الساعة، ولا تكذبن بها، فإنها كائنة لا محالة من الامتراء، وهو المحاجة فيما فيه مرية ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾؛ أي: واتبعوا هداي وشرعي فيما آمركم به، وأنهاكم عنه من التوحيد وبطلان الشرك، والمعنى: قل لهم يا محمد: اتبعوني ﴿هَٰذَا﴾ الذي أدعوكم إليه وآمركم به من التوحيد وفرائض الله تعالى ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: قويم لا اعوجاج فيه، موصل إلى الحق وإلى رضا الله سبحانه وتعالى.

وقرأ الجمهور[1]: بحذف الياء من ﴿اتبعون﴾ وصلاً ووقفاً، وكذلك قرؤوا بحذفها في الحالين في ﴿أطيعون﴾. وقرأ يعقوب باثباتها وصلاً ووقفاً فيهما. وقرأ أبو عمرو وهي رواية عن نافع بحذفها في الوصل دون الوقف.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ﴾؛ أي: لا يمنعنكم الشيطان، ولا يصرفنكم عن اتباعي؛ أي: لا تغتروا بوساوسه وشبهه التي يوقعها في قلوبكم، فيمنعكم عن اتباعي، فإن الذي دعوتكم إليه هو دين الله الذي اتفق عليه رسله وكتبه، ثم علل نهيهم، عن أن يصدهم الشيطان ببيان عداوته لهم فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن الشيطان ﴿لَكُمْ﴾؛ أي: لبني آدم لا لغيركم ﴿عَدُوٌّ﴾؛ أي: شديد العداوة ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: بيِّن العداوة حيث أخرج أباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور، وعرضكم للبلية.

فائدة: وحكي[2]: أنه لما خرج آدم عليه السلام من الجنة، قال إبليس: أخرجته من الجنة بالوسوسة، فماذا أفعل به الآن، فذهب إلى السباع والوحوش فأخبرهم بخبر آدم، وما يولد منه حتى قالت الوحوش والسباع: ما التدبير والرأي في ذلك قال إبليس: ينبغي أن تقتلوه، وقتل واحد أسهل من قتل ألف، فأقبلوا إلى آدم وإبليس أمامهم، فلما رأى آدم أن السباع قد أقبلت إليه رفع يده إلى

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

السماء، وتضرع إلى الله تعالى، فقال الله: يا آدم امسح بيدك على رأس الكلب، فمسح فكرَّ الكلب على السباع والوحوش حتى هزمها، ومن ذلك اليوم صار الكلب عدو للسباع، التي هي أعداء لآدم وأولاده، وأصله: أن إبليس بصق على آدم حين كان طيناً، فوقع بصاقه على موضع سرته، فأمر الله سبحانه وتعالى جبرئيل حتى قور ذلك الموضع، فخلق من القوارة الكلب، ولذا أنس بآدم وصار حامياً له. ويقال: المؤمن بين خمسة أعداء: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وعدو يقتله، ونفس تغويه، وشيطان يضله.

والمعنى[1]: أي إنه مظهر لعداوته لكم غير متحاش، ولا متكتم لها، كما يدل على ذلك ما وقع بينه وبين أبيكم آدم، من امتناعه عن السجود له، وما ألزم به نفسه من إغواء جميع بني آدم إلا عباد الله المخلصين.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ﴾ إلى بني إسرائيل ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الواضحة والشرائع الربانية، وقال قتادة: البينات هنا الإنجيل ﴿قَالَ﴾ لهم عيسى ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾ يا بني إسرائيل وبعثت إليكم ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾؛ أي: بالإنجيل أو بالشريعة لأعلمكم، وقيل: الحكمة كل ما يرغب في الجميل، ويكف عن القبيح ﴿و﴾ جئتكم ﴿لِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أحكام التوراة، قيل: إن بني إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياء من أمر دينهم، وقيل: ذلك البعض ما يتعلق بأمور الدين، وأما ما يتعلق بأمور الدنيا فليس بيانه من وظائف الأنبياء، كما قال ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»، لأن اختلافهم يكون فيها وفي غيرها من الأمور التي لا تتعلق بالديانات، فأمور الديانات بعض ما يختلفون فيه، وبين لهم في غيره ما احتاجوا إليه، واللام في قوله: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم﴾ معطوفة على مقدر، كأنه قال: قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها، ولأبين لكم.

فإن قلت[2]: كيف قال عيسى عليه السلام لأمته ذلك، مع أن كل نبي يلزمه أن يبين لأمته كل ما يختلفون فيه؟.

---

(١) روح البيان.

(٢) فتح الرحمٰن.

قلت: المرادُ: أنه يبين لهم مما اختلفوا فيه ما يحتاجونه دون ما لا يحتاجونه، وقال أبو عبيدة: المراد بالبعض: الكل، كما في قوله: يصبكم بعض الذي يعدكم، ورده الناس عليه، وقال مقاتل: هو كقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ﴾ أي: في الإنجيل من لحم الإبل والشحم من كل حيوان، وصيد السمك يوم السبت من كل ما حرم عليهم في التوراة.

والمعنى[1]: ولما جاءهم عيسى بالمعجزات الواضحة قال: قد جئتكم بالشرائع التي فيها صلاح البشر، ولأبين لكم بعض ما اختلف فيه قوم موسى، من أحكام الدين دون أمور الدنيا، كطرق الفلاحة والتجارة، فإن الأنبياء لم يبعثوا لبيانها، كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ حين نهاهم عن تأبير النخل - تلقيحه بطلع الذكر - ففقد الثمر ولم يغل شيئاً نافعاً: «أنتم أعلم بأمور دنياكم، وأنا أعلم بأمور دينكم».

ولما بين لهم أصول الدين وفروعه قال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: اتقوا عقابه في مخالفتي أن يحل بكم ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ أي: أطيعوني فيما أبلغه عنه تعالى من الشرائع والتكاليف، فإن طاعتي طاعة الله سبحانه وتعالى، كما قال من يطع الرسول فقد أطاع الله.

ثم فصل ما يأمرهم به بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي يستحق إفراده بالألوهية، وإخلاص العبادة له ﴿هُوَ رَبِّى﴾ ومالكي ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ ومالككم، فأنا وأنتم عبيد له فقراء إليه، فخصوه بالعبادة والتوحيد، وهذا بيان[2] لما أمرهم بالطاعة فيه، وهو اعتقاد التوحيد، والتعبد بالشرائع ﴿هَٰذَا﴾ الذي جئتكم به من التوحيد، والتعبد بالشرائع، ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه، وكل الديانات جاءت بمثله، فما هو إلا اعتقاد بوحدانية الله تعالى، وتعبد بشرائعه، وفي «التأويلات النجمية»: فاعبدوه ولا تعبدوني، فإني في العبودية شريك معكم، وإنه متفرد بربوبيته إيانا، وتعبدنا إياه صراط مستقيم لا اعوجاج فيه، وهذا تتمة كلام عيسى عليه السلام،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أو استئناف من الله، يدل على ما هو المقتضي للطاعة في ذلك، ولما كان الطريق القويم يجب الاجتماع عليه، والاتفاق على سلوكه، بين أنهم خالفوا ذلك فاختلفوا فيه، فقال: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾؛ أي: فاختلفت الفرق المتخربة من اليهود والنصارى في شأن عيسى عليه السلام، بعد رفعه إلى السماء اختلافاً ناشئاً ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾؛ أي: من قبل أنفسهم لم يدخلهم الاختلاف من غيرهم، فقالت اليهود لعنهم الله تعالى: ابن زانية زنت أمه بيوسف النجار، وقالت اليعقوبية من النصارى: هو الله، وقالت النسطورية: هو ابن الله، وقالت الملكانية: هو شريك الله، وقالت المرقوسية: هو ثالث ثلاثة.

وفي «التأويلات النجمية»: تفرق قومه الذين بعث إليهم أحزاباً وفرقاً، حزب آمنوا به أنه عبد الله ورسوله، وحزب آمنوا به أنه ثالث ثلاثة فعبدوه بالألوهية، وحزب اتخذوه ولداً لله وابناً له، تعالى الله عما يقول الظالمون، وحزب كفروا به وجحدوا نبوته، وظلموا عليه، وأرادوا قتله. وقيل: المراد بالأحزاب: الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ، وكذبوه وهم المرادون بقوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾. والأول أولى. فقال الله في حق الظالمين المشركين: ﴿فَوَيۡلٞ﴾؛ أي: فشدة عذاب ﴿لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من هؤلاء المتحزبين، الذين وضعوا القول في غير موضعه، ففيه إظهار في مقام الإضمار، تسجيلاً عليهم باسم الظلم ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: وجيع عذابه، وهو يوم القيامة، والمراد: يوم أليم العذاب، كقوله: في يوم عاصف؛ أي: عاصف الريح. والاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ للإنكار، والضمير لكفار مكة؛ أي: ما ينتظر هؤلاء المشركون، وقيل: للأحزاب المختلفة؛ أي: ما ينتظر هؤلاء الأحزاب المتفرقة، وهذا أوفق بمقتضى السياق، وقيل: جميع الكفرة، وهذا أولى لعمومه؛ أي: ما ينتظر الكفار ولا يرتقبون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ والقيامة ﴿أَن تَأۡتِيَهُم﴾ بدل[1] من الساعة؛ أي: إلا إتيانَ الساعة، ولما كانت الساعة تأتيهم لا محالة كانوا كأنَّهم ينتظرونها، وانتصاب ﴿بَغۡتَةٗ﴾ على المصدرية؛ أي: إتيان بغتة وفجأة. قال في «الإرشاد»:

---

(١) روح البيان.

فجأةً لكن لا عند كونهم مترقبين لها، بل غافلين عنها مشتغلين بأمور الدنيا، منكرين لها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ولا يعلمون بإتيانها، فيجازي كل الناس على حسب أعمالهم، فلا تؤدي ﴿بَغۡتَةً﴾ مؤدى قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، حتى لا يستغنى بها عنه؛ لأنه ربما يكون إتيان الساعة بغتةً مع الشعور بوقوعه، والاستعداد له، لأنه إذا لم يعرف وقت مجيئه ففي أي وقت جاء أتي بغتةً، وربما يجيء والشخص غافل عنه منكر له، والمراد هنا: هو الثاني، فلذا وجب تقييد إتيان الساعة بمضمون الجملة الحالية، فعلى العاقل الخروج عن كل ذنب، والتوبة لكل جريمة، قبل أن يأتي يوم أليم عذابه، وهو يوم الموت، فإن ملائكة العذاب ينزلون فيه على الظالمين، ويشددون عليهم حتى تخرج أرواحهم الخبيثة بأشد العذاب.

والمعنى[1]: أي هل ينتظر هؤلاء الأحزاب المختلفون في شأن عيسى، القائلون فيه الباطل من القول إلا أن تقوم الساعة بغتةً، وهم غافلون عنها، لا يعلمون بمجيئها لاشتغالهم بأمر دنياهم وإنكارهم لها، فيندمون حين لا ينفعهم الندم، ولا يدفع ذلك عنهم شيئاً، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾.

روى ابن مردويه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «تقوم الساعة والرجلان يحلبان الشاة، والرجلان يطويان الثوب»، ثم قرأ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

واعلم[2]: أن القيامة ثلاث:

الكبرى: وهي حشر الأجساد، والسوق إلى المحشر للجزاء.

والصغرى: وهي موت كل أحد، كما قال ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته» ولذا جعل القبر روضةً من رياض الجنة، أو حفرةً من حفر النيران.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والوسطى: وهي موت جميع الخلائق، وقيام هذه الوسطى لا يعلم وقته يقينا، وإنما يعلم بالعلامات المنقولة عن الرسول ﷺ، مثل: أن يرفع العلم، و يكثر الجهل، والزنا، وشرب الخمر، ويقل الرجال، ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأةً القيم الواحد.

وعن علي رضي الله عنه: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من الدين إلا رسمه، ولا من القرآن إلا درسه، يعمرون مساجدهم، وهي خراب عن ذكر الله تعالى، شر أهل ذلك الزمان علماؤهم منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود»، يعني: يهدى به ولا يهتدي، فنعوذ بالله من علم بلا عمل.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ والأصدقاء؛ أي[1]: المتحابون في الدنيا على الإطلاق، أو في الأمور الدنيوية ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تأتيهم الساعة، وهو ظرف لقوله: ﴿عَدُوٌّ﴾. والفصل بالمبتدأ غير مانع، والتنوين فيه عوض عن الجملة المحذوفة التي أضيف إليها إذ ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ أي: يعادي بعضهم بعضاً؛ لأنه قد انقطعت بينهم علائق الخلة والتحاب، واشتغل كل واحد منهم بنفسه، ووجدوا تلك الأمور التي كانوا فيها أخلاء أسباباً للعذاب، فصاروا أعداء، ثم استثنى المتقين فقال ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإن خلتهم في الدنيا، لما كانت في الله بقيت على حالها، ولم تنقطع، بل تزداد بمشاهدة كل منهم آثار الخلة، من الثواب ورفع الدرجات. والاستثناء على الأول متصل، وعلى الثاني منقطع.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير سبحانه إلى أن كل خلة وصداقة تكون في الدنيا مبنية على الهوى والطبيعة الإنسانية، وتكون في الآخرة عداوةً يتبرأ بعضهم من بعض. والأخلاء في الله خلتهم باقية إلى الأبد، وينتفع بعضهم من بعض، ويشفع بعضهم في بعض، ويتكلم بعضهم في شأن بعض، وهم المتقون الذين استثناهم الله سبحانه، وشرائط الخلة في الله أن يكونا متحابين في الله محبةً خالصة لوجه الله، من غير شوب بعلة دنيوية، هوائية، متعاونين في طلب الله،

---

(١) روح البيان.

ولا يجري بينهم مداهنة، فبقدر ما يرى بعضهم في بعض من صدق الطلب والجد، والاجتهاد يساعده، ويوافقه، ويعاونه، فإذا علم منه شيئاً لا يرضاه الله تعالى، لا يرضاه من صاحبه، ولا يداريه، فقد قيل: المداراة في الشريعة كفر، بل ينصحه بالرفق والموعظة الحسنة، فإذا عاد إلى ما كان عليه وترك ما تجدد لديه يعود إلى صدق مودته وحسن صحبته، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ انتهى.

ثم ذكر ما يتلقى الله سبحانه وتعالى به عباده المتقين، المتحابين في الله تشريفاً لهم، وتسكيناً لروعتهم مما يرون من الأهوال فقال: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ من لقاء المكاره ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ من فوت المقاصد، كما يخاف ويحزن غير المتقين، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو: ﴿يا عبادي﴾ بإثبات الياء، ساكنة وصلاً ووقفا. وقرأ أبو بكر وزر بن حبيش بإثباتها وفتحها في الحالين. وقرأ الباقون بحذفها في الحالين. وقرأ الجمهور: ﴿لَا خَوْفٌ﴾: مرفوعاً منوناً، وابن محيصن بالرفع من غير تنوين، والحسن والزهري وابن أبي إسحاق وعيسى وابن يعمر بفتحها من غير تنوين، ذكره في «البحر»؛ أي[1]: ونقول لهم يومئذ: يا عبادي لا تخافوا من عقابي. فإني قد أمنتكم منه برضاي عنكم، ولا تحزنوا على فراق الدنيا، فإن الذي تقدمون عليه خير لكم مما فارقتموه منها.

ثم بين من يستحق هذا النداء وذلك التكريم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدقوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وعملوا بجميع ما فيها ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: منقادين لتكاليفنا بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي. وجملة ﴿كَانُوا۟﴾ حال من ﴿الواو﴾ في ﴿ءَامَنُوا۟﴾، أو عطف على الصلة؛ أي: مخلصين وجوههم لنا، جاعلين أنفسهم سالمةً لطاعتنا، وفي الآية إشارة إلى الإيمان بالآيات التنزيلية، والتكوينية.

والمعنى: أي الذين آمنت قلوبهم، وصفت نفوسهم، وانقادت لشرع الله بواطنهم وظواهرهم، والموصول يجوز أن يكون نعتاً لعبادي، أو بدلاً منه، أو

---

(١) المراغي.

عطف بيان له، أو مقطوعاً عنه في محل نصب على المدح، أو في محل رفع على الابتداء، وخبره قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ على تقدير يقال لهم: ادخلوا الجنة، والأول أولى، وبه قال الزجاج؛ أي: ويقال لهم على سبيل البشرى: ادخلوا الجنة أيها المؤمنون ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾؛ أي: نساؤكم المؤمنات، وقيل: قرناؤهم من المؤمنين. وقيل: زوجاتهم من الحور العين، والأول أولى. حال كونكم ﴿تُحۡبَرُونَ﴾؛ أي: تسرون سروراً يظهر حباره، بفتح الحاء وكسرها؛ أي: أثره على وجوهكم لقوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾، أو تزينون من الحبرة، وهو حسن الهيئة، وبعدئذ ذكر طرفاً مما يتمتعون به من النعيم فقال: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾؛ أي: على العباد المؤمنين بعد دخولهم الجنة، والطائف[1]: الخادم ومن يدور حول البيت حافظاً، والإطافة كالطوف والطواف؛ أي: يدار عليهم بأيدي الغلمان والولدان ﴿بِصِحَافٖ﴾ وقصاع وجفان مخلوقة ﴿مِّن ذَهَبٖ﴾ مملوءة بألوان من الطعام والحلوى، جمع صحفة كجفان جمع جفنة، وهي القصعة العريضة الواسعة، قال السدي: ليست لها آذان، قال الكسائي: أعظم القصاع الجفنة، ثم القصعة، وهي تشبع عشرةً ثم الصحفة، وهي تشبع خمسة، ثم المكيلة، وهي تشبع الرجلين والثلاثة.

والمعنى: أن لهم في الجنة أطعمةً، يطاف عليهم بها في صحاف الذهب ﴿و﴾ لهم فيها أشربة، يطاف عليهم بها في ﴿أكواب﴾ وكاسات من ذهب، جمع كوب، وهو كوز لا عروة له ولا خرطوم، ليشرب الشارب من حيث شاء، قال سعدي المفتي: قللت الأكواب، وكثرت الصحاف؛ أي: كما دل عليهما الصيغة لأن المعهود قلة أواني الشرب بالنسبة إلى أواني الأكل.

والمعنى[2]: أي وبعد أن استقروا في الجنة، وهدأ روعهم، يطاف عليهم بجفان من الذهب. مترعة بألوان الأطعمة والحلوى، وبأكواب فيها أصناف الشراب مما لذ وطاب.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وبعد أن فصل بعض ما في الجنة من نعيم، عمم في ذلك فقال: ﴿وَفِيهَا﴾؛ أي: وفي الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ وتطلبه؛ أي: أنفس أهل الجنة من فنون الملاذ والمشتهيات النفسانية، كالمطاعم والمشارب والمناكح والملابس، والمراكب، ونحو ذلك. وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وابن عامر وابن عباس وحفص: ﴿تَشْتَهِيهِ﴾ بإثبات الضمير العائد على الموصول، وقرأ الجمهور[1]، وباقي السبعة: بحذف الهاء.

قال في «الأسئلة المقحمة»: أهل الجنة هل يعطيهم الله جميع ما يسألونه، وتشتهي أنفسهم ولو اشتهت أنفسهم شيئاً من مناهي الشريعة كيف يكون حاله؟

والجواب: معنى الآية أن نعيم الجنة كله مما تشتهيه الأنفس، وليس فيها ما لا تشتهيه النفوس، ولا تصل إليه، وقد قيل: يعصم الله سبحانه أهل الجنة من شهوة محالٍ، أو منهي عنه، يقول الفقير: دل هذا على أنه ليس في الجنة اللواطة المحرمة في جميع الأديان والمذاهب، ولو في دبر امرأته، فإن الإمام مالكاً رحمه الله تعالى رجع عن تجويز اللواطة في دبر امرأته، وليس فيها اشتهاء اللواطة، لكونها مخالفة للحكمة الإلهية، وقد جوزها بعضهم في «شرح الأشباح»، وغلط فيه غلطاً فاحشاً، وأما الخمر فليست كاللواطة لكونها حلالا على بعض الأمم.

والحاصل: أنه ليس في الجنة ما يخالف الحكمة كائناً ما كان، ولذا تستر فيها الأزواج عن غير محارمهن، وإن كان لا حل ولا حرمة هناك؛ أي: وفيها[2] ما تشتهيه الأنفس من الأشياء المعقولة والمسموعة والملموسة، جزاءً لهم بما منعوا أنفسهم من الشهوات في الدنيا ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾؛ أي: تستلذه الأعين، وتقر بمشاهدته من الأشياء المبصرة، جزاء ما تحملوه من منع أعينهم، من نظر ما لا يجوز شرعاً، وفي مصحف عبد الله: ﴿ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين﴾ بإثبات الهاء فيهما.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

قال جعفر[1]: شتان بين ما تشتهي الأنفس، وبين ما تلذ الأعين؛ لأن ما في الجنة من النعيم والشهوات واللذات في جنب ما تلذ الأعين، كأصبح يُغمس في بحر، لأن شهوات الجنة لها حد ونهاية؛ لأنها مخلوقة، ولا تلذ الأعين في الدار الباقية إلا بالنظر إلى الوجه الباقي الذي لا حد له ولا نهاية.

﴿وَأَنتُمْ﴾ يا عبادي ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: باقون دائمون، لا تخرجون ولا تموتون، إذ لولا البقاء والدوام لنغص العيش، ونقص السرور، والاشتهاء، واللذة فلم يكن التنعم كاملاً، والخوف والحسرة زائلاً بخلاف الدنيا، فإنها لفنائها عيشها مشوب بالكدر، ونفعها مخلوط بالضرر.

والمعنى[2]: أي وفي الجنة ما تشتهيه أنفس أهلها من صنوف الأطعمة والأشربة، والأشياء المعقولة والمسموعة ونحوها، مما تطلبه النفوس وتهواه، كائناً ما كان، جزاءً لهم على ما منعوا أنفسهم من الشهوات، وفيها ما تقر أعينهم بمشاهدته، وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، وأنتم لا تخرجون منها، ولا تبغون عنها حولاً.

أخرج ابن أبي شيبة والترمذي عن عبد الرحمٰن بن سابط قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل في الجنة خيل، فإني أحب الخيل، قال: «إن يدخلك الله الجنة، فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء، فتطير بك في أي الجنة شئت إلا فعلت». وسأله آخر فقال: يا رسول الله هل في الجنة من إبل، فإني أحب الإبل، فقال: «إن يدخلكَ الله الجنة، يكن لك ما اشتهت نفسك ولذت عينك».

ثم ذكر أن هذا كان فضلاً من ربكم، آتاكموه كفاء أعمالكم التي أسلفتموها فقال: ﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ، إشارة إلى الجنة المذكورة ﴿الْجَنَّةُ﴾ خبره ﴿الَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾؛ أي: أعطيتموها، وجعلتم ورثتها، وصارت إليكم كما يصير الميراث إلى الوارث ﴿بِمَا﴾ الباء سببية؛ أي: بسبب ما ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الأعمال الصالحة وقيل: اسم الإشارة مبتدأ، والجنة صفته، والتي أورثتموها صفة للجنة، والخبر بما كنتم تعملون، وقيل: الخبر الموصول مع صلته، والأول أولى، وعليه أكثر المفسرين.

والمقصود(١): أن دخول الجنة بمحض فضل الله تعالى ورحمته، واقتسام الدرجات بسبب الأعمال، والخلود فيها بحسب عدم السيئات، شبه جزاء العمل بالميراث، لأن العامل يكون خليفة العمل على جزائه، يعني: يذهب العمل ويبقى جزاؤه مع العامل، فكان العمل كالموروث، وجزاؤه كالميراث.

والمعنى: أي وهذه الجنة جعلها الله تعالى لكم باقية، كالميراث الذي يبقى عن المورث جزاء ما قدمتم من عمل صالح، أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة، ومنزل في النار، فالكافر يرث المؤمن منزله في النار، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾».

وبعد أن ذكر الطعام والشراب ذكر الفاكهة فقال: ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون المتقون ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة سوى الطعام والشراب ﴿فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ بحسب(٢) الأنواع، والأصناف لا بحسب الأفراد فقط. والفواكه من أشهى الأشياء للناس، وألذها عندهم، وأوفقها لطباعهم وأبدانهم، ولذلك أفردها بالذكر ﴿مِّنْهَا﴾؛ أي: بعضها ﴿تَأْكُلُونَ﴾ في نوبة لكثرتها، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، لا ترى فيها شجرة خلت من ثمرها لحظةً، فهي مزينة بالثمار أبداً موفرة بها، وفي الحديث: «لا ينزع رجل في الجنة ثمرةً من ثمرها، إلا نبت مثلاها مكانها»، فمن تبعيضية، والتقديم للتخصيص، ويجوز أن تكون ابتدائيةً، وتقدم الجار للفاصلة، أو للتخصيص، كالأول فيكون فيه دلالة على أن كل ما يأكلون للتفكه ليس فيها تقوت، إذ لا تحلل حتى يحتاج إلى الغذاء.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: لكم فيها صنوف من الفواكه لا حصر لها، تأكلون منها حيثما شئتم، وكيفما اخترتم.

ولما ذكر سبحانه حال أهل الجنة، وما يقال لهم من لذائذ البشارة.. أعقب ذلك بذكر حال الكفرة، وما يجاوبون به عند سؤالهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: إن المشركين الراسخين الكاملين في الإجرام والإشراك حسبما ينبىء عنه إيرادهم في مقابلة المؤمنين بالآيات ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾ متعلق بقوله: ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون فيه أبداً لا ينقطع عذابهم في جهنم، كما ينقطع عذاب عصاة المؤمنين، على تقدير دخولهم فيها ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا يخفف عنهم العذاب، ولا ينقص من قولهم: فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً، ونقص حرها. والجملة في محل النصب على الحال ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: المجرمون ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾؛ أي: آيسون من النجاة والراحة، وخفة العقوبات، وعن الضحاك: يجعل المجرم في تابوت من النار، ثم يردم عليه فيبقي فيه خالداً، لا يرى ولا يرى. وقيل: ساكتون سكوت يأس، وقرأ عبد الله ﴿وهم فيها﴾؛ أي: في جهنم، والجمهور ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾؛ أي: في العذاب.

وفي «التأويلات النجمية»: في الآية إشارة، إلى أن أهل التوحيد وإن كان بعضهم في النار، لكن لا يخلدون فيها، ويفتر عنهم العذاب بدليل الخطاب، وقد ورد في الخبر: «إنه يميتهم الحق إماتةً إلى أن يخرجهم من النار، والميت لا يحس ولا يألم» وذكر في الآية وهم مبلسون؛ أي: خائبون، وهذه صفة الكفار، والمؤمنون وإن كانوا في بلائهم، فهم على وصف رجائهم، يعدون أيامهم إلى أن تنتهي أشجانهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بذلك؛ أي: ما عذبناهم بغير ذنب، ولا بزيادة على ما يستحقونه ﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟﴾؛ أي: المجرمون ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بما فعلوا من الإشراك والمعاصي لتعريض أنفسهم للعذاب الخالد، بالكفر والمعاصي. و﴿هُمُ﴾ ضمير[2] فصل عند البصريين، من حيث إنه فصل به بين كون ما بعده خبراً أو

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

نعتاً، وتسمية الكوفيين له عماداً، لكونه حافظاً لما بعده، حتى لا يسقط عن الخبرية، كعماد البيت، فإنه يحفظ سقفه من السقوط، وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالنصب، على أنه خبر كان، والضمير ضمير فصل، وقرأ عبد الله وأبو زيد النحوي: ﴿الظالمون﴾ بالرفع على أنه خبر ﴿هُمُ﴾، و﴿هُمُ﴾: مبتدأ، وذكر أبو عمرو الجرمي أن لغة تميم جعل ما هو فصل عند غيرهم مبتدأ، ويرفعون ما بعده على الخبر، وقال أبو زيد: سمعتهم يقرؤون ﴿تجدوه عند الله هو خيرٌ وأعظمُ أجرا﴾، يعني: برفع خير وأعظم.

والمعنى[2]: أي: إن الذين اجترموا الكفر بالله في الدنيا، يجازيهم ربهم بعذاب جهنم خالدين فيه أبداً لا ينفك عنهم، ولا يجدون عنها حولاً، ولا يخفف عنهم لحظةً، وهم فيه ساكتون سكوت يأس من النجاة والفرج، ولا منافاة بين هذا وبين قوله الآتي: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ إلخ، لأن تلك أزمنة متطاولة، وأحقاب ممتدة، فتختلف بهم الأحوال، فيسكتون تارة لغلبة اليأس عليهم، وعلمهم أنه لا فرج، ويشتد عليهم العذاب أخرى فيستغيثون.

ثم ذكر أن ذلك العذاب جزاء ما كسبت أيديهم، فقال: وما ظلمنا هؤلاء المجرمين بفعلنا بهم، ما أخبرناكم أننا فاعلون بهم، ولكن هم الذين أساؤوا إلى أنفسهم، فكذبوا الرسل وعصوهم، بعد أن أقاموا الحجة عليهم فأتوهم بباهر المعجزات.

ثم ذكر ما يقوله أهل النار، وما يجيبهم به خزنتها، فقال: ﴿وَنَادَوْا۟﴾؛ أي: ونادى المجرمون من شدة العذاب، فقالوا: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ هو خازن النار، قرأ[3] الجمهور: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ بدون ترخيم، وقرأ عبد الله وعلي وابن وثاب والأعمش: ﴿يا مالِ﴾ بالترخيم، على لغة منم ينتظر الحرف المحذوف، وقرأ أبو السرار الغنوي: ﴿يا مالُ﴾ بالبناء على الضم، جعله اسماً على حياله على لغة من لا

---

(١) البحر المحيط والمراغي.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

ينتظر، واللام في ﴿لِيَقْضِ﴾ لام الطلب والرغبة؛ أي: ليقض ﴿عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ بالموت حتى لا يتكرر عذابنا؛ أي: ليمتنا حتى نستريح من ألم العذاب، من قضى عليه إذا أماته، كقوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: أماته، توسلوا بمالك إلى الله سبحانه وتعالى، ليسأله لهم أن يقضي عليهم بالموت، فيستريحوا من العذاب.

والمعنى[1]: سل ربك يا مالك، أن يقضي علينا، وهذا لا ينافي ما ذكر من إبلاسهم أولاً كما مر، لأنه جؤار؛ أي: صياح وتمن للموت، لفرط الشدة ﴿قَالَ﴾ مالك مجيباً لهم بعد أربعين سنة، يعني: ينادون مالكاً أربعين سنة، فيجيبهم بعدها، كما قاله عبد الله بن عمرو، أو بعد مئة سنة، كما قاله نوف، أو بعد ألف سنة، كما قاله ابن عباس، وقيل: بعد ثمانين سنة؛ لأن تراخي الجواب أحزن لهم ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ المكث ثبات مع انتظار؛ أي: إنكم مقيمون في العذاب أبداً، لا خلاص لكم منه بموت ولا بغيره، فليس بعدها إلا جؤار كصياح الحمير، أوله زفير وآخره شهيق.

والمعنى[2]: أي ونادى المجرمون من شدة العذاب، فقالوا: يا مالك، ادع لنا ربك أن يقبض أرواحنا ليريحنا مما نحن فيه، فأجابهم بقوله: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ لا خروج لكم منها، ولا محيص لكم عنها. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾، وقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

ثم خاطبهم خطاب تقريع وتوبيخ، وبين سبب مكثهم فيها بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم﴾ أيها المجرمون في الدنيا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بإرسال، وإنزال الكتب. وهو خطاب توبيخ من جهة الله تعالى مقرر لجواب مالك، ومبين لسبب مكثهم، ويحتمل[3] أن يكون من كلام مالك، والأول أولى.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

والمعنى: أنا أرسلنا إليكم الرسل، وأنزلنا عليهم الكتب فدعوكم إلى التوحيد فلم تقلبوا ولم تصدقوا، وهو معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾ أيها المجرمون ﴿لِلْحَقِّ﴾ أي حق كان ﴿كَٰرِهُونَ﴾؛ أي: لا يقبلون، وينفرون منه مشمئزين منه.

والمعنى: أي لقد بينا لكم الحق على ألسنة رسلنا، وأنزلنا إليكم الكتب مرشدة إليه، ولكن سجاياكم وطبائعكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل، وتعظمه وتصد عن الحق وتأباه وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة.

وبعد أن ذكر كيفية عذابهم في الآخرة، بين سببه، وهو مكرهم، وسوء طويتهم في الدنيا، فقال: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟﴾ و﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة التي تقدر بمعنى بل والهمزة؛ أي: بل أأبرم كفار قريش ﴿أَمْرًا﴾ وأحكموا كيداً، واحتالوا حيلة للرسول ﷺ في فتكه، كما فعلوا في اجتماعهم على قتله ﷺ في دار الندوة إلى غير ذلك، وفي ذلك انتقال من توجع أهل النار إلى حكاية ما يقع من هؤلاء. والإبرام[1]: الإتقان والإحكام، يقال: أبرمت الشيء أحكمته وأتقنته، وأبرم الحبل إذا أحكم فتله.

والمعنى: بل أأحكموا كيداً للنبي ﷺ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾؛ أي: محكمون لهم كيداً قاله مجاهد وقتادة وابن زيد، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾. وقيل: المعنى أم قضوا أمراً فإنا قاضون عليهم أمرنا بالعذاب، قاله الكلبي.

والخلاصة: بل هم تحيلوا في رد الحق بالباطل بوجوه من الحيل والمكر، فكادهم الله تعالى، ورد عليهم سوء كيدهم بتخليدهم في النار، معذبين فيها أبداً ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾؛ أي: بل أيحسب كفار مكة ويظنون ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾؛ أي: ما يسرون به في أنفسهم من حديث النفس، أو ما يتحدثون به سراً في مكان خال

---

(١) روح البيان.

من كيد النبي ﷺ؛ لأنهم كانوا مجاهرين بتكذيب الحق ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾؛ أي: ما يتناجون ويتحدثون به فيما بينهم بطريق التناجي، والتشاور في شأن النبي ﷺ ﴿بَلَىٰ﴾ نحن نسمعهما، ونطلع عليهما ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم، ويلازمونهم أينما كانوا ﴿لَدَيْهِمْ﴾؛ أي: عندهم ﴿يَكْتُبُونَ﴾؛ أي: يكتبونهما، أو يكتبون كل ما صدر منهم من الأفعال والأقوال، التي من جملتها ما ذكر من سرهم ونجواهم، ثم تعرض عليهم يوم القيامة، فإذا كان خفاياهم غير خفية على الملائكة، فكيف على عالم السر والنجوى، ولقد أجاد من قال:

إِنِّيْ لَمُسْتَتِرٌ مِنْ عَيْنِ جِيْرَانِيْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارِيْ وَإِعْلاَنِيْ

والجملة[1] معطوفة على ما يترجم عنه بلى، وفي «التأويلات النجمية»: خوفهم بسماعه أحوالهم، وكتابة الملك عليهم أعمالهم لغفلتهم عن الله تعالى، ولو كان لهم خبر عن الله لما خوفهم بغير الله، ومن علم أن أعماله تكتب عليه، ويطالب بمقتضاها، قل إلمامه بما يخاف أن يسأل عنه. قال يحيى بن معاذ: من ستر من الناس ذنوبه، وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية، فقد جعله أهون الناظرين إليه، وهو من أمارات النفاق، ولما قدم في أول السورة تبكيتهم والتعجب منهم في ادعائهم لله ولداً من الملائكة، وهددهم بقوله: ستكتب شهادتهم ويسألون.. أمر الله سبحانه رسوله ﷺ، أن يقول للكفار قولاً يلزمهم به الحجة، ويقطع ما يوردونه من الشبهة، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للكفرة ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ فرضاً، كما تقولون: الملائكة بنات الله ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ لذلك الولد، وأسبقكم إلى تعظيمه والانقياد له، وذلك لأنه ﷺ أعلم الناس بشؤونه تعالى، وبما يجوز عليه، وبما لا يجوز، وأولاهم بمراعاة حقوقه، ومن موجب تعظيم الوالد تعظيم ولده؛ أي: إن يثبت بحجة قطعية كون الولد للرحمن، كما تزعمون فأنا أولكم في التعظيم، وأسبقكم إلى الطاعة تعظيماً لله تعالى، وانقياداً لأن الداعي إلى طاعته وتعظيمه أول وأسبق في ذلك، وكون الولد له تعالى، مما هو مقطوع بعدم وقوعه، ولكن نزل منزلة ما لا جزم لوقوعه، واللاوقوعه على

---

(١) روح البيان.

المساهلة، وإرخاء العنان لقصد التبكيت، والإسكان والإلزام، فجيء بكلمة إن المفيدة للشك، فلا يلزم من هذا الكلام صحة كينونة الولد، وعبادته، لأنها محال في نفسها يستلزم المحال، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض، وهو المبالغة في نفي الولد، والإطناب مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد، قال جعفر الصادق رحمه الله تعالى: وأول ما جرى به القلم لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، قال: فأنا أول العابدين أحق بتوحيد الله، وذكر الله سبحانه.

وقال ابن عباس[1]: ﴿إِن كَانَ﴾؛ أي: ما كان للرحمٰن ولد ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾؛ أي: الشاهدين له بذلك. وقيل: العابدين بمعنى الآنفين؛ أي: أنا أول الجاحدين المنكرين لما قلتم، وأنا أول من غضب للرحمٰن أن يقال له ولد. وهو[2] تكلف لا ملجىء إليه، ولكنه قرأ أبو عبد الرحمٰن اليماني ﴿العبدين﴾ بغير ألف، يقال: عبد يعبد عبداً، بالتحريك من باب فرح، إذا أنف وغضب فهو عبد، والاسم العبدة مثل الأنفة، ولعل الحامل لمن قرأ هذه القراءة على هذه القراءة الشاذة البعيدة هو استبعاد معنى: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾، وليس بمستبعد ولا مستنكر، وقد حكى الجوهري عن أبي عمرو في قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أنه من الأنف والغضب، وحكاه الماوردي عن الكسائي والقتيبي، وبه قال الفراء، وكذا قال ابن الأعرابي: إن معنى العابدين الغضاب الآنفين، وقال أبو عبيدة: معناه: الجاحدين، وحكي عبدني حقي؛ أي: جحدني. وقد أنشدوا على هذا المعنى الذي قالوه قول الفرزدق:

أُولَـئِـكَ آبَـائِـيْ فَـجِـئْـنِـيْ بِـمِـثْـلِـهِـمْ ... وَأَعْـبُـدُ أَنْ أَهْـجُـوْ كُـلَـيْـبَـاً بِـدَارِمِ

وقوله أيضاً:

أُوْلَـئِكَ نَـاسٌ لَـوْ هَـجَـوْنِـيْ هَـجَـوْتُـهُـمْ ... وَأَعْـبُـدُ أَنْ يُـهْـجَـىٰ كُـلَـيْـبٌ بِـدَارِمِ

ولا شك أن عبد وأعبد بمعنى أنف، أو غضب ثابت في لغة العرب، وكفى

---

(١) الخازن. (٢) الشوكاني.

بنقل هؤلاء الأئمة حجةً، ولكن جعل ما في القرآن من هذا من التكلف الذي لا مجلىء إليه، ومن التعسف الواضح، وقد رد ابن عرفة ما قالوه فقال: إنما يقال: عبد يعبد فهو عبد، وقل ما يقال: عابد، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذ. وقرأ الجمهور: ﴿ولد﴾ بفتح اللام بالإفراد، وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً ﴿ولد﴾ بضم ﴿الواو﴾ وسكون اللام.

والمعنى: أي قل يا محمد لكفار قريش: إن ثبت ببرهان صحيح توردونه، وحجة واضحة تدلون بها، أن للرحمٰن ولداً كنت أنا أسبقكم إلى طاعته والانقياد له، كما يعظم الرجل ابن الملك تعظيماً لأبيه، ولا شك أن هذا أبلغ أسلوب في نفي الولد، كما يقول الرجل لمن يناظره ويجادله: إن ثبت ما تقول بالدليل، فأنا أول من يعتقده، ويقول به، وهذا ما اختاره ابن جرير ورجحه.

ثم نزه سبحانه نفسه، فقال: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: تنزيها له وتقديساً عما يقولون من الكذب، بأن له ولداً، ويفترون عليه سبحانه ما لا يليق بجنابه، وهذا إن كان من كلام الله سبحانه، فقد نزه نفسه عما قالوه، وإن كان من تمام كلام رسوله ﷺ، الذي أمره بأن يقوله.. فقد أمره بأن يضم إلى ما حكاه عنهم، بزعمهم الباطل، تنزيه ربه وتقديسه، وفي إضافة اسم الرب إلى أعظم الأجرام وأقواها، تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته وربوبيته، كيف يتوهم أن يكون شيء منها جزءاً منه سبحانه ﴿رَبِّ ٱلْعَـرْشِ﴾ في تكرير اسم الرب، تفخيم لشأن العرش ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: يصفونه به، وهو الولد. قال في «بحر العلوم» أي: سبحوا رب هذه الأجسام العظام، لأن مثل هذه الربوبية توجب التسبيح على كل مربوب فيها، ونزهوه عن كل ما يصفه الكافرون به من صفات الأجسام، فإنه لو كان جسماً لم يقدر على خلق هذا العالم، وتدبير أمره.

والمعنى: أي تنزه مالك السموات والأرض وما فيهما من الخلق، ورب العرش المحيط بذلك كله، عما يصفه به المشركون كذباً، وعما ينسبون إليه من الولد إذ كيف تكون هذه العوالم كلها ملكاً له، ويكون شيء منها جزءاً منه، تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً.

ولما ذكر الدليل القاطع على نفي الولد، أمره أن يتركهم وشأنهم فيما يقولون، فقال: ﴿فَذَرْهُمْ﴾؛ أي: اترك أيها الرسول هؤلاء الكفرة، حيث لم يذعنوا للحق بعد ما سمعوا هذا البرهان الجلي، ولم يهتدوا بما هديتهم به، ولا أجابوك إلى ما دعوتهم إليه ﴿يَخُوضُواْ﴾ بالجزم في جواب الطلب؛ أي: يشرعوا في أباطيلهم وأكاذيبهم والخوض[1]: هو الشروع في الماء، والمرور فيه، ويستعار للأمور، وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه، كما في «المفردات» ﴿وَيَلْعَبُواْ﴾ في دنياهم، ويلهوا فيها، فإن ماهم فيه من الأقوال والأفعال ليست إلا من باب الجهل واللعب يقال: لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً، قالوا: كل لعب لا لذة فيه فهو عبث، وما كان فيه لذة فهو لعب ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ ويعاينوا ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ على لسانك، وهو يوم القيامة، فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا وما يفعل بهم، قال سعدي المفتي: والأظهر: يوم الموت، فإن خوضهم ولعبهم إنما ينتهي به.

يقول الفقير: وفيه أن الموعود هو يوم القيامة؛ لأنه الذي كانوا ينكرونه، لا يوم الموت الذي يشكون فيه، ولما كان يوم الموت متصلاً بيوم القيامة، على ما أشار إليه قوله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته» جعل الخوض واللعب منتهيين بيوم القيامة.

وفي الآية: إعلام بأنهم من الذين طبع الله على قلوبهم، فلا يرجعون عما هم عليه أبداً، وإشارة إلى أن الله سبحانه، خلق الخلق أطواراً مختلفة، فمنهم من خلقه للجنة، فيستعده للجنة بالإيمان والعمل الصالح وانقياد الشريعة ومتابعة النبي ﷺ، ومنهم من خلقه للنار، فيستعده للنار، برد الدعوة والإنكار والجحود والخذلان، ويكله إلى الطبيعة النفسانية الحيوانية، التي تميل إلى اللهو واللعب والخوض فيما لا يعنيه، ومنهم من خلقه للقربة والمعرفة، فيستعده لهما بالمحبة والصدق والتوكل واليقين.

واعلم: أن الاشتغال بما سوى الله تعالى من قبيل اللهو واللعب إذ ليس فيه

---

(١) روح البيان.

مقصد صحيح وإنما المطلب الأعلى هو الله سبحانه وتعالى، ولذا خرج السلف عن الكل، ووصلوا إلى مبدأ الكل، جعلنا الله وإياكم من المشتغلين به.

وقال عكرمة وغيره[1]: هو يوم بدر، وأضاف اليوم إليهم؛ لأنه الذي فيه هلاكهم وعذابهم، قيل: وهذا الأمر بتركهم منسوخ بآية السيف، وقيل: هو غير منسوخ، وإنما أخرج مخرج التهديد. وقرأ الجمهور: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟﴾. وقرأ مجاهد وأبو جعفر وابن محيصن وحميد وعبيد بن عقيل عن أبي عمرو وابن السميقع ﴿حتى يلقوا﴾ بفتح الياء وإسكان اللام من غير ألف، مضارع لقي من باب رضي.

وحاصل معنى الآية[2]: أي فاترك أيها الرسول هؤلاء المفترين على الله الواصفيه، بأن له ولداً، يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم حتى يأتي ذلك اليوم، الذي لا محيص عنه، وحينئذ يعلمون عاقبة أمرهم، ويذوقون الوبال والنكال، جزاء ما اجترحوه من الشرك والآثام، ولا يخفى ما في هذا من شديد الوعيد والتهديد.

ثم أكد هذا التنزيه، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾؛ أي[3]: مستحق لأن يعبد فيها؛ أي: هو معبود أهل السماء من الملائكة، وبه تقوم السماء وليس حالّاً فيها ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾؛ أي: مستحق لأن يعبد فيها؛ أي: فهو معبود أهل الأرض من الإنس والجن، وإلٰه الآلهة التي تدعون، ولا قاضي لحوائج أهل الأرض إلا هو، وبه تقوم الأرض وليس حالاً فيها.

فالظرفان متعلقان بـ﴿إِلَٰهٌ﴾ لأنه بمعنى المعبود بالحق، أو متضمن معناه كقولهم: هو حاتم؛ أي: جواد لاشتهاره بالجود، وكذا في قراءة من قرأ ﴿وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله﴾، ومنه قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: وهو الواجب الوجود المعبود المستحق للعبادة

---

(1) البحر المحيط.

(2) المراغي.

(3) روح البيان.

فيهما، والعائد إلى الموصول مبتدأ محذوف لطول الصلة بمتعلق الخبر، وهو ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ والعطف عليه، والتقدير: وهو الذي هو في السماء إله، وهو في الأرض إلٰه، قاله أبو علي الفارسي قال: والمعنى على الإخبار بإلاهيته فيهما، لا على الكون والحلول فيهما، وقيل: ﴿فِي﴾ بمعنى على؛ أي: هو القادر على السماء والأرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِلَٰهٌ﴾ في الموضعين، وقرأ عمر وعبد الله وأبي وعلي والحكم بن أبي العالي وبلال بن أبي بردة وابن يعمر وجابر وابن زيد وعمر بن عبد العزيز وأبو الشيخ الهنائي وحميد وابن مقسم وابن السميقع ﴿الله﴾ فيهما كما مر آنفاً بيانه.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما دبره لخلقه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالحهم، فهو كالدليل على ما قبله والتعليل له؛ لأنه المتصف بكمال الحكمة والعلم، المستحق للألوهية لا غيره؛ أي: وهو الحكيم في تدبير العالم وأهله، العليم بجميع الأحوال من الأزل إلى الأبد.

فإن قلت: ما في هذه[2] الآية يقتضي تعدد الآلهة؛ لأن النكرة إذا أعيدت نكرة تعددت، كقولك: أنت طالق وطالق.

قلت: لا إلٰه هنا بمعنى المعبود، وهو تعالى معبود فيهما، والمغايرة إنما هي بين معبوديته في السماء ومعبوديته في الأرض؛ لأن المعبودية من الأمور الإضافية، فيكفي التغاير فيها من أحد الطرفين، فإذا كان العابد في السماء غير العابد في الأرض صدق أن معبوديته في السماء غير معبوديته في الأرض مع أن المعبود واحد.

وحاصل معنى الآية[3]: أي: وهو الله الذي يعبده أهل السماء وأهل الأرض، ولا تصلح العبادة إلا له، وهو الحكيم في تدبير خلقه، وتسخيرهم لما

---

(١) البحر المحيط.
(٢) فتح الرحمٰن.
(٣) المراغي.

يشاء، العليم بمصالحهم، فالحكمة المقترنة بالعلم تخللت كل رطب ويابس، وجليل وحقير، فمن يشاهد إتقان العالم وحسن تنسيقه وإبداعه، يجد الحكمة فيه على أتم وجوهها، ويعجب مما فيه من جمال وكمال، ويدهش لما يجد فيه من غرائب يحار فيها اللب، فأفردوا له العبادة، ولا تشركوا به شيئاً سواه ﴿وَتَبَارَكَ﴾؛ أي: تعالى وتقدس عن الولد والشريك، وجل عن الزوال والانتقال، الإله ﴿الَّذِي﴾ فاعل تبارك ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: سلطنتهما ﴿و﴾ سلطنة ﴿ما بينهما﴾ إما على الدوام كالهواء، أو في بعض الأوقات كالطير والسحاب؛ أي: تزايد خيره، وعمت بركته، وتبارك: تفاعل من البركة، وهي كثرة الخير معنى ﴿و﴾ تبارك الذي ﴿عنده علم﴾ وقت قيام ﴿السَّاعَةِ﴾؛ أي: القيامة لا يعلمها إلا هو ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالموت ثم البعث، فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير أو شر، والالتفات فيه للتهديد، وقرأ الجمهور[1]: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بتاء الخطاب مبنيا للمفعول، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بياء الغيبة كذلك، وقرىء بفتح تاء الخطاب مبنياً للفاعل.

والمعنى: أي وتقدس خالق السمٰوات والأرض وما فيهما من عوالم لا ندري كنهها، ولا نعلم حقيقتها، المتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة من أحد، وعنده علم وقت مجيء الساعة، لا يجليها لوقتها إلا هو، وإليه المرجع، فيجازي كل أحد بما يستحق إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌ.

﴿وَلَا يَمْلِكُ﴾؛ أي: لا يقدر ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾؛ أي: يدعو الكفار ويعبدونهم ﴿مِن دُونِهِ﴾ تعالى ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ عند الله تعالى، كما يزعمون ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ﴾ وأقر، واعتقد ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي هو التوحيد. والاستثناء[2] إما متصل والموصول عام، لكل ما يعبد من دون الله تعالى، كعيسى وعزير والملائكة وغيرهم، أو منقطع على أنه خاص بالأصنام، وجملة قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بما يشهدون به عن بصيرة وإيقان وإخلاص، حال من فاعل ﴿شَهِدَ﴾، والجمع باعتبار معنى ﴿من﴾، كما أن الإفراد أولاً باعتبار لفظها، والمعنى[3] على الاتصال: إلا

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

من شهد بالحق، وهم المسيح، وعزير، والملائكة، فإنهم يملكون الشفاعة لمن يستحقها. وعلى الانقطاع: لكن من شهد بالحق يشفع في هؤلاء، ويجوز أن يكون المستثنى منه محذوفاً؛ أي: لا يملكون الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق، قال سعيد بن جبير وغيره: معنى الآية: أنه لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة. وقال قتادة: لا يشفعون لعابديهم بل يشفعون لمن شهد بالوحدانية، وقرأ الجمهور: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالتحتية، وقرأ السلمي وابن وثاب بالفوقية.

والمعنى[1]: ولا تقدر الأصنام والأوثان التي يعبدونها على الشفاعة لهم، كما زعموا أنهم شفعاء عند ربهم، ولكن من نطق بكلمة التوحيد، وكان على بصيرة وعلم من ربه، كالملائكة، وعيسى تنفع شفاعتهم عنده بإذنه لمن يستحقها.

ثم بين أن هؤلاء المشركين، متناقضوا الأقوال والأفعال، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لئن سألت يا محمد العابدين والمعبودين ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾؛ أي: من أوجدهم، وأخرجهم من العدم إلى الوجود﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾؛ أي: ليقرون جميعاً، ويعترفون بأن خالقهم الله، ولا يقدرون على الإنكار والجحود لتعذر الإنكار، لغاية ظهوره ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فمع إقرارهم بأن خالقهم هو الله سبحانه، كيف يصرفون عن عبادته تعالى إلى عبادة غيره؟ فهو[2] استفهام تعجيب من جحودهم التوحيد، مع ارتكازه في فطرتهم، فإن المعترف بأن الله خالقه، إذا عمد إلى صنم أو حيوان، وعبده مع الله، أو عبده وحده فقد عبد بعض مخلوقات الله، وفي هذا من الجهل ما لا يقادر قدره، وقيل: المعنى ولئن سألت هؤلاء المشركين، العابدين للأصنام، ليقولن: الله. وقيل: ولئن سألت المسيح، وعزيراً، والملائكة من خلقهم؟ ليقولن: الله، فأنى يؤفك هؤلاء الكفار عن عبادة الله تعالى، باتخاذهم آلهة.

قال في «الأسئلة المقحمة»: فإن قلت: هذا دليل على أن معرفة الله

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

ضرورية، ولا تجب بالسمع الضروريات؛ لأنه تعالى أخبر عن الكفار، أنهم كانوا يقرون بوحدانية الله قبل ورود السمع.

قلتُ: إنهم يقولون ذلك تقليداً لا دليلاً، وضرورةً، ومعلوم أن في الناس من أهل الإلحاد من ينكر الصانع، ولو كان ضرورياً لما اختلف فيه اثنان، انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: بياء الغيبة مناسباً لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾؛ أي: كيف يصرفون عن عبادة من أقروا أنه موجد العالم. وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو بتاء الخطاب.

ومعنى الآية: أي ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله، العابدين غيره تعالى، من خلق الخلق جميعاً؟ ليعترفن بأنه هو الله تعالى وحده، لا شريك له في ذلك، ولا يستطيعون الجحود لظهور الأمر وجلائه، فكيف ينقلبون عن عبادة الله إلى عبادة غيره، وينصرفون عنها مع هذا الاعتراف، وفي هذا تعجيب شديد من إشراكهم بعد هذا.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وقيلَه﴾ بالنصب عطفاً على محل الساعة، كأنه قيل: إنه يعلم الساعة ويعلم قيله، أو عطفاً على سرهم ونجواهم؛ أي: يعلم سرهم ونجواهم ويعلم قيله؛ أي: قول محمد ﷺ: إن هؤلاء قوم إلخ، أو عطفاً على مفعول يكتبون المحذوف؛ أي: يكتبون ذلك ويكتبون قيله، أو عطفاً على مفعول يعلمون المحذوف؛ أي: يعلمون ذلك ويعلمون قيله أو منصوب على المصدرية بفعله المحذوف؛ أي: قال قيله، أو منصوب على حذف حرف القسم، ومن المجوزين للوجه الأول: المبرد وابن الأنباري، ومن المجوزين للثاني: الفراء والأخفش، ومن المجوزين للنصب على المصدرية الفراء والأخفش أيضاً. وقرأ حمزة وعاصم: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ بالجر عطفاً على لفظ الساعة؛ أي: وعنده علم الساعة وعلم قيله، أو على أن ﴿الواو﴾ للقسم، وقرأ قتادة ومجاهد والحسن وأبو قلابة والأعرج وابن هرمز ومسلم بن جندب ﴿وقيله﴾ بالرفع عطفاً على ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

أي: وعنده علم الساعة وعنده قيله، أو على الابتداء، وخبره الجملة المذكورة بعده، أو خبره محذوف تقديره: وقيله كيت وكيت، أو وقيله مسموع.

قال بعضهم[1]: والأوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه، يعني: أن الجر على إضمار حرف القسم، كما في قولك: اللَّهِ لأفعلن، النصب على حذفه وإيصال فعله إليه، كقولك: اللَّه لأفعلن، كأنه قيل: وأقسم قيله، أو بقيله. والفرق بين الحذف والإضمار أنه في الحذف لا يبقى للذاهب أثر. نحو: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، وفي الإضمار يبقى له الأثر نحو: ﴿ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾، والتقدير: افعلوا خيراً لكم.

ويجوز الرفع في ﴿قيله﴾ على أنه قسم مرفوع بالابتداء، محذوف الخبر كقولهم: أيمن الله، ويكون ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلخ جواب القسم؛ أي: وقيله يا رب قسمي إن هؤلاء إلخ، وذلك لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، بما لا يحسن اعتراضاً إن كان مرفوعاً معطوفاً على ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، بتقدير مضاف مع تنافر النظم، ورجح الزمخشري احتمال القسم لسلامته عن وقوع الفصل وتنافر النظم، ولكن في القسم التزام حذف وإضمار بلا قرينةٍ ظاهرة في اللفظ الذي لم يشتهر استعماله في القسم.

قال أبو عبيد[2]: يقال: قلت قولاً وقيلاً وقالاً. والضمير في ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ راجع إلى النبي ﷺ، قال قتادة: هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه. وقيل: الضمير عائد إلى المسيح، وعلى الوجهين فالمعنى: أنه قال منادياً لربه ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين أرسلتني إليهم ﴿قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

والمعنى[3]: أي ويعلم سبحانه علم الساعة، وقوله ﷺ لربه شاكياً قومه، الذين كذبوه، ولقي منهم شديد الأذى: يا رب إن هؤلاء المشركين الذين أمرتني بإنذارهم، وأرسلتني إليهم لتبليغهم دينك الحق قوم لا يؤمنون؛ أي: لا يريدون الإيمان. ولما شكا الرسول ﷺ إلى ربه عدم إيمانهم، أجابه الله سبحانه وتعالى

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

بقوله: ﴿فَاصْفَحْ﴾ يا محمد، وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾؛ أي: عن هؤلاء المشركين؛ أي: أعرض عن دعوتهم، واقنط من إيمانهم، ﴿وَقُلْ﴾ لهم أمري وشأني ﴿سَلَامٌ﴾ منكم؛ أي: سلامتي منكم، وتبرّ منكم ومن دينكم، ومتاركة لكم، ولا تجبهم بمثل ما يخاطبونك به من سيىء الكلام، بل تألفهم، واصفح عنهم قولاً وفعلاً، فليس المأمور به السلام عليهم والتحية، بل البراءة كقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ﴾ وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾، وقال قتادة: أمره بالصفح عنهم ثم أمره بقتالهم، . فصار الصفح منسوخاً بالسيف، وقيل: محكمة لم تنسخ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم وسوء كفرهم، فإنك ستنصر عليهم، ويحل بهم بأسنا الذي لا يرد وإن تأخر، ففيه تهديد شديد، ووعيد عظيم من الله عز وجل، وقد أنجز الله وعده، وأنفذ كلمته، وأعلى دينه، وشرع الجهاد والجلاد، فدخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، فله الحمد والمنة على إظهار الحق، وإعلاء مناره، وإزهاق الباطل، وكبح جماحه.
وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بياء الغيبة مناسباً قوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾. وقرأ أبو جعفر والحسن والأعرج ونافع وهشام وابن عامر ﴿تعلمون﴾ بالفوقية.

الإعراب

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾.

﴿وَلَمَّا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ﴾: فعل مغير، ونائب فاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لمّا﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿مَثَلًا﴾: مفعول ثان لـ﴿ضُرِبَ﴾؛ لأن ﴿ضُرِبَ﴾ ضمن معنى جعل، ويجوز أن يعرب حالاً؛ أي: ذكر ممثلاً به، ﴿إِذَا﴾: حرف فجأة رابطة جواب ﴿لمّا﴾ وجوباً، ﴿قَوْمُكَ﴾ مبتدأ، ﴿مِنْهُ﴾: متعلق بـ﴿يَصِدُّونَ﴾، وجملة

---

(١) البحر المحيط.

﴿يَصِدُّونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿لمّا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لمّا﴾ مستأنفة. ﴿وَقَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على جواب ﴿لما﴾، ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا﴾ الهمزة: للاستفهام، لطلب تعيين أحد الأمرين، ﴿آلهتنا﴾: مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾ خبره. ﴿أَمْ﴾ حرف عطف متصلة، ﴿هُوَ﴾ معطوف على آلهتنا، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿مَا﴾ نافية، ﴿ضَرَبُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿لَكَ﴾ متعلق بـ﴿ضَرَبُوهُ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿جَدَلًۢا﴾ مفعولا لأجله؛ أي: ما ذكروه لك إلا لأجل الجدال، والمراء واللجاج، لا لإظهار الحق، ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال؛ أي: ما ذكروه لك إلا حال كونهم مجادلين لك، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وانتقال، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿قَوْمٌ﴾: خبر، ﴿خَصِمُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمٌ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾: عطف اسمية على فعلية، ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿عَبْدٌ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَنْعَمْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿أَنْعَمْنَا﴾، وجملة ﴿أَنْعَمْنَا﴾ صفة لـ﴿عَبْدٌ﴾، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿جعلناه مثلاً﴾: فعل وفاعل، ومفعولان، ﴿لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ صفة لـ﴿مَثَلًا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنْعَمْنَا﴾.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لو﴾ حرف شرط، ﴿نَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، ﴿لَجَعَلْنَا﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿جعلنا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنكُم﴾ في موضع المفعول الثاني إن كان ﴿جعلنا﴾ بمعنى صيرنا، وإن كان بمعنى خلقنا، فالجار والمجرور متعلق بـ﴿جعلنا﴾، ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾ مفعول أول، أو مفعول به، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ﴿يَخْلُفُونَ﴾، وجملة ﴿يَخْلُفُونَ﴾ صفة لـ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾، وجملة ﴿جعلنا﴾ جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ...﴾ إلخ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، واللام: حرف ابتداء، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿لِّلسَّاعَةِ﴾ صفة ﴿علم﴾، ﴿فَلَا﴾: الفاء: فاء

الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم كونه علماً للساعة، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم، فأقول لكم ﴿لا تمترن بها﴾، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَمْتَرُنَّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، في محل الرفع فاعل، والنون المشددة نون التوكيد، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿بِهَا﴾ متعلق بـ﴿تَمْتَرُنَّ﴾، ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿اتبعوا﴾: فعل أمر، وفاعل مبني على حذف النون، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة في محل النصب مفعول به، والجملة معطوفة على جملة النهي، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿صِرَٰطٌ﴾ خبر ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾ صفة ﴿صِرَٰطٌ﴾، والجملة الاسمية مسوقة لتعليل الأمر بالاتباع.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿يَصُدَّنَّكُمُ﴾: فعل مضارع، في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والكاف مفعول به، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُۖ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ﴿عَدُوٌّ﴾، أو حال منه، ﴿عَدُوٌّ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة ﴿عَدُوٌّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿جَآءَ عِيسَىٰ﴾: فعل وفاعل، فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ متعلق بـ﴿جَآءَ﴾، وجملة ﴿قَالَ﴾ جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿جِئْتُكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَلِأُبَيِّنَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام لام كي، ﴿أبين﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿عِيسَىٰ﴾، ﴿لَكُم﴾

متعلق بـ﴿أبين﴾، ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى﴾: مفعول به، ومضاف إليه، وجملة أبين مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، والتقدير: ولتبييني لكم بعض الذي فيه تختلفون، الجار والمجرور متعلق بمقدر، معطوف على ﴿جِئْتُكُم﴾، تقديره: قد جئتكم بالحكمة وجئتكم لتبييني لكم، ولم يترك العاطف ليتعلق بما قبله، ليؤذن بالاهتمام بالعلة، حتى جعلت كأنها كلام برأسه، ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: الفاء: عاطفة تفريعية، ﴿اتقوا الله﴾، فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾: على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أطيعوا﴾: فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب، مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ويجوز أن تجعل الفاء في ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: استئنافية، فيكون الكلام مستأنفاً من الله، للدلالة على طريق الطاعة ومحجتها الواضحة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿رَبِّى﴾: خبر، ﴿إِنَّ﴾، ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ معطوف على ﴿رَبِّى﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مفسرة لما تقدم من قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾. ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم كون الله ربي وربكم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: اعبدوه. ﴿ٱعبدوه﴾ فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿صِرَٰطٌ﴾: خبر، ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾ صفة ﴿صِرَٰطٍ﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَٱخْتَلَفَ﴾: الفاء: استئنافية، ﴿اختلف الأحزاب﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من الأحزاب؛ أي: حال كونهم

مختلفين من قبل أنفسهم وباختيارهم، أو حال كون الأحزاب بعضهم؛ أي: بعض النصارى، إذ بقي منهم فرقة أخرى مؤمنة، يقولون: إنه عبد الله ورسوله، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿فَوَيْلٌ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿ويل﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور، خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿اختلف﴾، وجملة ﴿ظَلَمُوا﴾ صلة الموصول؛ أي: فعذاب شديد كائن وحاصل للذين ﴿ظَلَمُوا﴾، ﴿مِنْ عَذَابِ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، ﴿يَوْمٍ﴾: مضاف إليه، ﴿أَلِيمٍ﴾ صفة ﴿يَوْمٍ﴾ أي: فعذاب شديد، كائن للذين ظلموا، حال كون ذلك العذاب من عذاب يوم أليم عذابه، وهو يوم القيامة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿هَلْ﴾ حرف استفهام للاستفهام الإنكاري؛ أي: لا ينظرون، ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿السَّاعَةَ﴾ مفعول به، ﴿أَن﴾ حرف مصدر، ﴿تَأْتِيَهُم﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿السَّاعَةَ﴾، ومفعول به، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على كونه بدلاً من الساعة؛ أي: هل ينظرون إلا الساعة إلا إتيانها إياهم، ﴿بَغْتَةً﴾ حال من فاعل ﴿تَأْتِيَهُم﴾؛ أي: حال كونها باغتة، ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من مفعول ﴿تَأْتِيَهُم﴾ ﴿الْأَخِلَّاءُ﴾ مبتدأ أول، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف إلى مثله، متعلق بـ﴿عَدُوٌّ﴾، ﴿بَعْضُهُمْ﴾ مبتدأ ثان، ﴿لِبَعْضٍ﴾ حال من عدو، لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿عَدُوٌّ﴾ خبر للمبتدأ الثاني، وجملة المبتدأ الثاني مع خبره خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿الْمُتَّقِينَ﴾: مستثنى منصوب بـ﴿إِلَّا﴾، ﴿يَا عِبَادِ﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿عباد﴾ منادى مضاف إلى يا المتكلم، المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة المناسبة، وجملة النداء في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال لهم: يا عباد لا

خوف عليك، ﴿لَا﴾: نافية، تعمل عمل ليس، ﴿خَوْفٌ﴾ اسمها، ﴿عَلَيْكُمُ﴾ خبرها، أو ﴿لَا﴾ مهملة، ﴿خَوْفٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعه بعد النفي ﴿عَلَيْكُمُ﴾: خبرها، والجملة الاسمية مقول للقول المحذوف. ﴿الْيَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور قبله، ﴿وَلَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية مهملة، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تَحْزَنُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿الَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿عباد﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾ صلته، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ متعلق بـ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُوا﴾: على كونها صلة الموصول.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿ادْخُلُوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل ﴿الْجَنَّةَ﴾ مفعول به، منصوب على السعة، والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿تُحْبَرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿ادْخُلُوا﴾، أو في محل النصب مقول القول، ﴿يُطَافُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿عَلَيْهِم﴾: في موضع رفع نائب فاعل، ﴿بِصِحَافٍ﴾: متعلق بـ﴿يُطَافُ﴾، ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾: صفة ﴿صحاف﴾، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ معطوف على ﴿صحاف﴾، وذكر الذهب في الصحاف، واستغنى به عن الإعادة في الأكواب، كقوله تعالى: ﴿وَالذَّٰكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّٰكِرَٰتِ﴾. ﴿وَفِيهَا﴾: خبر مقدم، ﴿مَا﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿يُطَافُ﴾. ﴿تَشْتَهِيهِ﴾: فعل ومفعول، ﴿الْأَنفُسُ﴾ فاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ فعل وفاعل، معطوف على صلة ﴿مَا﴾، والعائد محذوف، تقديره: تلذه الأعين، ﴿وَأَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾. ﴿خَٰلِدُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنتُمْ

﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ وهو من جملة ما يقال لهم، وما بينهما اعتراض اعترض به، لبيان صفات الجنة. ﴿وَتِلْكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿تلك﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿ٱلَّتِىٓ﴾ صفة لـ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾، ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، أو المصدرية. ﴿لَكُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿فِيهَا﴾: حال من فاكهة، و﴿فَٰكِهَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿كَثِيرَةٌ﴾ صفة أولى لـ﴿فَٰكِهَةٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من مرفوع ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾، ﴿مِّنْهَا﴾ متعلق بـ﴿تَأْكُلُونَ﴾، وجملة ﴿تَأْكُلُونَ﴾ صفة ثانية لـ﴿فَٰكِهَةٌ﴾، ولكنها سببية، والرابط ضمير ﴿مِّنْهَا﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾، و﴿خَٰلِدُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُفَتَّرُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على العذاب. ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلق بـ﴿يُفَتَّرُ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من عذاب جهنم، ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هم﴾: مبتدأ، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿مُبْلِسُونَ﴾، و﴿مُبْلِسُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿خَٰلِدُونَ﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿ظَلَمْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على جملة ﴿إنّ﴾، ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك مهمل. ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿ظَلَمْنَٰهُمْ﴾.

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَنَادَوْا۟﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿نادوا﴾: فعل ماض وفاعل، والجملة معطوفة

على جملة ﴿إنّ﴾ وعبر بالماضي عن المضارع إيذاناً بتحقق وقوعه، فهو من باب أتى أمر الله، ﴿يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾: مقول محكي لـ﴿نادوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿مالك﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿نادوا﴾؛ لأنه بمعنى قالوا. ﴿لِيَقْضِ﴾ اللام: لام الأمر، ﴿يقض﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق به، ﴿رَبُّكَ﴾ فاعل، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مالك﴾، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّكُم﴾ ناصب واسمه، ﴿مَّـٰكِثُونَ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول قال، ﴿لَقَدْ﴾ اللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿جِئْنَـٰكُم﴾ فعل، وفاعل، ومفعول، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق به، والخطاب لأهل مكة عام لمؤمنهم وكافرهم، والقائل هو الله تعالى، على لسان رسوله ﷺ، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، مقررة لجواب مالك لأهل النار، ومبينة لسبب مكثهم، كما قاله أبو السعود، ويحتمل أن يكون هذا، من قول مالك لأهل النار؛ أي: إنكم ماكثون في النار، لأنا جئناكم بالحق في الدنيا، ﴿وَلَـٰكِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكنّ﴾: حرف نصب واستدراك، ﴿أَكْثَرَكُمْ﴾: اسمها، ﴿لِلْحَقِّ﴾ متعلق بـ﴿كَـٰرِهُونَ﴾، و﴿كَـٰرِهُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لكنّ﴾ معطوفة على ما قبلها، على كونها جواب القسم.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿أَبْرَمُوٓا۟﴾: فعل ماض وفاعل، ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿فَإِنَّا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿إنّا﴾: ناصب واسمه، ﴿مُبْرِمُونَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿أبرموا﴾، ﴿أَمْ﴾: منقطعة كما ذكرنا آنفاً. ﴿يَحْسَبُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿أَنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾: معطوف على ﴿سِرَّهُمْ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي

﴿حسب﴾، ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب، يجاب بها لإثبات نفي ما قبلها، قائم مقام جملة الجواب، تقديره: نسمع ذلك، والجملة الجوابية المحذوفة مستأنفة، ﴿وَرُسُلُنَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿رسلنا﴾: مبتدأ، ﴿لَدَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿يَكْتُبُونَ﴾ وجملة ﴿يَكْتُبُونَ﴾: خبر ﴿رسلنا﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الجواب، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾: خبرها مقدم، ﴿وَلَدٌ﴾: اسمها مؤخر، ﴿فَأَنَا۠﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿أنا﴾: مبتدأ، ﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿سُبْحَٰنَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، وجملة ﴿سُبْحَٰنَ﴾: مستأنفة، ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مضاف إليه، ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾: بدل من ﴿رَبِّ﴾ الأول، ﴿عَمَّا﴾: متعلق بـ﴿سُبْحَٰنَ﴾، وجملة ﴿يَصِفُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَذَرْهُمْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت تعنتهم وتمردهم، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك ذرهم، ﴿ذرهم﴾: فعل، ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿يَخُوضُوا۟﴾: فعل مضارع وفاعل مجزوم بالطلب السابق، والجملة جملة جوابية، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾: معطوف على ﴿يَخُوضُوا۟﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يُلَٰقُوا۟﴾: فعل مضارع، وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى الجارة، ﴿يَوْمَهُمُ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلىٰ؛ أي: إلى ملاقاتهم يومهم، الجار والمجرور، متعلق بـ﴿يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ على سبيل التنازع، ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة لـ﴿يَوْمَهُمُ﴾، وجملة

﴿يُوعَدُونَ﴾ من الفعل المغير ونائبه صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يوعدونه، ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿هو﴾: مبتدأ، ﴿ٱلَّذِى﴾: خبره، والجملة مستأنفة، ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بإله؛ لأنه في تأويل معبود، ﴿إِلَٰهٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: وهو الذي هو إلٰه في السماء، والجملة الاسمية صلة الموصول، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿هو﴾ مبتدأ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ خبر أول، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ خبر ثان، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ ﴿وَتَبَارَكَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية، ﴿تبارك الذي﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على ما قبلها. ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم، ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الموصول، ﴿وَمَا﴾: معطوف على السموات، ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول. ﴿وَعِندَهُۥ﴾ خبر مقدم، ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الصلة. ﴿وَإِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وجملة ﴿تُرْجَعُونَ﴾: معطوفة على جملة الصلة.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية، ﴿يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿يَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يدعونهم، ﴿مِن دُونِهِ﴾: متعلق بـ﴿يَدْعُونَ﴾، ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ مفعول يملك. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، ويحتمل كون الاستثناء منقطعاً، والمعنى: ولا يملك آلهتهم الأصنام والأوثان الشفاعة كما زعموا، ولكن من شهد، وأقر بالتوحيد كعيسى، وعزير يملك الشفاعة في مستحقيها، وأن يكون متصلا، والمعنى: ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق، فهو استثناء من المفعول المحذوف، ﴿شَهِدَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق بـ﴿شَهِدَ﴾، ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿شَهِدَ﴾، والجمع باعتبار معنى

﴿مَن﴾؛ أي: شهدوا بالحق بألسنتهم، حال كونهم يعلمون بقلوبهم حقية ما شهدوا بألسنتهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَلَئِن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿سَأَلْتَهُم﴾: فعل ماض وفاعل ومفعول أول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿مَّنْ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ثان. ﴿خَلَقَهُمْ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول، صلة مَن الموصولة. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: اللام: موطئة للقسم، مؤكدة للأولى، ﴿يقولن﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، في محل الرفع فاعل، والنون المشددة نون التوكيد؛ لأن أصله: ليقولونن، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: وإن سألتهم: من خلقهم، يقولون: الله، وجملة الشرط معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل بفعل محذوف، دل عليه ما قبله، تقديره: خلقهم الله، أو مبتدأ، خبره محذوف تقديره: الله خلقهم، والأول أولى؛ لأن الجملة الفعلية في هذا الباب أكثر، فالحمل عليها أولى، والجملة الفعلية أو الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿يقولن﴾، ﴿فَأَنَّىٰ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿أنى﴾: اسم استفهام بمعنى كيف، في محل النصب على الحال من مرفوع ﴿يُؤْفَكُونَ﴾، و﴿يُؤْفَكُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة القسم، ﴿وَقِيلِهِۦ﴾؛ أي: وقوله ﷺ بالجر، يقال في إعرابه ﴿الواو﴾ حرف جر وقسم، ﴿قيله﴾ مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم بقول محمد ﷺ. ﴿يَـٰرَبِّ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول لـ﴿قيله﴾. ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ ناصب واسمه، ﴿قَوْمٌ﴾: خبره، وجملة ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمٌ﴾، وجملة ﴿إن﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم

مع جوابه، معطوفة على جملة القسم الأول، وهذا أحسن الأعاريب في هذا المقام، وقرئ بالنصب على المصدرية بفعله المقدر، تقديره: وقال محمد ﷺ قوله يا رب إلخ. وقيل: معطوف على ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾، كما مر ذلك كله مبسوطاً في مبحث التفسير. وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر ما بعده، أو أن الخبر محذوف تقديره: وقوله مسموع أو مقبول. ﴿فَٱصْفَحْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنهم قوم لا يؤمنون، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: اصفح عنهم. ﴿اصفح﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَقُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿فَٱصْفَحْ﴾، ﴿سَلَٰمٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمري وشأني ومطلبي، سلامة من إذايتكم، وبراءة من دينكم، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾، ﴿فَسَوْفَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس واستقبال. ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون، ومفعوله محذوف للتفخيم تقديره: عاقبة أمرهم، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱصْفَحْ﴾: على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ أي: جعل، ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: حجة وبرهاناً على شبهتهم. ﴿يَصِدُّونَ﴾ قال في «القاموس»: صد يصد ويصد صديداً، إذا ضج وارتفع صوته، فالمكسور من باب ضرب، والمضموم من باب رد، يقال: صد عنه يصد بالضم صدوداً إذا أعرض عنه، وصد فلاناً عن كذا صدا، منعه وصرفه، كأصد، فالصديد بمعنى الضجيج، والصدود بمعنى الإعراض، والصد بمعنى المنع. ﴿إِلَّا جَدَلًۢا﴾؛ أي: خصومةً بالباطل، والجدل محركاً فتل الخصم عن قصده لطلب صحة قوله، وإبطال غيره، وهو مأمور به على وجه الإنصاف، وإظهار الحق بالاتفاق. وقوله: ﴿ٱبْنُ﴾ أصله: بنو حذفت لامه الواو، وعوض عنها همزة الوصل، وقوله: ﴿يَصِدُّونَ﴾ قرئ بكسر الصاد من صد اللازم، وقرئ بضمها

من صد المتعدي، وأصله على كلتا القراءتين: يصددون بوزن يفعلون بكسر العين، أو يصددون بوزن يفعلون بضم العين، نقلت حركة الدال فيهما إلى الصاد فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية. ﴿خَصِمُونَ﴾؛ أي: شديدوا الخصومة، مجبولون على اللجاج، وسوء الخلق. ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: أمراً عجيباً حقيقاً بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة.

﴿يَخْلُفُونَ﴾ يقال: خلف فلان فلاناً إذا قام بالأمر عنه، إما معه وإما بعده. ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أصله: تمتريون حذفت منه نون الرفع للجازم، وهو لا الناهية، ثم استثقلت الضمة على الياء فحذفت فسكنت فالتقى ساكنان فحذفت الياء وضمت الراء لمناسبة الواو، ثم دخلت نون التوكيد على الفعل، فصار تمترون، فالتقى ساكنان الواو وأولي نوني التوكيد المشددة، فحذفت الواو لبقاء داله، فصار تمترن بوزن تفتعن. ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ بحذف الياء خطاً؛ لأنها من ياءات الزوائد، وأما في اللفظ فيجوز إثباتها وحذفها وصلاً ووقفاً.

﴿يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أصله: يصددنكم، نقلت حركة الدال الأولى إلى الصاد فسكنت، فأدغمت في الثانية، وبني الفعل على الفتح وإن كان في محل جزم لاتصال نون التوكيد به. ﴿الْأَحْزَابُ﴾ جمع حزب بكسر الحاء بمعنى جماعة الناس. ﴿بَغْتَةً﴾ والبغت مفاجأة الشيء من حيث لا يحسب، كما في «المفردات». ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ جمع خليل، وهو الصديق. وفي «المصباح»: الخليل الصديق، والجمع أخلاء كأصدقاء، وفي «القاموس»: والخل بالكسر والضم الصديق المختص، أو لا يضم إلا مع ود، يقال: كان لي وداً وخلا، والجمع أخلال كالخليل وخلان، أو الخليل الصادق، أو من أصفى المودة وأصحها، واستدرك في «التاج» فقال: قال ابن سيده: وكسر الخاء أكثر، ويقال للأنثى: خل أيضاً. وأصل ﴿الْأَخِلَّاءُ﴾: الأخللاء، بوزن أفعلاء جمع خليل، كصديق وأصدقاء، نقلت حركة اللام الأولى إلى الخاء فسكنت، فأدغمت في اللام الثانية، فصار أخلاء بوزن أفلاء.

﴿يُطَافُ﴾ أصله: يطوف، بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى الطاء، فسكنت

ثم أبدلت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ تسرون سروراً يظهر حباره؛ أي: أثره على وجوهكم. وقال الزجاج: تكرمون إكراماً يبالغ فيه، والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل. وفي «القاموس»: والحبر بفتحتين الأثر كالحبار، بكسر أوله وفتحه، والحبر بالكسر الأثر أو أثر النعمة، والحسن، والوشي وبالفتح السرور، وحبره سره، والنعمة، والحبرة بالفتح السماء في الجنة، وكل نعمة حسنة. وقال الراغب: الحبر الأثر المستحسن، ومنه ما روي: يخرج من النار رجل قد ذهب حبره وسبره؛ أي: جماله وبهاؤه، والحبر: العالم لما يبقى من أثر علومه في قلوب الناس، ومن آثار أفعاله الحسنة المقتدى بها.

﴿بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾ جمع صحفة، كجفان جمع جفنة، وقصاع جمع قصعة. قال الكسائي: وأعظمها الجفنة، وهي القصعة العريضة الواسعة، ثم القصعة، وهي التي تشبع العشرة، ثم الصحفة وهي تشبع الخمسة، ثم المئكلة، وهي التي تشبع الرجلين أو الثلاثة ﴿وَأَكۡوَابٖۖ﴾ جمع كوب، كعود وأعواد، وهو كوز لا عروة له ولا خرطوم، وإنما كانت بغير عروة ليشرب الشارب من أي جانب شاء؛ لأن العروة ترد الشارب من بعض الجوانب. وقال عدي:

مُتَّكِئاً تُصَفِّقُ أَبْوَابُهُ   يَسْعَىٰ عَلَيْهِ ٱلْعَبْدُ بِٱلْكُوبِ

﴿وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ يقال: لذذت الشيء بالكسر لذاذاً ولذاذة؛ أي: وجدته لذيذاً، أصله: تلذذ بوزن تفعل، مضارع لذذ بكسر العين، من باب فعل المكسور، نقلت حركة الذال الأولى إلى اللام فسكنت، فأدغمت في الذال الثانية ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾ من قولهم: فترت الحمى عنه إذا سكنت قليلاً ونقص حرها. قال الراغب: الفتر: سكون بعد حدة، ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة. ﴿مُبۡلِسُونَ﴾ وفي «المفردات»: الإبلاس الحزن المعترض من شدة اليأس، ومنه اشتق إبليس، ولما كان المبلس كثيراً ما يلزم السكون وينسى ما يعنيه.. قيل: أبلس فلان إذا سكت وانقطعت حجته. ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ أصله: ناديوا بوزن فاعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿لِيَقۡضِ﴾ وزن يقض يفع لحذف لامه للجازم. ﴿سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: نجويهم،

قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ أصله: يخوضون بوزن يفعلون، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الخاء فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مد، ثم حذفت نون الرفع لما وقع الفعل جواباً للأمر، فوزنه يفولوا، وأصل الخوض: الشروع في الماء والمرور فيه، ويستعار للأمور. وقوله: ﴿يُلَاقُوا﴾ أصله: يلاقيون، حذفت نون الرفع للناصب، ثم حذفت حركة الياء تخفيفاً، فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين وضمت القاف لمناسبة الواو. ﴿كَرِهُونَ﴾ من الكراهة مصدر كره الشيء بالكسر؛ أي: لم يرده فهو كاره. ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾ من الإبرام، وهو إحكام الأمر، وأصله: من إبرام الحبل، وهو ترديد فتله. ﴿وَنَجْوَنٰهُمْ﴾ يقال: ناجيته؛ أي: ساررته، وأصله: أن تخلو في نجوة من الأرض؛ أي: مكان مرتفع منفصل بارتفاعه عما حوله، والسر هو ما يحدث به الإنسان نفسه، أو غيره في مكان خال، والنجوى التناجي والتحادث فيما بينهم. ﴿وَقِيلِهِ﴾ قال أبو عبيدة: يقال: قلت قولاً وقالاً وقيلاً. وفي الخبر: «نهى عن قيل وقال». فالقول والقيل والقال كلها مصادر، وفيه إعلال بالقلب، أصله: قِوْلِه من القول، قلبت الواو ياءً لوقوعها ساكنةً إثر كسرة، فصارت حرف مد. ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: اعف عنهم عفو المعرض، ولا تقف عن التبليغ. ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾؛ أي: سلام متاركةٍ لكم بسلامتكم مني وسلامتي منكم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإبهام في فاعل ضرب في قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ للإهانة والتحقير له.

ومنها: الاستفهام في قوله: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾، و في قوله: ﴿إِنْ هُوَ

﴿إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾.

ومنها: الحذف في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾؛ أي: إن نزوله لعلامة لقرب الساعة.

ومنها: تأكيد النهي في قوله: ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾ إيذاناً بأنه لا محالة منها.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ إن، وضمير الفصل، وتعريف الطرفين.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ تسجيلاً عليهم باسم الظلم؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: فويل لهم.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾؛ أي: ما ينظرون.

ومنها: النداء في قوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ...﴾ إلخ، تشريفاً لهم، وناداهم بأربعة أمور: الأول: نفي الخوف، والثاني: نفي الحزن، والثالث: الأمر بدخول الجنة، والرابع، البشارة بالسرور، في قوله: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ اهـ شيخنا.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكۡوَابٍ﴾؛ أي: أكواب من ذهب، وحذف لدلالة السابق عليه.

ومنها: ذكر العام، في قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ بعد الخاص، في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكۡوَابٍ﴾.

ومنها: الحصر المستفاد من قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ فقد حصر أنواع النعم في أمرين اثنين، إما مشتهاة في القلوب، وإما مستلذة في العيون.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ للتشريف والتفخيم لشأنهم.

ومنها: إفراد الخطاب في قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ حيث لم يقل: وتلكم الجنة، مع أن مقتضى أورثتموها أن يقال: وتلكم، للإيذان بأن كل واحد من أهل الجنة مقصود بالذكر لذاته، وبالخطاب.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ فقد شبه الجنة بالمال الموروث، والتلاد الموفور، ثم استعار له الإرث على طريق الاستعارة المكنية؛ لأن كل عامل لا بد أن يلقى جزاءه، إذ يذهب العمل ويبقى جزاؤه مع العامل، أو إنها شبهت في بقائها على أهلها، وإفاضة النعم السوابغ عليهم، بالميراث الباقي، لا ينضُب له معين، ولا ينتهي إلى نفاد.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ لأن المراد: سرهم وعلانيتهم.

ومنها: الحذف للاختصار في قوله: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ﴾؛ أي: بلى نسمع سرهم ونجواهم، لدلالة ﴿بلى﴾ على المحذوف.

ومنها: تكرير اسم الرب في قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ تفخيماً لشأن العرش؛ لأنه أعظم مخلوقات الله سبحانه.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾؛ لأن حقيقة الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه، فاستعير لشروعهم في أباطيلهم، وأكاذيبهم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من المقاصد

١ ـ وصف القرآن الكريم.

٢ ـ الأمر بإنذار قومه ﷺ، مع غفلتهم وإسرافهم في لذات الدنيا.

٣ ـ شأن هؤلاء المشركين في تكذيبهم للرسول، شأن غيرهم من المكذبين من قبلهم.

٤ ـ اعترافهم بأن الله هو خالق السموات والأرض، مع عبادتهم للأوثان والأصنام.

٥ ـ اعتقادهم أن الملائكة بنات الله، ثم نعي ذلك عليهم.

٦ ـ تمسكهم بتقليد الآباء والأجداد في شؤونهم الدينية.

٧ ـ قصص الأنبياء من أولي العزم، كإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام.

٨ ـ وصف نعيم الجنة.

٩ ـ الأهوال التي يلقاها أهل النار، حتى يتمنوا الموت ليستريحوا مما هم فيه.

١٠ ـ متاركة أهل الباطل والصفح عنهم، حتى يأتي وعد الله تعالى.

والله أعلم

* * *

سورة الدخان

سورة الدخان مكية، قال القرطبي مكية بالاتفاق، إلا قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ﴾ الآية.

وآياتها[1]: سبع أو تسع وخمسون آية. **وكلماتها**: ثلاث مئة وست وأربعون كلمة. **وحروفها**: ألف وأربع مئة وأحد وثلاثون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها من وجوه[2]:

١ ـ أنه تعالى حكى فيما قبلها قول رسوله ﷺ: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، وحكى في هذه عن أخيه موسى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ۝٢٢﴾.

٢ ـ أنه تعالى ختم ما قبلها بالوعيد والتهديد، وافتتح هذه بالإنذار الشديد.

٣ ـ أنه تعالى قال فيما سلف: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾، وحكى هنا عن موسى ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ۝٢٠ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ۝٢١﴾ وهو قريب من ذلك.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه السورة لما قبلها[3]: أنه تعالى ذكر في أواخر ما قبلها: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٨٣﴾، فذكر يوماً غير معين ولا موصوفاً، فبين في أوائل هذه السورة ذلك اليوم، بوصف وصفه، فقال: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠﴾، وأن العذاب هو ما يأتيهم من قبلك، ويحل بهم من الجدب والقحط، ويكون العذاب في الدنيا، وإن كان العذاب في الآخرة، فيكون ﴿يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يوم القيامة، انتهى.

تسميتها: سميت سورة الدخان، لأن الله تعالى جعله ـ أي: الدخان ـ آية لتخويف الكفار، حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة، بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ،

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكون، ثم نجاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة الدخان جميعها محكم، غير آية واحدة، وهي قوله تعالى في آخرها: ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ نسخت بآية السيف.

فضلها: ومما ورد في فضلها، ما أخرجه الترمذي والبيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ «من قرأ حم الدخان في ليلة، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» قال الترمذي بعد إخراجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمرو بن أبي خثعم أحد رواته ضعيف. قال البخاري: منكر الحديث.

ومنها: ما أخرجه الترمذي ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم الدخان في ليلة جمعة، أصبح مغفوراً له». قال الترمذي بعد إخراجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام بن المقدام أحد رواته ضعيف، والحسن لم يسمع من أبي هريرة، كذا قال أيوب ويونس بن عبيد، وعلي بن زيد، ويشهد له ما أخرجه ابن الضريس عن الحسن مرفوعاً بنحوه، وهو مرسل.

وما أخرجه الدارمي ومحمد بن نصر عن أبي رافع قال: «من قرأ الدخان في ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له، وزوج من الحور العين».

وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة حم الدخان في ليلة الجمعة، أو يوم الجمعة، بنى الله بها بيتاً في الجنة».

وعبارة الشهاب في سورة الواقعة: ولم يذكر البيضاوي، في فضائل السور، حديثاً غير موضوع من أول القرآن إلى هنا، غير ما ذكره هنا، وما مر في سورة يس والدخان.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة وما قبلها آنفاً، والله سبحانه وتعالى أقسم في مبدأ هذه السورة بكتابه الكريم المبين، كما أقسم به في السابقة، لما فيه من صلاح البشر، على أنه أنزل القرآن في ليلة القدر، لإنذار العباد، وتخويفهم من عقابه، وأن هذه الليلة يفصل فيها كل أمر حكيم، فيبين فيها التشريع النافع للعباد في دنياهم وآخرتهم، وهو رب السموات والأرض وما بينهما، فلا تخفى عليه خافية من أمرهم، وهو الذي بيده إحياؤهم وإماتتهم، وهو

ربهم ورب آبائهم الأولين، ولكنهم يمترون بعد أن وضح الحق وأفصح الصبح لذي عينين.

قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه[1] الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حال كفار قريش إذ قابلوا الرحمة بالكفران، ولم ينتفعوا بالمنزل ولا بالمنزل عليه.. أردف هذا بأن أمر نبيه ﷺ بالانتظار، حتى يحل بهم بأسه؛ لأنهم أهل الخذلان والعذاب، لا أهل الإكرام والغفران، وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ، وتهديد للمشكرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر أن مشركي مكة أصروا على كفرهم، ولم يؤمنوا برسولهم.. أردف هذا، ببيان أن هؤلاء ليسوا ببدع في الأمم، فكثير قبلهم كذبوا رسلهم، فها هم أولاء قوم فرعون، قد كان منهم مع موسى مثل ما كان من قومك معك، بعد أن أتاهم بالبينات التي كانت تدعو إلى تصديقه، فكذبوه، فنصره الله عليهم، وأغرق فرعون وقومه، وجعلهم مثلاً للآخرين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود، قال: إن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ فأتي رسول الله ﷺ، فقيل: يا رسول الله، استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت فاستسقى فسقوا، فنزلت: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾، فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، حين أصابتهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ قال: يعني يوم بدر. والحديث أخرجه مسلم وأحمد.

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

﴿حمٓ ١﴾؛ أي: أقسمت[1] بحق ﴿حم﴾، وهي هذه السورة، أو مجموع القرآن ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: وبالكتاب الكريم، وهو القرآن، معطوف على ﴿حم﴾، إذ لو كان قسماً آخر، لزم اجتماع قسمين على مقسم عليه واحد، ومدار العطف على تقدير كون ﴿حمٓ ١﴾ اسماً لمجموع القرآن المغايرةُ في العنوان ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾؛ أي: البين معانيه لمن أنزل عليهم، وهم العرب لكونه بلغتهم، وعلى أساليبهم، أو المبين لطريق الهدى من طرق الضلالة، الموضح لكل ما يحتاج إليه في أبواب الديانة، وقال بعضهم: معنى الكلام: أقسمت بحق الحي القيوم، وبحق القرآن الفاصل بين الحق والباطل، فالحاء إشارة إلى الاسم الحي، والميم إلى الاسم القيوم، وهما أعظم الأسماء الإلهية لاشتمالهما على ما يشتمل عليه كل منها من المعاني والأوصاف والحقائق.

ويجوز[2] أن يراد بالكتاب المبين ههنا: الكتب المتقدمة، التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه، والضمير في ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ عائد عليه بمعنى الكتب؛ لأنها كلها أنزلت في رمضان، كما سيأتي، أو على القرآن، ويجوز أن يكون المراد به: اللوح المحفوظ، والأول أولى. وقال النسفي: والواو في ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾: واو القسم إن جعلت ﴿حمٓ ١﴾ تعديداً للحروف، أو اسماً للسورة، مرفوعاً على أنه خبر مبتدأ محذوف، وواو العطف إن كانت ﴿حمٓ ١﴾ مقسماً بها، وجواب القسم ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ وفي «عرائس البقلي» الحاء من ﴿حمٓ ١﴾ الوحي الخاص إلى محمد ﷺ، والميم محمد ﷺ، وذلك ما كان بلا واسطة، فهو سر بين المحب والمحبوب، لا يطلع عليه أحد غيرهما، كما قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠﴾.

ويحتمل[3] أن يكون ﴿حمٓ ١﴾ إشارةً إلى حمد الله على إنزاله القرآن،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

الذي هو أجل النعم الإلهية. فـ﴿حمٓ ۝١﴾ منحوت من الحمد، والمعنى: وحق الحق، الذي يستحق الحمد في مقابلة إنزال القرآن ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: الكتاب المبين الذي هو القرآن، وهو جواب القسم؛ أي: إنا أنزلنا القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، في مكان يقال له: بيت العزة دفعةً واحدة، وأملاه جبرائيل على السفرة، ثم كان ينزله على النبي ﷺ نجوماً؛ أي: مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع؛ أي: أنزلناه ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ أي: ذات بركة وخير كثير، إذ فيها الرحمة والمغفرة ومضاعفة الحسنات، واستجابة الدعوات، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركةً، وهي ليلة القدر في شهر رمضان، أو ليلة النصف من شعبان، ولها أربعة أسماء: الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصك، وليلة الرحمة، وقيل: بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة، والجمهور[1] على الأول، لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان، وقيل: ابتداء نزوله إلى النبي ﷺ في ليلة القدر. قال القرطبي: ومن قال[2]: أقسم بسائر الكتب المنزلة فقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ كنى به عن غير القرآن، وروى قتادة عن واثلة، أن النبي ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزلت الزبور لاثني عشرة من رمضان، وأنزل الإنجيل لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان، ثم قال: أنزل القرآن كله إلى السماء الدنيا في هذه الليلة، ثم أنزل نجماً نجماً في سائر الأيام على حسب اتفاق الأسباب»، وقيل: كانَ ينزل من اللوح المحفوظ في كل ليلة القدر، ما ينزل في سائر السنة، وقيل: كان ابتداء الإنزال من اللوح المحفوظ في هذه الليلة، انتهى.

والحكمة في نزوله ليلاً[3]: أن الليل زمان المناجاة، ومهبط النفحات، وفي الليل فراغ القلوب بذكر حضرة المحبوب، فهو أطيب من النهار عند المقربين

---

(1) النسفي.

(2) القرطبي.

(3) روح البيان.

والأبرار، ووصف الليلة بالبركة، لما أن نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية بأجمعها، أو لما فيها من تنزل الملائكة والرحمة، وإجابة الدعوة ونحوها، وإلا فأجزاء الزمان متشابهة بحسب ذواتها وصفاتها، فيمتنع أن يتميز بعض أجزائه عن بعض، بمزيد القدر والشرف لنفس ذواتها.

ثم بين السبب في إنزاله، فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾؛ أي: ومبشرين، ففيه اكتفاء استئناف مبين لما يقتضي الإنزال، كأنه قيل: إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتخويف من العقاب، والتبشير بالجنة؛ أي: وإنما أنزلناه لأنا كنا معلمين الناس ما ينفعهم، فيعملون به، وما يضرهم فيجتنبونه لتقوم حجة الله على عباده.

ثم بين سبب تخصيص نزوله بتلك الليلة، فقال: ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الليلة المباركة ﴿يُفْرَقُ﴾؛ أي: يكتب، ويفصل، ويبين، ويظهر للملائكة، الموكلين بالتصرف في العالم ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي: كل أمر محكم، متقن، مبرم، مقضي من الله سبحانه، في تلك السنة من أرزاق العباد، وآجالهم، وجميع أمورهم إلا السعادة والشقاوة، من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة، وقيل: يبدأ في انتساخ ذلك من اللوح المحفوظ، في ليلة البراءة: ليلة النصف من شعبان ويقع الفراغ في ليلة القدر، فتدفع نسخة الأرزاق إلى مكيائيل، ونسخة الحروب والزلازل والصواعق والخسف إلى جبرائيل، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا، وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت، حتى أن الرجل ليمشي في الأسواق، وأن الرجل لينكح ويولد له، ولقد أدرج اسمه في الموتى، وهذه الجملة إما صفة أخرى لليلة، وما بينهما اعتراض، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها، قال الزمخشري[1]: فإن قلت: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ﴾ ما موقع هاتين الجملتين.

قلت: هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان، فسر بهما جواب القسم، الذي هو

---

(١) الكشاف.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ﴾، كأنه قيل: أنزلناه، لأن من شأننا الإنذار والتحذير، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً؛ لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة، وهذه الليلة يفرق فيها كل أمر حكيم.

قلتُ: وهذا من محاسن هذا الرجل، اهـ «سمين».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُفْرَقُ﴾ بضم الياء و فتح الراء مخففاً، مبنياً للمفعول. وقرأ الحسن والأعمش والأعرج: ﴿يَفْرُق﴾ بفتح الياء وضم الراء. ﴿كل﴾: بالنصب ﴿حكيم﴾. بالرفع على الفاعلية، وقرأ زيد بن علي فيما ذكر الزمخشري: ﴿نفرق﴾ بالنون ﴿كل﴾ بالنصب، وفيما ذكر أبو علي الأهوازي عينه ﴿يفرق﴾ بفتح الياء وكسر الراء ونصب ﴿كل﴾، ورفع ﴿حكيم﴾ على أنه الفاعل بيفرق. وقرأ الحسن وزائدة عن الأعمش ﴿يفرق﴾ بالتشديد مبنياً للمفعول.

قال الشوكاني: والحق[2] ما ذهب إليه الجمهور، من أن هذه الليلة المباركة، هي ليلة القدر، لا ليلة النصف من شعبان؛ لأن الله سبحانه أجملها هنا، وبينها في سورة البقرة، بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وبقوله في سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ فلم يبق بعد هذا البيان الواضح، ما يوجب الخلاف ولا ما يقتضي الاشتباه.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ قال الزجاج والفراء: انتصاب ﴿أَمْرًا﴾ على المصدرية بـ﴿يُفْرَقُ﴾؛ أي: يفرق فرقاً؛ لأن ﴿أَمْرٍ﴾ بمعنى فرقاً، مثل قولك: قعدت جلوساً، والمعنى: إنا نأمر ببيان ذلك، ونسخه من اللوح المحفوظ، وقال المبرد: ﴿أَمْرًا﴾ في موضع المصدر لـ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾، والتقدير: ﴿أنزلناه﴾ إنزالاً من عندنا. وقال الأخفش انتصابه على الحال من فاعل أنزلناه؛ أي: أنزلناه آمرين، أو من مفعول أنزلناه؛ أي: مأموراً به، وقيل: هو منصوب على الاختصاص؛ أي: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا على مقتضى حكمتنا، وهو بيان لفخامته الإضافية، بعد بيان فخامته الذاتية؛ أي: فيه تفخيم لشأن القرآن، وتعظيم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.

له، وقد ذكر بعض أهل العلم في انتصاب ﴿أَمْرًا﴾ اثني عشر وجهاً، أظهرها ما ذكرناه. وقرأ زيد بن علي ﴿أمر﴾ بالرفع؛ أي: هو أمر.

ولما ذكر إنزال القرآن، ذكر المرسل، فقال ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ هذه الجملة إما بدل من قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ بدل الكل، أو جواب ثالث للقسم، أو مستأنفة، قال الرازي: المعنى إنا فعلنا ذلك الإنذار لأجل أنا كنا مرسلين للأنبياء. وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعول لأجله للإرسال.

والمعنى[1]: إنا أنزلنا القرآن، لأن عادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد، لأجل إفاضة رحمتنا عليهم، فيكون قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ غايةً للإرسال، متأخرةً عنه على أن المراد منها: الرحمة الواصلة إلى العباد، أو لاقتضاء رحمتنا السابقة إرسالهم، فيكون باعثاً متقدماً للإرسال، على أن المراد: مبدؤها، ووضع الرب موضع الضمير، للإيذان بأن ذلك من أحكام الربوبية ومقتضياتها، وإضافته إلى ضميره ﷺ للتشريف، وقرأ الحسن وزيد بن علي ﴿رحمة﴾ بالرفع على تقدير: هي رحمة؛ أي: تلك رحمة من ربك التفاتاً من مضمر إلى ظاهر، إذ لو روعي ما قبله، لكان التركيب رحمةً منا، لكنه وضع الظاهر موضع المضمر، إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين، كما مر آنفاً.

والمعنى[2]: أي في هذه الليلة بدأ سبحانه، يبين ما ينفع عباده، من أمور محكمة لا تغيير فيها ولا تبديل، بإنزاله ذلك التشريع الكامل، الذي فيه صلاح البشر، وهدايتهم، وسعادتهم في دنياهم وآخرتهم، ولا غرو، فهي من لدن حكيم عليم بما يصلح شؤون عباده في معاشهم ومعادهم.

ثم بين السر في نزول القرآن على لسان رسوله، فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إلخ؛ أي: إنا[3] أرسلنا الرسول به، رحمة منا لعبادنا، حتى يستبين لهم ما يضرهم وما ينفعهم، وحتى لا يكون لهم حجة بعد إرسال الرسول به.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

ثم أكد ربوبيته، بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمن دعاه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيته، يسمع كل شيء من شأنه أن يسمع، خصوصاً أنين المشتاقين، ويعلم كل شيء من شأنه أن يعلم، خصوصاً حنين المحبين، فلا يخفى عليه شيء من أقوال العباد وأفعالهم، وأحوالهم، وهو تحقيق لربوبيته تعالى، وأنها لا تحق إلا لمن هذه نعوته الجليلة؛ أي: إنه إنما فعل تلك الرحمة؛ لأنه هو السميع لأقوالهم، العليم بما يصلح أحوالهم، فلا عجب أن أرسله إليهم لحاجتهم إليه. ثم أكد العلة في سمعه للأشياء وعلمه بها، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ بدل من ربك؛ أي: مالك جميع الموجودات العلوية والسفلية ﴿إِن كُنتُم﴾ أيها المشركون ﴿مُّوقِنِينَ﴾ بشيء، فهذا أولى ما توقنون به، لفرط ظهوره، أو إن كنتم مريدين لليقين فاعلموا ذلك.

والمعنى: إنه هو السميع لكل شيء، العليم به؛ لأنه مالك السمٰوات والأرض وما فيهما وما بينهما، إن كنتم تطلبون معرفة ذلك، معرفة يقين لا شك فيه؛ أي: إن كنتم موقنين بأنه ربّ السموات والأرض وما بينهما.. فأقرّوا بتوحيده، ولا تكذبوا رسوله فيما دعاكم إليه، وقد أقروا بذلك، كما حكاه الله عنهم، في غير موضع. وقرأ ابن محيصن[1] والأعمش وأبو حيوة والكوفيون: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالخفض، بدلاً من ﴿رَّبِّكَ﴾، أو بياناً له، أو نعتاً، وقرأ باقي السبعة والأعرج وابن أبي إسحاق وأبو جعفر وشيبة بالرفع على القطع؛ أي: هو رب السموات، أو على البدل من السميع العليم، أو على أنه مبتدأ، وخبره ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وبعد أن أثبت ربوبيته ووحدانيته، ذكر فذلكة لذلك، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا خالق سواه، جملة مستأنفة مقررة لما قبلها، أو خبر ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كما مر، وكذلك جملة ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ فإنها مستأنفة مقررة لما قبلها؛ أي[2]: يوجد الحياة في الجماد، ويوجد الموت في الحيوان بقدرته، كما يشاهد

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

ذلك؛ أي: يعلم علماً جلياً يشبه المشاهدة؛ أي: هو سبحانه الإله الذي لا تصلح العبادة إلاّ له، وهو المحيي المميت، فيحيي ما يشاء مما يقبل الحياة، ويميت ما يشاء عند انتهاء ما قدر له ﴿رَبُّكُمْ﴾؛ أي: هو ربكم أيها العباد، وخالقكم ورازقكم ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: رب آدم ومن دونه من الأولين.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾ برفعهما على الاستئناف، بتقدير مبتدأ؛ أي: هو ربكم، أو على أنه بدل من ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أو بيان، أو نعت له، وقرأ ابن أبي إسحاق وابن محيصن وأبو حيوة والزعفراني وابن مقسم والحسن وأبو موسى عيسى بن سليمان، وصالح الناقط كلاهما عن الكسائي بالجر، على أنه بدل ثان من ﴿رَبِّكَ﴾، أو بيان له، وقرأ أحمد بن جبير الأنطاكي ﴿ربكم ورب آبائكم﴾ بالنصب على المدح.

والمعنى[2]: هو مالككم والمتصرّف فيكم، ومالك آبائكم الأولين، ومدبر شؤونهم، فاعبدوه دون آلهتكم التي لا تقدر على ضر ولا نفع.

ثم بين أنهم، ليسوا بموقنين بالجواب، بعد أن تبين لهم الرشد من الغي، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ مما ذكر من شؤونه تعالى، غير موقنين في إقرارهم بأنه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما ﴿يَلْعَبُونَ﴾ لا يقولون ما يقولون عن جدّ وإذعان، بل مخلوطاً بهزء ولعب، وهو خبر آخر للمبتدأ. وفي «كشف الأسرار» الظرف متعلق بالفعل، أو حال من فاعل ﴿يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: بل هم يلعبون في شك، ويتحيرون فيه، مثل قوله: ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أو بل هم حال كونهم في شك مستقر في قلوبهم يلعبون؛ أي: بل هم في شك من التوحيد والبعث والإقرار، بأن الله خالقهم، وإن قالوا ذلك، فإنما يقولونه تقليداً لآبائهم، من غير علم، إذ هم قابلوه وبالهزء والسخرية، فعل اللاعب العابث الذي يأخذ الجد، وما لا مرية فيه، أخذ الهزل الذي لا فائدة فيه.

---

(١) البحر المحيط.　　(٢) المراغي.

والفاء، في قوله: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره إذا عرفت حالهم هذا، وأردت بيان عاقبتهم... فأقول لك: انتظر يا محمد لكفار مكة ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾؛ أي: ظاهر لا شك فيه، و﴿يَوۡمَ﴾ مفعول ﴿ارتقب﴾ والباء للتعدية، ويجوز أن يكون ظرفاً له، والمفعول محذوف؛ أي: ارتقب وعد الله في ذلك اليوم، أطلق الدخان على شدة القحط، وغلبة الجوع على سبيل الكناية، أو المجاز المرسل.

والمعنى[1]: فانتظر لهم يوم شدةٍ ومجاعة فإن الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان، إما لضعف بصره، أو لأن في عام القحط يظلم الهواء، لقلة الأمطار وكثرة الغبار، ولذا يقال لسنة القحط السنة الغبراء، كما قالوا: عام الرمادة، والظاهر أن السنة الغبراء ما لا تنبت الأرض فيها شيئاً، وكانت الريح إذا هبت ألقت تراباً كالرماد، أو لأن العرب تسمي الشر الغالب دخاناً، وإسناد الإتيان إلى السماء لأن ذلك يكفها عن الأمطار، فهو من قبيل إسناد الشيء إلى سببه.

وذلك أن قريشاً لما بالغوا في الأذية له ﷺ دعا عليهم، فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر؛ أي: عقابك الشديد. يعني: خذهم أخذاً شديداً. واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، وهي السبع الشداد، فاستجاب الله دعاءه، فأصابتهم سنة؛ أي: قحط حتى أكلوا الجيف، والجلود، والعظام، والعلهز وهو الوبر والدم المخلوطان؛ أي: يخلط الدم بأوبار الإبل، ويشوى على النار، كان الرجل منهم يرى بين السماء والأرض الدخان من الجوع، وكان يحدث الرجل، ويسمع كلامه، ولا يراه من الدخان، وذلك قوله تعالى: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ صفة ثانية لـ﴿دُخَانٌ﴾؛ أي: يحيط ذلك الدخان بهم، ويشملهم من جميع جوانبهم حال كونهم قائلين: ﴿هَٰذَا﴾ الجوع، أو الدخان ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فمشى إليه ﷺ أبو سفيان ونفر معه، وناشدوه الله والرحم؛ أي: قالوا: نسألك يا محمد بحق

---

(١) روح البيان.

الله وبحرمة الرحم أن تستسقي لنا، ووعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم القحط أن يؤمنوا، وذلك قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: وقائلين: ربنا اكشف وارفع عنا هذا العذاب؛ أي: عذاب الجوع، أو عذاب الدخان، ومآلهما واحد، فإن الدخان إنما ينشأ من الجوع ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ بعد رفعه عنا.

قال الشوكاني: وقد اختلف[1] في هذا الدخان، المذكور في الآية متى يأتي، فقيل: إنه من أشراط الساعة، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً، وقد ثبت في «الصحيح»: أنه من جملة العشر الآيات، التي تكون قبل قيام الساعة، وقيل: إنه أمر قد مضى، وهو ما أصاب قريشاً بدعاء النبي ﷺ كما بينا آنفاً، وهذا ثابت في «الصحيحين». وغيرهما، وقيل: إنه يوم فتح مكة، فقد قال الأعرج: إن المراد بالدخان: هو الغبار الذي ظهر يوم فتح مكة من ازدحام جنود الإسلام حتى حجب الأبصار عن رؤية السماء، فحينئذ فالمراد بالعذاب: في قوله: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ﴾: الجوع الذي كان بسببه، ما يرونه من الدخان، أو الدخان الذي هو من أشراط الساعة، أو يرونه يوم فتح مكة، على اختلاف الأقوال، والراجح منها: أنه الدخان الذي كانوا يتخيلونه، مما نزل بهم من الجهد وشدة الجوع، ولا ينافي ترجيح هذا القول ما ورد أن الدخان من آيات الساعة، فإن ذلك دخان آخر، ولا ينافيه أيضاً ما قيل: إنه الذي كان يوم فتح مكة، فإنه دخان على تقدير صحة وقوعه، اهـ. بتصرف واختصار.

والمعنى[2]: أي فانتظر يوم يأتيهم الجدب والمجاعة، التي تجعل الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان، المنتشر في الفضاء، يغشى ذلك الدخان، ويحيط بهم من كل جانب، فيقولون: ربنا هذا عذاب مؤلم، يقض المضاجع، وينتهي إلى موت محقق إن دام، فاكشفه عنا إنا مؤمنون، إن كشفته عنا، وهذه هي طبيعة البشر، إذا هم وقعوا في شدة أيا كانت، أن يعدوا بالتوبة والإقلاع عما هم فيه، ولكن النفوس الشريرة لا تتجه إلى فعل الخير، ولا تفعل ما تتقرب به

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

إلى ربها انتظاراً لمثوبته ورجاءاً في غفرانه ورحمته.

ثم نفى صدقهم في الوعد، وبين أن غرضهم كشف العذاب فحسب، فقال: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؛ أي: من أين يحصل لهم التذكر والاتعاظ، فهو بعيد عنهم غير ممكن منهم، فهو رد[1] لكلامهم، واستدعائهم الكشف، وتكذيب لهم في الوعد بالإيمان، المنبىء عن التذكر والاتعاظ بما اعتراهم من الداهية، والمراد بالاستفهام: الاستبعاد، لا حقيقته، وهو ظاهر؛ أي: كيف يتذكرون، أو من أين يتذكرون؟ ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ يبين لهم كلَّ شيء يحتاجون إلى بيانه، من أمر الدين، والدنيا؛ أي: والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر، وموجبات الاتعاظ، ما هو أعظم منه في إيجابهما، حيث جاءهم رسول عظيم الشأن، وبين لهم مناهج الحق بإظهار آيات ظاهرة، ومعجزات قاهرة، تحرك صم الجبال ﴿ثُمَّ﴾ كلمة ﴿ثم﴾ هنا للاستبعاد ﴿تَوَلَّوْاْ﴾؛ أي: أعرضوا ﴿عَنْهُ﴾؛ أي: عن ذلك الرسول فيما شاهدوا منه من العظائم، الموجبة للإقبال إليه، ولم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل جاوزوه ﴿وَقَالُواْ﴾ تارةً هذا الرجل ﴿مُعَلَّمٌ﴾ يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف، واسمه عداس أو أبو فكهة، أو جبر أو يسار. وقرأ زر بن حبيش ﴿معلم﴾ بكسر اللام، قاله في «البحر» وتارة أخرى ﴿مَّجْنُونٌ﴾؛ أي: مغلوب العقل ناقصه، أو يقول بعضهم: كذا، وآخرون: كذا، فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم، أن يتأثروا منه بالعظة والتذكير، وما مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضغا، وإذا شبع طغا. وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ﴾ جواب من جهته تعالى عن قولهم: ربنا اكشف عنا العذاب؛ أي: إنا نكشف العذاب المعهود عنكم، بدعاء النبي ﷺ، وإنزل المطر كشفاً ﴿قَلِيلًا﴾ وهو دليل على كمال خبث سريرتهم، فإنهم إذا عادوا إلى الكفر بكشف العذاب كشفاً قليلاً، فهم بالكشف رأساً أعود، أو زماناً قليلاً، وهو ما بقي من أعمارهم ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾؛ أي: تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتو والإصرار على الكفر، وتنسون هذه الحالة، وصيغة[2] الفاعل في الموضعين

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

للدلالة على تحققهما لا محالة، ولقد وقع كلاهما، حيث كشفه الله سبحانه، بدعاء النبي ﷺ، فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا فيه من العتو والعناد؛ لأن من مقتضى فساد طينتهم واعوجاج طبيعتهم، المبادرة إلى خلف الوعد ونقض العهد، والعود إلى الإشراك إذا زال المانع على ما بينه الله تعالى، فيمن ركب الفلك إذا أنجاه إلى البر، والمراد بعودهم إليه: عودهم إلى العزم على الاستمرار عليه؛ لأنه لم يوجد منهم إيمان بالفعل، إنما وجد منهم الوعد به، إذا انكشف عنهم العذاب.

ومعنى الآيات[1]: أي كيف يتذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوا به من الإيمان حين يكشف عنهم العذاب، وقد جاءهم الرسول بما هو كاف في رجوعهم إلى الحق، فلم يرجعوا بل قال بعضهم: إن القرآن إنما يعلمه له غلام رومي لبعض ثقيف. وقال آخرون: إنه أصيب بخبل، إذ تلقي إليه الجن هذه الكلمات، حين يعرض له الغشي.

والخلاصة: أن التوبة إما أن تكون بما ينال الناس من النوائب، وإما أن تكون بما يتضح لهم من الحقائق، وهؤلاء قد اتضحت لهم وجوه الصواب فلم يفقهوا، فأخذناهم بالعذاب، ولكن كيف يرجعون به وقد ذكرناهم بالآيات، وأريناهم الحقائق، وهو أنجع أثراً من العقاب فلم يؤمنوا، وقالوا ما قالوا.

ثم نبه إلى أنهم لا يوفون بعهدهم، بل إذا زال الخوف نكصوا على أعقابهم، ورجعوا إلى سيرتهم الأولى، وعضوا على الكفر بالنواجذ، وساروا على طريق الأباء والأجداد، فقال: إنا كاشفوا العذاب، إلخ؛ أي: إنا رافعوا هذا الضر النازل بهم، بالخصب الذي نوجده لهم زمناً يسيراً، وإنا لنعلم أنهم عائدون إلى سيرتهم الأولى من تمسكهم بالكفر، وترك الحق وراءهم ظهرياً لما في طباعهم من الميل إلى عبادة الأوثان، وتقليد الآباء والأجداد.

ولما كان العذاب الأليم لم يؤثر، والإصلاح بالعلم والإيمان لم يفد

---

(١) المراغي.

أمهلناهم إلى يوم البطشة الكبرى، حيث لا توبة بعدها فينتقم الله منهم، وهذا ما عناه سبحانه، بقوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾ ونأخذهم ﴿الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾؛ أي: الأخذة الشديدة ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ منهم أشد الانتقام؛ أي: يوم القيامة ننتقم منهم، ونعاقبهم العقوبة العظمى، فيوم ظرف لما دل عليه قوله: ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، وهو ننتقم، لا بمنتقمون؛ لأن ما بعد ﴿إِنَّ﴾ لا يعمل فيما قبلها، أو منصوب بمحذوف. تقديره: اذكر يوم نبطش البطشة الكبرى، إنا منتقمون منهم في ذلك اليوم، ويوم البطشة الكبرى هو يوم القيامة. كما ذكرنا آنفا، قاله الحسن وعكرمة وابن عباس.

والمعنى عليه: أي إننا يوم القيامة لنسلطن عليهم بأسنا، وننتقمن منهم أشد الانتقام، ولا يجدن شفيعاً ولا ولياً ولا نصيراً يمنع عنهم عقابنَا، فيندمن ولات حين مندم، وقيل: البطشة الكبرى هي يوم بدر، قاله الأكثر. والمعنى عليه: إنهم لما عادوا إلى التكذيب والكفر بعد رفع العذاب عنهم، انتقم الله منهم بوقعة بدر.

والظاهر: أن ذلك يوم القيامة. وإن كان يوم بدر يوم بطشة كبرى أيضاً. قال الشوكاني: بل الظاهر: أنه يوم بدر وإن كان يوم القيامة يوم بطشة كبرى من كل بطشة، فإن السياق مع قريش، فتفسيره بالبطشة الخاصة بهم، أولى من تفسيره بالبطشة التي تكون يوم القيامة لكل من الإنس والجن.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نَبْطِشُ﴾ بفتح النون وكسر الطاء؛ أي: نبطش بهم، وقرأ الحسن وأبو جعفر بضم الطاء، وهي لغة فيه. و قرأ الحسن أيضاً وأبو رجاء وطلحة بضم النون وكسر الطاء. بمعنى: نسلط عليهم من يبطش بهم، والبطشة على هذه القراءة ليس منصوباً بنبطش، بل بمقدر؛ أي: نبطش ذلك المسلط البطشة، أو يكون البطشة في معنى الإبطاشة، فينتصب بنبطش.

والخلاصة: أن الله سبحانه وتعالى، أخذهم بالجوع والدخان، ثم أذاقهم القتل والأسر يوم بدر، وكل ذلك من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، فإذا كان يوم القيامة، يأخذهم أخذاً شديداً، لا يقاس على ما كان في الدنيا، نسأل

(١) البحر المحيط.

الله العصمة من عذابه وجحيمه، والتوفيق لما يوصل إلى رضاه ونعمته، وقال بعض المفسرين: المراد بالدخان: ما هو من أشراط الساعة كما مر، وهو دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة، فيدخل في أسماع الكفرة، حتى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيذ؛ أي: المشوي، ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه، ليس فيه خصاص؛ أي: فرجة يخرج منها الدخان، وفي الحديث: «أول الآيات الدخان، ونزول عيسى بن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين»، وهو بفتح الهمزة على ما هو المشهور، اسم رجل بنى هذه البلدة باليمن، وأقام بها، تسوق الناس إلى المحشر؛ أي: إلى الشام والقدس، قال حذيفة: فما الدخان؟ «فتلا الآية، فقال: يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلةً، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فهو كالسكران، يخرج من منخريه وأذنيه ودبره».

وقال حذيفة بن أسيد الغفاري - رضي الله عنه -: اطلع رسول الله ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال ﷺ: «ما تذاكرون»؟ فقالوا: نذكر الساعة، فقال ﷺ: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها آيات»؛ أي: علامات، فذكر الدخان والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ وقرىء ﴿فتنا﴾ بتشديد التاء للمبالغة في الفعل، أو لتكثير متعلقه؛ أي: وعزتي وجلالي لقد فتنا وابتلينا قبل كفار مكة ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: القبط، وامتحناهم؛ أي: فعلنا بهم فعل الممتحن بإرسال موسى عليه السلام إليهم ليؤمنوا، ويظهر منهم ما كان مستوراً، فاختاروا الكفر على الإيمان.

فالفعل حقيقة، أو المعنى[1]: أوقعناهم في الفتنة بالإمهال، وتوسيع الرزق

---

(١) روح البيان.

عليهم، فهو مجاز عقلي من إسناد الفعل إلى سببه؛ لأن المراد بالفتنة حينئذ: ارتكاب المعاصي، وهو تعالى كان سبباً لارتكابها بالإمهال والتوسيع المذكورين ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله تعالى، وهو موسى عليه السلام، بمعنى: أنه استحق على ربه أنواعاً كثيرة من الإكرام، أو كريم على المؤمنين، أو في نفسه، لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا من كان أفضل نسباً، وأشرف حسباً على أن الكرم بمعنى الخصلة المحمودة، وقال بعضهم: لمكالمته مع الله تعالى، واستماع كلامه من غير واسطة، وقال مقاتل: حسن الخلق بالتجاوز والصفح، وقال الفراء: كريم على ربه إذ اختصه بالنبوة.

وفي الآية: إشارة إلى أنه تعالى جعل فرعون وقومه فيما فتنهم فداء أمة محمد ﷺ، لتعتبر هذه الأمة بهم، فلا يصرون على جحودهم كما أصروا، ويرجعوا إلى طريق الرشد، ويقبلوا دعوة نبيهم، ويؤمنوا بما جاء به لئلا يصيبهم مثل ما أصابهم بعد أن جاءهم رسول كريم ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ﴾ ﴿أن﴾ إما مصدرية؛ أي: بأن أدوا، وادفعوا ﴿إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بني إسرائيل، وسلموهم، وأرسلوهم معي لأذهب بهم إلى الشام موطن آبائهم، ولا تستعبدوهم، ولا تعذبوهم؛ أي: جئتكم من الله تعالى لطلب تأدية عباد الله إلي. يقول الفقير: فتكون التأدية بعد الإيمان، كما قالوا في آية آخرى: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ونظيره قول نوح عليه السلام لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: آمن واركب، فإن الراكب إنما هم المؤمنون، والركوب متفرع على الإيمان. وقال بعضهم: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ منصوب بحرف النداء المحذوف؛ أي: بأن أدوا إلي يا عباد اللَّه حقه من الإيمان، وقبول الدعوة، وقيل: المعنى أدوا إلي يا عباد الله سمعكم، حتى أبلغكم رسالة ربكم، وإما مفسرة لتقدم ما هو بمعنى القول، وهو رسول كريم، أو مخففة من الثقيلة، والمعنى: أن الشأن والحال. أدوا إلي عباد الله، والأول أولى وأوضح.

وقوله: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله ﴿أَمِينٌ﴾ على وحيه ورسالته، صادق في دعواه بالمعجزات، تعليل للأمر بالتأدية، وفيه إشارة إلى أنّ بني إسرائيل، كانوا

أمانة الله في أيدي فرعون وقومه، يلزمهم تأديتهم إلى موسى لكونه أميناً، فخانوا تلك الأمانة حتى آخذهم الله تعالى على ذلك.

والمعنى[1]: أي ولقد اختبرنا قبل مشركي قومك قوم فرعون، وهم مثال قومك في جبروتهم وطغيانهم وعتوهم، واستكبارهم، فأرسلنا إليهم الرسول الكريم موسى عليه السلام، فقال لهم: أيها القوم أرسلوا معي بني إسرائيل، وأطلقوهم من أسركم وتعذيبكم إني رسول من الله مأمون على ما أبلغكم غير متهم فيه ونحو الآية: قوله عز وجل: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ﴾؛ أي: وبأن لا تتكبروا عليه تعالى، بالاستهانة بوحيه وبرسوله، واستخفاف عباده وإهانتهم وقال يحيى بن سلام: لا تستكبروا عن عبادة الله. وقال ابن جريج: لا تعظموا على الله، قيل: والفرق بينهما: أن التعظيم تطاول المقتدر، والاستكبار ترفع المحتقر ذكره الماوردي. وقوله: ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم﴾؛ أي: من جهته تعالى، يحتمل أن يكون اسم فاعل، وأن يكون فعلاً مضارعاً ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بحجة واضحة في نفسها، وموضحة صدق دعواي، لا سبيل إلى إنكارها، يعني: المعجزات، تعليل للنهي. وفي إيراد[2] الأداء مع الأمين، والسلطان مع العلو، من الجزالة ما لا يخفى، وقرأ الجمهور ﴿إِنِّى﴾ بكسر الهمزة على سبيل الإخبار. وقرأت فرقة بفتح الهمزة.

والمعنى عليه: لا تعلوا على الله من أجل أني آتيكم، فهذا توبيخ لهم، كما تقول: أتغضب أن قال لك الحق؛ أي: وأن لا تطغوا وتبغوا على ربكم، فتكفروا به وتعصوه، فتخالفوا أمره، لأني آتيكم بحجة واضحة على حقية ما أدعوكم إليه لمن تأملها وتدبر فيها ﴿وَإِنِّى عُذْتُ﴾ والتجأت ﴿بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ﴾ وتوكلت عليه من ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ي فهو العاصم من شركم من الرجم، وهو الرمي بالرجام بالكسر، وهي الحجارة، أو تؤذوني ضرباً أو شتماً بأن تقولوا: هو ساحر ونحوه، أو

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

تقتلوني. قيل: لما قال: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ توعدوه بالقتل. وفي «التأويلات النجمية». وإني عذت بربي من شر نفسي، وبربكم من شر نفوسكم، أن ترجموني بشيء من الفتن، انتهى.

والمعنى: وإني التجيء إلى الله الذي خلقني وخلقكم، أن لا تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي[1]: ﴿عُتُّ﴾.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾؛ أي: وإن لم تصدقوني، وتقروا نبوتي ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾؛ أي: فاتركوني، ولا تتعرضوا لي بأذى. قال مقاتل: دعوني كفافاً لا علي ولا لي. وقيل: كونوا بمعزل عني، وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا، وقيل: فخلوا سبيلي، والمعنى متقارب، والإيمان يتعدى باللام باعتبار معنى الإذعان والقبول، وبالباء باعتبار معنى الاعتراف، وحقيقة آمن به أمن المخبر من التكذيب والمخالفة، وقال ابن الشيخ: اللام للأجل بمعنى: لأجل ما أتيت به من الحجة.

والمعنى[2]: وإن كابرتم مقتضى العقل، ولم تصدقوني فكونوا بمعزل مني، لا علي ولا لي، ولا تتعرضوا إلي بشر ولا أذى، لا باليد ولا باللسان، فليس ذلك من جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحُكم، فالاعتزال كناية عن الترك، ولا يراد به الاعتزال بالأبدان.

قال القاضي عبد الجبار ـ من متأخري المعتزلة ـ: كل موضع جاء فيه لفظ الاعتزال في القرآن، فالمراد به: الاعتزال عن الباطل، وبهذا صار اسم الاعتزال اسم مدح، وهو منقوض، بقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١)﴾، فإن المراد بالاعتزال هنا: العزلة عن الإيمان التي هي الكفر، لا العزلة عن الكفر والباطل.

وخلاصة المعنى[3]: أي وإن لم تصدقوني فيما جئتكم به، من عند ربكم، فخلوا سبيلي، ولا ترجموني باللسان ولا باليد، ودعوا الأمر بيني وبينكم

---

(١) البيضاوي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

مسالمةً، إلى أن يقضي الله بيننا، ولما طال مقامه عليه السلام، بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، ولم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً.. دعا عليهم، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ إذ كذبوه، ولم يؤمنوا به، ولم يؤدوا إليه عباد الله، وهموا بقتله بـ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ القبطيين ﴿قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾؛ أي: مصرون على الإجرام والكفر، مشركون بك، مكذبون لرسلك، متبعون أهواءهم، وأنت أعلم بهم، فافعل بهم ما يستحقونه، والفاء في قوله: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا﴾ عاطفة ما[1] بعدها على محذوف ولكنه مع إضمار القول بعدها، لئلا يلزم عطف الإنشاء على الخبر. والإسراء وكذا السرى لا يكون إلا بالليل، لكنه أتى بالليل للتأكيد، وسماه دعاءً مع أنه لم يذكر إلا مجرد كونهم مجرمين؛ لأنهم قد يستحقون بذلك الدعاء عليهم، والتقدير: فأجاب الله دعاءه، فقال له: أسر وَٱمْشِ يا موسى ببني إسرائيل ومن آمن معك من القبط، من مصر ليلاً، على غفلة من العدو.

ثم علل السرى ليلاً، فقال: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾؛ أي: إن فرعون وقومه يتبعونكم إذا علموا بخروجكم ومسيركم ليلاً ليقتلوكم، وأؤخر علمهم بذلك، فلا يدركونكم. ونحو الآية. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾.

وقرأ الجمهور[2]: بفتح همزة: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على إضمار حرف الجر، كما قدرنا آنفاً، وقرأ الحسن في رواية، وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وزيد بن علي بكسرها، على إضمار القول. وقرأ الجمهور: ﴿فَأَسۡرِ﴾ بقطع الهمزة وقرأ أهل الحجاز بالوصل، ووافقهم ابن كثير، فالقراءة الأولى من أسرى، والثانية: من سرى، يقال: سرى وأسرى لغتان.

﴿وَٱتۡرُكِ﴾ يا موسى ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾؛ أي: بحر القلزم، وهو الأظهر الأشهر، أو النيل، حال كونه ﴿رَهۡوًاۖ﴾؛ أي: ساكناً، مصدر[3] سمي به البحر للمبالغة، وهو

---

(1) روح البيان.

(2) البحر المحيط.

(3) روح البيان.

بمعنى الفرجة الواسعة؛ أي: ذا رهو أو راهياً، مفتوحاً على حاله منفرجاً، ولا تخف أن يتبعك فرعون وقومه، أو ساكناً على هيئته بعدما جاوزته، ولا تضرب بعصاك لينطبق، ولا يغيره عن حاله ليدخله القبط، فإذا دخلوا فيه أطبقه الله عليهم، فيكون معنى ﴿رَهْوًا﴾ ساكناً غير مضطرب، وذلك لأن الماء وقف له كالطود العظيم، حتى جاوز البحر ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ علة للأمر بترك البحر رهْواً، والجند جمع معد للحرب، والإغراق والغرق الرسوب في الماء، والتسفل فيه؛ أي: وإذا قطعت البحر أنت وأصحابك، فاتركه منفرجاً، ساكناً على حاله التي كان عليها حين دخلته، حتى يدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه؛ لأنهم جند مغرقون، في سابق علمنا، أخبر تعالى موسى بذلك ليسكن قلبه، ويطمئن جأشه. وقرأ الجمهور[1]: بكسر همزة ﴿إِنَّ﴾ على الاستئناف، لقصد الإخبار بذلك، وقرىء بالفتح على تقدير لأنهم ﴿كَمْ﴾ هي الخبرية، المفيدة للتكثير، في محل النصب على أنه مفعول ﴿تَرَكُوا﴾، وقوله: ﴿مِن جَنَّٰتٍ﴾ بيان لإبهامها ﴿وَعُيُونٍ﴾ معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: ترك آل فرعون في مصر كثيراً من بساتين كثيرة الأشجار، وعيون نابعة بالماء، وكانت بساتينهم متصلةً من رشيد إلى أسوان، وقدر المسافة بينهما أكثر من عشرين يوماً. ولعل[2] المراد بالعيون: الأنهار الجارية، المتشعبة من النيل، إذ ليس في مصر آبار ولا عيون، كما قال بعضهم في ذمها هي بين بحر رطب، عفن، كثير البُخارات الرديئة، التي تولد الأدواء، وتفسد الغذاء، وبين جبل وبر يابس صلد. ولشدة يبسه لا تنبت فيه خضراء، ولا تنفجر فيه عين ماء، انتهى.

وفي الآية[3] اختصار، والمعنى: فعل موسى ما أمر به، بأن ترك البحر رهواً. فدخله فرعون فأغرقوا، وتركوا بساتين كثيرةً وعيوناً نابعةً، قال بعضهم: لما كان فرعون يفتخر بالماء وجريان الأنهار من تحت قصره، وأشجار بساتينه جاء الجزاء من جنس العمل، ولذا أمر الله تعالى موسى عليه السلام، بأن يسير

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

إلى جانب البحر دون البر، وإلا فالله سبحانه وتعالى قادر على إهلاك العدو في البر أيضاً، بسبب من الأسباب، كما فعل بأكثر الكفار، ممن كانوا قبل القبط ﴿و﴾ كم تركوا من ﴿زروع﴾ كثيرة الأقوات، جمع زرع، وهو ما استنبت بالبذر، تسميةً بالمصدر من زرع الله الحرث إذا أنبته وأنماه. قال في «كشف الأسرار»؛ أي: وفنون الأقوات، وألوان الأطعمة؛ أي: كانوا أهل ريف وخصب، خلاف حال العرب ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: محافل مزينة، ومنازل محسنة، وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَمَقَامٍ﴾ بفتح الميم، قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير: أراد المقام، وهو اسم مكان للقيام، وقرأ ابن هرمز وقتادة وابن السميقع ونافع، في روايةٍ خارجة، وقتادة بضمها، اسم مكان الإقامة، قال قتادة: أراد المواضع الحسان من المجالس، والمساكن وغيرها.

﴿وَنَعْمَةٍ﴾؛ أي: تنعم[2] ونضارة عيش ولذاذة حياة، يقال: كم ذي نعمة لا نعمة له؛ أي: كم ذي مال لا تنعم له، فالنعمة بالكسر ما أنعم به الله عليك، والنعمة بالفتح التنعم، وهو استعمال ما فيه النعومة، واللين، من المأكولات والملبوسات؛ أي: وكم تركوا من نعمة ﴿كَانُوا﴾؛ أي: فرعون وقومه ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك النعمة ﴿فَٰكِهِينَ﴾؛ أي: متنعمين متلذذين، ومنه الفاكهة، وهي ما يتفكه به؛ أي: يتنعم ويتلذذ بأكله، وقرأ أبو رجاء ﴿ونعمة﴾ بالنصب عطفاً على ﴿كَمْ﴾ وقرأ الجمهور: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ بالألف؛ أي: طيبي الأنفس، أصحاب فاكهة كلابن وتامر؛ أي: كانوا فيها متنعمين طيبةً بها أنفسهم، وقرأ[3] أبو رجاء والحسن، وأبو الأشهب، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة ﴿فكهين﴾ بغير ألف؛ أي: أشرين بطرين، وقال الجوهري: فكه الرجل بالكسر فهو فكه، إذا كان مزاحاً، والفكه أيضاً الأشر. وقال القشيري: فاكهين لاهين. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محل[4] رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، قال الزجاج: الأمر، وهو إهلاك فرعون وقومه، وتخليفهم وراءهم كذلك، ويجوز أن تكون في محل نصب،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

(٤) الشوكاني.

والإشارة إلى مصدر فعل يدل عليه ﴿تَرَكُوا﴾؛ أي: مثل ذلك السلب سلبناهم إياها، وقيل: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها، وقيل: مثل ذلك الإهلاك أهلكناهم، فعلى الوجه الأول يكون قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ معطوفاً على ﴿تَرَكُوا﴾، وعلى الأوجه الأخيرة يكون معطوفاً على الفعل المقدر، والمراد بالقوم الآخرين: بنوٓ إسرائيل، فإن الله سبحانه ملكهم أرض مصر، بعد أن كانوا فيها مستعبدين، فصاروا لها وارثين؛ أي: إنها وصلت إليهم كما يصل الميراث إلى الوارث بلا كلفة، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾.

أي[1]: جعلنا أموال القبط لقوم، ليسوا منهم في شيء، من قرابة، ولا دين، ولا ولاء، وهم بنو إسرائيل، كانوا مسخرين لهم مستعبدين في أيديهم، فأهلكهم الله تعالى، وأورثهم ديارهم وملكهم وأموالهم، وقيل: غيرهم لأنهم لم يعودوا إلى مصر. قال قتادة: لم يروَ في مشهور التواريخ، أنهم رجعوا إلى مصر، ولا ملكوها قط، ورد بأنه لا اعتبار بالتواريخ فالكذب فيها كثير، والله تعالى أصدق قيلاً، وقد جاء في الشعراء التنصيص بإيراثها بني إسرائيل، كذا في «حواشي» سعدي المفتي.

قال المفسرون عند قوله تعالى[2]: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: يجعلكم خلفاء في أرض مصر، أو في الأرض المقدسة، وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾؛ أي: أرض الشام، ومشارقها ومغاربها، جهاتها الشرقية والغربية، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة. والعمالقة، بعد انقضاء مدة التيه، وتمكنوا في نواحيها، فاضطرب كلامهم، فتارةً حملوا الأرض على أرض مصر، وأخرى على أرض الشام، والظاهر: الثاني ولأن المتبادر استخلاف أنفس المستضعفين لا أولادهم، ومصر إنما ورثها أولادهم، لأنها فتحت في زمان

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

داوود عليه السلام، ويمكن أن يحمل على أرض الشام ومصر جميعاً والمراد بالمستضعفين: هم وأولادهم، فإن الأبناء ينسب إليهم ما ينسب إلى الآباء، والله أعلم.

وعبارة «المراغي» هنا: أي كم[1] ترك فرعون وقومه، بعد مهلكهم من بساتين فيحاء، وحدائق غناء، وزروع ناضرة، وقصور شاهقة، فقد كانوا في بُلَهْنِيَّةٍ من العيش، وسعة في الرزق، وخفض ودعة، وسرور، وحبور، ثم أكد هذا بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: هكذا فعلنا بهؤلاء الذين كذبوا رسلنا، وهكذا نفعل بكل من عصانا، وخالف أمرنا ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾؛ أي: وأورثنا تلك البلاد بما فيها من خير عميم ونعيم عظيم، قوماً غير أهلها ممن لا يمتون[2] - لا ينسبون - إليهم بقرابة ولا دين، فقد تغلب على مصر الآشوريون، والبابليون حيناً، والحبش حيناً آخر، ثم الفرس مدةً، واليونان أخرى، ثم الرومان من بعدهم، ثم العرب، ثم الطولونيون، والإخشيديون، والفاطميون، والمماليك البرية والبحرية، والترك والفرنسيون، والإنكليز، وها نحن أولاء نجاهد لنحظى بخروجهم من ديارنا، ونتمكن من استقلال بلادنا، ولله الأمر من قبل ومن بعد ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم سخر منهم، واستهزأ بهم حين هلكوا، فقال: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ مجاز مرسل عن عدم الاكتراث بهلاكهم. والاعتداد بوجودهم؛ لأن سبب البكاء على الشيء هو المبالاة بوجوده، قال المفسرون؛ أي[3]: إنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم به، ولم يصعد لهم إلى السماء عمل طيب يُبْكَىٰ عليهم به.

---

(١) المراغي.

(٢) يمتون: المت التوسل بقرابة بابه رد اهـ مختار.

(٣) الشوكاني.

والمعنى: أنه لم يصب بفقدهم وهلاكهم أحد من أهل السماء، ولا من أهل الأرض، وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض؛ أي: عمت مصيبته، ومن ذلك قول جرير:

لَمَّا أَتَىٰ خَبَرُ ٱلزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ ... سُوْرُ ٱلْمَدِيْنَةِ وَٱلْجِبَالُ ٱلْخُشَّعُ

وقال الحسن: في الكلام حذف مضاف، تقديره: أي ما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض من الملائكة والناس، وقال مجاهد: الكلام على حقيقته، فإن السماء والأرض تبكيان على المؤمن أربعين صباحاً، وقيل: إنه يبكي على المؤمن مواضع صلاته، ومصاعد عمله، وفي الحديث: «إن المؤمن يبكي عليه من الأرض مصلاه، وموضع عبادته، ومن السماء مصعد عمله»، ورُوي: إذا مات كافر استراح منه السماء والأرض، والبلاد، والعباد، فلا تبكي عليه أرض ولا سماء ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾؛ أي: ممهلين إلى وقت آخر، بل عوجلوا بالعقوبة لفرط كفرهم، وشدة عنادهم؛ أي: ما أمهلوا لتوبة، أو تدارك تقصير، بل عجل لهم العذاب.

ولما بين كيفية إهلاك فرعون وقومه أردف ذلك، بذكر إحسانه إلى موسى، وقومه فبدأ بدفع الضرر عنهم، وهو نجاتهم مما كانوا فيه من العذاب، ثم ذكر اتصال النفع لهم من اختيارهم على العالمين، وإيتائهم الآيات، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد خلصنا أولاد يعقوب بإغراق القبط في اليم ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾؛ أي: من العذاب الشديد من استعباد فرعون إياهم، وقتل أبنائهم، واستخدام نسائهم وبناتهم، وتكليفه إياهم بالأعمال الشاقة. وقوله: ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل من العذاب، إما على جعله نفس العذاب لإفراطه في التعذيب، وإما على حذف المضاف؛ أي: من عذاب فرعون، أو حال من المهين؛ أي: حال كونه واقعاً من جهة فرعون واصلاً إليهم من جانبه.

وقرأ عبد الله[1]: ﴿من عذاب المهين﴾ وهو من إضافة الموصوف إلى

---

(١) البحر المحيط.

صفته، كبقلة الحمقاء، أو من عذاب فرعون المهين إياهم؛ لأنه كان عظيم السعي في إهانة المحقين، وقرأ ابن عباس ﴿من فرعون﴾، من اسم استفهام مبتدأ، و﴿فرعون﴾ خبره لما وصف فرعون بالشدة والفظاعة، قال ﴿من فرعون﴾ على معنى: هل تعرفونه من هو في عتوه وشيطنته.

ثم عرف حاله في ذلك. بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾؛ أي: متكبراً عن الإيمان وقبول الحق، ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ خبر ثان؛ أي: من الذين أسرفوا على أنفسهم بالظلم والعدوان، وتجاوز الحد في الكفر والعصيان، ومن إسرافه أنه على حقارته، وخسة شأنه ادعى الإلهية، وكان أكفر الكفار، وأطغاهم، وهو أبلغ من أن يقال: مسرفاً لدلالته على أنه معدود في زمرتهم، مشهور بأنه في جملتهم، وفيه ذم لفرعون، ولمن كان مثله في العلو والإسراف، كنمرود وغيره، وبيان أن من أهان المؤمن، أهلكه الله تعالى، وأذله، ومن يهن الله فما له من مكرم، وأن النجاة من أيدي الأعداء، من نعم الله الجليلة على الأحباب، فإن من نكد الدنيا ومصائبها على الحر، أن يكون مغلوباً للأعداء، وأن يرى عدواً له، ما من صداقته بد، وأن الله تعالى إذا أراد للمرء ترقياً في دينه ودنياه، يقدم له البلايا ثم ينجيه.

والمعنى: أي ولقد خلصناهم بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد، وقتل الأبناء، واستحياء النساء، وتكليفهم بالأعمال الشاقة إلى نحو ذلك، من وسائل الخسف والضيم، إذ كان جباراً مستكبراً مسرفاً في الشر والفساد، ولا أدل على ذلك من ادعائه الألوهية إذ قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾.

وبعد أن بين طريق دفعه الضر عنهم، أردف ذلك، ذكر ما أكرمهم به، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد اصطفينا بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في محل النصب على الحال من فاعل ﴿اخترنا﴾؛ أي[1]: حالة كوننا

---

(١) روح البيان.

عالمين، بأنهم أحقاء بالاختيار، والاصطفاء، وفضلناهم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: على عالمي زمانهم، أو على العالمين جميعاً في زمانهم وبعدهم في كل عصر، لكثرة الأنبياء فيهم حيث بعث فيهم يوماً ألف نبي، ولم يكن هذا في غيرهم، ولا ينافيه قوله تعالى في حق أمة محمد ﷺ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية، لتغاير جهة الخيرية. وقال هنا[1]: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ أي: منا وقال في الجاثية: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بحذفه جرياً هنا على الأصل في ذكر ما لا يغني عنه غيره، واكتفاءً، ثم بقوله بعد: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

يقول الفقير: والحق أن هذه الأمة المرحومة، خير من جميع الأمم من كل وجه، فإن خيرية الأمم إن كانت باعتبار معجزات أنبيائهم، فالله تعالى قد أعطى لنبينا ﷺ جميع ما أعطاه للأولين، وإن كانت باعتبار كثرة الأنبياء في وقتٍ واحد، فعلماؤنا الذين كأنبياء بني إسرائيل أكثر، وأزيد، وذلك لأنه لا تخلو الدنيا كل يوم من أيام هذه الأمة إلى قيام الساعة من مئة ألف وليٍّ وأربعة وعشرين ألف ولي، فانظر كم بينهم من الفرق، وهدانا الله وإياكم أجمعين انتهى.

وقال الواسطي رحمه الله تعالى[2]: اخترناهم على علم منا بجناياتهم، وما يقترفون من أنواع المخالفات، فلم يؤثر ذلك في سوابق علمنا بهم، ليعلموا أن الجنايات لا تؤثر في الرعايات، ومن هذا القبيل أولاد يعقوب عليه السلام، فإنهم مع ما فعلوا بيوسف من إلقائه في الجب ونحوه، اختارهم الله تعالى للنبوة على قول.

والمعنى[3]: أي ولقد اصطفيناهم على عالمي زمانهم بما أنزلنا عليهم من الكتب، وأرسلنا فيهم من الرسل، ونحن عالمون بأنهم أهل لكل مكرمة وفضل ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾؛ أي: وأعطينا بني إسرائيل ﴿مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: من الأمور ذوات الخطر والشرف، الدالة على كرامتهم عندنا، وهي معجزات موسى عليه السلام،

---

(١) فتح الرحمٰن.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾؛ أي: اختبار ظاهر، وامتحان واضح، لننظر كيف يعملون، كفلق البحر، وإنجائهم من الغرق، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغيرها من عظائم الآيات التي لم يعهد مثلها في غيرهم. وفي «كشف الأسرار»: ابتلاهم بالرخاء والبلاء، فطالبهم بالشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء.

الإعراب

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه السورة الآتية سورة ﴿حم﴾؛ أي: مسماة بـ﴿حم﴾ إن قلنا إنه اسم للسورة، والجملة مستأنفة، وإن قلنا: إنه مما استأثر الله سبحانه بعلمه، فلا محل له من الإعراب؛ لأن الإعراب فرع عن إدراك المعنى، والمعنى: لم يعلم ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿الكتاب﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ صفة لـ﴿الكتاب﴾، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً، تقديره: أقسم والكتاب المبين، وجملة القسم مستأنفة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿فِى لَيْلَةٍ﴾: متعلق به، ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ صفة ﴿لَيْلَةٍ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿مُنذِرِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جواب ثان للقسم أيضاً، أو مستأنفة، أو تفسيرية لجواب القسم. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿يُفْرَقُ﴾، ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ﴾: فعل مغير الصيغة، ونائب فاعل، ومضاف إليه ﴿حَكِيمٍ﴾: صفة أمر، والجملة الفعلية مستأنفة، أو صفة ثانية لـ﴿لَيْلَةٍ﴾، وما بينهما اعتراض ﴿أَمْرًا﴾: مفعول مطلق لـ﴿يُفْرَقُ﴾ لأنه مصدر معنوي له؛ أي: يفرق فرقاً من عندنا، أو مفعول مطلق لفعله المحذوف؛

أي: أمرنا أمراً ﴿مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾ صفة لـ﴿أَمۡرٗا﴾، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿رَحۡمَةٗ﴾ أجازوا فيه خمسة أوجه، متساوية الرجحان:

الأول: المفعول لأجله والعامل فيه إما ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، وإما ﴿أَمۡرٗا﴾، وإما ﴿يُفۡرَقُ﴾، وإمَّا ﴿مُنذِرِينَ﴾.

والثاني: أنه مصدر منصوب بفعل مقدر؛ أي: رحمنا رحمة.

والثالث: أنه مفعول بـ﴿مُرۡسِلِينَ﴾.

والرابع: أنه حال من ضمير ﴿مُرۡسِلِينَ﴾؛ أي: ذوي رحمة.

والخامس: أنه بدل من ﴿أَمۡرٗا﴾، ﴿مِّن رَّبِّكَۚ﴾ صفة لـ﴿رَحۡمَةٗ﴾، أو متعلق بنفس الرحمة، ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿هو﴾ ضمير فصل ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ خبران لـ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩﴾.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: بالجر بدل من ﴿رَّبِّكَۚ﴾، وبالرفع خبر ثالث لـ﴿إنّ﴾. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿بَيۡنَهُمَآۖ﴾: ظرف صلة لما، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها: ﴿مُّوقِنِينَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن كنتم موقنين، فأيقنوا بأن محمداً ﷺ رسوله، وجملة الشرط معترضة ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾: ناصب واسمه وخبره محذوف جوازاً، تقديره: موجود، وجملة ﴿لَآ﴾: في محل الرفع خبر ثالث أو رابع لـ﴿إنّ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة، في محل الرفع، بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾: المحذوف، ﴿يُحۡيِۦ﴾: فعل، وفاعل مستتر، والجملة خبر رابع لـ﴿إنّ﴾. ﴿وَيُمِيتُۖ﴾: معطوف على ﴿يُحۡيِۦ﴾، ﴿رَبُّكُمۡ﴾: خبر خامس لـ﴿إنّ﴾. ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾: معطوف على

﴿رَبُّكُمْ﴾، ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: صفة لـ﴿ءَابَآئِكُمُ﴾، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب عن محذوف، تقديره: فليسوا بموقنين بل هم، و﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿فِى شَكٍّ﴾: خبره، وجملة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ في محل النصب، حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، والجملة الإضرابية معطوفة على الجملة المحذوفة.

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت تعنتهم وتمردهم في الكفر، وأردت بيان عاقبة أمرهم. فأقول لك: ارتقب: ﴿ارتقب﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿يَوْمَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾، ﴿بِدُخَانٍ﴾: متعلق لـ﴿تَأْتِى﴾، ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة لـ﴿دخان﴾.

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿دخان﴾، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الجر، صفة ثانية لـ﴿دخان﴾. ﴿هَـٰذَا عَذَابٌ﴾: مبتدأ وخبر ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لقول محذوف، وجملة القول المحذوف حال من الناس، تقديره: يغشى الناس، حال كونهم يقولون لربك هذا عذاب أليم، ربنا اكشف عنا العذاب، ﴿رَّبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب، مقول القول. ﴿ٱكْشِفْ﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿عَنَّا﴾: متعلق به، ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول القول على كونها جواب النداء. ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة في محل النصب، مقول القول مسوقة لتعليل الدعاء بالكشف، ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنى كيف، أو أين، في محل النصب على الظرفية، مبني على السكون، والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور، حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، ﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾ مبتدأ،

والتقدير: الذكرى حاصل؛ أي: حال كونه كائناً لهم، والاستفهام هنا لاستبعاد حصول الذكرى لهم، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾ حالية، ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿جَآءَهُمْ﴾ فعل ومفعول به، ﴿رَسُولٌ﴾: فاعل، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، حال من ضمير ﴿لَهُمُ﴾.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتأخير، ﴿تَوَلَّوْا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على مقدر تقديره: فلم يذكروا ثم تولوا عنه، ﴿وَقَالُوا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿تَوَلَّوْا﴾، ﴿مُعَلَّمٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو معلم، ﴿مَّجْنُونٌ﴾: خبر ثان للمبتدأ، والجملة الاسمية مقول لـ﴿قالوا﴾، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه ﴿كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾: خبره، ومضاف إليه، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: كشفاً قليلاً، أو على الظرفية الزمانية؛ لأنه صفة لزمان محذوف؛ أي: زمناً قليلاً، ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَائِدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولي بعاطف مقدر، تقديره: إنا كاشفوا العذاب قليلاً ثم إنكم عائدون، ﴿يَوْمَ﴾ منصوب باذكر مقدر، أو بننتقم منهم، ﴿نَبْطِشُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه ليوم، و﴿الْبَطْشَةَ﴾ مفعول مطلق، ﴿الْكُبْرَىٰ﴾ صفة له، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿مُنتَقِمُونَ﴾: خبره، والجملة مستأنفة.

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿فَتَنَّا﴾: فعل وفاعل، ﴿قَبْلَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿فَتَنَّا﴾، ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، ﴿وَجَاءَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿جاءهم﴾: فعل ومفعول به، ﴿رَسُولٌ﴾: فاعل، ﴿كَرِيمٌ﴾ صفة ﴿رَسُولٌ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَتَنَّا﴾.

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَنْ﴾ يجوز أن تكون مفسرة؛ لأن مجيء الرسل متضمن معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية، وهي مع مدخولها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: بأدائكم إلي، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جاءهم﴾، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وجملة ﴿أَدُّوٓاْ إِلَيَّ﴾: خبرها. ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، فيكون المراد بعباد الله: القبط. واختار الزمخشري أن يكون ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ مفعولاً به، وهم بنو إسرائيل، يقول أدوهم إلي، وأرسلوهم معي، ويؤيد هذا المعنى ما جاء في سورة الشعراء: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾. ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكُمْ﴾: حال من رسول؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿رَسُولٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿أَمِينٌ﴾: صفة ﴿رَسُولٌ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالأداء. ﴿وَأَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أن﴾: معطوفة مع مدخولها على ﴿أن﴾ الأولى، ويجوز فيها من الأوجه ما جاز في الأولى. ﴿لَّا﴾ ناهية. ﴿تَعْلُواْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿تَعْلُواْ﴾؛ أي: وبعدم علوكم على الله. ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه، ﴿ءَاتِيكُم﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾ متعلق بـ﴿ءَاتِيكُم﴾، ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة لـ﴿سلطان﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل النهي قبلها.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَإِنِّي﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إنّي﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿عُذْتُ﴾: خبره، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ قبلها، ﴿بِرَبِّي﴾: متعلق بـ﴿عُذْتُ﴾، ﴿وَرَبِّكُمْ﴾: معطوف على ﴿ربي﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تَرْجُمُونِ﴾: فعل مضارع، منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل،

والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة، اجتزاءً عنها بكسرة نون الوقاية مفعول به، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع مدخولها، في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: من رجمكم إياي بلا جرم، والجار والمجرور متعلق بـ﴿عُذْتُ﴾، ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم ﴿تُؤْمِنُوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، والواو فاعل، ﴿لِي﴾: متعلق بـ﴿تُؤْمِنُوا﴾، واللام بمعنى الباء، كقوله: فآمن له لوط؛ أي: به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً ﴿اعتزلون﴾ فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة الشرط معطوفة على مقدر معلوم من السياق، تقديره: فآمنوا بي ولا تؤذون، وإن لم تؤمنوا فاعتزلون. ﴿فَدَعَا﴾ الفاء عاطفة على مقدر معلوم من السياق، تقديره: فلم يتركوه، ﴿دعا ربه﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على موسى ومفعول به، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿أَنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾: ناصب واسمه، ﴿قَوْمٌ﴾: خبر. ﴿مُّجْرِمُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمٌ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ ومدخولها في محل نصب بنزع الخافض؛ أي: بأن هؤلاء إلخ، الجار والمجرور متعلق بـ﴿دعا﴾.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩)﴾.

﴿فَأَسْرِ﴾: الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان أمرهم وشأنهم كما قلت، وأردت النصر عليهم. . فأقول لك: أسر بعبادي، ﴿أسر﴾: فعل أمر، مبني على حذف حرف العلة، وهي الياء، وفاعله ضمير مستتر يعود على موسى ﴿بِعِبَادِي﴾: متعلق بـ﴿أسر﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿لَيْلًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿أسر﴾. ﴿إِنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿مُّتَّبَعُونَ﴾ خبره،

﴿وَٱتۡرُكِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اترك﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على موسى، ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾: مفعول به، ﴿رَهۡوًاۖ﴾: حال من البحر، أو مفعول ثان لـ﴿اترك﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَسۡرِ﴾، ﴿إِنَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه، ﴿جُندٞ﴾ خبره ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾ صفة ﴿جُندٞ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب، وقوله: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ...﴾ إلخ، مرتبط بمقدر لا بد من تقديره: ليلتئم نظام الكلام، تقديره: فأطمأن موسى بذلك، فتم إغراقهم، وكم تركوا إلخ، ﴿كَمۡ﴾: خبرية بمعنى عدد كثير، في محل النصب، مفعول به مقدم لـ﴿تركوا﴾، ﴿تَرَكُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن جَنَّٰتٖ﴾: تمييز لـ﴿كَمۡ﴾، و﴿مِن﴾: زائدة، وجملة ﴿تَرَكُواْ﴾: معطوف على ذلك المقدر. ﴿وَعُيُونٖ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ﴾: معطوفات على ﴿جَنَّٰتٖ﴾، ﴿كَرِيمٖ﴾ صفة ﴿مَقَامٖ﴾، ﴿وَنَعۡمَةٖ﴾: معطوف أيضاً على ﴿جَنَّٰتٖ﴾: عطف عام على خاص؛ لأن النعمة تشمل جميع ما ذكر وغيره، مما لم يذكر هنا، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿فَٰكِهِينَ﴾، و﴿فَٰكِهِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانُواْ﴾ في محل الجر صفة لـ﴿نعمة﴾، ﴿كَذَٰلِكَۖ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الأمر كذلك، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب، وقال الزمخشري: الكاف صفة لمصدر محذوف؛ أي: أخرجناهم منها إخراجاً مثل ذلك الإخراج، وقال أبو البقاء: صفة للترك؛ أي: وتركوها تركاً مثل ذلك الترك، ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أورثناها﴾: فعل، وفاعل، ومفعول أول، ﴿قَوۡمًا﴾ مفعول ثان، ﴿ءَاخَرِينَ﴾ صفة ﴿قَوۡمًا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَمۡ تَرَكُواْ﴾، ﴿فَمَا﴾ الفاء: عاطفة على مقدر، تقديره: فأغرقوا فما بكت، ﴿ما﴾: نافية ﴿بَكَتۡ﴾ فعل ماض، ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ متعلق بـ﴿بَكَتۡ﴾، ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: فاعل، ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾: معطوف عليه، والجملة معطوفة على تلك المقدرة، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: نافية، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُنظَرِينَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَكَتۡ﴾ أو على أغرقوا المقدر، وما بينهما اعتراض.

﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف

تحقيق، ﴿نَجَّيْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مفعول به، ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: متعلق بـ﴿نَجَّيْنَا﴾، ﴿ٱلْمُهِينِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْعَذَابِ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ، على ما يكابده من قريش، من الأذى، ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور، في قوله: ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص واسمه ضمير يعود على فرعون، ﴿عَالِيًا﴾: خبره ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ خبر ثان لـ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾: فعل، وفاعل ومفعول به، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم معطوفة على القسم المذكور قبلها، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ و﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى مع؛ أي: مع علمنا بأنهم يزيغون، وتفرط منهم الفرطات، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلق بـ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل، ومفعول أول، معطوف على ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾، ﴿مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾: حال مقدم على صاحبها؛ لأنه حال من ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول ثان لـ﴿آتيناهم﴾، ﴿فِيهِ﴾ خبر مقدم، ﴿بَلَٰٓؤٌا﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة ﴿بَلَٰٓؤٌا﴾، والجملة الاسمية صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ أي: ذات بركة وخير كثير، اسم مفعول من بارك الرباعي، بوزن فاعل لا مصدر، والمفاعلة ليست على بابها، وهي ليلة القدر على الصحيح المشهور. وقال النووي في «شرح مسلم»: والقول بأنها ليلة النصف من شعبان خطأ. ﴿مُنذِرِينَ﴾؛ أي: مخوفين ﴿يُفْرَقُ﴾؛ أي: يفصل ويبين ﴿أَمْرٍ

حَكِيمٍ﴾؛ أي: محكم مبرم لا يقبل التغيير والتبديل. ﴿مُوقِنِينَ﴾؛ أي: مريدين اليقين، كما يقال: منجد، متهم؛ أي: يريد نجداً وتهامة: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أصله: يموت بوزن يفعل، مضارع أمات الرباعي، نقلت حركة الباء إلى الميم فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مد، وفيه حذف همزة أفعل من المضارع كما في أكرم.

﴿فَٱرْتَقِبْ﴾؛ أي: انتظر من قولهم: رقبته؛ أي: انتظرته وحرسته. ﴿بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ في «المختار»: دخان النار معروف، ودخنت النار ارتفع دخانها، وبابه دخل وخضع، وأدخنت مثله، ودخنت النار إذا فسدت بإلقاء الحطب عليها حتى هاج دخانها، ودخن الطبيخ، إذا تدخنت القدر، وبابه طرب، وقياس جمعه في القلة أدخنة، وفي الكثرة دخنان، نحو: غراب وأغربة وغربان، وشذوا في جمعه على فواعل، فقالوا: دواخن، كأنه جمع داخنة، كما شذوا في عنان، فقالوا في جمعه: عوانن. وفي «القاموس»: والدخان كغراب وجبل، ورمان العُثَانُ، والجمع أدخنة ودواخن ودواخين، وقال أبو عبيدة: والدخان الجدب، قال القتيبي: سمي دخاناً ليبس الأرض منه، حتى يرتفع منها كالدخان. ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: يغشي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، والمراد بالدخان هنا: ما أصابهم من الظلمة في أبصارهم من شدة الجوع، حتى كأنهم كانوا يرون دخاناً، فإن الإنسان إذا اشتد خوفه، أو ضعفه، أظلمت عيناه، ورأى الدنيا كالمملوءة دخاناً ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: يحيط بهم ﴿ٱكْشِفْ عَنَّا﴾؛ أي: ارفع عنا ﴿أَنَّىٰ﴾؛ أي: كيف يكون، ومن أين يحصل ﴿مُعَلَّمٌ﴾؛ أي: يعلمه غلام رومي لبعض ثقيف.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أصله: تولّيوا بوزن تفعلوا قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فالتقى ساكنان الألف وواو الجماعة فحذفت الألف وبقيت الفتحة دالة عليها.
﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ جمع عائد، وفيه إعلال بالإبدال أصله: عاودون، أبدلت الواو همزة في الوصف، حملاً له في الإعلال على فعله حيث أعل الفعل عود بقلب الواو ألفاً، لتحركها بعد فتح. ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾ يقال: بطش به أخذه بالعنف والسطوة، كأبطشه، والبطش الأخذ الشديد في كل شيء، والبأس قاله في «القاموس». وفي «المصباح»: بطش بطشاً من باب ضرب، وبها قرأ السبعة، وفي

لغة من باب قتل، وبها قرأ الحسن البصري، وأبو جعفر المدني، والبطش: هو الأخذ بعنف، وبطشت اليد إذا عملت فهي باطشة اهـ.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: بلونا، وامتحنا؛ أي: فعلنا بهم فعل الممتحن الذي يريد أن يعلم بحقيقة ذلك الشيء، وذلك الامتحان كان بزيادة في الرزق، والتمكين في الأرض، ففسدوا واستطالوا في الغي، وركوب متن الضلال ﴿كَرِيمٌ﴾؛ أي: جامع لخصال الخير، والأفعال المحمودة قاله الراغب. ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ﴾ أصله: أديوا، أمر من أدى يؤدي، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت التقي ساكنان، فحذف الياء وضمت الدال، لمناسبة الواو؛ أي: أطلقوا، وسلموا إلي ﴿أَمِينٌ﴾؛ أي: ائتمنه الله على وحيه ورسالته.

﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: لا تستكبروا على الله بالاستهانة بوحيه، أصله: تعلووا بوزن تفعلوا، سكنت الواو الأولى لوقوعها إثر ضمة، لتكون حرف مد، فالتقى ساكنان فحذفت الواو الأولى، لام الكلمة فوزنه تفعوا.

﴿إِنِّي آتِيكُمْ﴾ اسم فاعل من أتى الثلاثي، فالمدة فيه مدة فاعل، اتصلت بفاء الكلمة، وسكنت الياء لوقوعها إثر كسرة، ويحتمل أن يكون مضارع أتى، فاجتمعت همزتان، همزة المضارع للمتكلم، وهمزة فاء الفعل، فأبدلت الثانية ألفاً حرف مد، من جنس حركة الأولى. ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها. ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾؛ أي: التجأت إليه، وتوكلت عليه، وأصله: عوذ قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، فصار عاذ فاتصلت بالفعل تاء الفاعل فبني على السكون، فصار عاذت فالتقى ساكنان، فحذفت الألف فصار عَذت، فحذفت حركة فاء الفعل، وعوض عنها حركة تجانس العين المحذوفة، وهي الضمة؛ لأن عين الفعل واو فقيل: ﴿عُذْتُ﴾ بوزن فلت ﴿أَنْ تَرْجُمُونِ﴾؛ أي: تؤذونني ضرباً، أو شتماً. ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾؛ أي: كونوا بمعزل مني، لا علي ولا لي، ولا تتعرضوا لي بسوء ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾؛ أي: سربهم ليلاً ﴿مُتَّبَعُونَ﴾؛ أي: يتبعكم فرعون وقومه. ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾؛ أي: حال كونه رهواً، فهو منصوب على الحال من البحر. والرهو في الأصل، مصدر رها يرهو رهواً، كعدا يعدو عدواً، إما بمعنى سكن؛ أي: ساكناً، وإما بمعنى انفرج وانفتح؛ أي: منفرجاً منفتحاً.

وفي «المختار»: رها بين رجليه؛ أي: فتح، وبابه عدا ورها البحر سكن، وبابه عدا أيضاً، اهـ.

﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ والجند الجمع المعد للحرب، ﴿مغرقون﴾؛ أي: متمكنون في هذا الوصف، وإن كان لهم وصف القوة، والتجمع الذي شأنه النجدة الموجبة للعلو في الأمور. والغرق: الرسوب في الماء، والتسفل فيه حتى يغرق ويهلك، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: مجالس محفلة، ومنازل مزينة، وأصله: مقوم بوزن مفعل، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال، مصدر ميمي، أو اسم مكان. ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ قال صاحب «الكشاف»: النعمة بالفتح من التنعم، وبالكسر من الإنعام؛ أي: حسن حياة، ونضرة عيش.

﴿كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾؛ أي: طيبي الأنفس ناعمين، أو أصحاب فاكهة، كلابن وتامر، وقد مرت هذه الصيغة، وعبارة «القاموس»: الفاكهة الثمر كله، والفاكهاني بائعها وكخجل آكلها، والفاكه صاحبها، وفكههم تفكيهاً أطرفهم بها، والاسم الفكيهة والفكاهة بالضم، وفكه كفرح فكهاً فهو فكه وفاكه طيب النفس ضحوك، أو يحدث صحبه، فيضحكهم انتهى.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ﴾؛ أي: لم تكترث لهلاكهم، ولا اعتدت بوجودهم، وقد جرى الناس أن يقولوا حين هلاك الرجل العظيم الشأن: إنه قد أظلمت الدنيا لفقده، وكسفت الشمس والقمر له، وبكت عليه السماء والأرض، كما قال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى:

الشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُوْمَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا

أي: يا نجوم الليل والقمر، وأصله: بكي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم اتصلت بالفعل تاء التأنيث الساكنة، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين فوزنه فعت. ﴿مُنظَرِينَ﴾؛ أي: ممهلين مؤخرين ﴿الْمُهِينِ﴾؛ أي: الشديد الإهانة والإذلال ﴿عَالِيًا﴾؛ أي: جباراً متكبراً. ﴿مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: في الشر والفساد. و﴿عَالِيًا﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: عالوا من العلو، قلبت الواو ياء

لوقوعها متطرفةً إثر كسرة. ﴿ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ﴾؛ أي: اصطفيناهم. ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾؛ أي: عالمين باستحقاقهم ذلك. ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: عالمي زمانهم، وقوله: ﴿ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ﴾ أصل اختار اختير، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم لما أسند الفعل إلى ضمير الرفع التقى ساكنان، فحذفت الألف فوزنه افتلناهم ﴿مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ أي: المعجزات، كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى ﴿بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ﴾؛ أي: اختبار ظاهر، أصل بلاء بلاو، أبدلت الواو همزة لتطرفها بعد ألف زائدة، وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ أصله: مبين بوزن مفعل نقلت حركة الياء إلى الباء، فسكنت إثر كسرة وصارت حرف مد.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: وضع الرب موضع الضمير في قوله: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ للإيذان بأن ذلك من أحكام الربوبية ومقتضياتها؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: رحمة منا، وفيه أيضاً الإضافة إلى ضميره ﷺ للتشريف، وفيه أيضاً الالتفات من التكلم إلى الغيبة، ولو جرى على منوال ما تقدم لقال: رحمةً منا كما في «السمين».

ومنها: الطباق في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾.

ومنها: تكرار لفظ الرب، اعتناءً بشأن الربوبية.

ومنها: الإسناد العقلي في قوله: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ﴾ حيث أسند الإتيان إلى السماء؛ لأن كفها عن الإمطار كان سبباً في الدخان، فهو من قبيل إسناد الشيء إلى سببه.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِدُخَانٖ﴾ حيث أطلق الدخان على شدة القحط، وغلبة الجوع على سبيل الكناية، أو المجاز المرسل.

ومنها: صيغة الفاعل في قوله: ﴿كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ للدلالة على تحقق الكشف والمعاودة لا محالة، ولقد وقع كلاهما، حيث كشفه الله تعالى بدعاء النبي ﷺ، فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا فيه من

العتو والعناد.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ لما فيه من إسناد الفعل إلى سببه؛ لأن المراد بالفتنة: ارتكاب المعاصي، وهو تعالى كان سبباً لارتكابها بالإمهال، وتوسيع الرزق عليهم.

ومنها: إيراد الأداء مع الأمين، والسلطان مع العلو، في قوله: ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾، وفي قوله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾؛ لأن في ذلك من الجزالة، والمناسبة ما لا يخفى.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾؛ لأن الاعتزال هنا كناية عن الترك، ولا يراد به الاعتزال بالأبدان.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾؛ أي: وقلنا له: أن أسر بعبادي.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾: لأن النعمة تشمل الأربعة قبلها، وغيرها من أنواع النعم، كالنظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾؛ لأن الإيراث هنا مجاز عن تمليكها مخلفة عليهم، أو عن تمكينهم من التصرف فيها، تمكين الوارث فيما يرثه.

ومنها: الاستعارة المكنية التخييلية في قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ حيث شبه السماء والأرض بمن يصح منه الاكتراث، ثم حذف المشبه به، وهو من يصح منه الاكتراث، واستعار له شيئاً من لوازمه، وهو البكاء، فإسناد البكاء إليهما على سبيل التخييل، والمعنى: أنهم لم يكونوا يعملوا عملاً صالحاً ينقطع بهلاكهم، فتبكي الأرض لانقطاعه، وتبكي السماء؛ لأنه لم يصعد إليها شيء من ذلك العمل الصالح بعد هلاكهم، وجعله بعضهم مجازاً مرسلاً عن الاكتراث بهلاك الهالك، والعلاقة السببية، فذكر المسبب، وأراد السبب، فإن الاكتراث

المذكور سبب يؤدي إلى البكاء عادة.

ومنها: أن الإضافة في قوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي﴾ للتشريف، وفي قوله: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ للتهويل والتهديد، وفي قوله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾ للتشريف.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿لَيْلًا﴾ لأن الإسراء، وكذا السرى، لا يكون إلا في الليل.

ومنها: أن التنكير والإبهام في قوله: ﴿جَنَّتٍ﴾ وما بعده للتكثير والتعظيم؛ لأن جناتهم، وبساتينهم كانت كبيرةً واسعةً جداً؛ لأنها كانت متصلة من رشيد إلى أسوان، وقدر المسافة بينهما أكثر من عشرين يوماً.

ومنها: الإيجاز والاختصار في هذه الآية، والتقدير: وفعل موسى ما أمر به من ترك البحر رهواً، فدخله فرعون وقومه فأغرقوا، وتركوا بساتين كثيرة كما مرّ.

ومنها: تسمية الشيء بالمصدر لكونه سببه في قوله: ﴿وَزُرُوعٍ﴾؛ لأنه مصدر زرع الله الحرث زرعاً، إذا أنبته وأنماه.

ومنها: الاعتراض بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ بين المعطوف والمعطوف عليه، للتفخيم والتعجيب.

ومنها الإبهام في قوله: ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ دلالةً على فخامتهم، ونباهتهم.

ومنها: التهكم بالكفار، وبحالهم المنافية لحال من يعظم، فيقال له: بكت عليه السماء والأرض، في قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾...﴾ الآيات، عود[1] على بدءٍ، كان الكلام أولاً في كفار قريش، إذ قال فيهم: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾؛ أي: إنهم في شك من البعث والقيامة، ثم بين كيف أصروا على كفرهم، ثم ذكر أن قوم فرعون كانوا في إصرارهم على الكفر كهؤلاء، وقد أهلكهم الله، وأنجى بني إسرائيل، ثم رجع إلى الحديث الأول، وهو إنكارهم للبعث، وقولهم: إنه لا حياة بعد هذه الحياة فإن كنتم صادقين، فاسألوا ربكم، يعجل لنا إحياء من مات، حتى يكون ذلك دليلاً على صدق دعواكم النبوة، والبعث والقيامة، ثم توعدهم بأنه سيستن بهم سنة من قبلهم من المكذبين، فقد أهلك من هم أقوى منهم

---

(١) المراغي.

بطشاً، وأكثر جنداً، وهم قوم تبع ملوك اليمن من قحطان، فحذار أن تصروا على الكفر، حتى لا يحيق بكم بأس ربكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر وعيد الكافرين، وما يرونه من الأهوال في ذلك اليوم.. أعقب هذا بوعد المتقين، بما يلاقونه في جنات النعيم، من ضروب التكريم في الملبس، والزوجات، والمآكل، ثم ببيان أن هذا النعيم أبدي، خالد، لا يعقبه موت ولا تحول ولا انتقال، ثم ختم السورة بالمنة على العرب في نزول القرآن بلغتهم لعلهم يعتبرون، ويتعظون به، ثم توعدهم إذا هم كذبوا بما جاء به الرسول بحلول النقمة بهم، والنصر له عليهم، كما هي سنته في أمثالهم من المكذبين ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾ سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه سعيد بن منصور عن أبي مالك، قال: إن أبا جهل كان يأتي بالتمر، والزبد، فيقول: تزقموا، فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد ﷺ، فنزلت: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾.

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ سبب نزوله[2]: ما أخرجه الأموي في «مغازيه» عن عكرمة، قال: لقي النبي ﷺ أبا جهل، فقال: «إن الله أمرني أن أقول لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥﴾ قال فنزع ثوبه من يده، فقال: ما تستطيع لي أنت وصاحبك من شيء، لقد علمت أني أمنع أهل بطحاء، وأنا العزيز الكريم، فقتله يوم بدر، وأذله، وعيره بكلمته، ونزل فيه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾، وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه.

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى كفار قريش، لأن الكلام فيهم، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على استوائهم في الإصرار على الكفر؛ أي: إن هؤلاء المشركين من قومك ﴿لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ﴾؛ أي: ما العاقبة، ونهاية الأمر ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ التي نموتها في الدنيا، وتزيل حياتنا الدنيوية، ولا حياة بعدها ولا بعث.

قال الرازي: المعنى أنه لا يأتينا من الأحوال الشديدة إلا الموتة الأولى، اهـ، ووصفها بالأولى لا يستدعي أن يثبت الخصم موتةً ثانية، فيقصدوا بذلك إنكارها؛ لأن كون الشيء أولاً، يستلزم وجود ما كان آخراً بالنسبة إليه، كما لو قال أول عبد أملكه حر، فملك عبداً عتق، سواء كان ملك بعده عبداً آخر، أو لا، ولا يبعد[1] أن يحمل على حذف المضاف، على أن يكون التقدير: إن الحياة إلا حياة موتتنا الأولى، فالأولى صفة للمضاف، والقرينة عليه قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾، فالآية مثل قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾؛ أي: بمبعوثين بعد الموت، من أنشر الله الموتى، إذا بعثهم، وغرضهم من هذا القول، المبالغة في إنكار حشر الموتى، ونشرهم من القبور، والمعنى؛ أي: إن هؤلاء المشركين من أهل مكة يقولون ماثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث، ولا نشور.

ثم خاطبوا من وعدوهم بالنشور، وهم النبي ﷺ وأصحابه، وقالوا لهم ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾؛ أي: ارجعوهم إلى الدنيا بعد موتهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولونه، وتخبروننا به من البعث؛ أي: إن كان البعث والنشور حقاً ممكناً معقولاً كما تقولون، فعجلوا لنا بإحياء آبائنا الذين ماتوا، وذهبوا ولم يرجعوا، إن كنتم صادقين فيما تدعون من البعث، قيل: وكانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله تعالى، فينشر لهم قصي بن كلاب ليشاوروه، ويسألوا منه عن أحوال الموت، وكان كبيرهم ومفزعهم في المهمات والملمات.

---

(١) روح البيان.

وهذه حجة داحضة، فإن المعاد يوم القيامة، بعد انقضاء دار الدنيا، حين يعيد الله تعالى العالمين خلقاً جديداً، ومن ثم لم يتعرض الكتاب الكريم لرد ما قالوا، بل قال لهم متوعداً منذراً بأسه الذي لا يرد ﴿أَهُمْ﴾؛ أي: أكفار قريش ﴿خَيْرٌ﴾ في القوة، والشوكة اللتين يدفع بهما أسباب الهلاك، لا في الدين حتى يردانه ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الحميري الذي دار في الدنيا بجيوشه، وغلب أهلها وقهرهم خير، لا خيرية في واحد من الفريقين، وفيه وعيد شديد والمراد بتبع هنا: واحد من ملوك اليمن، معروف عند قريش، وخصه بالذكر لقرب الدار، وسيأتي بقية الكلام فيه، وقيل: المراد بتبع: جميع ملوكه لا واحد بعينه، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من قبل قوم تبع، معطوف على ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾، والمراد بهم: عاد، وثمود، وأضرابهم من كل جبار عنيد، أولي بأس شديد.

والاستفهام[1] لتقرير أن أولئك أقوى من هؤلاء المشركين، ومع ذلك ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ لما كذبوا رسلنا، وهذا كلام مستأنف لبيان عاقبة أمرهم؛ أي: أهلكنا قوم تبع والذين من قبلهم، وجملة قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾؛ أي: إن قوم تبع ومن قبلهم كانوا كاملين في الإجرام والآثام، مستحقين للهلاك، تعليل لإهلاكهم، ليعلم أن أولئك، حيث أهلكوا بسبب إجرامهم، مع ما كانوا في غاية القوة والشدة، فلأن يهلك هؤلاء، وهم شركاء لهم في الإجرام، وأضعف منهم في الشدة والقوة أولى.

ومعنى الآية[2]: أي إن نظراءهم المشركين، المنكرين للبعث، كقوم تبع، أهلكهم الله تعالى، وخرب ديارهم، وشردهم في البلاد شذر مذر، وقد كانوا أقوى منهم جنداً، وأكثر عدداً، وكانت لهم دولة وصولة، وهؤلاء ليسوا في شيء من ذلك، وكذلك فعل بمن قبلهم كعاد، وثمود، إذ كانوا في خسران مبين بكفرهم، وإنكارهم للبعث والنشور، فليحذر هؤلاء أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

---

(١) روح البيان.　　(٢) المراغي.

وقولنا: تبع الحميري منسوب إلى حمير، وهم أهل اليمن، وقد كانت حمير وهم أولاد سبأ، كلما ملك فيهم رجل سموه تبعاً، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من الألقاب السلطانية، وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: لا تسبوا تبعاً، فإنه قد أسلم، وكان يكتب إذا كتب بسم الله الذي ملك براً وبحراً، والمراد به هنا: تبع الأكبر، اسمه أسعد بن ملكيكون، وقيل: ابن حسان[1] الحميري، وكنيته أبو كرب الذي كسا البيت بعد ما أراد غزوه، وبعد ما غزا المدينة، وأراد خرابها ثم انصرف عنها، لما أخبر أنها مهاجر نبي اسمه أحمد، وقال شعراً أودعه عند أهلها، وكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر، إلى أن هاجر النبي ﷺ، فدفعوه إليه، ويقال: كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب الأنصاري خالد بن زيد، وفيه:

شَهِدْتُ عَلَىٰ أَحْمَدٍ أَنَّهُ ... رَسُوْلٌ مِنَ ٱللَّهِ بَارِيْ ٱلنَّسَمْ

فَلَوْ مُدَّ عُمْرِيْ إِلَىٰ عُمْرِهِ ... لَكُنْتُ وَزِيْراً لَهُ وَٱبْنَ عَمْ

وروى ابن إسحاق وغيره: أنه كان في الكتاب الذي كتبه، أما بعد: فإني آمنت بك وبكتابك الذي ينزل عليك، وأنا على دينك وسنتك، وآمنت بربك ورب كل شيء، وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام، فإن أدركتك فبها ونعمت، وإن لم أدركك فاشفع لي، ولا تنسني يوم القيامة، فإني من أمتك الأولين، وبايعتك قبل مجيئك، وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم عليه السلام، ثم ختم الكتاب ونقش عليه لله الأمر من قبل ومن بعد، وكتب على عنوانه، إلى محمد بن عبد الله، نبي الله ورسوله، خاتم النبيين ورسول رب العالمين، صلى الله عليه وسلم، من تبع الأول، وكان من اليوم الذي مات فيه تبع، إلى اليوم الذي بعث فيه النبي ﷺ، ألف سنة، لا يزيد ولا ينقص.

وفي «أوائل السيوطي»: أول من كسا الكعبة أسعد الحميري، وهو تبع

(١) الفتوحات.

الأكبر، وذلك قبل الإسلام بتسع مئة سنة، كساها الثياب الحبرة، وهي بوزن عنبة ضرب من برود اليمن، وفي رواية: وكسا بها الوصائل، وهي برود حمر، فيها خطوط خضر تعمل باليمن، وعن بعضهم: أول من كسا الكعبة كسوةً كاملة، تبع كساها العصب وهي ضرب من البرود، وجعل لها باباً يغلق، وقال في ذلك:

وَكَسَوْنَا ٱلْبَيْتَ ٱلَّذِيْ حَرَّمَ ٱللَّـ ـهُ مَلاَءً مُعَصَّباً وَبُرُوْدَا

وَأَقَمْنَا بِهِ مِنَ ٱلشَّهْرِ عَشْراً وَجَعَلْنَا لِبَابِهِ إِقْلِيْدَا

وَخَرَجْنَا مِنْهُ نَؤُمُّ سُهَيْلاً قَدْ رَفَعْنَا لِوَائَنَا مَعْقُوْدَا

وكان تبع هذا مؤمنا بالاتفاق، وقومه كانوا كافرين، ولذلك ذمهم الله تعالى دونه، واختلف هل كان نبياً أو ملكاً، فقال ابن عباس: كان تبع نبياً وقال كعب: كان تبع ملكاً من الملوك، وكان قومه كهاناً، وأهل كتاب فأمر الفريقين أن يقرب كل منهما قرباناً ففعلوا، فتقبل قربان أهل الكتاب، فأسلم، وقالت عائشة رضي الله عنهما: لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً، والله أعلم.

وفي «فتح الرحمٰن»: فإن قلت: القوم كانوا ينكرون الحياة الثانية، فكان حقهم أن يقولوا: إن هي إلا حياتنا الأولى؟.

قلت: لما قيل لهم: إنكم تموتون موتةً يعقبها حياة كما تقدمتكم موتة، لذلك قالوا: إن هي إلا موتتنا الأولى؛ أي: ما الموتة التي من شأنها أن يعقبها الحياة إلا الموتة الأولى.

ثم أقام تعالى على قدرته القاهرة دليلاً، ليستدل بذلك على إمكان البعث، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: وما بين جنس السماء والأرض من المخلوقات، قرأ الجمهور: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ نظراً إلى الجنس، وقرأ عمرو بن عبيد ﴿وما بينهن﴾ نظراً إلى مجموع السمٰوات والأرض حالة كوننا ﴿لَٰعِبِينَ﴾؛ أي: عابثين من غير أن يكون لخلقهما غرض صحيح، وغاية حميدة، يقال: لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً. وفي «التعريفات»: اللعب فعل الصبيان، يعقبه التعب من غير فائدة، وفي «فتح الرحمٰن»: قاله هنا

بالجمع، موافقة لقوله أول السورة: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ﴾ وما بينهما في حال من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حالة كوننا متلبسين ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي[1]: محقين، لنا فيه حكمة، وذلك ليستدل به على قدرتنا ووحدانيتنا، فهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أو ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء، فهو استثناء من أهم الأسباب، وقال الكلبي: إلا للحق، وكذا قال الحسن، وقيل: إلا لإقامة الحق وإظهاره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾؛ أي: أكثر الناس، وهم كفار مكة، وسائر الكفرة بسبب الغفلة، وعدم الفكرة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كذلك فينكرون البعث، والجزاء.

والآية دليل على ثبوت الحشر ووقوعه، ووجه الدلالة أنه لو لم يحصل البعث والجزاء، لكان هذا الخلق عبثاً؛ لأنه تعالى خلق نوع الإنسان، وما ينتظم به أسباب معايشهم من السقف المرفوع، والمهاد المفروش، وما فيهما وما بينهما من عجائب المصنوعات، وبدائع الأحوال، ثم كلفهم بالإيمان والطاعة ليتميز المطيع من العاصي، بأن يكون المطيع متعلقَ فضله وإحسانه، والعاصي متعلقَ عدله وعقابه، وذلك لا يكون في الدنيا لقصر زمانها، وعدم الاعتداد بمنافعها، لكونها مشوبة بأنواع المضار والمحن، فلا بد من البعث والجزاء لتجزى كل نفس بما كسبت، فالجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها، إذ لو لم يكن الجزاء كما يقول الكافرون، لاستوت عند الله تعالى أحوال المؤمن والكافر، وهو محال.

ومعنى الآية[2]: أي وما خلقنا الخلق عبثاً بأن نوجدهم ثم نفنيهم بغير امتحان بطاعتنا، واتباع أمرنا ونهينا، وبغير مجازاة للمطيع على طاعته، والعاصي على معصيته، بل خلقناهم لنبتلي من أردنا امتحانه منهم بما شئنا، ولنجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ولنجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وقد سبق نحو هذا في سورة

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

يونس، وسورة المؤمنين حيث قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾، وفي سورة ص، إذ قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧﴾، ما خلقناهما إلا خلقاً متلبساً بالحق، وهو الدلالة بهما على وحدانية الخالق لهما، ووجوب طاعته والإنابة إليه لعظمته وجبروته، كما جاء في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً، فأردت أن أعرف، فخلقت الخلق فبي عرفوني» ولكن أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون ذلك، فهم لا يخافون من سخطه، عقوبةً لهم على ما اجترحوا من السيئات، ولا يرجون ثواباً على خير فعلوه، لتكذيبهم بالميعاد، والعودة إلى دار أخرى، بعد هذه الدار.

وخلاصة ما تقدم[1]: أن هؤلاء لقلة تدبرهم، لا يعتقدون أن الأمر كذلك، وهم واهمون فيما يظنون، إذ لو لم توجد دار للجزاء، لما امتاز مطيع من عاص، ولا محسن من مسيء، والعقل قاض بغير هذا.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾؛ أي: إن يوم القيامة الذي يفصل فيه الحق من الباطل، ويميز المحق من المبطل، ويقضى بين الخلائق، بين الأب والابن، والزوج والزوجة، ونحو ذلك ﴿مِيقَـٰتُهُمْ﴾؛ أي: وقت موعد الخلائق ﴿أَجْمَعِينَ﴾ من الأولين والآخرين؛ أي: الوقت المجعول لتمييز المحسن منهم من المسيء، والمحق من المبطل، لا يتخلف عنه أحد منهم أجمعين، وقال بعضهم: يوم الفصل يوم يفصل فيه بين كل عامل وعمله، ويطلب بإخلاص ذلك وبصحته، فمن صح له مقامه وأعماله، قبل منه وجزي عليه، ومن لم تصح له أعماله، كانت أعماله عليه حسرةً وندامةً.

وقد اتفق[2] القراء على رفع ﴿مِيقَـٰتُهُمْ﴾ على أنه خبر ﴿إِنَّ﴾، واسمها ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، و﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للضمير المجرور في ﴿مِيقَـٰتُهُمْ﴾، وأجاز الكسائي والفراء نصبه على أنه اسمها، و﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ خبرها. وقرىء ﴿ميقاتهم﴾ بالنصب

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.

على أنه اسم ﴿إِنَّ﴾ والخبر ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ ذكره في «البحر». والميقات اسم للوقت المضروب للفصل، فيوم القيامة وقت لما وعدوا به، من الاجتماع للحساب والجزاء.

وقوله: ﴿لَا يُغْنِي﴾ بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أو منتصب بفعل مضمر يدل عليه الفصل؛ أي: يفصل بينهم يوم لا يغني، ولا يجزي ﴿مَوْلًى﴾؛ أي: ولي، وناصر من قرابة، أو عتاق، أو صداقة ﴿عَن مَّوْلًى﴾ له؛ أي: عن قريب له أيّا كان ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء، والإجزاء على أن شيئاً واقع موقع المصدر، وتنكيره للتقليل، ويجوز أن يكون منصوباً على المفعول به على أن يكون ﴿لَا يُغْنِي﴾: بمعنى لا يدفع بعضهم عن بعض شيئاً من عذاب الله، ولا يبعده، فإن الإغناء يأتي بمعنى الدفع، وإبعاد المكروه. وتنكير[1] ﴿مَوْلًى﴾ في الموضعين للإبهام، فإن المولى مشترك بين معان كثيرة يطلق على المالك والعبد والمعتق والصاحب والقريب كابن العم ونحوه، والجار والحليف والابن والعم والنزيل والشريك، وابن الأخت والولي والرب والناصر والمنعم والمنعم عليه والمحب والتابع والصهر، كما في «القاموس» وكل من ولي أمر واحد، فهو وليه ومولاه، فواحد من هؤلاء أي واحد كان، لا يغني عن مولاه أيَّ مولى كان شيئاً من الإغناء؛ أي: إغناءً قليلاً، وإذا لم ينفع بعض الموالي بعضاً ولم يغن عنه شيئاً من العذاب بشفاعته، كان عدم حصول ذلك ممن سواهم أولى، وهذا في حق الكفار، يقال: أغنى عنه كذا إذا كفاه.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا يمنعون مما نزل بهم من العذاب، ولا يملكون أن يشفع لهم غيرهم، فالضمير لمولى الثاني باعتبار المعنى، لأنه عام لوقوعه نكرةً في سياق النفي، فكأنه جمع، والمراد بالضمير: المولى الثاني؛ لأن المراد به[2] الكافر، وأما الأول فالمراد به: المؤمن.

والمعنى: يوم لا يغني مولى مؤمن عن مولى كافر شيئاً من عذاب الله،

---

(١) روح البيان.　　(٢) الفتوحات.

وقوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ توكيد لقوله: ﴿لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا﴾، فالمعنى: لا ينصر المؤمن الكافر، ولو كان بينهما في الدنيا علقة من قرابة، أو صداقة، أو غيرهما كما أشار إليه القرطبي. ﴿إلا من رحمـ﴾ـه ﴿ٱللَّهُۚ﴾ سبحانه وتعالى بالعفو عنه، وقبول الشفاعة في حقه، وهم المؤمنون، ومحله الرفع على البدل من ﴿الواو﴾ في ﴿يُنصَرُونَ﴾، كما في «المختار»، أو النصب على الاستثناء ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا ينصر من أراد تعذيبه كالكفار ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن أراد أن يرحمه كالمؤمنين.

والمعنى: أي إن هذا اليوم الذي يفصل الله فيه بين خلقه، فيحق الحق ويبطل الباطل لآت لا محالة، وهو وقت حسابهم وجزائهم على ما كسبت أيديهم من خير، أو شر، ونحو الآية قوله: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا﴾، ثم وصف أهوال هذا اليوم، فقال: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى﴾ إلخ؛ أي: إن هذا يوم تنقطع فيه الأسباب بابن آدم، فلا تنفع الناس إلا أعمالهم، فمن أصاب خيراً في دنياه سعد به، ومن أصاب شراً شقي به، ولا يغني القريب عن القريب، ولا يدفع عنه شيئاً من عذاب الله، ولا يجد الناصر الذي يقيه ذلك العذاب.

وقصارى ذلك: لا يفيد المؤمن الكافر، ولا ينصره ولو كان بينهما في الدنيا علقة من قرابة أو صداقة أو غيرهما، ونحو الآية قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾؛ أي: لكن من رحمه الله تعالى، فإنه لا يحتاج إلى قريب ينفعه، ولا إلى ناصر ينصره، قاله الكسائي على أن الاستثناء منقطع، وقيل: متصل، والمعنى: لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنهم يؤذن لهم في الشفاعة فيشفعون، إنه سبحانه هو العزيز في انتقامه من أعدائه، الرحيم بأوليائه وأهل طاعته.

ثم لما وصف يوم الفصل، ذكر بعده وعيد الكفار، فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ وقرىء بكسر الشين، هي على صورة شجرة الدنيا، لكنها في النار،

والزقوم ثمرها، وهو في الأصل كل طعام ثقيل، وشجرة الزقوم هي الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسماها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها، فأكلوا منها قال في «القاموس»: هي شجرة بجهنم، وطعامُ أهل النار. وفي «عين المعاني»: شجرة في أسفل النار مرتفعة إلى أعلاها، وما من دركة إلا وفيها غصن منها انتهى. فتكون هي في الأصل نظير طوبى في الأعلى. وفي «كشف الأسرار»: شجرة الزقوم على صورة شجرة الدنيا لكنها من النار، والزقوم ثمرها، وهو ما أكل بكره شديد، وقيل: كل طعام ثقيل فهو زقوم كما مر.

وفي «إنسان العيون»: لا تسلط لجهنم على شجرة الزقوم، فإن من قدر على خلق من يعيش في النار ويلتذ بها كالسمندل، فهو أقدر على خلق الشجر في النار، وحفظه من الإحراق بها. وقد قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: إنها تحيا باللهب كما تحيا شجرة الدنيا بالمطر، وثمر تلك الشجرة مر له زفرة، انتهى و﴿شَجَرَتَ﴾ ترسم بالتاء المجرورة، ووقف عليها أبو عمرو بالهاء، وكذا ابن كثير والكسائي، ووقف الباقون بالتاء على الرسم ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أي: غذاء الأثيم؛ أي: الكثير الإثم والمراد به[1]: الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه، يعني: أنهم أجمعوا على أن المراد بقوله: ﴿لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ هم الكفار، وبقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ المؤمنون، وكذا دل عليه قوله فيما سيأتي ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو كالمهل. وعن النبي ﷺ في تفسير المهل: كعكر الزيت، وهو درديه فإذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه، أخرجه الترمذي، وقال: لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد، وقد تكلم فيه من غير حفظه، وشبه بالمهل في كونه غليظاً أسود وقال بعضهم: المهل ما يمهل في النار حتى يذوب، كالحديد، والرصاص والصفر ونحوها. وشبه الطعام بالنحاس، أو الصفر المذاب في الذوب ونهاية الحرارة، لا في الغليان، وإنما يغلي ماشبه به، وجملة قوله: ﴿يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ حال من الطعام، وقوله: ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ صفة مصدر

(١) روح البيان.

محذوف؛ أي: حال كون ذلك الطعام يغلي، ويفور في بطون الكفار غلياناً كغليان الماء الحار، الذي انتهى حره وغليانه لشدة حرارته وكراهية المعدة إياه، والغلي والغليان: التحرك والارتفاع. وفي الحديث: أيها الناس اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرةً من الزقوم قطرت على الأرض لأمرت على أهل الدنيا معيشتهم، فكيف بمن هو طعامه وليس له طعام غيره». أخرجه الترمذي عن ابن عباس، وقال حديث حسن صحيح.

وقال الحسن[1]: ﴿كالمهل﴾ بفتح الميم لغة فيه، وقرأ الجمهور وعمرو بن ميمون وأبو رزين والأعرج وأبو جعفر وشيبة وطلحة: ﴿تغلي﴾ بالتاء الفوقية، على أن الفاعل ضمير يعود على الشجرة، والجملة خبر ثان، أو حال، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي تغلي غلياً مثل غلي الحميم، وهو الماء المسخن الذي يتطاير من غليانه، وقرأ مجاهد وقتادة والحسن وابن كثير وابن عامر وحفص وابن محيصن وورش عن يعقوب: ﴿يَغْلِي﴾ بالياء التحتانية، على أن الفاعل ضمير يعود على الطعام، ولا يصح أن يكون الضمير عائداً إلى المهل؛ لأنه مشبه به، وإنما يغلي ما يشبه بالمهل.

والمعنى[2]: أن الزقوم وهو ثمر هذه الشجرة التي في الجحيم طعام للكافر، الكثير الذنوب والآثام، يشبه المهل؛ أي: دردي الزيت الأسود، يغلي في بطون الكفار كغلي الماء المسخن، البالغ نهاية الحرارة، وقوله: ﴿خُذُوهُ﴾ على تقدير القول، والخطاب للزبانية؛ أي: يقال للزبانية يوم القيامة: خذوا الأثيم، فلا يأخذونه إلا بالنواصي والأقدام ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾؛ أي: جروه بالعنف والقهر، فإن العتل الأخذ بمجامع الثوب ونحوه، وجره بقهر وعنف ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: إلى وسطها قاله ابن عباس، أو إلى معظمها الذي تستوي المسافة إليه من جميع جوانبه، قاله الحسن. وقرأ الجمهور[3]: ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ بكسر التاء،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

وقرأ زيد بن علي وابن كثير وابن عامر: بضم التاء وهما لغتان، والخلاف عن الحسن وقتادة والأعرج وأبي عمرو ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾[1] وصب الماء إراقته من أعلى، والعذاب ليس بمصبوب؛ لأنه ليس من الأجسام المائعة، فكان الأصل يصب من فوق رؤوسهم الحميم، كما هو القراءة في سورة الحج، والمصبوب في الحقيقة هو الحميم، فتارة اعتبرت الحقيقة كما في سورة الحج، وتارةً اعتبرت الاستعارة كما هنا، فقيل: يصب من فوق رؤوسهم العذاب، وهو الحميم؛ لأنه أذم، وأهيب من الحميم، فقد صب ما تولد عنه من الآلام والعذاب، فعبر بالمسبب عن السبب؛ لأن العذاب هو المسبب عن الحميم، ولفظة العذاب أهول وأهيب، وزيد من للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع، وإضافة العذاب إلى الحميم للبيان؛ أي: إلى عذاب هو الحميم.

ويروى: أن الكافر إذا دخل النار يطعم الزقوم، ثم إن خازن النار يضربه على رأسه بمقمعة، يسيل منها دماغه على جسده، ثم يصب الحميم فوق رأسه، فينفذ إلى جوفه فيقطع الأمعاء والأحشاء ويمرق من قدميه.

وقولوا له على سبيل الاستهزاء والتهكم والتقريع: ﴿ذُقْ﴾ أيها الأثيم هذا العذاب المذل المهين ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في نظرك ﴿ٱلْكَرِيمُ﴾ عند قومك؛ أي: وقولوا له ذلك استهزاءً به، وتقريعاً له على ما كان يزعمه، من أنه عزيز كريم، فمعناه: أنت الذليل المهان.

وقيل: إن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: ما بين جبلي مكة أعز وأكرم مني، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك، أن تفعل بي شيئاً، فوردت الآية وعيداً له ولأمثاله، عجباً كيف أقسم بالله تعظيماً له، ثم نفى الاستطاعة عنه، مع أن الرسول عليه السلام كان لا يدعو ربا سواه، فالكلام المذكور من حيرة الكفر وحكم الجهل وتعصب النفس، كما قالوا: أمطر علينا حجارة من السماء، وفي لفظ الذوق إشارة إلى أنه كان معذباً في الدنيا، ولكن لما كان في نوم الغفلة،

---

(١) روح البيان.

وكثافة الحجاب، لم يكن ليذوق ألم العذاب، فلما مات انتبه، وذاق ألم ما ظلم به نفسه، وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّكَ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب على المنبر، والكسائي بفتحها؛ أي: لأنك. قال الفراء: أي بهذا القول الذي قلته في الدنيا اهـ.

والمعنى: أي ذق هذا الذل والهوان اليوم، فإنك كنت تزعم أنك أنت العزيز الكريم، وها هوذا، قد تبين لك أنك أنت الذليل المهين، فأين ما كنت تقول وتدعي من العز والكرامة، فهلا تمتنع من العذاب بعزتك ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب الذي تعذبون به ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾؛ أي: تشكون في الدنيا، أو تمارون فيه؛ أي: تجادلون بالباطل؛ أي: العذاب الذي كنتم تشكون فيه في الدنيا فتختصمون فيه ولا توقنون به، فقد لقيتموه فذوقوه، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ والجمع باعتبار المعنى؛ لأن المراد: جنس الأثيم.

ولما ذكر حال الكفار.. أعقبه بحال المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: عن الكفر والمعاصي وهم المؤمنون المطيعون ﴿فِى مَقَامٍ﴾؛ أي: في موضع قيام. والمراد[1]: المكان على الإطلاق، فإنه من الخاص الذي شاع استعماله في معنى العموم، يعني أنه عام، ومستعمل في جميع الأمكنة حتى قيل لموضع القعود. مقام وإن لم يقم فيه أصلاً؛ أي: في مكان ﴿أَمِينٍ﴾ يأمن صاحبه الآفات والانتقال عنه، على أن وصف المقام بالأمن من المجاز في الإسناد، كما في قولهم: جرى النهر، فالأمن ضد الخوف، والأمين بمعنى ذي الأمن.

وأشار الزمخشري إلى وجه آخر، وهو أن الأمين من الأمانة التي هي ضد الخيانة، وهي في الحقيقة صفة صاحب المكان، لكن وصف به المكان بطريق الاستعارة التخييلية، كأن المكان المخيف يحزن صاحبه ونازله، بما يلقى فيه من المكاره، أو كناية؛ لأن الوصف إذا أثبت في مكان الرجل، فقد أثبت له، لقولهم

---

(١) روح البيان.

المجد بين ثوبيه، والكرم بين برديه، كما في «بحر العلوم». قال أهل السنة: كل من اتقى الشرك، صدق عليه أنه متق، فيدخل الفساق في الوعد، يقول الفقير: الظاهر أن المطلق مصروف على الكامل بقرينة أن المقام مقام الامتنان، والكامل والمؤمن المطيع كما أشرنا إليه في عنوان الآية، نعم يدخل العصاة فيه انتهاءً وتبعيةً لا ابتداءً وأصالة. كما يدل عليه الوعيد الوارد في حقهم، وإلا لاستوى المطيع والعاصي، وقد قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ عفا الله عنا وعنكم أجمعين.

وقرأ عبد الله بن عمر وزيد بن علي وأبو جعفر وشيبة والأعرج والحسن وقتادة ونافع وابن عامر[1]: ﴿في مقام﴾ بضم الميم، وقرأ أبو رجاء وعيسى ويحيى والأعمش وباقي السبعة: بفتحها، وعلى القراءة الأولى هو موضع الإقامة، وعلى القراءة الثانية هو موضع القيام، قاله الكسائي وغيره، وقال الجوهري: قد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام.

وقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ وأنهار، بدل من ﴿مَقَامٍ﴾، أو بيان له، أو خبر ثان جيء به دلالةً على نزاهته واشتماله على طيبات المآكل والمشارب، والمراد[2] بالعيون: الأنهار الجارية، والتنكير فيهما للتعظيم، وقوله: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خبر ثان أو ثالث، أو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور، والسندس ما رقَّ من الحرير، يجري مجرى الشعار لهم، وهو اللين من الدثار في المعتاد، والإستبرق ما غلظ منه وصفق نسجه، يجري مجرى الدثار، وهو أرفع نوع من أنواع الحرير، والحرير نوعان: نوع كلما كان أرق كان أنفس، ونوع: كلما كان أرزق بكثرة الإبريسم كان أنفس، يقول الفقير: يحتمل عندي أن يكون السندس لباس المقربين، والإستبرق لباس الأبرار يدل عليه أن شراب المقربين هو التسنيم الخالص، وشراب الأبرار هو الرحيق الممزوج به.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

وفي «فتح الرحمٰن»: إن قلت: كيف وعد الله تعالى أهل الجنة بلبس الإستبرق، وهو غليظ الديباج، مع أن غليظه عند السعداء، من أهل الدنيا عيب ونقص؟

قلت: غليظ ديباج الجنة لا يشابه غليظ ديباج الدنيا حتى يعاب، كما أن سندس الجنة وهو رقيق الديباج، لا يشابه سندس الدنيا. وقيل: إن السندس لباس سادة أهل الجنة، والإستبرق لباس خدمهم إظهاراً لتفاوت الرتب انتهى. وقرأ ابن محيصن[1]: ﴿واستبرق﴾ جعله فعلاً ماضياً.

وقوله: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يَلْبَسُونَ﴾؛ أي: حال كونهم متقابلين في المجالس. ليستأنس بعضهم ببعض. ومعنى متقابلين: متواجهين لا ينظر[2] بعضهم إلى قفا بعض، لدوران الأسرة بهم، فهو أتم للأنس. وقال بعضهم: معناه: متقابلين بالمحبة، غير متدابرين بالبغض والحسد؛ لأن الله ينزع من صدورهم الغل و قت دخولهم الجنة، فإن قلت: المقصود من جلوسهم متقابلين: استئناس بعضهم ببعض، والجلوس على هذه الصفة موحش؛ لأنه يكون كل واحد منهم مطلعاً على ما فيه الآخر، فقليل الثواب إذا اطلع على حال كثيره.. تنغص.

والجواب: أن أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا، اهـ «كرخي». والكاف، في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إما صفة لمصدر محذوف مع فعله؛ أي: أثبناهم إثابةً مثل المذكور، أو نفعل بالمتقين فعلاً مثل ذلك المذكور، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الأمر كذلك، والأول أولى ليعطف عليه، قوله: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾؛ أي: قرناهم بهن، فيتمتعون تارةً بمؤانسة الإخوان ومقابلتهم، وتارةً بملاعبة النسوان من الحور العين، ومزاوجتهن، فليس المعنى: حصول عقد النكاح بينهم وبين الحور، فإن التزويج بمعنى العقد لا يتعدى بالباء، كما جاء في التنزيل: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وإذا لم يكن عقد التزويج يقال: زوجناك بها، بمعنى كنت فرداً فقرناك بها؛ أي: جعلناك شفعاً بها، والله سبحانه

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

وتعالى جعلهم اثنين ذكراً وأنثى، وقال في «المفردات»: لم يجىء في القرآن زوجناهم حوراً، كما يقال: زوجته امرأةً تنبيهاً على أن ذلك لم يكن على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكح انتهى.

ثم الحور جمع الحوراء، وهي البيضاء، والعين جمع العيناء، وهي العظيمة العينين، فالحور هي النساء النقيات البياض، يحار فيهن الطرف لبياضهن وصفاء لونهن، واسعات الأعين حسانها، أو الشديدات بياض الأعين الشديدات سوادها.

وحاصل معنى الآيات: أن[1] المتقين لله في الدنيا الخائفين عقابه، المنتظرين فضله وثوابه، يكونون في الآخرة في مجالس يأمنون فيها من الموت، ومن كل ما يحزنهم ويصيبهم من الآفات والآلام. وقد ذكر سبحانه من ضروب نعيمهم خمسة ألوان:

١ ـ مساكنهم، كما قال: ﴿مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾ والمسكن يطيب بأمرين:

الأول: أن يكون من فيه آمناً من جميع ما يخافه ويحذر منه، وهو المقام الأمين.

الثاني: أن يكون فيه أسباب النزهة من الجنات والعيون. وذلك قوله: ﴿فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾.

٢ ـ ملابسهم، وهي التي عناها سبحانه بقوله: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾.

٣ ـ استئناس بعضهم ببعض بجلوسهم على جهة التقابل، وهو ما أشار إليه بقوله: ﴿مُّتَقَبِلِينَ﴾.

٤ ـ الأزواج كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

---

(١) المراغي.

٥ ـ المآكل، كما قال: ﴿يَدۡعُونَ﴾؛ أي: يطلبون ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنات ﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾؛ أي: يأمرون بإحضار ما يشتهونه من الفواكه، لا يتخصص شيء منها بمكان ولا زمان، وذلك لا يجتمع في الدنيا، يعني: أن فواكه الدنيا لا توجد في كل مكان، ولها أزمنة مخصوصة، لا تستقدمها ولا تستأخرها، وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يَدۡعُونَ﴾؛ أي: حال كونهم آمنين من كل ما يسوءهم أيا كان، خصوصاً الزوال والانقطاع، وتولد الضرر من الإكثار، وحجاب القلب، كما يكون في الدنيا فيكونون في الصورة مشغولين بالحور العين، وبما يشتهون من النعيم، وبالقلوب متوجهين إلى الذات العلية، مشاهدين لها.

والمعنى[1]: يطلبون ما يشتهون من أنواع الفاكهة، وهم آمنون من انقطاعها، ومن غائلة أذاها ومكروهها، فهي ليست كفاكهة الدنيا التي نأكلها، ونخاف مكروه عاقبتها، أو نخاف نفادها في بعض الأحايين.

وبعد أن وصف ما هم فيه من نعميم مقيم، بين أن حياتهم في هذا النعيم دائمة، لا يلحقها موت ولا فناء، فقال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنات ﴿ٱلۡمَوۡتَ﴾ أبداً ﴿إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ التي ذاقوها في الدنيا، وقرأ[2] عبيد بن عمير ﴿لا يذاقون﴾ مبنياً للمفعول، والموت والموتة: مصدران من فعل واحد، كالنفخ والنفخة، إلا أن الموتة أخص من الموت؛ لأن الموتة للوحدة والموت للجنس، فيكون بعضاً من جنس الموت، وهو فرد واحد، ونفي الواحدة أبلغ من نفي الجنس، فكانت أقوى وأنفى في نفي الموت عن أنفسهم، كأنه قال: لا يذوقون فيها شيئاً من الموت يعني: أقل ما ينطلق عليه اسم الموت، كما في «بحر العلوم»، والاستثناء[3] منقطع؛ أي: لا يذوقون الموت في الجنة لكن الموتة الأولى قد ذاقوها قبل دخول الجنة، فعيشتهم المرضية مقارنة للحياة الأبدية، بخلاف أهل النار، فإنه لا عيشة لهم، وكذا لا يموتون فيها، ولا يحيون، ويقال:

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

ليس في الجنة عشرة أشياء: ليس فيها هرم ولا نوم ولا موت ولا خوف ولا ليل ولا نهار ولا ظلمة ولا حر ولا برد ولا خروج، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً، على أن المراد: بيان استحالة ذوق الموت فيها على الإطلاق، كأنه قيل: لا يذوقون فيها الموتة إلا إذا أمكن ذوق الموتة الأولى في المستقبل، وذوق الماضي غير ممكن في المستقبل، لا سيما في الجنة التي هي دار الحياة فهذا من باب التعليق بالمحال كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

والمقصود: أنهم لا يذوقون فيها الموت البتة، وكذا لا ينكحون منكوحات آبائهم قطعاً، وقيل: إلا بمعنى بعد كما اختاره ابن جرير، أو بمعنى سوى، واختاره ابن عطية، فإن قلت: هذا دليل على نفي الحياة والموت في القبر.

قلت: أراد به: جنس الموت، المتعارف المعهود فيما بين الخلق، فإن الموت المعهود لا يعرى عن الغصص، والموت بعد الإحياء في القبر يكون أخف من الموت المعهود، كما في «الأسئلة المقحمة».

والمعنى[1]: أي لا يخشون في الجنة موتاً ولا فناء أبداً، وقد ثبت في «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ، ثم يذبح، ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت».

وروى أبو هريرة، وأبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تهرموا أبداً»، رواه مسلم.

وخلاصة ذلك: لا يذوقون فيها الموت لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا، كذا قال الزجاج والفراء.

---

(١) المراغي.

﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾؛ أي: حفظهم الله سبحانه وتعالى ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وصرفه عنهم، وقرأ[1] الجمهور: ﴿وقاهم﴾ بالتخفيف، وقرأ أبو حيوة مشدداً بالقاف، وقوله: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ منصوب على المصدرية بفعل مقدر، أو على الحالية؛ أي[2]: أعطي المتقون ما ذكر من نعيم الجنة، والنجاة من عذاب النار عطاءً وتفضلاً منه تعالى، لا جزاءً للأعمال المعلولة، وقرىء بالرفع؛ أي: ذلك فضل من ربك، كما في «البيضاوي».

واحتج أهل السنة بهذه الآية: على أن كل ما وصل إليه العبد من الخلاص من النار، والفوز بالجنة ونعيمها، فإنما يحصل بفضل الله وإحسانه، وأنه لا يجب عليه شيء من ذلك، ففي إثبات الفضل نفي الاستحقاق، فجميع الكرامات فضل منه على المتقين، حيث اختارهم بها في الأزل، وأخرجها من علل الاكتساب، فإن الاكتساب أيضاً فضل إذ لو لم يخلق القدرة على كسب الكمالات، وتحصيل الكرامات لما وجد العبد إليه سبيلاً.

وفي الحديث: «لا يدخل أحداً منكم عمله الجنة، ولا يجيره من النار، ولا أنا، إلا برحمة الله»؛ أي: ولا أنا أدخل الجنة بعمل، إلا برحمة الله، وليس المراد به توهين أمر العمل، بل نفي الاغترار به، وبيان أنه يتم بفضل الله تعالى، وأما قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ونظائره فلا ينافي الحديث: لأن الآية تدل على سببية العمل، والمنفي في الحديث عليته وإيجابه، انتهى.

وقال الشيخ الأكبر رحمه الله تعالى في «مواقع النجوم»: الدخول بالرحمة، وقسمة الدرجات بالأعمال، والخلود بالنيات فهذه ثلاثة مقامات، وكذلك في دار الشقاوة دخول أهلها فيها بعدل الله، وطبقات عذابها بالأعمال، وخلودهم بالنيات، وأصل ما استوجبوا به هذا العذاب المؤبد، المخالفة، كما كانت في السعادة الموافقة، وكذلك من دخل النار من العاصين، لولا المخالفة لما عذبهم الله شرعاً، نسأل الله سبحانه لنا وللمسلمين، أن يستعملنا بصالح الأعمال،

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

ويرزقنا الحياء منه تعالى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أعطيناه هؤلاء المتقين من الكرامة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ والظفر بما كانوا يطلبون إدراكه في الدنيا بأعمالهم، وطاعتهم لربهم، واتقائهم إياه فيما امتحنهم به من الطاعات، واجتنابهم للمحرمات؛ أي: ذلك هو الفوز ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه، إذ هو خالص من جميع المكاره، وجامع لكل المطالب.
يقول الفقير: لما كان الموت وسيلةً لهذا الفوز، وباباً له.. ورد الموت تحفة المؤمن، والموت وإن كان من وجه هلكاً فمن وجه فوز، ولذلك قيل: ما أحد إلا والموت خير له، أما المؤمن فإنما كان الموت خيراً له؛ لأنه يتخلص به من السجن، ويصل إلى النعيم المقيم في روضات الجنات، وأما العاصي فلأن الإمهال في الدنيا سبب لازدياد المعاصي والإثم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًاۚ﴾ وهو سبب لازدياد العذاب.

ولما أتم المقاصد التي أراد ذكرها في هذه السورة، لخصها بقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ فهذه[1] الآية فذلكة للسورة الكريمة، ونتيجة لها، واللسان آلة التكلم في الأصل، واستعير هنا لمعنى اللغة، كما في قوله ﷺ: «لسان أهل الجنة العربية»؛ أي: إنما يسرنا الكتاب المبين، وسهلنا قراءته عليك، حيث أنزلناه بلسانك ولغة قومك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لكي يفهمه قومك، ويتذكروا به، ويتعظوا بعظاته، ويعملوا بموجبه، ويتفكروا في آياته إذا تلوتها عليهم، فينيبوا إلى ربهم، ويذعنوا للحق الذي تبينوه، وإذا لم يعملوا بذلك ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾؛ أي: فانتظر ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾؛ أي: منتظرون، وفي «عين المعاني»: أو فارتقب الثواب فإنهم كالمرتقبين العقاب؛ لأن المسيء ينتظر عاقبةَ الإساءة، وعلى كلا التقديرين فمفعول الارتقاب محذوف في الموضعين؛ أي: ولما كان القرآن الكريم مع هذا الوضوح والبيان قد خالف فيه بعض الناس، وعاند قال تعالى، مسلياً رسوله، وواعداً له بالنصر، ومتوعداً من كذبه بالهلاك: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾؛

---

(١) روح البيان.

أي: فانتظر يا محمد لما يحل لهم من المقادير، فإن في رؤيتها عبرة للعارفين، وموعظة للمتقين ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾؛ أي: منتظرون لما سيحل بك من الدوائر، ولم يضرك ذلك فعن قريب يتحقق أملك، وتخيب آمالهم، وسيعلمون لمن تكون له النصرة والغلبة والظفر، وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، ولا شك أن النصر سيكون لك كما كان لإخوانك من النبيين والمرسلين، ومن تبعهم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

وفي الآية فوائد[1]:

منها: أنه تعالى بين تيسير القرآن، والتيسير ضد التعسير، وقد قال في آية أخرى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ فبينهما تعارض في الظاهر، والجواب: أنه ميسر باللسان، وثقيل من حيث اشتماله على التكاليف الشاقة على المكلفين، ولا شك أن التلاوة باللسان، أخف من العمل بما فيه.

ومنها: أنه تعالى قال: ﴿بِلِسَانِكَ﴾، فأشار إلى أنه لو أسمعهم كلامه بغير الواسطة لماتوا جميعاً لعدم تحملهم، قال جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ: لولا تيسيره، لما قدر أحد من خلقه أن يتلفظ بحرف من القرآن، وأنى لهم ذلك، وهو كلام من لم يزل، ولا يزال، وقال ابن عطاء: يسر ذكره على لسان من شاء من عباده؛ فلا يفتر عن ذكره بحال، وأغلق باب الذكر على من شاء من عباده، فلا يستطيع بحال أن يذكره.

ومنها: أن انتظار الفرج عبادة، على ما جاء في الحديث؛ لأنه من الإيمان.

الإعراب

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا

---

(١) روح البيان.

بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَـٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَيَقُولُونَ﴾: اللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿يقولون﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة للحديث عن قريش، بعد استطراد حديث بني إسرائيل. ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هِىَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَوْتَتُنَا﴾: خبر هي، ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾: نعت للموتة، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لـ﴿يقولون﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿ما﴾: نافية حجازية، ﴿نَحْنُ﴾: اسمها. ﴿بِمُنشَرِينَ﴾: خبرها والباء زائدة، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿فَأْتُوا۟﴾: الفاء: واقعة في جواب شرط قدم جوابه عليه، اعتناء بشأن الجواب، تقديره: إن كنتم صادقين، فأتوا بآبائنا. ﴿ائتوا﴾: فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة الطلبية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها. ﴿بِـَٔابَآئِنَآ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿ائتوا﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص، في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وتاء المخاطبين اسمها. ﴿صَـٰدِقِينَ﴾: خبرها، والجملة الشرطية مؤخرة عن جوابها، كما قدرنا أولاً، وجملة الشرط مع جوابه في محل النصب مقول لـ﴿يقولون﴾، ﴿أَهُمْ﴾ الهمزة: للاستفهام التعييني. ﴿هم﴾ مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾: خبره، ﴿أَمْ﴾: حرف عطف متصلة. ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾: معطوف على ﴿هم﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾، ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول، والجملة الاسمية جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب حال من المعطوف والمعطوف عليه. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾: نافية. ﴿خَلَقْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف عليه. ﴿وَمَا﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على السموات، ﴿بَيْنَهُمَآ﴾: ظرف، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف، وقع صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿لَٰعِبِينَ﴾ حال من فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾، ﴿مَا﴾: نافية. ﴿خَلَقْنَٰهُمَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مفسرة لما قبلها، لا محل لها من الإعراب ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿خَلَقْنَٰهُمَآ﴾؛ أي: ما خلقناهما إلا حالة كوننا، متلبسين بالحق والحكمة؛ أي: محقين، أو صفة لمصدر محذوف، تقديره: إلا خلقاً متلبساً بالحق والحكمة. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لكن أكثرهم﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبره، ومفعول العلم محذوف، تقديره: لا يعلمون كون خلقنا إياهما لحكمة، والجملة الاستدراكية في محل النصب، حال من مفعول ﴿خَلَقْنَا﴾؛ أي: ما خلقناهما إلا لحكمة، حال كون أكثرهم لا يعلمون ذلك، ولكنها حال سببية.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه، ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ خبره، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد للضمير في ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾، والجملة مستأنفة ﴿يَوْمَ﴾: بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أو ظرف لما دل عليه الفصل؛ أي: يفصل بينهم يوم لا يغني ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُغْنِى﴾: فعل مضارع. ﴿مَوْلًى﴾: فاعل، ﴿عَن مَّوْلًى﴾: متعلق بـ﴿يُغْنِى﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به، أو مفعول مطلق؛ أي: إغناءً شيئاً؛ أي: قليلاً وجملة ﴿لَا يُغْنِى﴾ في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: نافية، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُنصَرُونَ﴾ خبره، وهو مبني للمجهول، والواو نائب فاعل، والجملة الاسمية في محل الجر، معطوفة على جملة ﴿لَا يُغْنِى﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع،

بدل من ﴿الواو﴾ في ﴿يُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا يمنع من العذاب إلا من رحمه الله تعالى، ويجوز النصب على الاستثناء، فيكون منقطعاً كما مر، ﴿رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل والجملة صلة لـ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: إلا من رحمه الله، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه: ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾: خبران، لـ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾، ناصب واسمه، ومضاف إليه، ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ خبره ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: خبر ثان لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿يَغْلِى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾، ﴿فِى ٱلْبُطُونِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾، أو من ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾، ﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: يغلي غلياناً، مثل غليان الحميم.

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿خُذُوهُ﴾: فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو فاعل، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال للزبانية خذوه، ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿اعتلوه﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿خُذُوهُ﴾، ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿اعتلوه﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿صُبُّوا۟﴾: فعل أمر وفاعل، معطوف على ﴿اعتلوه﴾. ﴿فَوْقَ رَأْسِهِۦ﴾، ظرف متعلق بـ﴿صُبُّوا۟﴾، ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ متعلق بـ﴿صُبُّوا۟﴾ أيضاً، فـ﴿من﴾ تبعيضية، وهو من إضافة الصفة للموصوف، أو المسبب إلى السبب اهـ شيخنا. ﴿ذُقْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال له: ذق ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنتَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ خبران لـ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مقول للقول المحذوف، على كونها معللة لما قبلها. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: ناصب واسمه ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل

الرفع خبر، ﴿إِنَّ﴾. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿تَمۡتَرُونَ﴾ وجملة ﴿تَمۡتَرُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد ضمير ﴿بِهِۦ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب، مقول للقول المحذوف.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: ناصب واسمه ﴿فِي مَقَامٍ﴾: خبره. ﴿أَمِينٖ﴾: صفة لـ﴿مَقَامٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾﴾: بدل من ﴿فِي مَقَامٍ﴾: بإعادة الجار، ﴿يَلۡبَسُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن سُندُسٖ﴾: متعلق به. ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ معطوف على ﴿سُندُسٖ﴾، وجملة ﴿يَلۡبَسُونَ﴾ إما خبر ثان لـ﴿إن﴾، أو في محل النصب حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور، الواقع خبراً لـ﴿إن﴾، ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: حال من الضمير في ﴿يَلۡبَسُونَ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الأمر كذلك، وهذه الجملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه، جيء بها للتقرير، ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يَلۡبَسُونَ﴾، أو على محذوف إن قلنا إن الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف كما مر. ﴿بِحُورٍ﴾: متعلق بـ﴿زوجناهم﴾، ﴿عِينٖ﴾ صفة لـ﴿حور﴾، ﴿يَدۡعُونَ﴾: فعل وفاعل، حال من الهاء في ﴿زوجناهم﴾، ﴿فِيهَا﴾: حال من فاعل ﴿يَدۡعُونَ﴾، ﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَدۡعُونَ﴾، ﴿ءَامِنِينَ﴾: حال من فاعل ﴿يَدۡعُونَ﴾ أيضاً؛ أي: لا يخافون من مغبة أكلها ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَذُوقُونَ﴾ فعل وفاعل، حال من الضمير المستكن في ﴿ءَامِنِينَ﴾، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿يَذُوقُونَ﴾، ﴿ٱلۡمَوۡتَ﴾: مفعول به، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء منقطع ﴿ٱلۡمَوۡتَةَ﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ صفة لـ﴿ٱلۡمَوۡتَةَ﴾، ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به أول معطوف على ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾، ﴿عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ مفعول ثان لـ﴿وقاهم﴾.

﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿فَضۡلٗا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف، تقديره: تفضلنا بذلك المذكور فضلاً، ﴿مِّن رَّبِّكَۚ﴾: صفة لـ﴿فَضۡلٗا﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾: خبره. ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ صفة لـ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿فَإِنَّمَا﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما بيناه لك في هذه السورة، وأردت بيان نتيجته.. فأقول لك: ﴿إنما﴾: أداة حصر، ﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿بِلِسَانِكَ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ ﴿لعل﴾ حرف ترج مستعار للتعليل، فتكون بمعنى كي، والهاء اسمها، وجملة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، على كونها معللة لما قبلها، ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ الفاء: فاء الفصيحة أيضاً؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت تيسيره لتذكيرهم، وأبوا من التذكر به، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ارتقب. ﴿ارتقب﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة، مستأنفة. ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، على كونها مسوقة لتعليل الأمر بالارتقاب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾؛ أي: بمبعوثين، يقال: نشر الله الموتى وأنشرهم إذا أحياهم. ﴿تُبَّعٍ﴾ بوزن سكر، واحد التبابعة، وهم ملوك اليمن، وهذا اللقب أشبه بفرعون لدى قدماء المصريين، وكان منهم سبعون تبعاً، قال النعمان بن بشير الأنصاري:

لَنَا مِنْ بَنِيْ قَحْطَانَ سَبْعُوْنَ تُبَّعَاً ... أَطَاعَتْ لَنَا بِالْخَرْجِ مِنَّا الأَعَاجِمُ

وَمِنَّا سَرَاةُ ٱلنَّاسِ هُودٌ وَصَالِحٌ   وَذُو ٱلْكِفْلِ مِنَّا وَٱلْمُلُوكُ ٱلأَعَاظِمُ

وهم طبقتان:

الطبقة الأولى: ملوك سبأ وريدان، من سنة ١١٥ قبل الميلاد، إلى ٢٧٥ بعده.

والطبقة الثانية: ملوك سبأ وريدان، وحضرموت، والشحر من سنة (٢٧٥) بعد الميلاد، إلى سنة (٥٢٥)، وأولهم شمر برعش، وآخرهم ذو نواس، ثم ذو جدن، ومنهم ذو القرنين، أو إفريقش ويسمى الصعب، وبعده عمرو زوج بلقيس، ثم أبو بكر ابنه، ثم ذو نواس، والذين اشتهروا من هؤلاء الملوك ثلاثة، شمر برعش، وذو القرنين، وأسعد أبو كرب، وتفاصيل أخبارهم مبثوثة في بطون كتب التاريخ المطولة، فليرجع إليها من استهوته قراءة الأساطير الممتعة، وما فيها من قصص عجيبة.

والظاهر: أن تبعاً الأول سمي به لكثرة قومه وتبعه، ثم صار لقباً لمن بعده من الملوك، سواء كانت لهم تلك الكثرة والأتباع، أم لا. ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾؛ أي: ميقات كفار مكة وسائر الناس؛ أي: وقت وعدهم الذي ضرب لهم في الأزل، وأصل الميقات: موقات قلبت الواو ياءً لسكونها إثر كسرة، فصارت حرف مد، قال في «بحر العلوم»: ميقاتهم؛ أي: حدهم الذي يوقتون به ولا ينتهون إليه، ومنه مواقيت الإحرام على الحدود، التي لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرماً، فإنَّ الميقات ما وقت به الشيء؛ أي: حد. قال ابن الشيخ: الفرق بين الوقت والميقات أن الميقات وقت يقدر؛ لأن يقع فيه عمل من الأعمال، وأن الوقت ما يقع فيه شيء، سواء قدره مقدر لأن يقع فيه شيء، أم لا.

﴿لَا يُغْنِى مَوْلًى﴾ في «المختار»: المولى المعتق والمعتَق وابن العم والناصر والجار والحليف، اهـ. وفي «القرطبي»؛ أي: لا يدفع ابن عم عن ابن عمه، ولا قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه شيئاً اهـ. وأصله مولي بوزن مفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ وفي «المفردات»: شجرة الزقوم عبارة عن أطعمة كريهة في النار، ومنه استعير زقم فلان وتزقم، إذا

ابتلع شيئاً كريهاً. وفي «المراغي»: شجرة الزقوم هي شجرة ذات ثمر مر، تنبت بتهامة، شبهت بها الشجرة التي تنبت في الجحيم وفي «القاموس»: الزقم اللقم، والتزقم التلقم، وأزقمه فازدقمه أبلعه فابتلعه، والزقوم كتنور الزبد بالتمر، وشجرة بجهنم ونبات بالبادية له زهر ياسميني الشكل، وطعام أهل النار، وشجرة بأريحاء من الغور، لها ثمر كالتمر حلو عفص، ولنواه دهن عظيم المنافع، عجيب الفعل في تحليل الرياح الباردة، وأمراض البلغم، وأوجاع المفاصل والنقرس، وعرق النسا، والريح اللاحجة في حق الورك، يشرب منه زنة سبعة دراهم ثلاثة أيام، وربما أقام الزمنى والمقعدين، ويقال: أصله الأهليلج، والزقمة الطاعون، انتهى ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ الكثير الآثام والذنوب، وهو الكافر.

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ المهل بضم الميم، له معان كثير، واللائق منها هنا دردي الزيت وعكر القطران، والصديد والقيح والنحاس المذاب. والمهل بالفتح التؤدة والرفق، ومنه ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. ﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ والغلي والغليان: التحرك والارتفاع. قال في «المفردات». الغلي والغليان، يقال في القدر إذا طفحت؛ أي: امتلأت وارتفعت، ومنه استعير ما في الآية، وبه شبه غليان الغضب والحرب.

﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾؛ أي: جروه بالعنف والقهر. وفي «المختار»: عتل الرجل جذبه جذباً عنيفاً، وبابه ضرب ونصر، فقولهم: العتال للذي ينقل الأحمال بالأجرة صحيح لا غبار عليه، والحرفة العتالة، وفي «القاموس»: العتلة محركةً، المدرة الكبير تنقلع من الأرض، وحديدة كأنها رأس فأس، والعصا الضخمة من حديد لها رأس مفلطح، يهدم بها الحائط، اهـ. والعُتُلُّ الجافي الغليظ، والعتل أن تأخذ بمنكبي الرجل فتجره إليك، وتذهب به إلى حبس أو محنة، وقال ابن السكيت: عتلته إلى السجن، وأعتلته إذا دفعته دفعاً عنيفاً. ﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وسطها. ﴿ٱلْحَمِيمِ﴾ الماء الذي تناهي حره ﴿ذُقْ﴾ أمر من ذاق يذوق، وأصل يَذُوق يَذْوُق، بوزن يفعل نقلت حركة الواو إلى الذال، فسكنت إثر ضمة فصار يذوق، فلما بني منه الأمر قيل: ذوق فالتقى ساكنان فحذفت الواو، وهكذا شأن

كل ثلاثي أجوف واوي العين، كقل من قال، وكن من كان مثلاً.

﴿تَمْتَرُونَ﴾ أصله: تمتريون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت، حذفت لالتقاء الساكنين، ثم ضمت الراء لمناسبة الواو، فصار تمترون ﴿فِي مَقَامٍ﴾ قرىء مقام بفتح الميم، وأصله: مقوم بوزن مفعل بفتح العين، نقلت حركة الواو إلى القاف فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال، وقرىء مقام بضم الميم، اسم مكان من أقام فعل به ما فعل بالأول.

﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾؛ أي: في مجلس أمنوا منه من كل هم وحزن، وأصل الأمن: طمأنينة النفس، وزوال الخوف، والأمن والأمانة والأمان في الأصل مصادر، ويستعمل الأمان تارةً اسماً للحالة التي عليها الإنسان في الأمن، وتارةً اسماً لما يؤتمن عليه الإنسان، كقوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾؛ أي: ما ائتمنتم عليه. ﴿مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ السندس هو مارقَّ من الديباج، والإستبرق ما غلظ منه. وفي «المصباح»: والديباج ثوب سداه ولحمته إبريسم، ويقال: هو معرب، انتهى. ثم إن الإستبرق من كلام العجم، عرب بالقاف، قال في «القاموس»: الإستبرق الديباج الغليظ. معرب إستروه، وتصغيره أبيرق، وستبر بالتاء والطاء، بمعنى: الغليظ بالفارسية، قال الجواليقي في «المعربات»: نقل الإستبرق من العجمية إلى العربية، فلو حقر أو كسر لكان في التحقير أبيرق، وبالتكسير أباريق، بحذف السين والتاء جميعاً، انتهى. والتعريب: جعل العجمي بحيث يوافق اللفظ العربي، بتغييره عن منهاجه، وإجرائه على أوجه الإعراب، وجاز وقوع اللفظ العجمي في القرآن العربي؛ لأنه إذا عرب خرج من أن يكون عجمياً إذا كان متصرفاً تصرف اللفظ العربي من غير فرق، فمن قال: القرآن أعجمي فقد كفر؛ لأنه عارض قوله تعالى: ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، وإذا قال: فيه كلمة أعجمية، ففي أمره نظر؛ لأنه إن أراد وقوع الأعجمي فيه بتعريب فصحيح، وإن أراد وقوعه بلا تعريب فغلط.

﴿بِحُورٍ﴾ بوزن فعل بضم العين، جمع حوراء كحمر وحمراء. ﴿عِينٍ﴾ جمع عيناء، وقياسه أن يجمع على فعل بضم الفاء، كما جمعت حوراء على حور،

لكن الفاء كسرت لمناسبة الياء. ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾ الأصل فيه يذوقون نقلت حركة الواو إلى الذال، فسكنت إثر ضمة فصارت حرف مد فوزنه يفعلون. ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ والموت والموتة مصدران من فعل واحد كالنفخ والنفخة، كما مر ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾ الأصل فيه ووقيهم بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، والوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه، ويضره.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإشارة بالقريب إليهم في قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾﴾ للتحقير والازدراء بهم.

ومنها: التجهيل لمنكري الحشر في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وتوكيده بحرف الاستدراك؛ لأن إنكارهم يؤدي إلى إبطال الكائنات بأسرها ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾، اهـ «كرخي»؛ أي: ليس عندهم علم بالكلية.

ومنها: أسلوب التعجيز في قوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

ومنها: الاستفهام الذي يطلب به، وبأمْ تعيين أحد الأمرين، في قوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ...﴾ إلخ، والمراد: التهديد لهم؛ لأنه لا خيرية في الفريقين.

ومنها: تنكير مولى في الموضعين في قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى﴾ لغرض الإبهام فإن المولى مشترك بين معان كثيرة، يطلق على المالك والعبد والمعتق والصاحب والقريب، كابن العم ونحوه والجار والحليف والابن والعم والنزيل والشريك وابن الأخت والولي والرب والناصر والمنعم والمنعم عليه والمحب والتابع والصهر، كما في «القاموس». وكل من ولي أمر أحد، فهو وليه ومولاه، فواحد من هؤلاء أي واحد كان، لا يغني عن مولاه أي مولىً كان، شيئاً من الإغناء؛ أي: إغناء قليلاً.

ومنها: تنكير شيئاً في قوله: ﴿عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ لإفادة التقليل.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ شبه بالمهل في كونه غليظاً أسود.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ فإن الغليان حقيقة في امتلاء القدر، وارتفاع ما فيها.

ومنها: الايجاز بالحذف في قوله: ﴿خُذُوهُ﴾؛ أي: يقال للزبانية: خذوه.

ومنها: الاستعارة المكنية التخييلية، في قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ فقد شبه العذاب بالمائع، ثم خيل له بالصب.

ومنها: أسلوب التهكم والسخرية في قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ فالتهكم عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع النذارة، وبالوعد في مكان الوعيد، تهاوناً من القائل بالمقول له، واستهزاءً به، وقد تقدمت أمثلته في مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ وهو أغيظ للمستهزأ به، وأشد إيلاماً له.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ فإن وصف المقام بالأمن من المجاز العقلي، كما في قولهم: جرى النهر، ففيه إسناد ما للحالّ إلى المحل، وفيه الاستعارة التخييلية، إن قلنا إن الأمين من الأمانة، التي هي ضد الخيانة، كما قاله الزمخشري، كأن المكان المخيف يحزن صاحبه ونازله، بما يلقى فيه من المكاره، أو الكناية؛ لأن الوصف إذا أثبت في مكان الرجل، فقد أثبت له كقولهم: المجد بين ثوبيه، والكرم بين برديه.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾ للتعظيم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من المقاصد

١ ـ بيان بدء نزول القرآن.

٢ ـ وعيد الكافرين بحلول الجدب والقحط بهم.

٣ ـ عدم إيمانهم مع توالي النكبات بهم.

٤ ـ عظة الكافرين بقصص فرعون، وقومه مع موسى عليه السلام، وقد أنجى الله المؤمنين، وأهلك الكافرين.

٥ ـ إنكار المشركين للبعث، وقولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

٦ ـ إقامة الدليل على نبوة محمد ﷺ.

٧ ـ وصف أهوال يوم القيامة.

٨ ـ وصف ما يلاقيه المجرمون من النكال والوبال.

٩ ـ وصف نعيم المتقين، وحصولهم على كل ما يرغبون.

والله أعلم

* * *

سورة الجاثية

وتسمى سورة الشريعة، هي مكية كلها في قول الحسن، وجابر، وعكرمة. نزلت بعد الدخان، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس، وابن الزبير: أنها نزلت بمكة، ورُوي عن ابن عباس، وقتادة: أنهما قالا: إلا آية منها، وهي قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلى ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ فإنها نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب كما سيأتي، وهي سبع أو ست وثلاثون آية، وأربع مئة وثمان وثمانون كلمة، وألفان ومئة وأحد وتسعون حرفاً.

التسمية: سميت سورة الجاثية؛ لأنه يذكر فيها الأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب، فيجثون من الفزع منها على الركب، وفي «التفسير المنير»: سميت سورة الجاثية أخذاً من الآية المذكورة فيها: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: جميع آياتها محكم غير آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ الآية (١٤) نزلت في عمر بن الخطاب، ثم نسخت بآية السيف.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها: أن أول هذه السورة مشاكل لآخر سابقتها في الأغراض والمقاصد. وقال[١] أبو حيان: مناسبة أولها لآخر ما قبلها في غاية الوضوح، والظهور؛ لأنه قال في آخر السابقة: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾، وقال في أول هذه: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

وفي «التفسير المنير»: تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجهين:

---

(١) البحر المحيط.

١ ـ ابتدأت هذه السورة بالكلام عن تنزيل القرآن من الله تعالى، والذي هو مكمل لما ختمت به السورة المتقدمة.

جعل القرآن بلغة النبي ﷺ، ولغة قومه العرب، فهو عربي اللسان نصاً، وفحوى ومعنى وأسلوباً، وفي ذلك حث على اتباعه، والإيمان به.

٢ ـ تشابه السورتين في الغايات الكبرى، التي يستهدفها القرآن، وهي إثبات وحدانية الله تعالى، من خلال بيان أدلة القدرة الإلهية، في خلق السموات والأرض، ومناقشة الكفار في عقائدهم الفاسدة، وضرب الأمثال من مصائر الأمم الغابرة، التي أهلكها الله سبحانه، لتكذيبهم الرسل.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ١١ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١٣ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ١٤ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ١٥ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٧ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ١٩ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٢٠﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ٦ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما[١] ذكر آيات القرآن العظيم.. أشار إلى ما لها من علو المرتبة، ورفيع الدرجة، ثم أوعد من كذبوا بها بعد سماعها، وأصروا على كفرهم بها بالويل والثبور،

---

(١) المراغي.

وعظائم الأمور، ثم بين أن عاقبتهم النار، وبئس القرار، ولا تنفعهم أصنامهم شيئاً، ولا تدفع عنهم ما قدر لهم من العذاب.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر[1] فيما سلف الحجج الدالة على ربوبيته، ووحدانيته.. أردف بذكر آثارها، فمن ذلك تسخير السفن في البحار، حاملة للأقوات والمتاجر، رجاء أن تشكروا ما أنعم به عليكم، ومنها تسخيره ما في السموات والأرض من شموس وأقمار وبحار وجبال لتنتفعوا بها في مرافقكم وشؤونكم المعيشية، ثم أمر المؤمنين بأحسن الأخلاق، فطلب إليهم أن يصفحوا عن الكافرين، ويحتملوا أذاهم، وعند الله جزاؤهم، فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها، ويوم القيامة يعرضون على ربهم، ويجازي كل نفس بما كسبت من خير أو شر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر[2] فيما سلف من آيات ربوبيته، ووحدانيته، تسخير السفن في البحار، حاملةً للأقوات والمتاجر، وتسخير ما في السموات والأرض.. بين هنا، أنه أنعم على بني إسرائيل بنعم كثيرة، وقد حصل بينهم الاختلاف بغياً وحسداً، تسليةً لرسوله ﷺ، بأن قومه ليسوا ببدع في الأمم، بل طريقهم طريق من تقدمهم، ثم أمر رسوله بأن يتمسك بالحق، ولا يكون له غرض سوى إظهاره، ولا يتبع أهواء الجاهلين الضالين، ثم ذكر أن القرآن معالم للهداية، تهتدي به القلوب الضالة عن طريق الحق، فتلزم الجادة وتصل إلى طريق النجاة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿حمٓ ①﴾؛ أي: هذه[3] السورة مسماة بـ﴿حم﴾، فهو خبر لمبتدأ

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

محذوف، إن جعلناه اسماً للسورة، أو مبتدأ خبره ما بعده، وإن جعل حروفاً مسرودة على نمط التعديد، فلا محل له من الإعراب. وفي «التأويلات النجمية»: يشير بالحاء إلى حياته، وبالميم إلى مودته، كأنه قال: أقسمت بحياتي ومودتي لأوليائي، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: تنزيل القرآن المشتمل على السور مطلقاً، خصوصاً هذه السورة الجليلة، وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: واقع منه سبحانه وتعالى، والجملة جواب القسم، فدل على أن القرآن حق وصدق ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾فدل على أنه معجز، غالب غير مغلوب ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ فدل على أنه مشتمل على حكم بالغة، وعلى أنه ناسخ غير منسوخ، فليس كما يزعم المبطلون، من أنه شعر أو كهانة، أو تقول من عنده ﷺ، ممكن معارضته، وأنه كأساطير الأولين مثل حديث رستم، وإسفنديار وغيرهما، فيجب أن يعرف قدره، وأن يكون الإنسان مملوءاً به صدره.

والمعنى: تنزيل هذا الكتاب واقع من الله العزيز في ملكه، الحكيم في أمره وقضائه.

ثم أخبر سبحانه، بما يدل على قدرته الباهرة، فقال: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: إن في خلقهما، وخلق ما فيهما من آثار القدرة كالكواكب، والجبال والبحار، ونحوها ﴿لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لشواهد الربوبية لأهل التصديق، وأدلة الإلهية لأهل التوفيق، خص المؤمنين بالذكر لانتفاعهم بتلك الآيات والدلالات، فإنهم يستدلون بالمخلوق على الخالق، وبالمصنوع على الصانع، فيوحدونه، وهو أول الباب، ولذا قدم الإيمان على الإيقان، ولعل[1] الوجه في طي ذكر المضاف هنا، وهو الخلق، وإثباته في الآية الآتية أن خلق السموات والأرض ليس بمشهود للخلق، وإن كانتا مخلوقتين، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بخلاف خلق الإنسان، وما يلحق به من خلق سائر الدواب، فإنه كما أنه يستدل بخلقه على خالقه، فكذا يشاهد خلقه وتوالده،

---

(١) روح البيان.

فتكون المخلوقية فيه أظهر من الأول، هكذا لاح بالبال، والله أعلم بحقيقة الحال.

ومعنى الآيتين[1]: أي إن هذا الكتاب الكريم، أنزله العزيز الغالب، القاهر لكل شيء، الحكيم في تدبيره لكل ما خلق، فهو سبحانه مع قهره للعوالم المادية، والروحية، لا يتصرف إلا بالحكمة كما يشاهد في النبات والحيوان والأجسام الإنسانية، ودوران الكواكب وانتظامها في سيرها، فكل ذلك من القهر والغلبة لها مع الحكمة في صنعها، ومن ثم، أعقب ذلك بنتائج العزة والحكمة، فقال: إن في السموات السبع، اللاتي منهن ينزل الغيث، وفي الأرض التي منها يخرج الخلق، لأدلةً واضحةً للمصدقين بالحجج، إذا تأملوها، وفكروا فيها تفكير من سلك السبيل القويم، فيرتب المقدمات ليصل منها إلى النتائج التي هي لازمة لها، بحكم النظام الفكري، والترتيب العقلي.

وبعد أن ذكر الأدلة الكونية التي في الآفاق، أتبعها بذكر الأدلة التي في الأنفس، فقال: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾ أنفسكم أيها الإنسان من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة متقلبة في أطوار، مختلفة إلى تمام الخلق ﴿و﴾ في خلق ﴿ما يبثـ﴾ـه اللَّه سبحانه وتعالى وينشره، ويفرقه في الأرض، حال كونه ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ وحيوانات تدب على الأرض، وما الموصولة معطوفة على المضاف إليه، والمعنى: وفي خلق ما ينشره الله تعالى، ويفرقه من دابة، وهي كل ما يدب على وجه الأرض من الحيوان مع اختلاف صورها، وأشكالها، وكثرة أنواعها، وأضمر ذكر الله هنا، لقرب العهد منه بخلافه في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ كما سيأتي. ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ مؤخر، خبره الظرف المقدم، والجملة معطوفة على ما قبلها من الجملة المصدرة بإنّ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: لقوم من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي عليه، واليقين علم فوق المعرفة والدراية، ونحوهما، وبينه وبين الإيمان فروق كثيرة، وحقيقة الإيمان هو اليقين، حين باشر الأسرار بظهور الأنوار، ألا ترى كيف سأل رسول الله ﷺ بقوله: «اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي، ويقيناً ليس بعده كفر».

---

(١) المراغي.

يقول الفقير: لم يقل: للموقنين كما قال للمؤمنين، إشارةً إلى قلة هذا الفريق بالنسبة إلى الأول. وخص الإيقان بخلق الأنفس، لأن ما قبله من الإيمان بالآفاق، وهو ما خرج عنك، وهذا من الإيمان بالأنفس، وهو ما دخل فيك، وهذا أخص درجات الإيمان، فإنه إذا أكمل الإيمان في مرتبة الإيمان بترقي العبد إلى المشاهدة في مرتبة الأنفس، فكمال اليقين إنما هو في هذه المرتبة، لا في تلك المرتبة؛ لأن العلم بما دخل فيك أقوى منه بما خرج عنك، إذ لا يكذبه شيء، ولذا جاء العلم الضروري أشد من العلم الاستدلالي، وضم خلق الدواب إلى خلق الإنسان لاشتراك الكل في معنى الجنس، فافهم جداً، واقنع.

وفي «التأويلات النجمية»: أن العبد إذا أمعن نظره في حسن استعداده ظاهراً وباطناً، وأنه خلق في أحسن تقويم، ورأى استواء قده وقامته، وحسن صورته وسيرته، واستكمال عقله وتمام تمييزه وما هو مخصوص به في جوارحه وجوانبه، ثم تفكر فيما عداه من الدواب وأجزائها وأعضائها وأوصافها وطباعها.. وقف على اختصاص وامتياز بني آدم بين البرية من الجن في الفهم والعقل والتمييز ثم في الإيمان ومن الملائكة في حمل الأمانة، وتعلم علم الأسماء.

والمعنى: أي وإن في خلق الله إياكم على أطوار مختلفة من تراب، ثم من نطفة إلى أن تصيروا أناسي، وفي خلق ما تفرق في الكون من الدواب لحججاً لقوم يوقنون بحقائق الأشياء، فيقرونها بعد العلم بصحتها.

﴿و﴾ في ﴿اختلاف الليل والنهار﴾ بتعاقبهما أو بتفاوتهما طولاً وقصراً، أو بسواد الليل، وبياض النهار ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عطف على ﴿اختلاف﴾ ﴿مِن رِّزْقٍ﴾؛ أي: مطر، وهو سبب الرزق، عبر عنه بذلك تنبيهاً على كونه آية من جهتي القدرة والرحمة ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بأن أخرج منها أصناف الزروع والثمرات والنباتات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: بعد يبسها، وعرائها عن آثار الحياة، وانتفاء قوة التنمية عنها، وخلو أشجارها عن الثمار، ففيه[1] تشبيه للرطوبة الأرضية بالروح الحيواني في كونها مبدأ التوليد، والتنمية، وتشبيه زوالها بزوال الروح وموت

الجسد ﴿و﴾ في ﴿تصريف الرياح﴾؛ أي: وفي تحويلها من جهة إلى أخرى، وتبديلها من حال إلى حال، إذ منها مشرقية ومغربية وجنوبية وشمالية وحارة وباردة ونافعة وضارة.

وتأخيره عن إنزال المطر مع تقدمه عليه في الوجود، إما للإيذان بأنه آية مستقلة، حيث لو روعي الترتيب الوجودي، لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح، وإنزال المطر آية واحدة، وإما لأن كون التصريف آيةً ليس لمجرد كونه مبدأ لإنشاء المطر، بل له ولسائر المنافع التي من جملتها سوق السفن في البحار ﴿ءَايَٰتٌ﴾ ودلالات على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: يستعملون عقولهم في مصنوعات الله تعالى، ويتأملون فيها، فيثبتون وجود صانعها وعظيم قدرته، وباهر حكمته.

والمعنى[1]: أي وإن في تعاقب الليل والنهار عليكم، هذا بظلمته وسواده، وذلك بنوره وضيائه، وفيما أنزل الله من السماء من مطر تحيا به الأرض بعد موتها، فتهتز بالنبات والزرع من بعد جدوبها وقحوطها، فتخرج أرزاق العباد وأقواتهم، وفي تصريف الرياح لمنافعكم شماليةً مرة، وجنوبية أخرى، صباً مرة، ودبوراً أخرى، لأدلة وحججا لله على خلقه، الذي يعقلون عنه حججه، ويفهمون ما وعظهم به من الآيات والعبر.

وقصارى ما سلف كله: أنكم إذا تأملتم الحكم المنبثة في السموات والأرض.. آمنتم بوحدة خالقها وقدرته، فإذا ازددتم علماً.. ازداد تثبتكم وفهمكم، فصرتم موقنين بها، لأن الإيقان يكون بتوافر الأدلة وتكاثرها، ومتى أيقنتم بجمال هذا الكون وحسن نظامه.. أصبحتم من ذوي العقول الناضجة، والأفكار النافذة في أسرار هذا الكون، وبديع صنعه، فتستطيعون أن تنتفعوا بما فيه، وتسخروه لمنافعكم في هذه الحياة المليئة بالمطالب.

وإجمال ذلك: أن أول المراتب الإيمان بالله، فإذا ازداد المرء علماً وحكمة

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وبحثاً في دقائق الأشياء وعظائمها أصبح موقناً به وكلما ازداد بحثاً، ازداد عقله دراية، وفهما لأسرار هذا الكون، فسخره لمنافعه، واستفاد من نظمه التي وجد عليها، وعرف أنه لم يخلق عبثاً، بل خلق للانتفاع بما في ظاهره وباطنه، علويه وسفليه، أرضه وسمائه، نوره وظلامه، فكأنه يقول: إنا أمرناكم بالنظر في العالم لتؤمنوا، فإذا ازددتم نظراً أيقنتم بي، وذلك كله مما يربي عقولكم، ويكملها إلى أقصى حدود طاقتها البشرية.

وفي «فتح الرحمٰن»: إن قلت: لم ختم[1] الآية الأولى بقوله ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، والثانية بقوله: ﴿يُوقِنُونَ﴾، والثالثة بقوله ﴿يَعْقِلُونَ﴾.

قلتُ: لأنه تعالى، لما ذكر العالم ضمناً، ولا بد له من صانع، موصوف بصفات الكمال، ومن الإيمان بالصانع، ناسب ختم الأولى ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولما كان الإنسان أقرب إلى الفهم من غيره، وكان فكره في خلقه وخلق الدواب، مما يزيده يقيناً في إيمانه، ناسب ختم الثانية بقوله: ﴿يُوقِنُونَ﴾، ولما كان جزئيات العالم من اختلاف الليل والنهار، وما ذكره معهما مما لا يدرك إلا بالعقل، ناسب ختم الثالثة بقوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾، انتهى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ جمعاً بالرفع فيهما، وقرأ الأعمش والجحدري وحمزة والكسائي ويعقوب: بالنصب فيهما، وزيد بن علي: برفعهما على التوحيد، وقرأ أبي وعبد الله: ﴿لآيات﴾ فيهما كالأولى، وتنكير آيات[3] في المواضع الثلاثة للتفخيم كما وكيفا، والعقل يقال: للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل، ولهذا قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

فَـإِنَّ ٱلْـعَـقْـلَ عَـقْـلاَنِ ... فَـمَـطْـبُـوْعٌ وَمَـسْـمُـوْعُ
وَلاَ يَـنْـفَـعُ مَـطْـبُـوْعٌ ... إِذَا لَـمْ يَـكُ مَـسْـمُـوْعُ

---

(١) فتح الرحمٰن.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

كَـمَـا لاَ تَـنْـفَـعُ ٱلـشَّـمْـسُ وَضَـوْءُ ٱلْـعَـيْـنِ مَـمْـنُـوْعُ

وإلى الأول أشار النبي ﷺ بقوله: «ما خلق الله خلقاً، أكرم عليه من العقل». وإلى الثاني أشار بقوله: «ما كسب أحد شيئاً، أفضل من عقل يهديه إلى هدى، أو يرده عن ردى»، وهذا العقل هو المعني بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾، وكل موضع ذم الكفار بعدم العقل، فإشارة إلى الثاني دون الأول، وكل موضع رفع التكليف عن العبد لعدم العقل، فإشارة إلى الأول، كما في «المفردات».

والمعنى[1]: لقوم ينظرون بعيون عقولهم، ويعتبرون لأنها دلائل واضحة على وجود صانعها وعظيم قدرته وبالغ حكمته، وخص العقلاء بالذكر؛ لأنه بالعقل يمكن الوقوف على الدلائل. يقول الفقير: لعل سر تخصيص العقل بهذا المقام، وتأخيره عن الإيمان والإيقان، أن هذه الآية دائرة بين علوي وسفلي وما بينهما، وللعقل مدخل تعقل كل ذلك، واشتراك بين الإيمان والإيقان، فافهم جداً.

﴿تِلْكَ﴾ الآيات القرآنية من أول السورة إلى هنا، وهو مبتدأ، وخبره قوله: ﴿ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، المنبهة على الآيات التكوينية ﴿نَتْلُوهَا﴾ ونقرؤها ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد بواسطة جبريل، حال كوننا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: محقين، أو حال كون الآيات متلبسةً بالحق والصدق، بعيدةً من الباطل والكذب، وقرىء ﴿يتلوها﴾ بياء الغيبة عائداً على الله، وقال في «بحر العلوم»: نتلوها عليك، حال عاملها معنى الإشارة، كأنه قيل: نشير إليها متلوة عليك، تلاوة متلبسة بالحق مقترنة به، بعيدةً من الباطل واللعب والهزل، كما قال: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾، انتهى. ويجوز أن تكون إشارةً إلى الدلائل المذكورة؛ أي: تلك دلائله الواضحة على وجوده ووحدته وقدرته وعلمه وحكمته نتلوها عليك؛ أي: بتلاوة النظم الدال عليها ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ﴾ من الأحاديث، وخبر من الأخبار ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ﴾؛ أي: وبعد آيات الله، وتقديم الاسم الجليل لتعظيمه، كما في قولهم: أعجبني زيد

(١) روح البيان.

وكرمه، يريدون أعجبني كرم زيد، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ فإن اسم الله هنا أيضاً، مذكور بطريق التعظيم كما سبق هناك، أو معنى: بعد الله؛ أي: بعد حديث الله الذي هو القرآن، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ وهو المراد بآياته أيضاً، ومناط العطف التغاير العنواني ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ يعني: أن القرآن من بين الكتب السماوية معجزة باهرة، فحيث لم يؤمنوا به، فبأي كتاب بعده يؤمنون؛ أي: لا يؤمنون بكتاب سواه، وقيل: المعنى القرآن آخر كتب الله، ومحمد ﷺ آخر رسله، فإن لم يؤمنوا به، فبأي كتاب يؤمنون، ولا كتاب بعده ولا نبي.

وقرأ[1] أبو جعفر والأعرج وشيبة وقتادة ونافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بالياء التحتانية، وقرأ الأعمش، وباقي السبعة: ﴿تؤمنون﴾ بتاء الخطاب، وقرأ طلحة: ﴿توقنون﴾ بالتاء من فوق، وبالقاف من الإيقان والمعنى: يومنون بأي حديث، وإنما قدم الجار عليه؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام.

والمعنى[2]: أي هذه آيات القرآن بما فيها من حجج، وبينات نتلوها عليك، متضمنة للحق، فبأي حديث أيها القوم، بعد حديث الله الذي يتلوه على رسوله، وبعده حججه وبرهاناته، التي دلكم بها على وحدانيته، تصدقون إن كذبتم به.

والخلاصة: إذا كنتم لا تؤمنون بهذه الآيات، ولا تنقادون لها فبم تؤمنون وإلام تنقادون.

وبعد أن بين للكفار آياته، وذكر أنهم إن لم يؤمنوا بها فبأي حديث بعدها يؤمنون، أتبعه بالوعيد العظيم لهم، فقال: ﴿وَيۡلٞ﴾؛ أي: عذاب شديد كائن ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾؛ أي: لكل كذّاب ﴿أَثِيمٖ﴾؛ أي: كثير الإثم مرتكب لما يوجبه؛ أي: فالويل أشد الويل، والعذاب أقسى العذاب لكل كذاب، في قوله أثيم في فعله،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وبعد أن وصف هذا الأفاك بالإثم أولاً. أتبعه بوصفه بالاستكبار عن سماع الآيات، فقال: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفة أخرى لأفاك، والمراد: آيات القرآن، لأن السماع إنما يتعلق بها، وكذا التلاوة في قوله: ﴿تُتْلَىٰ﴾ وتقرأ تلك الآيات ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على ذلك الأفاك، والجملة حال من ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾. ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ ويقيم ذلك الأفاك على كفره، ويدوم عازماً عليه عاقداً. قال في «المفردات»: الإصرار: التعقد في الذنب، والتشدد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه، وأصله: من الصر؛ أي: الشد، والصرة ما يعقد فيها الدراهم، أو من إصرار الحمار على العانة، وهو أن ينحني عليها صاراً؛ أي: ضاما أذنيه على رأسه، حال كونه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بما سمعه من آيات الله تعالى، والإذعان بما نطق به من الحق، مزدرياً لها معجباً بما عنده من الأباطيل، وكان[1] النضر بن الحارث بن عبد الدار، وقد قتل صبراً، يشتري من أحاديث العجم مثل حديث رستم وإسفنديار، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن، فوردت الآية ناعيةً عليه وعلى كل من يسير سيرته فيما هم فيه من الشر والفساد، وذلك التعميم لكلمة الإحاطة والشمول، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإصرار، والاستكبار بعد سماع الآيات، التي حقها أن تذعن لها القلوب، وتخضع لها الرقاب، فهي محمولة على المعنى المجازي؛ لأنه الأليق بمرام المقام، وإن كان يمكن الحمل على الحقيقة أيضاً، باعتبار منتهى الإصرار ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾؛ أي: يصر مستكبراً كأنه لم يسمع تلك الآيات، و﴿كَأَن﴾ مخففة، واسمها ضمير الشأن، والجملة حال من فاعل ﴿يُصِرُّ﴾؛ أي: ثم يصر على كفره مستكبراً، مشابها حاله حال من لم يسمعها؛ أي: مشبهاً بغير السامع في عدم القبول، والانتفاع ﴿فَبَشِّرْهُ﴾؛ أي: فبشر يا محمد ذلك الأفاك على إصراره واستكباره، وعدم استماعه إلى الآيات ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: وجيع؛ أي: أنذره بعذاب شديد، فإن ذكر العذاب قرينة على الاستعارة، استعيرت البشارة التي هي الإخبار بما يظهر السرور في المخبربه، للإنذار الذي هو ضده، بإدخال الإنذار في جنس البشارة على سبيل التهكم والاستهزاء، هذا

---

(١) روح البيان.

إذا أريد المعنى المتعارف للبشارة، وهو الخبر السار، ويجوز أن يكون على الأصل، فإنها بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذي يؤثر في بشرة الوجه بالتغيير، وهو يعم خبر السرور والحزن، ولذا قال في «كشف الأسرار»؛ أي: أخبره خبراً يظهر أثره على بشرته من الترح، وعبارة أبي حيان: فمعنى[1] ﴿ثُمَّ﴾ الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعد مارآها، وعاينها شيء يستبعد في العادة والطباع، وكذلك آيات الله الواضحة، القاطعة بالحق من تليت عليه وسمعها، كان مستبعداً في العقول إصراره على الضلالة عندها، واستكباره عن الإيمان بها.

والمعنى[2]: أي إذا سمع آيات الله تقرأ عليه، وهي مشتملة على الوعد والوعيد والإنذار والتبشير والأمر والنهي والحكم والآداب، أصر على الكفر بها وجحدها عناداً، كأنه ما سمعها، ثم أوعده على ما فعل عذاباً أليماً في نار جهنم، فقال: فبشره أيها الرسول بالعذاب المؤلم، الموجع في جهنم، وبئس القرار، وفي تسمية هذا الخبر المخزي بشرى، وهي لا تكون إلا في الأمر السار، تهكم بهم، واحتقار لشأنهم، فهو من وادي قولك للكافر: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾، وقول الشاعر:

تَــحِـيَّــةُ بَـيْـنِـهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِـيْـعُ

﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ ذلك الأفاك ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾؛ أي: إذا بلغه من آياتنا شيء، وعلم أنه من آياتنا، لا أنه علمه كما هو عليه، فإنه بمعزل من ذلك، قرأ الجمهور[3]: ﴿عَلِمَ﴾ بفتح العين، وكسر اللام مخففة على البناء للفاعل، وقرأ قتادة، ومطر الوراق على البناء للمفعول، والمعنى: أنه إذا وصل إليه علم شيء من آيات الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾؛ أي: الآيات كلها ﴿هُزُوًا﴾؛ أي: مهزوءاً بها لا ما سمعه فقط، وقيل: الضمير في ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾ عائد إلى ﴿شَيْـًٔا﴾ لأنه عبارة عن الآيات، فالتأنيث باعتبار المعنى، والأول أولى؛ أي: وإذا وصل إليه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

خبرها وبلغه شيء منها جعلها هزوا، وسخريةً. فقد رُوي: أن أبا جهل حين سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ دعا بتمر وزبد، وقال لأصحابه: تزقموا من هذا، ما يعدكم محمد ﷺ إلا شهداً، وحين سمع قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: على النار، قال: إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدي.

ثم ذكر ما يصيب هؤلاء من العذاب فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأفاكون المتصفون بتلك الصفات، فالإشارة إلى كل أفاك من حيث الاتصاف بما ذكر من القبائح، والجمع باعتبار شمول كل، كما أن الإفراد في الضمائر السابقة باعتبار كل واحدٍ واحدً ﴿لَهُمْ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: عذاب يهينهم، ويذلهم في نار جهنم، ويذهب بعزهم بما كانوا في الدنيا يستكبرون عن طاعة الله واتباع آياته واتخاذها هزواً، ووصف[1] العذاب بالإهانة توفية لحق استكبارهم، واستهزائهم بآيات الله ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: جهنم كائنة من قدامهم؛ لأنهم متوجهون إلى ما أعد لهم؛ أي: من وراء ما هم فيه من التعزز بالدنيا، والتكبر عن الحق، جهنم فإنها من قدامهم؛ لأنهم متوجهون إليها، وعبر بالوراء عن القدام كقوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾، وقول الشاعر:

أَلَـيْـسَ وَرَائِـيْ إِنْ تَـرَاخَـتْ مَـنِـيَّـتِـيْ

أو المعنى: من خلفهم؛ لأنهم معرضون عن ذلك، مقبلون على الدنيا، فإن الوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام؛ أي: يسترها ﴿وَلَا يُغْنِى﴾؛ أي: لا يدفع ﴿عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟﴾ وجمعوا من الأموال والأولاد، ولا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ﴿شَيْـًٔا﴾ من عذاب الله، فيكون مفعولاً به، أو لا يغني عنهم في دفع ذلك شيئاً منم الإغناء؛ أي: إغناءً قليلاً، فيكون مصدراً، يقال: أغنى عنه إذا كفاه، وقوله: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ معطوف على ﴿مَّا كَسَبُوا۟﴾؛ أي: ولا ينفعهم أيضاً ما عبدوه من دون الله من الأصنام،

---

(١) روح البيان.

وتوسيط[1] حرف النفي بين المعطوفين، مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى، من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعاً، مبني على زعمهم الفاسد، حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم، وفيه تهكم، وقيل: زيادة ﴿لا﴾ في الجملة الثانية للتأكيد. و﴿ما﴾ في الموضعين، إما مصدرية أو موصولة.

والمعنى[2]: أي ولا يدفع العذاب عنهم ما كسبوا من الأموال والأولاد، ولا تغني عنهم أصنامهم التي عبدوها من عذاب الله شيئاً ﴿وَلَهُمْ﴾ فيما وراءهم من جهنم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يعرف كنهه، ولا يقادر قدره؛ أي: بالغ إلى أقصى الغايات في كونه ضرراً. وقوله: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ جملة مستأنفة؛ أي: هذا القرآن هدى للمهتدين به؛ أي: في غاية الكمال من الهداية، كأنه نفسها، كقولك: زيد عدل ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ القرآنية ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾؛ أي: من أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة عذاب.

والمعنى: أي هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أيها الرسول، هاد إلى الحق وإلى صراط مستقيم، لمن اتبعه وعمل بما فيه، والذين جحدوا بآياته الكونية في الأنفس والآفاق، وآياته المنزلة على ألسنة رسله، لهم العذاب المؤلم، الموجع يوم القيامة، وقرأ[3] طلحة وابن محيصن وأهل مكة وابن كثير وحفص: ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة لـ﴿عذاب﴾ وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة وعيسى والأعمش وباقي السبعة: بالجر نعتاً لرجز ﴿اللَّهُ﴾؛ أي: الإله الذي يستحق منكم العبادة، هو الإله ﴿الَّذِي سَخَّرَ﴾ وذلل ﴿لَكُمُ الْبَحْرَ﴾؛ أي: جعله على صفة، تتمكنون بها منه الركوب عليه، بأن جعله أملس السطح؛ أي: مستويه يعلو عليه ما شأنه الغوص كالأخشاب، ولا يمنع الغوص والخرق لميعانه، فإنه لو جعل خشن السطح، بأن كان ذا ارتفاع وانخفاض لم يتيسر جرى الفلك عليه، وكذا لو جعله بحيث لا تطفو عليه الأخشاب ونحوها، بل تسفلت وغرقت فيه، لم يتيسر ذلك أيضاً، ولو

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

جعله صلباً مصمتاً، يمنع الغوص فيه، لم يمكن تحصيل المنافع المترتبة على الغوص ﴿لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أي: بإذنه وتيسيره وأنتم راكبوها ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارة والغوص على اللؤلؤ والمرجان، ونحوها من منافع البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: ولكي تشكروا النعم المترتبة على ذلك بالإقرار بوحدانية المنعم بها، والحكمة[1] في هذا التسخير مختصة بالإنسان لا بالفلك، سخر البحر والفلك له، وسخره لنفسه ليكون خليفته، ومظهراً لذاته وصفاته نعمةً منه، وفضلاً لإظهار الكنز المخفي، فبحسب كل مسخر من الجزئيات والكليات، يجب على العبد شكره، وشكره أن يستعمله في طلب الله بأمره، ولا يستعمله في هوى نفسه، وله أن يعتبر من البحر الصوري، والذين يركبون البحر فربما تسلم سفينتهم، وربما تغرق كذلك العبد في فلك الاعتصام، في بحار التقدير، يمشي به في رياح المشيئة، مرفوع له شراع التوكل، مرسى في بحر اليقين، فإن هبت رياح العناية، نجت السفينة إلى ساحل السعادة، وإن هبت نكباء الفتنة، لم يبق بيد الملاح شيء، وغرقت في لجة الشقاوة، فعلى العبد أن يبتغي فضل الله، ويسعى في الطلب بأداء شكر النعم، كما في «التأويلات النجمية».

والمعنى[2]: أي إن ذلك الخالق الواحد، الذي أقمت لكم الأدلة على وجوده، هو الذي يسَّر لكم استخدام البحر، لتجري فيه السفن بإذنه وقدرته، حاملةً أقواتكم ومتاجركم، لتقوم بشؤونكم المعيشية، ولتطلبوا رزق ربكم منه بالغوص للدر تارةً، والصيد تارةً أخرى، ولتشكروه على ما أفاض عليكم من هذه النعم، التي تحصل لكم بسبب هذا التسخير للبحر، فتعبدوه وتطيعوه فيما يأمركم وينهاكم عنه ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات، بأن جعلها مداراً لمنافعكم؛ أي: سخر لكم أيها العباد جميع ما خلقه في سمٰواته وأرضه، مما تتعلق به مصالحكم، وتقوم به معايشكم، ومما سخره لكم من مخلوقات السموات الشمس، والقمر والنجوم النيرات والمطر والسحاب والرياح، ومن مخلوقات الأرض الدواب والأشجار والجبال مثلاً ﴿جَمِيعًا﴾ إما حال من ﴿مَا فِي

---

(1) روح البيان. (2) المراغي.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أو تأكيد له ﴿مِّنْهُ﴾ صفة لـ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: كائناً منه تعالى، أو حال من ﴿ما﴾؛ أي: سخر لكم هذه الأشياء كائنةً منه مخلوقة له، أو خبر لمحذوف؛ أي: هي جميعاً منه تعالى. وفي «فتح الرحمٰن»: جميعاً منه؛ أي: كل إنعام فهو من فضله؛ لأنه لا يستحق عليه أحد شيئاً، بل هو ويوجب على نفسه تكرماً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾المذكور من التسخير ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عظيمة الشأن، كبيرة القدر، دالةً على وجود الصانع وصفاته ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في بدائع صنع الله تعالى، فإنهم يقفون بذلك على جلائل نعمه تعالى ودقائقها، ويوفقون لشكرها.

والمعنى: أي وسخر لكم جميع ما خلقه في سمواته وأرضه، مما تتعلق به مصالحكم، وتقوم به معايشكم، فمما سخر لكم من المخلوقات السماوية الشمس والقمر والنجوم والمطر والسحاب والرياح، ومن المخلوقات الأرضية الدواب والأشجار والجبال والسفن رحمةً منه وفضلاً، وكل هذه أدلة على أنه الله، الذي لا إلٰه غيره، لمن تأمل فيها واعتبر بها، وتدبرها حق التدبر.

والخلاصة: أن العالم كله، كأنه جسم واحد، يحتاج كل جزء منه إلى الأجزاء الباقية، فلا يستقيم مطر بلا حرارة شمس، ولا تسير سفن، إلا بهواء أو فحم أو كهرباء وما شاكل ذلك، فالعالم كله كساعة منتظمة، لا يستقيم سيرها إلا إذا استكملت آلاتها وعددها، وخص المتفكرين لأنه لا ينتفع بها إلا من تفكر فيها.

وعن طاووس قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فسأله: مم خلق الخلق؟ فقال: من الماء والنور والظلمة والهواء والتراب، قال: فمم خلق هؤلاء؟ قال: لا أدري، ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله، فقال: مثل قول عبد الله بن عمرو، فأتى ابن عباس، فسأله: مم خلق الخلق؟ فقال: من الماء والنور والظلمة والريح والتراب، قال: مم خلق هؤلاء؟ فقرأ ابن عباس ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، فقال الرجل: ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهل بيت النبوة.

وفي الآية[١]: إشارة إلى أن السموات والأرض وما فيهن خلقت للإنسان، فإن وجودها تبع لوجوده، وناهيك من هذا المعنى، أن الله تعالى أسجد ملائكته لآدم عليه السلام، وهذا غاية التسخير، وهم أكرم مما في السموات والأرض، ومثال هذا: أن الله تعالى لما أراد أن يخلق ثمرةً خلق شجرة، وسخرها للثمرة لتحملها، فالعالم بما فيه شجرة، وثمرتها الإنسان، و لعظم هذا المعنى قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: في هذا المعنى دلالات على شرف الإنسان، وكماليته لقوم لهم قلوب منورة بنور الإيمان والعرفان، إذ يتفكرون بفكر سليم، كما في «التأويلات النجمية».

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿مِنْهُ﴾، وقرأ ابن عباس ﴿منة﴾ بكسر الميم وشد النون، ونصب التاء على المصدر، قال أبو حاتم: نسبة هذه القراءة إلى ابن عباس ظلم، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس وعبد الله بن عمر والجحدري وعبد الله بن عبيد بن عمير، وحكاها أيضاً عن هؤلاء الأربعة صاحب «اللوامح»، وحكاها ابن خالويه عن ابن عباس وعبيد بن عمير، وقرأ سلمة بن محارب كذلك؛ إلا أنه ضم التاء؛ أي: هو منة، وعنه أيضاً فتح الميم وشد النون، وهاء الكناية عائدة على الله، وهو فاعل ﴿سَخَّرَ﴾ على الإسناد المجازي، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: ذلك، أو هو منة.

ولما علم سبحانه عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة أردفه تعليمهم فضائل الأخلاق، فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله اغفروا واصفحوا وسامحوا عما يصدر من الكفار من الكلمات المؤذية، والأفعال الموحشة، ولا تقابلوهم بالمؤاخذة عليها إن أمرتهم بذلك ﴿يَغْفِرُواْ﴾؛ أي: يغفر الذين آمنوا، ويعفوا، ويصفحوا ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ ولا يخافون ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ وعذابه، وانتقامه من أعدائه، ولا يرجون ثوابه، ولا يخشون مثل عقاب الأمم الخالية، ومعنى الرجاء هنا: الخوف، وأيام الله: وقائعه تعالى لأعدائه في الأمم

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

الماضية، لقولهم أيام العرب، لوقائعها كيوم بعاث بوزن غراب، موضع بقرب المدينة، ويومه معروف؛ أي: قل لهم: اغفروا، يغفروا ويصفحوا ويعفوا، وقيل: مجزوم بلام مقدرة تقديره: ليغفروا، فهو أمر مستأنف، وإنما جاز حذف اللام؛ لأن الأمر الذي هو ﴿قُل﴾ عوض عنه، وقيل: لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز به فيها وإضافتها إلى الله كبيت الله، وناقة الله والأول أولى، والأيام يعبر بها عن الوقائع، كما تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾، قال مقاتل: لا يخشون مثل عذاب الله للأمم الخالية، وذلك أنهم لا يؤمنون، فلا يخافون عقابه. وقيل: المعنى لا يأملون نصر الله لأوليائه، وإيقاعه بأعدائه، وقيل: لا يخافون البعث.

والمعنى[1]: قل يا محمد، للذين صدقوا الله ورسوله: اعفوا واصفحوا عن هؤلاء المشركين، الذي لا يخافون بأس الله ونقمته، إذا نالكم منهم أذى ومكروه، قاله مجاهد. روى الواحدي، والقشيري عن ابن عباس: أن الآية نزلت في عمر بن الخطاب مع عبد الله بن أبي، في غزوة بني المصطلق، فإنهم نزلوا على بئر يقال لها: المريسيع، فأرسل عبد الله غلامه ليستقي، فأبطأ عليه، فقال: ما حبسك؟ فقال: غلام عمر قعد على فم البئر، فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قرب النبي ﷺ، وقرب أبي بكر، وملأ لمولاه، فقال عبد الله: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل: سمن كلبك يأكلك، فبلغ عمر قوله، فاشتمل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله، فأنزل الله هذه الآية.

وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس سبباً آخر، قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال يهودي بالمدينة يسمى فنحاصاً: احتاج رب محمد ﷺ، قال: فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه، وخرج في طلبه، فجاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: إن ربك يقول لك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ فبعث رسول الله ﷺ في طلب عمر، فلما جاء

---

(١) المراغي.

قال: يا عمر ضع سيفك، قال: يا رسول الله صدقت، أشهد أنك أرسلت بالحق، ثم تلا رسول الله ﷺ الآية، فقال عمر: لا جرم والذي بعثك بالحق، لا ترى الغضب في وجهي.

ثم علل بالمغفرة، فقال: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿قَوْمًا﴾ كاملين كاظمين غيظهم على إذاية الكفار، جزاءاً كاملاً وافراً ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: على ما يكسبونه من الأعمال الصالحة، التي منها كظم الغيظ. والمراد[1] بالقوم: المؤمنون. والتنكير لمدحهم، والثناء عليهم؛ أي: أمروا بذلك ليجزي الله سبحانه يوم القيامة قوماً أي قوم، لا قوماً مخصوصين، بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة، التي من جملتها الصبر على أذية الكفار والمنافقين، والإغضاء عنهم بكظم الغيظ، واحتمال المكروه ما يقصر عنه البيان من الثواب العظيم.

وقد جوز أن يراد بالقوم: الكفرة، و﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: سيئاتهم التي من جملتها ما حكي من الكلمة الخبيثة، والتنكير حينئذ للتحقير، فإن قلت: مطلق الجزاء لا يصلح تعليلاً للأمر بالمغفرة، لتحققه على تقديري المغفرة وعدمها، قلت: لعل المعنى: قل للمؤمنين: يتجاوزوا عن إساءة المشركين والمنافقين، ولا يباشروا بأنفسهم لمجازاتهم، ليجزيهم الله تعالى؛ أي: ليجزي أولئك الكفرة يوم القيامة جزاءً كاملاً، يكافىء سيئاتهم، كأنه قيل: لا تكافؤوهم أنتم حتى نكافئهم نحن، ويدل على هذا المعنى الآية الآتية، والأول أولى، وأيضاً إن الكسب في أكثر ما ورد في القرآن كسب الكفار، ويجوز[2] أن يكون المعنى: ليجزيهم الله وقت الجزاء كيوم بدر، ونحوه. وفي الآية إشارة، إلى أن المؤمن إذا غفر لأهل الجرائم، وإن لم يكونوا أهل المغفرة لإصرارهم على الكفر، والأذى.. يصير متخلقاً بأخلاق الحق.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ مبنياً للفاعل؛ أي: ليجزي الله، وقرأ زيد بن

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

علي، وأبو عبد الرحمٰن والأعمش وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ بالنون مبنياً للفاعل. وقرأ أبو جعفر وشيبة، وعاصم: ﴿ليجزى﴾ بالياء التحتية مبنياً للمفعول مع نصب ﴿قَوْمًا﴾، وفيه حجة لمن أجاز بناء الفعل للمفعول، على أن يقام الجار والمجرور وهو ﴿بما﴾ مقام الفاعل، وينصب المفعول به الصريح وهو ﴿قَوْمًا﴾، ونظيره: ضرب بسوط زيداً، ولا يجيز ذلك الجمهور، وخرجت هذه القراءة على أن يكون الفعل بني للمصدر؛ أي: ليجزى الجزاء قوماً، وهذا أيضاً لا يجوز عند الجمهور، لكن يتأول على أن ينصب بفعل محذوف، تقديره: يجزي قوماً، فيكون الكلام جملتين إحداهما: ليجزى الجزاء، والأخرى: يجزيه قوماً. وعبارة البيضاوي هنا: وقرىء ﴿ليجزى قوم﴾، ﴿وليجزى قوما﴾؛ أي: ليجزى الخير أو الشر، أو الجزاء بمعنى: ما يجزى به لا المصدر. فإن الإسناد إليه سيما مع المفعول به ضعيف.

والمعنى[1]: أي ليجزي الله تعالى يوم القيامة قوماً بما كسبوا في الدنيا من أعمال طيبة، من جملتها الصبر على أذى الكفار، والإغضاء عنهم بكظم الغيظ، واحتمال المكروه، ما لا يحيط به الوصف من الثواب العظيم في جنات النعيم.

ولما رغب سبحانه، ورهب، وقرر أنه لا بد من الجزاء.. أبان أن النفع والضر لا يعدو المحسن والمسيء فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ عملا ﴿صَٰلِحًا﴾ وهو ما طلب به رضى الله تعالى ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: فنفع ذلك العمل الصالح وثوابه لنفسه عائد إليها ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾؛ أي: عمل عملاً سيئاً، وهو كل ما يوجب سخط الله تعالى ﴿فَعَلَيْهَا﴾؛ أي: فضرر إساءته وعقابها على نفسه لا يكاد يسرى عمل إلى غير عامله ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء آجالكم ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: إلى مالك أموركم لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تردون بالموت، فيجازيكم على أعمالكم خيراً كان أو شراً، فاستعدوا للقائه، ففيه ترغيب على اكتساب العمل الصالح، وترهيب عن ارتكاب العمل السيء.

---

(١) المراغي.

فمن الأول العفو، والمغفرة للمجرم، وصاحبه متصف بصفات الله تعالى.

ومن الثاني المعصية، والظلم، وصاحبه متصف بصفات الشيطان، فمن كان من الأبرار فإن الأبرار لفي نعيم، ومن كان من الفجار فإن الفجار لفي جحيم.

والمعنى: أي من عمل من عباد الله بطاعته فانتهى إلى أمره وازدجر عن نهيه فلنفسه عمل، ولها طلب الخلاص من عذابه، والله غني عن كل عامل، ومن أساء عمله في الدنيا بمعصية ربه فعلى نفسه جنى، ولها اكتسب الضر.

ثم بين وقت الجزاء فقال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: ثم تصيرون إلى ربكم حين العرض للحساب، فيجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أعطينا بني إسرائيل ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة. قال سعدي المفتي: ولعل الأولى[1] أن يحمل الكتاب على الجنس حتى يشمل الزبور، والإنجيل أيضاً انتهى. وذلك لأن موسى، وداود، وعيسى عليهم السلام. كانوا في بني إسرائيل ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾؛ أي: الحكمة النظرية، والعملية، والفقه في الدين، أو فصل الخصومات بين الناس، إذ كان الملك فيهم ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ حيث كثر فيهم الأنبياء ما لم تكثر في غيرهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: من اللذائذ، كالمن والسلوى ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلهم أولهم وآخرهم حيث آتيناهم ما لم نؤت أحداً من العالمين، من كثرة الأنبياء فيهم، وفلق البحر، وإنجائهم، وغرق عدوهم، وإنزال المن والسلوى لهم، وانفجار اثنتي عشرة عيناً لهم من حجر صغير في مدة التيه، وتظليل الغمام عليهم، وليس المراد تفضيلهم على العالمين بحسب الدين والثواب، اهـ «زاده». وقيل: على عالمي زمانهم، فإنه لم يكن أحد من العالمين في زمانهم أكرم على الله، ولا أحب إليه منهم ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾؛ أي: وأعطينا بني إسرائيل ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: دلائل ظاهرة، ومعجزات قاهرة ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾؛ أي: في أمر الدين، فـ﴿من﴾ بمعنى: في، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾؛ أي: شرائع

---

(١) روح البيان.

واضحات في الحلال والحرام، أو معجزات ظاهرات، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو العلم بمبعث النبي ﷺ، وما بين لهم من أمره، وأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب، ويكون أنصاره أهل يثرب ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾؛ أي: فما وقع الاختلاف بينهم في ذلك الأمر الذي بين لهم ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ واليقين فيه؛ أي: إلا من بعد مجيء العلم بحقيقته، وحقيته إليهم ببيانه وإيضاحه، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لثبوته، ورسوخه، وقيل: المراد بالعلم: يوشع بن نون، فإنه آمن به بعضهم، وكفر به بعضهم، وقيل: نبوة محمد ﷺ، فاختلفوا فيها ﴿بَغْيًا﴾ واعتداء من بعضهم على بعض بطلب الرئاسة، وحسدا حدث ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لا شكاً فيها، فقد كانوا قبل ذلك وهم تحت أيدي القبط في غاية الاتفاق، واجتماع الكلمة، فلما جاءهم العلم، والشرع في كتابهم كان مقتضاه أن يدوموا على الاتفاق، بل كان ينبغي أن يزدادوا اتفاقاً، لكنهم لم يكونوا كذلك، بل صار ما هو مقتضٍ للاتفاق مقتضياً للاختلاف لسوء حالهم، اهـ من «الخطيب».

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي﴾ ويحكم ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين المختلفين من بني إسرائيل ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

والمعنى[1]: أي إن ربك سبحانه، يقضي يوم القيامة بين المختلفين من بني إسرائيل بغياً وحسداً، فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا، بعد العلم الذي أتاهم، والبيان الذي جاءهم منه، ويجعل الفلج للمحق على المبطل، والمقصد من هذا: أنه لا ينبغي أن يغتر المبطل بنعم الدنيا، فإنها وإن ساوت نعم المحق أو زادت عليها، فهو سيرى في الآخرة ما يسوءه.

وفي هذا: تحذير لهذه الأمة المحمدية أن تسلك مسلكهم، وأن تسير على نهجهم.

---

(١) المراغي.

ولما ذكر سبحانه وتعالى إنعامه على بني إسرائيل، واختلافهم بعد ذلك، وإعراضهم عن الحق بغياً وحسداً، ذكر حال نبيه ﷺ، وما منّ به عليه من اصطفائه، وأمره أن يعدل عن هذه الطريقة، وأن يستمسك بالحق، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ هنا[1] للاستئناف، والكاف مفعول أول لـ﴿جعل﴾، و﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ هو المفعول الثاني؛ أي: و[2] جعلناك يا محمد على شريعة؛ أي: طريقة عظيمة الشأن، وسنة رفيعة القدر ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾؛ أي: من أمر الدين ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾؛ أي: فاتبع يا محمد تلك الشريعة أنت وقومك وسائر أهل الأرض، بإجراء أحكامها في نفسك، وفي غيرك من غير إخلال بشيء منها.

وفي «التأويلات النجمية»: إنا أفردناك من جملة الأنبياء بلطائف فاعرفها، وخصصناك بحقائق فأدركها، وسننّا لك طرائق فاسلكها، وأثبتنا لك الشرائع فاتبعها، ولا تجاوز عنها، ولا تحتج إلى متابعة غيرك، ولو كان موسى وعيسى حيين، لما وسعهما إلا اتباعك، قال جعفر الصادق رحمه الله تعالى: الشريعة في الأمور محافظة الحدود فيها، ومن الله الإعانة، والمراد بالشريعة هنا: ما شرعه الله سبحانه لعباده من الدين، والجمع شرائع؛ أي: جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين، يوصلك إلي فاتبعها، واعمل بأحكامها في أمتك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله، وشرائعه لعباده؛ أي[3]: لا تتبع آراء الجهلة، واعتقاداتهم الزائفة التابعة للشهوات، وهم رؤساء قريش، ومن وافقهم كانوا يقولون له ﷺ: ارجع إلى دين آبائك، فإنهم كانوا أفضل منك وأسن، ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن الجهلة المذكورين ﴿لَن يُغْنُوا﴾؛ أي: لن يدفعوا ﴿عَنكَ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: مما أراد الله بك من العذاب ﴿شَيْئًا﴾ إن اتبعتهم. قال بعضهم: يعني إن أراد بك نعمة فلا يقدر أحد على منعها، وإن أراد بك فتنة فلا يقدر أحد يصرفها عنك، فلا تعلق بمخلوق فكرك، ولا تتوجه بضميرك إلى غيرنا، وثق بنا، وتوكل علينا ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾؛ أي: أنصار

---

(1) الفتوحات.

(2) روح البيان.

(3) روح البيان.

بعض؛ أي: بعضهم ينصر بعضاً، فلا يواليهم، ولا يتبع أهواءهم إلا من كان ظالماً مثلهم؛ لأن الجنسية علة الانضمام والانتصار ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: ناصر المتقين الذين أنت قدوتهم، فدم على ما أنت عليه من تولية خاصة بالتقوى، والشريعة، والإعراض عما سواه بالكلية، وفي «التأويلات النجمية»: سماهم الظالمين؛ لأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه، وسمّىٰ المؤمنين المتقين لأنهم اتقوا عن هذا المعنى، واتخذوا الله الولي في الأمور كلّها.

ومعنى الآيتين[1]: أي ثم جعلناك بعد بني إسرائيل، الذين وصفت لك صفتهم على نهج خاص من أمر الدين، فاتبع ما أوحى إليك، ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون الذين لا يعلمون توحيد الله، ولا شرائعه لعباده، وهم كفار قريش، ومن وافقهم فتهلك، ثم علل النهي عن اتباع أهوائهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن هؤلاء الجاهلين بربهم لا يدفعون عنك شيئاً مما أراد بك، إن اتبعت أهواءهم وخالفت شريعته، ثم بين أولياء الكافرين وأولياء المؤمنين، فقال: وإن الكافرين ليتولى بعضهم شؤون بعض في الدنيا، أما في الآخرة فلا ولي ولا شفيع، ولا نصير يجلب لهم ثواباً، ولا يدفع عنهم عقاباً، والله ولي المتقين؛ أي: والمتقون المهتدون وليهم الله، وهو ناصرهم ومخرجهم من الظلمات إلى النور، والكافرون أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، فما أبعد الفرق بين الولايتين.

وقصارى ما سلف: دم على ما أنت عليه من اعتمادك على ولاية ربك ونصرته، وأعرض عما سواه.

ثم بين فضل القرآن، وذكر ما يجلبه التمسك بحبله المتين، فقال: ﴿هَٰذَا﴾ القرآن، وهو مبتدأ، خبره ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: براهين، ودلائل لهم فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين، أو إن اتباع الشريعة بصائر، وأنوار لقلوب من

---

(١) المراغي.

اتبعها تنورها بنور الإيمان، واليقين، وجمع الخبر باعتبار ما في المبتدأ من تعدد الآيات، والبراهين، اهـ «سمين». وقرىء[1] ﴿هذه بصائر﴾؛ أي: هذه الآيات بصائر؛ لأن القرآن بمعناها ﴿وَهُدًى﴾؛ أي: هاد من ورطة الضلالة إلى طريق الرشاد ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة، ونعمة كاملة من الله تعالى، فإن الفوز بجميع السعادات الدنيوية، والأخروية إنما يحصل به ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: لقوم من شأنهم الإيقان بالأمور، وعدم الشك والتزلزل بالشبه فيها.

والمعنى: أي هذا القرآن دلائل للناس فيما يحتاجون إليه من أمر الدين، وبينات تبصرهم وجه الفلاح، وتعرفهم سبيل الهدى، وهو هدى ورحمة لقوم يوقنون بصحته، وهو تنزيل من رب العالمين، وإنما خص الموقنين بأنه لهم هدى، ورحمة لأنهم هم الذين ينتفعون بما فيه، دون من كذب به من أهل الكفر، فإنه عليهم عمىٰ.

الإعراب

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه السورة ﴿حم﴾؛ أي: مسماة بـ﴿حم﴾ إن قلنا إنه علم للسورة، والجملة مستأنفة. ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: مبتدأ، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾: صفتان للجلالة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: خبر لـ﴿إِنَّ﴾ مقدم على اسمها. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿آيات﴾ اسم ﴿إنّ﴾ مؤخر منصوب بالكسرة. ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ صفة لـ﴿آيات﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿في خلقكم﴾: خبر مقدم، ﴿وَمَا﴾: اسم موصول معطوف على ﴿خَلْقِكُمْ﴾. ﴿يَبُثُّ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: وما يبثه. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾

---

(١) البحر المحيط.

حال من العائد المحذوف؛ أي: حال كونه من دابة، ﴿ءَايَٰتٞ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ صفة ﴿ءَايَٰتٞ﴾، وجملة ﴿يُوقِنُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾ والجملة الابتدائية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَٱخۡتِلَٰفِ﴾ معطوف أيضاً على ﴿خَلۡقِكُمۡ﴾، منزل منزلته في كونه متعلقاً بمحذوف خبر مقدم، ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ مضاف إليه ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ معطوف على ﴿ٱلَّيۡلِ﴾. ﴿وَمَآ﴾ معطوف على ﴿اختلاف﴾، ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: وما أنزله الله، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلقان بـ﴿أَنزَلَ﴾ ﴿مِن رِّزۡقٖ﴾: حال من العائد المحذوف، أو متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿فَأَحۡيَا﴾ معطوف على ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ﴿أحيا﴾، ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ مفعول به ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ ظرف ومضاف إليه، ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ معطوف على ﴿اختلاف﴾، ﴿ءَايَٰتٞ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ صفة لـ﴿آيات﴾، وجملة ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾.

فائدة: قال الزمخشري: وقرىء ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ بالنصب والرفع على حد قولك: إن زيداً في الدار وعمراً في السوق، أو وعمرو في السوق، وأما قوله: ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ فمن العطف على معمولي عاملين، سواء نصبت أو رفعت، فالعاملان إذا نصبت هما إنّ وفي أقيمت ﴿الواو﴾ مقامهما، فعملت الجر في ﴿اختلاف الليل والنهار﴾، والنصب في ﴿ءَايَٰتٞ﴾، وإذا رفعت فالعاملان الابتداء، وفي عملا الرفع في ﴿ءَايَٰتٞ﴾، والجر في ﴿اختلاف﴾، وقرأ ابن مسعود: ﴿وفي اختلاف الليل والنهار﴾.

فإن قلت: العطف على معمولي عاملين على مذهب الأخفش سديد لا مقال فيه، وقد أباه سيبويه، فما وجه تخريج الآية عنده؟

قلت: فيه وجهان عنده:

أحدهما: أن يكون على إضمار في، والذي حسنه تقدم ذكره في الآيتين قبلها، ويعضده قراءة ابن مسعود.

والثاني: أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضاء المجرور، معطوفاً على ما قبله، أو على التكرير ورفعهما بإضمار ﴿هي﴾، وقرىء ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ بالرفع.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿نَتْلُوهَا﴾ فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾، والعامل فيه ما في الإشارة من معنى الفعل، ويجوز أن تكون ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ بدلاً من اسم الإشارة، وجملة ﴿نَتْلُوهَا﴾ هي الخبر، و﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿نَتْلُوهَا﴾، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إما حال من الفاعل؛ أي: محقين، أو من المفعول؛ أي: متلبسة بالحق: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ﴾ الفاء: استئنافية، والباء: حرف جر، ﴿أي حديث﴾ مجرور بالباء. متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، والاستفهام توبيخي مضمن للإنكار؛ أي: لا يؤمنون. ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ﴾ ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ﴿حَدِيثٍۭ﴾، ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾ معطوف على لفظ الجلالة، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء. ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ خبر، والجملة مستأنفة، ﴿أَثِيمٍ﴾ صفة ﴿أَفَّاكٍ﴾، وهما صيغتا مبالغة للكذب والإثم، ﴿يَسْمَعُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿أَفَّاكٍ﴾. ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَسْمَعُ﴾: في محل الجر صفة ثانية لأفاك، أو حال من الضمير المستكن فيه، ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُتْلَىٰ﴾، وجملة ﴿تُتْلَىٰ﴾: في محل النصب حال من ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن سمع هنا دخل على ما يسمع فيتعدى إلى واحد فقط بالإجماع، وأما إذا دخل على ما لا يسمع كقوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾،

أو سمعت رسول الله ﷺ يقول: كذا، ففيه الخلاف بين الأخفش ومن وافقه، وبين الجمهور، فعند الأخفش يتعدى حينئذ إلى الثاني، وعند الجمهور لا يتعدى إلى الثاني مطلقاً، كما هو مذكور في محله. ﴿ثُمَّ﴾ للعطف والترتيب الرتبي عند العقل. ﴿يُصِرُّ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر معطوف على ﴿يَسْمَعُ﴾، ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ حال من فاعل ﴿يُصِرُّ﴾. ﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: كأنه، وجملة ﴿لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾: خبرها، والجملة التشبيهية في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿يُصِرُّ﴾؛ أي: حال كونه مثل غير السامع، ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حاله المذكور، وأردت بيان ما يستحقه.. فأقول لك بشره ﴿بشره﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿بِعَذَابٍ﴾ متعلق به. ﴿أَلِيمٍ﴾ صفة ﴿عذاب﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿عَلِمَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿أَفَّاكٍ﴾، والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ حال من ﴿شَيْـًٔا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به، ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ فعل ماض ناسخ، وفاعل مستتر يعود على الأفاك، ومفعولان، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل الجر، معطوفة على جملة قوله: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ على كونها صفة لـ﴿أَفَّاكٍ﴾، ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ أول، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم لما بعده. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ ثان مؤخر. ﴿مُّهِينٌ﴾ صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ﴾ خبر مقدم. ﴿جَهَنَّمُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع بدل من جملة قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ على كونها خبراً للمبتدأ الأول، والوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام، قال الشاعر وهو عبيد بن الأبرص:

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي أَدِبُّ مَعَ الْوِلْدَانِ أَزْحَفُ كَالنَّسْرِ

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية. ﴿يُغْنِي﴾: فعل مضارع. ﴿عَنْهُم﴾: متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول فاعل، ويجوز أن تكون مصدرية، والمصدر المؤول هو الفاعل. ﴿كَسَبُوا﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿شَيْئًا﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿مِن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: زائدة لتأكيد نفي ﴿لا﴾ الأولى، ﴿مَا﴾ موصولة أو مصدرية معطوفة على ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا كَسَبُوا﴾ على كونها فاعل ﴿يُغْنِي﴾، ﴿اتَّخَذُوا﴾: فعل وفاعل، ومفعوله الأول محذوف، تقديره: ولا ما تخذوه، ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾: حال من فاعل ﴿اتَّخَذُوا﴾، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول ثان لـ﴿اتَّخَذُوا﴾. والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة أو المصدرية، ﴿وَلَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة ﴿عَذَابٌ﴾ والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿هُدًى﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿وَالَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿الذين﴾: مبتدأ أول، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول، ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: متعلق بـ﴿كَفَرُوا﴾، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ ثان مؤخر، ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ صفة ﴿عَذَابٌ﴾. ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة ﴿رِّجْزٍ﴾، أو صفة ثانية لـ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول مع خبره معطوفة على جملة قوله: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾.

﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة مسوقة للاعتبار بتسخير البحر إلى عظمته، والسفن الجارية فيه لمخلوق هو أضأل شيء بالنسبة لهما، ﴿سَخَّرَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الموصول، والجملة صلة له، ﴿لَكُمُ﴾ متعلق بـ﴿سَخَّرَ﴾، ﴿الْبَحْرَ﴾: مفعول به، ﴿لِتَجْرِيَ﴾: اللام حرف جر وتعليل. ﴿تجري﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿الْفُلْكُ﴾: فاعل. ﴿فِيهِ﴾:

متعلق بـ﴿تجري﴾، ﴿بِأَمْرِهِ﴾: حال من الفلك، أو متعلق بـ﴿تجري﴾ أيضاً، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿سَخَّرَ﴾، تقديره: سخر لكم البحر لجريان الفلك فيه، ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، اللام: حرف جر وتعليل أيضاً، ﴿تبتغوا﴾: فعل مضارع، وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿مِن فَضْلِهِ﴾: متعلق بـ﴿تبتغوا﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: ولا بتغائكم من فضله، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: لجريان الفلك فيه، ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لعل﴾: حرف نصب وتعليل مستعارة لكي التعليلية، والكاف اسمها، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ خبرها، والجملة الاسمية في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بلعل التعليلية؛ أي: ولشكركم إياه سبحانه وتعالى على هذا التسخير. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ﴾: معطوف على ﴿سَخَّرَ﴾ الأول، ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول به، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ﴿مَّا﴾ الموصولة، أو تأكيد لها. ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: كائناً منه تعالى، أو حال ثانية من ﴿مَّا﴾؛ أي: سخر لكم هذه الأشياء حالة كونها كائنة منه تعالى، مخلوقة له تعالى. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿آيات﴾: اسمها مؤخر، ﴿لِّقَوْمٍ﴾: صفة لـ﴿آيات﴾، وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: صفة لـ﴿قوم﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿قُل﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾: صلة الموصول، ومقول ﴿قُل﴾ محذوف تقديره: قل للذين آمنوا: اغفروا للذين لا يرجون أيام الله. ﴿يَغْفِرُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم في جواب الطلب المحذوف، كما قدرناه، والجملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿يَغْفِرُوا﴾، ﴿لَا يَرْجُونَ﴾: فعل وفاعل

صلة الموصول، ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به. ﴿لِيَجْزِيَ﴾: اللام: حرف جر وتعليل، ﴿يجزي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، منصوب بأنْ مضمرة بعد لام كي جوازاً، ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿يجزي﴾ وجملة ﴿يجزي﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَغْفِرُواْ﴾، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة أو المصدرية.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿عَمِلَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به أو صفة لمصدر محذوف، ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾: الشرطية وجوباً، ﴿لنفسه﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فثواب عمله كائن لنفسه، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة، مسوقة لبيان كيفية الجزاء. ﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط مبتدأ، وجملة ﴿أَسَآءَ﴾: فعل شرط لها، ﴿فَعَلَيْهَا﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فاساءته عليها، والجملة في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الأولى، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿تُرْجَعُونَ﴾: من الفعل المغير، ونائب فاعله معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ءَاتَيْنَا﴾: فعل وفاعل، وهو بمعنى أعطينا يتعدى إلى مفعولين، ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مفعول أول، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعول ثان، ﴿وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾: معطوفان على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿ءَاتَيْنَا﴾. ﴿مِّنَ

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿رزقناهم﴾، ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿آتيناهم﴾، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلق بـ﴿فضلناهم﴾.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ﴾: فعل وفاعل ومفعولان معطوف على ﴿آتيناهم﴾ الأول ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ ﴿فَمَا﴾ الفاء: عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾، ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية مع ﴿مَا﴾. المصدرية في تأويل مصدر بإضافة الظرف إليه؛ أي: إلا من بعد مجيء العلم إياهم.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿بَغْيًۢا﴾: مفعول لأجله منصوب بـ﴿اختلفوا﴾؛ أي: فما اختلفوا إلا لأجل البغي بينهم، و﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ﴿بَغْيًۢا﴾. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَقْضِى﴾: خبره، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَقْضِى﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَقْضِى﴾، ﴿فِيمَا﴾: متعلق بـ﴿يَقْضِى﴾ أيضاً، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ وجملة ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ﴾: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ولكن هنا بمعنى الواو الاستئنافية، كما في «السمين». ﴿جَعَلْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ في موضع المفعول الثاني، والجملة مستأنفة، ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾: صفة لـ﴿شَرِيعَةٍ﴾، ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾: الفاء: عاطفة، ﴿اتبعها﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ ومفعول به والجملة معطوفة على جملة ﴿جَعَلْنَٰكَ﴾، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية، جازمة، ﴿تَتَّبِعْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ مجزوم

بلا الناهية، معطوف على قوله: ﴿فَٱتَّبِعۡهَا﴾ ﴿أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، وجملة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ صلة الموصول، ﴿إِنَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَن﴾ حرف نفي ونصب، ﴿يُغۡنُواْ﴾: فعل مضارع، وفاعل منصوب بـ﴿لَن﴾، وعلامة نصبه حذف النون، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل النهي المذكور قبله، ﴿عَنكَ﴾ متعلق بـ﴿يُغۡنُواْ﴾، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: حال من ﴿شَيۡـًٔا﴾؛ لأنه صفة نكرة، قدمت عليها، أو متعلق بـ﴿يُغۡنُواْ﴾، ﴿شَيۡـًٔا﴾: مفعول به، ﴿وَإِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾: حرف نصب، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: اسمها، ﴿بَعۡضُهُمۡ﴾: مبتدأ، ﴿أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾: خبر، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: خبره، والجملة الابتدائية معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ﴾: مبتدأ وخبره، والجملة مستأنفة. ﴿لِلنَّاسِ﴾ صفة لـ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾. ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾: معطوفان على ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾: نعت لكل من ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾، وجملة ﴿يُوقِنُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَأٓيَٰتٖ﴾؛ أي: لعبراً للمؤمنين، ولشواهد على الربوبية للمصدقين. ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾؛ أي: يفرق، وينشر. أصله: يبثث بوزن يفعل، نقلت حركة الثاء الأولى إلى الباء فسكنت، فأدغمت في الثاء الثانية. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ وهي كل ما يدب على وجه الأرض من الحيوان مع اختلاف صورها وأشكالها وكثرة أنواعها، وأصله: دابِبة بوزن فاعلة، أدغمت الباء الأولى في الثانية فصار دابة. ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: تعاقبهما ليل بعد نهار، ونهار بعد ليل. ﴿مِن رِّزۡقٖ﴾؛ أي: مطر، وسمي بذلك؛ لأنه سبب له. ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾؛ أي: تحويلها من جهة إلى أخرى، ومن حال إلى حال. ﴿وَيۡلٞ﴾ كلمة عذاب. ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ الأفاك كثير الإفك والكذب، والأثيم: كثير الإثم والمعاصي، وهما صيغتا مبالغة، كعليم بمعنى: كثير العلم. ﴿يُصِرُّ﴾ أصله: يصرر، نقلت حركة الراء الأولى إلى الصاد، فسكنت فأدغمت في الثانية. قال في «المفردات»: الإصرار التعقد في الذنب والتشدد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه، وأصله: من الصر، وهو الشد، والصرة

ما يعقد فيها الدراهم. وقال بعضهم: الإصرار على الشيء ملازمته. ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ﴾؛ أي: من بعد آجالهم، والوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام؛ أي: يسترها. وقال بعضهم: وراء في الأصل مصدر وارى، جعل ظرفاً ويضاف إلى الفاعل، فيراد به: ما يتوارى به، وهو خلفه وإلى المفعول فيراد به: ما يواريه، وهو قدامه، ولذلك عدَّ من الأضداد. وفي «القاموس»: الوراء معرفةً يكون خلف وقدام ضدٌّ أَوْ لا؛ لأنه بمعنى، وهو ما توارى عنك، والوراء أيضاً ولد الولد، وورى المخ كولي اكتنز، انتهى.

﴿وَلَا يُغْنِي﴾؛ أي: يدفع، يقال: أغنى عنه إذا كفاه. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أصناماً ﴿رِّجْزٍ﴾ والرجز أشد العذاب. ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾؛ أي: ذلله وهيأه، بأن جعله أملس السطح، مستويه، يعلو عليه ما شأنه الغوص كالأخشاب، فإنه لو جعله خشن السطح، بأن كان ذا ارتفاع وانخفاض لم يتيسر جرى الفلك عليه، كما مر. ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ والمراد بأيام الله: الوقائع المشهورة التي انتصر الحق فيها على الباطل، وأديل الباطل بالجهاد، وهذا جري على أساليب العرب، إذ يقولون أيام العرب لوقائعهم المشهورة، كيوم بعاث على حد قول السموءل اليهودي.

وَأَيَّامُنَا مَشْهُوْرَةٌ فِيْ عَدُوِّنَا ... لَهَا غُرَرٌ مَعْلُوْمَةٌ وَحُجُوْلُ

وأصل أيام: أيوام بوزن أفعال اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء، وأدغمت فيها الياء. ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ والشريعة في الأصل: ما يرده الناس من المياه والأنهار، فاستعير ذلك للدين، والعبادة؛ لأن العباد يردون ما تحيا به نفوسهم، والجمع شرائع اهـ «سمين». وفي «القرطبي»: الشريعة في اللغة المذهب والملة، ويقال لمشرعة الماء، وهي مورد شريعة، ومنه الشارع لأنه طريق إلى القصد، فالشريعة ما شرعه الله لعباده من الدين، والجمع الشرائع، والشرائع في الدين: المذاهب التي شرعها الله تعالى لخلقه، انتهى.

﴿لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أصله: يغنيون حذفت نون الرفع لدخول أداة النصب عليه، وهو ﴿لَن﴾، ثم استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فالتقى ساكنان فحذفت الياء وضمت النون، لمناسبة الواو. ﴿وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أصله: وليي بوزن

فعيل، أدغمت ياء فعيل في لام الكلمة، فصار ولي بتشديد الياء. ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ جمع بصيرة بوزن فعلية. وفي «المختار»: البصيرة: الحجة، والاستبصار في الشيء اهـ. وفي «القاموس»: والبصيرة عقيدة القلب والفطنة، والحجة. والهمزة في الجمع أعني: ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾ بدل من ياء فعيلة، الواقعة حرف مد ثالثا، زائداً في اسم مؤنث.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد بإن واللام في قوله: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ﴾؛ لأن المخاطبين منكرون لوحدانية الله تعالى.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾؛ أي: مطر من إطلاق المسبب وإرادة السبب، وهو المطر؛ لأن الرزق لا ينزل من السماء، ولكن ينزل المطر الذي ينشأ عنه النبات والرزق.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ لأنه استعار الإحياء للإنبات، فاشتق منه أحيا، بمعنى: أنبت على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ لأنه استعار الموت لليبس.

ومنها: الإتيان باسم إشارة البعيد في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى بعد مرتبتها.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التعجبي في قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ﴾.

ومنها: تنكير آيات في قوله: ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي قوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وفي قوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: تنكيرها في المواضع الثلاثة،

للدلالة على فخامة شأنها، وعلو قدرها.

ومنها: تقديم الاسم الجليل في قوله: ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ دلالة على تعظيمه، وعلو شأنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ حيث استعار البشارة التي هي الإخبار، بما يظهر سروراً في المخبر به، للإنذار الذي هو ضده بإدخال الإندار في جنس البشارة على سبيل التهكم، والاستهزاء.

ومنها: تنكير شيئاً في قوله: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ إفادة للتقليل.

ومنها: التضاد في قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ وهو استعمال لفظ يحتمل المعنى وضده، وهو مشترك بين المعنيين، فيستعمل في الشيء وضده، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: توسيط حرف النفي بين المعطوفين في قوله: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر، وأجلى من عدم إغناء الأموال، والأولاد مجاراة على زعمهم الفاسد، حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم، وفيه ضرب من التهكم.

ومنها: الإطناب بتكرار اللفظ في قوله: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لإظهار الامتنان.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومنها: المبالغة بذكر المصدر في قوله: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ كأن القرآن الكريم لوضوح حجته عين الهدى.

ومنها: الطباق ي قوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ كالإضافة في بيت

الله، وناقة الله.

ومنها: تنكير قوماً في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لغرض مدحهم، والثناء عليهم، إن أريد بهم المؤمنون، أو للتحقير والإهانة إن أريد بهم الكافرون.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾؛ لأنها حقيقة فيما يرده الناس من المياه والأنهار، ثم استعير للدين.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ تسجيلاً عليهم باسم الظلم؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: وإنهم بعضهم أولياء بعض.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله[1] سبحانه وتعالى، لما ذكر الفرق بين الكافرين والمؤمنين في الولاية، فأبان أن الأولين بعضهم أولياء بعض، وأن الآخرين وليهم الله.. أردف ذلك بذكر الفارق بينهم في المحيا

(١) المراغي.

والممات، فالمحسنون مرحومون في الحالين، ومجترحوا السيئات مرحومون في الدنيا فحسب، ثم ذكر الدليل على هذا، بأن الله ما خلق الخلق إلا بالحق، المقتضي للعدل أو الانتصاف للمظلوم من الظالم، والتفاوت بين المحسن والمسيء في الجزاء، وإذا لم يكن هذا في المحيا كان في دار الجزاء حتماً، لتجزي كل نفس بما كسبت فلا تظلم بنقص ثواب، أو بمضاعفة عقاب، ثم عجب سبحانه ممن ركب رأسه واتبع هواه وترك الهدى، وأضله الله وهو العليم باستعداده وخبث طويته، وأنه ممن يميل إلى تدسية نفسه، واجتراح الآثام والمعاصي، فهو ممن ختم الله على سمعه وقلبه، فلا يتأثر بعظة، ولا يفكر في آية، وجعل على بصره غشاوة مانعة من الاستبصار والاعتبار، فمن بعد الله يهديه أفلا تتذكرون، وتتفكرون في هذا.

قوله تعالى: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن المشركين قد اتخذوا إلٰههم هواهم، وأن الله سبحانه، قد أضلهم على علم بحالهم، وأنه ختم على سمعهم وقلبهم، وجعل على بصرهم غشاوة.. ذكر هنا جنايةً أخرى من جناياتهم، وحماقةً من حماقاتهم تلك، أنهم أنكروا البعث، وقالوا: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر، وما ذلك منهم إلا ظنون وأوهام، لا مستند لها من نقل ولا عقل، ولم يجدوا حجةً يقولونها إلا أن قالوا: إن كان ما تقوله حقاً، فأرجعوا آباءنا الموتى إلى الحياة، فأمر الله رسوله أن يجيبهم، بأنه هو الذي يحييهم ثم يميتهم، ثم يجمعهم في يوم لا شك فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[1]، لما أثبت فيما سلف، أنه قادر على الإحياء مرة ثانية، كما قدر على ذلك في المرة

---

(١) المراغي.

الأولى.. ذكر هنا دليلاً آخر على ذلك، وهو أنه تعالى مالك الكون كله، فهو قادر على التصرف فيه بالإحياء في الإعادة، كما أحياه في البدء، ثم ذكر من أهوال هذا اليوم، أن كل أمة تجثو على ركبها، وتجلس جلسةَ المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء، وكل أمة تدعى إلى صحيفة أعمالها التي كَتَبَتْهَا الحفظة، لتحاسب عليها، ويقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولا شاهد عليكم أصدق من كتابكم، فهو صورة أعمالكم قد كتبتها الملائكة في دنياكم.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ...﴾ الآيات إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر[1] أهوال العرض والحساب، وأن أعمال كل أمة تعرض عليها، ويقال لهم: هذا ما كتبته الحفظة في الدنيا، فهو شهادة صدق لا شك فيها.. أردف هذا، ببيان أنه بعد انتهاء هذا الموقف، يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات النعيم، ويوبخ الكافرون على ما فرط منهم في الدنيا، ويقال لهم: لا عذر لكم في الإعراض عن آياتي، حين كانت تتلى عليكم إلا الاستكبار، والعناد، وقد كنتم في الحياة الأولى إذا قيل لكم: إن يوم القيامة آت لا شك فيه، قلتم: لا يقين عندنا به وهو موضع حدس وتخمين، فها هو ذا قد حل بكم، جزاء ما اجترحتموه من السيئات، وما كنتم تستهزؤون في دنياكم، إذ قد خدعتكم بزخارفها، فظننتم أن لا حياة بعد هذه الحياة، ولا مأوى لكم إلا جهنم فادخلوها، ولا مخرج لكم منها، ولا عتبى حينئذ، فلا تنفع توبة مما فرط منكم من الذنوب.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما قاله الكلبي[2]: أنها نزلت في علي، وحمزة، وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، وفي ثلاثة من المشركين: عتبة وشيبة والوليد بن عتبة، قالوا

---

(١) المراغي.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/٢٦٦.

للمؤمنين: والله ما أنتم على شيء، ولو كان ما تقولون حقاً.. لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما أنا أفضل حالاً منكم في الدنيا، فأنكر الله عليهم هذا الكلام، وبين أنه لا يمكن أن يكون حال المؤمن المطيع، مساوياً لحال الكافر العاصي في درجات الثواب، ومنازل السعادات.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن المنذر، وابن جرير عن سعيد بن جبير قال: كانت قريش تعبد الحجر حينا من الدهر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الآخر، فأنزل الله سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ...﴾ الآية. وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن قيس السهمي، أحد المستهزئين؛ لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه.

نزول بقية الآية: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ قال مقاتل[1]: نزلت في أبي جهل، ذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة، ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبي ﷺ، فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه صادق، فقال: مه وما دلك على ذلك، قال: يا أبا عبد شمس، كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تم عقله، وكمل رشده، نسميه الكذاب الخائن، والله إني لأعلم أنه صادق، قال: فما يمنعك أن تصدقه، وتؤمن به، قال: تتحدث عني بنات قريش، أني اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللات والعزى إن اتبعته أبداً فنزلت: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ...﴾ إلخ، كلام[2] مستأنف مسوق لبيان تباين حالي المسيئين، والمحسنين إثر بيان تباين حالي الظالمين، والمتقين. و﴿أَمْ﴾ منقطعة، وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثاني، والهمزة لإنكار الحسبان، لكن لا بطريق إنكار الوقوع نفيه، كما في قوله تعالى:

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ١٧٠. (٢) أبو السعود.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ بل بطريق إنكار الواقع واستقباحه، والتوبيخ عليه، والاجتراح الاكتساب، و﴿حَسِبَ﴾ فعل ماض من أخوات ظن و﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعله، وجملة ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ سادة مسد المفعولين لـ﴿حَسِبَ﴾، وقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ جار ومجرور في موضع المفعول الثاني لـ﴿لجعل﴾، وقوله: ﴿سَوَآءً﴾: بالنصب حال من الضمير في الظرف، والموصول معاً لاشتماله على ضمير الفريقين، على أن السواء بمعنى المستوي، و﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مرتفعان بالسواء على الفاعلية.

والمعنى[1]: بل أظن الذين اكتسبوا الشرك والمعاصي، مع مالهم من مساوي الأحوال، أن نصيرهم في الحكم، مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، مع ما لهم من محاسن الأعمال، ونعاملهم معاملتهم في الكرامة، ورفع الدرجة، حالة كون كلا الفريقين مستوياً، محياهم ومماتهم؛ أي: محيا الفريقين جميعاً ومماتهم، كلا لا يستوون في شيء منهما، فإن هؤلاء في عز الإيمان والطاعة، وشرفهما في المحيا، وفي رحمة الله ورضوانه في الممات، وأولئك في ذل الكفر والمعاصي وهوانهما في المحيا، وفي لعنة الله، والعذاب الخالد في الممات، وشتان بينهما، وقيل: المراد إنكار أن يستووا في الممات، كما استووا في الحياة؛ لأن المسيئين والمحسنين مستو محياهم في الرزق والصحة، وإنما يفترقون في الممات ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ساء وقبح حكمهم هذا، على أن ﴿مَا﴾: مصدرية، والفعل للإخبار عن قبح حكمهم، أو بئس شيئاً حكموه، ذلك على أن ﴿سَآءَ﴾ بمعنى بئس، و﴿مَا﴾: نكرة موصوفة بمعنى شيء، والفعل لإنشاء الذم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سواءٌ﴾ بالرفع، و﴿مماتهم﴾ بالرفع أيضاً، وأعربوا ﴿سواءٌ﴾ مبتدأ، وخبره ما بعده، ولا مسوغ لجواز الابتداء، بل هو خبر مقدم وما بعده المبتدأ، والجملة خبر مستأنف، والمعنى: إنكار حسبانهم أن محياهم

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

ومماتهم سواء، وقرأ زيد بن علي وحمزة والكسائي وحفص: ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب، وما بعده مرفوع على الفاعلية، أجرى ﴿سَوَآءً﴾ مجرى مستوياً كما قالوا: مررت برجل سواء هو والعدم، وجوز في انتصاب ﴿سَوَآءً﴾ وجهان:

أحدهما: أن يكون منصوباً على الحال، و﴿كَٱلَّذِينَ﴾ المفعول الثاني: والعكس، وقرأ الأعمش: ﴿سواء﴾: بالنصب ﴿محياهم ومماتهم﴾ بالنصب أيضاً، وخرج على، أن محياهم ومماتهم ظرفي زمان، والعامل إما ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ وإما ﴿سَوَآءً﴾.

والثاني: أن يجعل بدلاً من مفعول ﴿نَّجْعَلَهُمْ﴾، والمفعول الثاني: ﴿سَوَآءً﴾؛ أي: نجعل محياهم ومماتهم سواءً.

ومجمل معنى الآية[1]: أي أيظن هؤلاء الذين اكتسبوا الإثم والمعاصي في الدنيا، فكفروا بالله وكذبوا الرسل، وخالفوا أمره، وعبدوا غيره، أن نجعلهم كالذين آمنوا به، وصدقوا رسله، فنساوي بينهم في دار الدنيا، وفي الآخرة، كلا، لا يستوون في شيء منهما، فإن أهل السعادة في عز الإيمان والطاعة، وشرفهما في المحيا، وفي رحمة الله، ورضوانه في الممات، وأهل الشقاء في ذل الكفر، والمعاصي، وهوانهما في المحيا، وفي لعنة الله، والعذاب الخالد في الممات، فشتان ما بينهما وما أبعد ما بين الثريا والثرى.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾، وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ساء ما ظنوا، وبعد أن نساوي بين الأبرار، والفجار في دار الآخرة، وفي هذه الدار، وفي الآية إرشاد إلى تباين حالي المؤمن العاصي، والمؤمن المطيع، وقد أثر عن كثير من الناسكين، المخبتين لربهم، أنهم كانوا يبكون عند تلاوة هذه الآية، حتى سموها مبكاة العابدين.

أخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» والطبراني، وجماعة عن أبي

---

(١) المراغي.

الضحى قال: قرأ تميم الداري سورة الجاثية، فلما أتى على قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الآية، لم يزل يكررها ويبكي، حتى أصبح وهو عند المقام، وأخرج ابن أبي شيبة عن بشير مولى الربيع بن خشيم، أن الربيع كان يصلي، فمر بهذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ﴾ فلم يزل يرددها حتى أصبح، وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه إذا قرأها: ليت شعري من أي الفريقين أنت.

فلا يطمعن[1] البطال في ثواب العمال ولا الجبان في مقام الأبطال ولا الجاهل في مقام العالم ولا النائم في ثواب القائم، فعلى اجتهاد المرء يزيد أجره، وبقدر تقصيره ينحط قدره، وفي بعض الكتب السالفة: إن لله منادياً ينادي كل يوم: أبناء الخمسين زرع دنا حصاده، أبناء الستين هلموا إلى الحساب أبناء السبعين ماذا قدمتم وماذا أخرتم؟ أبناء الثمانين لا عذر لكم، ليت الخلق لم يخلقوا، وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا وتجالسوا بينهم، فتذكروا ما عملوا، ألا أتتكم الساعة فخذوا حذركم.

وفي الخبر: «إذا أراد الله سبحانه بعبد خيراً، بعث إليه ملكاً من عامه الذي يموت فيه، فيسدده، وييسره، فإذا كان عند موته أتاه ملك الموت، فقعد عند رأسه فقال: يا أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فذلك حين يحب لقاء الله، ويحب الله لقاءه، وإذا أراد بعبد شراً بعث إليه شيطاناً من عامه الذي يموت فيه، فأغواه، فإذا كان عند موته، أتاه ملك الموت، فقعد عند رأسه، فيقول: يا أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتفرق في جسده، فذلك حين يبغض لقاء الله، ويبغض الله لقاءه»، ويقال: إذا أراد الله أن ينقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة، آنسه بالوحدة، وأغناه بالقناعة، وبصره بعيوب نفسه، فمن أعطي ذلك، فقد أعطي خير الدنيا والآخرة.

وعن أبي بكر الوراق رحمه الله تعالى: طلبنا أربعةً فوجدناها في أربعة، وجدنا رضى الله في طاعة الله تعالى، وسعة العيش في صلاة الضحى، وسلامة

---

(١) روح البيان.

الدين في حفظ اللسان، ونور القلب في صلاة الليل، فعليك بالتدارك قبل فوت الوقت، فإن الوقت سيف قاطع.

ثم أقام الدليل على عدم التساوي، وأبان حكمة ذلك، فقال: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: لأجل إظهار الحق والعدل بين العباد، فالباء تعليلية بمعنى اللام، وقوله: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ معطوف على ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ عطف علة على علة؛ لأن الباء تعليلية؛ أي: ولتجزى كل نفس مكلفة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: النفوس المدلول عليها بكل نفس؛ أي: والحال أن الخلائق ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب المحسن، أو بزيادة عقاب المسيء.

والمعنى[1]: أن المقصود من خلق هذا العالم إظهار العدل والرحمة، وذلك لا يتم إلا إذا حصل البعث والقيامة، وحصل التفاوت في الدرجات والدركات بين المحقين والمبطلين، ويجوز أن يكون معطوفاً على علة محذوفة، تقديرها: وخلق الله السموات والأرض بالحق، ليدل بهما على قدرته، ولتجزى كل نفس، إلخ. وجوز ابن عطية أن تكون هذه اللام لام الصيرورة؛ أي: فصار الأمر منها من حيث اهتدى بها قوم، وضل عنها آخرون؛ لأن يجازى كل واحد بعمله، وبما اكتسب من خير أو شر، انتهى. ولا وقف على قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ وعند أبي حاتم، فالوقف عليه تام بجعل لام ﴿لتجزى﴾ لام قسم؛ أي: لم يخلق الله السموات والأرض للجور والظلام، بل خلقهما للحق والعدل، ومن العدل أن يخالف بين المحسن والمسيء، في العاجل والآجل، وليثيب كل عامل بما هو له أهل، فلا يبخس المحسن ثواب إحسانه، أو يحمل عليه جرم غيره فيعاقبه به، أو يجعل للمسيء ثواب إحسان غيره.

والخلاصة: كل عامل يجزى بما كسبت يداه، ولا يظلم بنقص ثواب، ولا بتضعيف عقاب.

ثم بين أحوال الكافرين، وذكر جناياتهم على أنفسهم، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ

---

(١) المراح.

﴿أَتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ وهو تعجيب لحال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى، فكأنه عبده، والهمزة: للاستفهام التعجيبي داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أنظرت يا محمد إلى حال أسير الهوى، فرأيت من اتخذ ما تهواه نفسه الخبيثة إلهاً ومعبوداً، وترك متابعة الهدى، واختار متابعة الهوى، ففي الكلام استعارة تمثيلية، أو تشبيه بليغ حذف منه أداة التشبيه؛ أي: جعل هواه كإلهه في طاعته؛ أي: انظر يا محمد، واعجب من حال من ركب رأسه وترك الهدى وأطاع الهوى، فكأنه جعله إلٰهاً يعبده من دون الله، فهو لا يهوى شيئاً إلا فعله، لا يخاف رباً ولا يخشى عقاباً، ولا يفكر في عاقبة ما يعمل، قال سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به، وعبد الآخر، وعن أبي رجاء العطاردي: أنه أدرك الجاهلية، وهو ثقة مات سنة خمس ومئة، وعمره مئة وعشرون سنة، قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً أحسن منه.. ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حَثْوَةَ من تراب، فحلبنا عليها، ثم طفنا بها.

وفي هذا: إيماء[1] إلى ذم اتباع هوى النفس، ومن ثم قال وهب بن منبه: إذا شككت في خير أمرين، فانظر أبعدهما من هواك فأته، وقال سهل التستري: هواك داؤك، فإن خالفته فدواؤك وقال الإشبيلي الزاهد:

فَخَالِفْ هَوَاهَا وَٱعْصِهَا إِنَّ مَنْ يُطِعْ ... هَوَىٰ نَفْسِهِ يُنْزَعْ بِهِ شَرَّ مَنْزَعِ
وَمَنْ يُطِعِ ٱلنَّفْسَ ٱللَّجُوْجَةَ تُرْدِهِ ... وَتَرْمِ بِهِ فِيْ مَصْرَعٍ أَيَّ مَصْرَعِ

وقال البوصيري:

وَخَالِفِ ٱلنَّفْسَ وَٱلشَّيْطَانَ وَٱعْصِهِمَا ... وَإِنْ هُمَا مَحَضَاكَ ٱلنُّصْحَ فَٱتَّهِمِ

وقال بعضهم:

نُوْنُ ٱلْهَوَانِ مِنَ ٱلْهَوَىٰ مَسْرُوْقَةٌ ... فَأَسِيْرُ كُلِّ هَوَىً أَسِيْرُ هَوَانِ

وقال الآخر:

---

(١) المراغي.

فَاعْصِ هَوَى النَّفْسِ وَلاَ تُرْضِهَا إِنَّكَ إِنْ أَسْخَطْتَهَا زَانَكَا
حَتَّىٰ مَتَىٰ تَطْلُبُ مَرْضَاتَهَا وَإِنَّمَا تَطْلُبُ عُدْوَانَكَا

وقال ابن عباس: ما ذكر الله سبحانه هوى في القرآن إلا ذمه، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾، وقال: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وروى عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ فيما ذكره النووي في كتاب «الحجة» للمقدسي: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». وقال أبو أمامة سمعت النبي ﷺ يقول: «ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى».

وروى شداد بن أوس عن النبي ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله». أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، والحاكم. وعنه ﷺ أنه قال: «إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرةً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة». أخرجه الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني. وعنه أنه قال: «ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات، فالمهلكات: شح مطاع، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه، والمنجيات: خشية الله في السر والعلن، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب». أخرجه الطبراني في «الأوسط» عن ابن عمر وهو ضعيف، وحسبك ذماً لاتباع الهوى، قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

وقيل: معنى ﴿أرأيت﴾ أخبرني عن حال من اتخذ هواه إلٰهاً، فيتعدى[1] إلى مفعولين، الأول: هو من اتخذ، والثاني: محذوف تقديره: مهتدياً يدل عليه قوله: فمن يهديه من بعد الله؛ أي: لا أحد يهديه من بعد إضلال الله إياه، وفيه حينئذ تجوزان[2]، إطلاق الرؤية، وإرادة الإخبار على طريق إطلاق اسم السبب وإرادة المسبب، لأن الرؤية سبب للإخبار، وجعل الاستفهام بمعنى الأمر بجامع

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

مطلق الطلب.

وقرىء[1]: ﴿آلهته هواه﴾ لأنه كلما مال طبعه إلى شيء اتبعه، فكأنه اتخذ هواه آلهةً شتى، يعبد كل وقت واحداً منها. وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ سبحانه معطوف على صلة ﴿مَنِ﴾، وقوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ إما حال من الفاعل؛ أي: حال كون الله عالماً في سابق علمه، بأن جوهر روحه لا يقبل الصلاح، أو من المفعول؛ أي: حال كون ذلك الضال، عالماً بأن الحق هو الدين، ويعرض عنه عناداً، كقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: خذله فلم يجعله يسلك سبيل الرشاد؛ لأنه قد علم أنه لا يهتدي ولو جاءته كل آية، لما في جوهر نفسه من الميل إلى ارتكاب الإجرام واتباع الشهوات، فهو يوغل في القبائح دون زاجر، ولا وازع.

﴿و﴾ قد ﴿ختم﴾ وطبع ﴿عَلَىٰ سَمْعِهِ﴾ فلا يتأثر بالآيات تتلى عليه ليعتبر بها، ولا يتدبرها ليعقل ما فيها من النور والهدى ﴿و﴾ ختم على ﴿قلبه﴾ فلا يعي حقاً، ولا يسترشد إلى صواب ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ عظيمة، وغطاء مانعاً، يمنعه أن يبصر حجج الله، وآياته في الآفاق والأنفس فيستدل بها على وحدانيته تعالى، ويعلم بها أن لا إلٰه غيره.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾. وقرأ الجمهور[2]: ﴿غِشَاوَةً﴾ بكسر الغين المعجمة، وقرأ عبد الله، والأعمش: بفتحها، وهي لغة ربيعة، وقرأ الحسن، وعكرمة، وعبد الله أيضاً: بضمها، وهي لغة عكل، وقرأ الأعمش أيضاً وطلحة وأبو حنيفة ومسعود بن صالح وحمزة والكسائي: ﴿غشوة﴾ بفتح الغين وسكون الشين، وقرأ ابن مصرف والأعمش أيضاً كذلك إلا أنهما كسرا الغين.

ثم ذكر أن مثل هذا لا طمع في هدايته، فقال: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ﴾ ويرشده ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ إضلال ﴿اللَّهِ﴾ سبحانه إياه؛ أي: فمن يوفقه لإصابة الحق، وإبصار محجة

---

(١) المراح. (٢) البحر المحيط.

الرشد بعد إضلال الله إياه، والاستفهام إنكاري؛ أي: لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك، والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تلاحظون[1] أيها الناس فلا تتذكرون، ولا تتفكرون، فتعلموا أن الهداية لا يملكها أحد سواه، أو فلا تتعظون؛ أي: أفلا تتذكرون أيها القوم فتعلموا، أن من فعل الله به ما وصفنا، لن يهتدي أبداً، ولم يجد لنفسه ولياً ولا مرشداً، وقرأ الجمهور: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتشديد الذال، والجحدري يخففها، والأعمش بتاءين.

ومجمل معنى الآية[2]: أي أخبرني عن حال ذلك الكافر الذي أطاع هواه وترك الهدى، واتخذ دينه ما يهواه، فكأنه جعل الهوى إلٰهه، يعبده من دون الله، فلا يهوى شيئاً إلا اتبعه دون مراعاة لما يحبه الله ويرضاه، فهذا مما يدعو إلى العجب، وكان الحارث بن قيس لا يهوى شيئاً إلا فعله، والعبرة بعموم لفظ الآية، لا بخصوص السبب الذي نزلت الآية من أجله.

وقد أضله الله، وخذله مع علمه بالحق، ومعرفته الهدى من الضلال، وقيام الحجة عليه، وطبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ، وعلى قلبه حتى لا يفقه الهدى، وجعل غطاء على بصره وبصيرته حتى لا يبصر الرشد، ويدرك آيات الله في الكون، التي تدل على وحدانية الله تعالى، فمن يوفقه للصواب والحق، من بعد إضلال الله له بسبب انحرافه واتباعه هواه، أفلا تتذكرون تذكر اعتبار، وتتعظون حتى تعلموا حقيقة الحال.

ثم بين سبحانه بعض جهالاتهم، فقال: ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: قال منكروا البعث من غاية غيهم وضلالهم، وهم كفار قريش، ومشركوا العرب، وفي «كشف الأسرار»: هذا من قول الزنادقة، الذين قالوا: الناس كالحشيش أي: ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ أي: يصيبنا الموت، والحياة فيها، وليس وراء ذلك حياة، وتأخير ﴿نحيا﴾ لأن فيها شبه مراعاة الفاصلة،

---

(١) روح البيان. (٢) التفسير المنير.

ولأن ﴿الواو﴾ لمطلق الجمع، وقيل: نموت نحن ويحيا فيها أولادنا، وقيل: نكون نطفاً ميتةً، ثم نصير أحياء، وقيل: في الآية تقديم وتأخير؛ أي: نحيا ونموت، وكذا قرأ ابن مسعود. وعلى كل تقدير، فمرادهم بهذه المقالة: إنكار البعث، وتكذيب الآخرة، وقد جوز[1] أن يريدوا به التناسخ، فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان، قال الراغب: القائلون بالتناسخ قوم ينكرون البعث، على ما أثبتته الشريعة، ويزعمون أن الأرواح تنتقل من الأجساد على التأبيد؛ أي: إلى أجساد أخر. وفي «التعريفات»: التناسخ عبارة عن تعلق الروح بالبدن، بعد المفارقة من بدن آخر، من غير تخلل زمان بين التعلقين، للتعشق الذاتي بين الروح والجسد.

وقرأ زيد بن علي ﴿ونحيا﴾ بضم النون ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ﴾ ويعدمنا، ويفنينا ﴿إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾؛ أي: إلا مرور الزمان، وهو مدة بقاء العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، ثم يعبر به عن كل مدة كبيرة، وهو خلاف الزمان، فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة، وقيل: إلا مرور الأيام والليالي، قال مجاهد، يعني السنين والأيام. وقال قتادة: إلا العمر والمعنى واحد. وقال قطرب: وما يهلكنا إلا الموت. وقال عكرمة: وما يهلكنا إلا الله، وقرأ عبد الله: ﴿إلا دهر﴾، وتأويل إلا دهر يمر، كانوا يضيفون كل حادثة إلى الدهر، وأشعارهم ناطقة بشكوى الدهر، حتى يوجد ذلك في أشعار المسلمين، قال ابن دريد في مقصورته:

يَا دَهْرُ إِنْ لَمْ تَكُ عُتْبَىٰ فَٱتَّئِدْ ... فَإِنَّ إِرْوَادَكَ وَٱلْعُتْبَىٰ سَوَاء

ومجمل المعنى[2]: أي وقال المشركون الذين سبق ذكر بعض أوصافهم: لا حياة بعد هذه الحياة، التي نحن نعيش فيها، فنموت وتحيا أبناؤنا من بعدها، وهذا تكذيب صريح منهم للبعث والمعاد.

وقصارى ذلك: ما ثم إلا هذه الدار يموت قوم، ويعيش آخرون، وليس هناك بعث ولا قيامة ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾؛ أي: وما يفنينا إلا مر الليالي

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

والأيام، فمرورها هو المؤثر في هلاك الأنفس، ويضيفون كل حادث إلى الدهر، وأشعارهم ناطقة بذلك، قال:

أَشَابَ ٱلصَّغِيْرَ وَأَفْنَىٰ ٱلْكَبِيْرَ كَرُّ ٱلْغَدَاةِ وَمَرُّ ٱلْعَشِيِّ

وقد كانت العرب في جاهليتهم، إذا أصابتهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر، وقد جاء النهي عن سب الدهر، فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: استقرضت عبدي فلم يعطني، وسبني عبدي، يقول وادهراه وأنا الدهر». قال الشافعي[1] وأبو عبيدة، وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»: كان العرب في الجاهلية إذا أصيبوا بشدة أو بلاء، قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر، ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله، فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلذا نهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال.

ثم نعى عليهم مقالهم هذا، الذي لا دليل عليه، فقال: ﴿وَمَا لَهُم﴾؛ أي: وما لهؤلاء المشركين، الذين ينفون البعث والحياة بعد الموت ﴿بِذَٰلِكَ﴾؛ أي: بما ذكر من اقتصار الحياة على ما في الدنيا، وإسناد الحياة والموت إلى الدهر ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ ويقين، أسند إلى عقل، أو نقل، و﴿مِن﴾: مزيدة لتأكيد النفي؛ أي: وما لهم علم ويقين بذلك ﴿إِنْ هُمْ﴾؛ أي: ما هم ﴿إِلَّا﴾ قوم ﴿يَظُنُّونَ﴾ بذلك؛ أي: ما هم إلا قوم قصارى أمرهم: الظن والتقليد من غير أن يكون لهم شيء يصح أن يتمسك به في الجملة، هذا معتقدهم الفاسد في أنفسهم، وأما المؤمنون فقد

---

(١) ابن كثير.

أخذوا بالنصوص، وسلكوا طريق اليقين، وتجاوزوا عن برازخ الظن والتخمين، وأثبتوا البعث والحشر والصراط والجنة والنار.

والمعنى: أي وما لهم بقصر الحياة على حياة الدنيا، ونسبة الإهلاك إلى الدهر علم يستند إلى عقل، أو نقل، وقصارى أمرهم: الظن والتخمين، من غير أن يكون لهم ما يتمسكون به من حجة نافذة.

وفي الآية إشارة، إلى أن القول بغير بينة ولا حجة، لا ينبغي أن يعول عليه، وأن اتباع الظن منكر عند الله تعالى.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على منكري البعث ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ الناطقة بالحق، الذي من جملته البعث، حالة كونها ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: واضحات الدلالة على ما نطقت، أو مبينات له، نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ وغير ذلك: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ جواب ﴿إذا﴾، وبه استدل أبو حيان، على أن العامل في ﴿إذا﴾ ليس جوابها؛ لأن ﴿مَّا﴾ النافية لها صدر الكلام، واعتذر عن دخول الفاء في الجواب، بأنها خالفت أدوات الشرط في ذلك، فإنها لا بد من دخول الفاء فيها، نحو: إن تزرنا فما جفوتنا؛ أي: فما تجفونا. و﴿حُجَّتَهُمْ﴾ بالنصب على أنه خبر ﴿كَانَ﴾؛ أي[1]: ما كان متمسكاتهم بشيء من الأشياء يعارضونها به ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾؛ أي: إلا قولهم عناداً واقتراحاً ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾؛ أي: أحيوهم، وابعثوهم من قبورهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنا نبعث بعد الموت، وقد سبق في سورة الدخان؛ أي: لا حجة لهم إلا هذا القول الباطل، الذي يستحيل أن يكون من قبيل الحجة؛ لأنها إنما تطلق على الدليل القطعي. وتسميته[2] حجة إما لسوقهم إياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم، أو لتنزيل التقابل منزلة التناسب للمبالغة، فأطلق اسم الحجة على ما ليس بحجة، من قبيل:

تَـحِـيَّـةُ بَـيْـنِـهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِـيْـعُ

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

أي: سماه حجة، لبيان أنهم لا حجة لهم البتة؛ لأن من كانت حجته هذا، لا يكون له حجة البتة، كما أن من ابتدأ بالضرب الوجيع في أول التلاقي، لا يكون بينهم تحية البتة، ولا يقصد بهذا الأسلوب إلا هذا المعنى، كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة والمراد: نفي أن يكون لهم حجة البتة، وقرأ الجمهور[1]: ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ بالنصب على أنه خبر ﴿كَانَ﴾ واسمها ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾، وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وزيد بن علي وعبيد بن عمير وابن عامر فيما روى عنه عبد الحميد، وعاصم فيما روى هارون، وحسين عن أبي بكر برفع ﴿حجتُهم﴾ على أنه اسم ﴿كَانَ﴾.

ثم أمر رسوله أن يرد عليهم فقال: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين للبعث ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ ابتداء ما شاء أن يحييكم في الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فيها عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ بعد البعث جميعاً أولكم وآخركم، صغيركم وكبيركم، منتهين ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ للجزاء ثم أكد ذلك ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شك في هذا البعث والجمع، فإن من قدر على البدء بقدر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء، لا محالة لتجزى كل نفس بما كسبت، والأديان جميعاً متضافرة على تحققه، وحصوله يوم القيامة، والوعد المصدق بالمعجزات دل على وقوعه حتماً، والإتيان بآبائهم حيث كان، مزاحماً للحكمة التشريعية امتنع إيقاعه.

وقصارى ما سلف[2]: أن البعث أمر ممكن، أخبر به الأنبياء الصادقون، والحكمة تقتضي حصوله، والعقل يؤيده فهو واقع لا محالة ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: الكفرة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ تحتم البعث والجزاء بمقتضى وعده؛ أي: ينكرون البعث، ويستبعدون عودة الأجساد بعد موتها، وحين تكون عظاماً نخرة، كما قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾؛ أي: يرون وقوعه بعيداً، والمؤمنون يرونه قريباً وما دعاهم إلى ذلك إلا جهلهم، وقصر نظرهم، وهذا[3] استدراك

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

على قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بأن فيه شائبة ريب ما، وفيه إشارة إلى أن الله يحييكم بالحياة الإنسانية، ثم يميتكم عن صفة الإنسانية الحيوانية، ثم يجمعكم بالحياة الربانية إلى يوم القيامة، وهي النشأة الأخرى لا ريب في هذا عند أهل النظر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون؛ لأنهم أهل النسيان والغفلة.

وَفِيْ ٱلْجَهْلِ قَبْلَ ٱلْمَوْتِ مَوْتٌ لأَهْلِهِ ... وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ ٱلْقُبُوْرِ قُبُوْرُ

وَإِنَّ ٱمْرَأً لَمْ يَحْيَ بِٱلْعِلْمِ مَيِّتٌ ... وَلَيْسَ لَهُ حِيْنَ ٱلنُّشُوْرِ نُشُوْرُ

﴿وَلِلَّهِ﴾ لا لغيره ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾؛ أي: الملك المطلق، والتصرف الكلي فيهما، وفيما بينهما مخصوص بالله تعالى، وهو تعميم للقدرة بعد تخصيصها؛ أي: إن الله[1] سبحانه مالك العالم العلوي والسفلي، جار حكمه فيهما دون ما تدعون من دونه من الأوثان والأصنام.

ثم توعد الكافرين أهل الباطل فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ والعامل في[2] ﴿يوم﴾ ﴿يَخۡسَرُ﴾ الآتي، و﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ بدل منه، قال العلامة التفتازاني: مثل هذا بالتأكيد أشبه، وأنى يتأتىٰ أن هذا مقصود بالنسبة دون الأول؟.

قلت: اليوم في البدل بمعنى الوقت، والمعنى وقتئذٍ إذ تقوم الساعة، ويحشر الموتى فيه، وهو جزء من ﴿يوم تقوم الساعة﴾ فإنه يوم متسع مبدؤه من النفخة الأولى، فهو بدل البعض، والعائد مقدر، ولما كان ظهور خسرهم وقت حشرهم، كان هو المقصود بالنسبة، كذا في «حواشي سعدي المفتي»، ومعنى ﴿يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾: يظهر خسرانهم ثمة، يقال: أبطل فلان إذا جاء بالباطل، وقال شيئاً لا حقيقة له، والمراد: الذي يبطلون الحق، ويكذبون بالبعث؛ أي: يخسر المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل.

والمعنى[3]: أي ويوم تقوم الساعة، ويحشر الناس من قبورهم للعرض، والحساب سيظهر خسران أولئك المنكرين الجاحدين، بما أنزل الله على رسله من

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

(٤) المراغي.

الآيات والدلائل، بدخولهم في جهنم وبئس المستقر، وقد جعلت الحياة والصحة والعقل كأنها رؤوس أموال، والتصرف فيها بطلب السعادة الأخروية يجري مجرى تصرف التاجر في ماله طلباً للربح، أما الكفار فقد أتعبوا أنفسهم، وتصرفوا فيها بفعل الآثام، والإشراك بالله، تصرف التاجر الذي أساء في تجارته فوكس فيها، ولم يجد في العاقبة إلا الخسران والخذلان والطرد من رحمة الله، وذلك ما لا يرضاه عاقل لنفسه، يزن الأمور بميزان الحكمة والسداد.

ثم بين حال الأمم في ذلك اليوم، وما تلاقيه من الشدائد، انتظارا لفصل القضاء، فقال: ﴿وَتَرَىٰ﴾ أيها المخاطب في ذلك اليوم، رؤية عين ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المجموعة، مؤمنيهم وكافريهم، حال كونها ﴿جَاثِيَةً﴾؛ أي: باركة جالسة على الركب من هول ذلك اليوم، غير مطمئنة؛ لأنها خائفة، فلا تطمئن في جلستها عند السؤال والحساب، يقال: جثا إذا جلس على ركبتيه، أو قام على أطراف أصابعه، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿جَاثِيَةً﴾؛ أي: مجتمعة، بمعنى: أن كل أمة لا تختلط بأمة أخرى، يقال: جثوت الإبل وجثيتها، جمعتها، والجثوة بالضم: الشيء المجتمع.

فإن قيل[1]: الجثو على الركب إنما يليق بالكافرين، فإن المؤمنين لا خوف عليهم يوم القيامة.

فالجواب: أن الآمن قد يشارك المبطل في مثل هذا، إلى أن يظهر كونه محقاً مستحقاً للأمن.

وقرىء[2]: ﴿جاذية﴾ بالذال المعجمة، والجذو أشد استيفازا من الجثو؛ لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه. ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ كرر ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾؛ لأنه موضع الإغلاظ والوعيد ﴿تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾؛ أي: إلى صحيفة أعمالها، فالإضافة مجازية للملابسة؛ لأن أعمالهم مثبتة فيه، وقيل: إلى كتابها الذي أنزل عليها لتعبد ربها بهديه، وكتابها الذي نسخته الحفظة من أعمالها، ليطبق أحدهما

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

على الآخر، فمن وافق كتابه ما أمر به من كتاب ربه نجا، ومن خالفه هلك، وكان من الأخسرين أعمالاً ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾. ونحو الآية قوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وفيه إشارة[1] إلى عجز العباد، وأن لا حول ولا قوة لهم فيما كتب الله لهم في الأزل، وأنهم لا يصيبهم في الدنيا والآخرة إلا ما كتب الله لهم على مقتضى أعيانهم الثابتة، فلا يجرون في الأفعال إلا على القضاء، وقرأ يعقوب ﴿كل أمة تدعى﴾ بنصب كل أمة على البدل، بدل النكرة الموصوفة من النكرة، وأفرد كتابها اكتفاءً باسم الجنس لقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

ثم ذكر أنهم ينذرون ويبشرون بما سيبنىٰ عليه حكم القضاء ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ معمول لقوله: ﴿تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ويقال لهم حال دعائهم إلى كتابهم: اليوم تجازون بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا خيرها وشرها، فمن كان عمله الإيمان والطاعة، جزاه الله بالجنة، ومن كان عمله الشرك والعصيان، جزاه بالنار كما قال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة جاء الإيمان والشرك، فيجثيان بين يدي الرب تعالى، فيقول الله للإيمان، انطلق أنت وأهلك إلى الجنة، ويقول للشرك انطلق أنت وأهلك إلى النار». وقوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ إلخ، من تمام ما يقال لهم حينئذ، ولما كان كتاب كل أمة مكتوباً بأمر الله، أضيف إلى نون العظمة تفخيماً لشأنه، وتهويلاً لأمره، وإلا فالظاهر: أن يضاف إلى الأمة بأن يقال: هذا كتابها كما فيما قبلها. وعبارة «فتح الرحمٰن» هنا: فإن قلت: كيف أضاف الكتاب إلى الأمة ثم أضافه إليه تعالى في قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾؟

قلت: الإضافة تحصل بأدنى ملابسة، فأضافه إلى الأمة لكون أعمالهم مثبتة فيه، وأضاف إليه تعالى لكونه مالكه، وآمر ملائكته بكتابته؛ أي: هذا الكتاب الذي تدعون إليه كتابنا؛ أي: كتاب حفظتنا الذي كتبته عليكم في الدنيا، ودونت

---

(١) روح البيان.

فيه أعمالكم.

﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾؛ أي: يشهد عليكم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والصدق من غير زيادة، ولا نقص، والجملة خبر آخر لهذا، و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال من فاعل ﴿يَنطِقُ﴾ فهو صورة تطابق ما فعلتموه حذو القذة بالقذة، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ إلخ، تعليل لنطقه عليهم بأعمالهم من غير إخلال بشيء منها؛ أي: إنا كنا نأمر الحفظة بنسخ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، وكتابته في صحائف أعمالكم، وإثباتها عليكم حسنة كانت أو سيئة، صغيرة كانت أو كبيرة، أول فأول، فهي وفق ما عملتم بالدقة والضبط؛ لأن السين للطلب، وفي هذا[1] إجابة عما يخطر بالبال من سؤال فيقال: ومن يحفظ أعمالنا على كثرتها مع طول المدة، وبعد العهد، فأجيبوا بهذا الجواب.

قال الواحدي[2]: وأكثر المفسرين، على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بني آدم، فيجدون ذلك موافقاً لما يعملونه قالوا: لأن الاستنساخ لا يكون إلا من أصل. وقيل: المعنى نأمر الملائكة بنسخ ما كنتم تعملون، وقيل: إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمله العبد، فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات والسيئات، وتركوا المباحات، وقيل: إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله سبحانه، أمر ـ عز وجل ـ أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب، وسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب.

ثم فصل حال الفريقين فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من الأمم، وصدقوا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: وعملوا الأعمال الصالحة، وهي الخالصة الموافقة للشرع ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي﴾ محل ﴿رَحْمَتِهِۦ﴾ وهو الجنة؛ أي: فأما الذين آمنت قلوبهم، وعملت جوارحهم صالح الأعمال التي أمر بها الدين، فيكافئهم ربهم على ما عملوا، ويدخلهم جنات النعيم، وقد جاء في الحديث الصحيح: «أن الله تعالى قال للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إدخالهم في رحمته تعالى ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: الظاهر كونه فوزاً لا فوز وراءه.

يقول الفقير: وأما الفوز[1] العظيم فهو دخول جنة القلب، ولقاؤه تعالى، ولكن لما كان هذا الفوز غير ظاهر بالنسبة إلى العامة، وكان الظاهر عندهم الفوز بالجنة، قيل هو الفوز المبين، وإن اشتمل الفوز المبين على الفوز العظيم؛ لأن الجنة محل أنواع الرحمة؛ أي: هذا المذكور هو الظفر بالبغية التي كانوا يطلبونها، والغاية التي كانوا يسعون في الدنيا لبلوغها، وهو فوز لا فوز بعده ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالله ورسوله وعملوا السيئات، فيقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى﴾ المنزلة ﴿تُتْلَىٰ﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بواسطة رسلي، والجملة الاستفهامية مقول للقول المحذوف كما قدرنا، والهمزة فيه للاستفهام التقريعي داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم تكن تأتيكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم، فحذف المعطوف عليه ثقة بدلالة القرينة عليه ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾؛ أي: تكبرتم عن الإيمان ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾؛ أي: قوماً عادتهم الإجرام والإشراك.

أي: وأما الذين جحدوا وحدانية الله تعالى، فيقال لهم تأنيباً وتوبيخاً: ألم تكن تأتيكم رسلي فتتلو عليكم آيات كتبي فتتكبرون عن الإيمان، ولا عجب، فديدنكم الإجرام وارتكاب الآثام، والكفر بالله، لا تصدقون بميعاد، ولا تؤمنون بثواب ولا عقاب، والمجرم من كسب الآثام بفعل المعاصي ﴿وَ﴾ كنتم ﴿إِذَا قِيلَ﴾ لكم؛ أي: إذا قال لكم المؤمنون: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: إن ما وعده من الأمور الآتية فهو بمعنى الموعود ﴿حَقٌّ﴾ واقع لا محالة ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: القيامة التي هي أشهر ما وعده ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ ولا شك في وقوعها لكونها مما أخبر به الصادق المصدوق، ولقيام الشواهد على وجودها ﴿قُلْتُم﴾ من غاية عتوكم يا منكري البعث من الكفار والزنادقة ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: أي شيء

(١) روح البيان.

هي، استغراباً لها؛ أي: أنكرتموها، وقلتم ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾؛ أي: ما نعلم ذلك إلا حدساً وتوهماً. وأصله[1]: نظن ظناً، فأدخل حرف النفي والاستثناء لإثبات الظن، ونفي ما عداه، كأنه قال: ما نحن إلا نظن ظناً، أو لنفي ظنهم فيما سوى ذلك مبالغةً، ثم أكده بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾؛ أي: أنها كائنة.

فإن قلت[2]: إن قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يدل على أنهم قاطعون بنفي البعث، وقولهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ يدل على أنهم شاكون في إمكانه ووقوعه، وبين الآيتين معارضة.

قلت: يجمع بينهما بأن المجرمين كانوا فرقتين في أمر البعث، فرقة جازمة بنفيه، وهم المذكورون في قوله: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وفرقة كانت تشك وتتحير فيه، وهم المذكورون في هذه الآية. اهـ. «زاده» بتصرف.

وقرأ الأعرج وعمرو بن فائد[3]: ﴿وإذا قيل أن وعد الله﴾ بفتح الهمزة، وذلك على لغة سليم، والجمهور قرؤوا بكسرها، وقرأ الجمهور ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ بالرفع على الابتداء، وقرأ حمزة بالنصب عطفاً على ﴿وعد الله﴾، وهي مروية عن الأعمش وأبي عمرو وعيسى وأبي حيوة، والعبسي والمفضل.

والمعنى[4]: أي وإذا قيل لهؤلاء الكفار من طريق الرسول ﷺ والمؤمنين: إن وعد الله بالبعث والحساب، وبجميع الأمور المستقبلة في الآخرة حق ثابت، وواقع لا محالة، والقيامة لا شك في وقوعها فآمنوا بذلك، واعملوا لما ينجيكم من العذاب قلتم: لا نعرف ما القيامة إن نتوهم وقوعها توهماً مرجوحا، أو ظنا لا يقين فيه ولا علم، وما نحن بمتحققين، ولا موقنين أن القيامة آتية؛ أي: كأنهم نفوا كل الظنون إلا الذي لا ثبوت علم فيه، وأكدوا هذا المعنى بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

ثم بعد هذا التوبيخ والنقاش، ذكر الله تعالى ما يفاجؤون به من العذاب

---

(١) بيضاوي.

(٢) زاده.

(٣) البحر المحيط.

(٤) التفسير المنير.

فقال: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾؛ أي: ظهر للكفار في الآخرة ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: أعمالهم السيئة، على ما هي عليه من الصورة المنكرة الهائلة، وعاينوا وخامة عاقبتها: والمراد[1] الشرك والمعاصي، التي كانت تميل إليها الطبائع والنفوس، وتشتهيها وتستحسنها، ثم تظهر يوم القيامة في الصور القبيحة، قالوا فالحرام على صورة الخنزير، والزكاة التي لم تؤد على صورة الشجاع الأقرع، والعلم بلا عمل على صورة الشجرة اليابسة، والرجوع عن الحق إلى الباطل في صورة تحول الوجه إلى القفا، إلى غير ذلك من الصور المتنوعة، بحسب الأعمال المختلفة، ولكن ليس لبعض هذه الصور أصول يستند إليه، فكل ما أثمر لهم في الآخرة، إنما هو من زرع زرعوه في مزرعة الدنيا بأعمالهم السيئة، ويجوز أن يراد ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ جزاؤها، فإن جزاء السيئة سيئة مثلها، فسميت باسم سببها، وهذا أولى ﴿وَحَاقَ﴾؛ أي: أحاط ﴿بِهِم﴾ ونزل عليهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ في الدنيا من الجزاء والعقاب ﴿وَقِيلَ﴾ من جانب الحق سبحانه ﴿الْيَوْمَ﴾ وهو يوم القيامة ﴿نَنسَاكُمْ﴾؛ أي: نترككم في العذاب ترك المنسي، ففي ضمير الخطاب استعارة بالكناية، بتشبيههم بالأمر المنسي في تركهم في العذاب، وعدم المبالاة بهم، وقرينتها النسيان ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾؛ أي: كما تركتم عدَّته ولم تبالوا بها، وهي الإيمان والعمل الصالح، وإضافة اللقاء إلى اليوم، من إضافة المصدر إلى ظرفه؛ أي: نسيتم لقاء الله، وجزاءه في يومكم هذا، فأجرى اليوم مجرى المفعول به، وجعل ملقياً. ففي هذه الإضافة توسع، لما فيه من إضافة الشيء إلى ما هو واقع فيه، وفيه إشارة إلى أنهم زرعوا في مزرعة الدنيا بذر النسيان، فأثمرهم في الآخرة ثمرة النسيان ﴿وَمَأْوَاكُمُ﴾؛ أي: مستقركم ومسكنكم الذي تأوون إليه ﴿النَّارُ﴾؛ أي: نار جهنم؛ لأنها مأوى من نسينا، كما أن الجنة تأوي من ذكرنا ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ينصرونكم، فيمنعون عنكم العذاب؛ أي: ما لأحد منكم ناصر واحد، يخلصكم منها.

---

(١) روح البيان.

ومجمل معنى الآيتين[1]: أي وظهرت لهم قبائح أعمالهم التي عملوها في الدنيا، حين قرؤوا كتب أعمالهم، التي دونتها الحفظة، كي لا يكون لهم حجة إذا نزل بهم العذاب، ثم جُوزوا بما كانوا يهزؤون به في الدنيا، ويقولون: ما هو إلا أوهام وأباطيل، وخرافات قد دونها المبطلون.

ثم ذكر ما يزيد في تعذيبهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، فقال: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ إلخ؛ أي: وقيل لهم تغليظاً في العقوبة وإمعاناً في التهكم، والسخرية: اليوم نترككم في العذاب، كما تركتم العمل للقاء يومكم هذا، وليس لكم مستنقذ ينقذكم منه، ولا مستنصر يستنصر لكم ممن يعذبكم.

والخلاصة: أنه تعالى جمع لهم ثلاثة ألوان من العذاب: قطع الرحمة عنهم، وجعل مأواهم النار، وعدم وجود الأنصار والأعوان، من قبل أنهم أتوا بثلاثة ضروب من الإجرام: الإصرار على إنكار الدين الحق، والاستهزاء به، والاستغراق في حب الدنيا، وهذا ما عناه سبحانه بقوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ﴾؛ أي: بسبب أنكم ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُزُوًا﴾؛ أي: مهزوءاً بها، ولم ترفعوا لها رأساً بالتفكر والقبول، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ حين قلتم: لا بعث ولا حساب، فحسبتم أن لا حياة بعدها ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾؛ أي: من النار، والالتفات[2] فيه من الخطاب إلى الغيبة، للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب، استهانة بهم، أو بنقلهم من مقام الخطاب إلى غيابة النار. وقرأ الجمهور: ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ مبنيا للمفعول، وقرأ الحسن وابن وثاب وحمزة والكسائي مبنياً للفاعل ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا هم يطلب منهم العتبى، والرجوع إلى طاعة الله سبحانه ليرضوه؛ أي: ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم؛ أي: يرضوه بالطاعة لفوات أوانه.

والمعنى[3]: أي هذا الذي حل بكم من عذاب الله، بسبب أنكم في الدنيا

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

اتخذتم حجج الله، وآيات كتابه، التي أنزلها على رسوله، سخرية تسخرون منها، وخدعتكم زينة هذه الحياة، فآثرتموها على العمل لما ينجيكم من عذابه، ظنا منكم أنه لا حياة بعد هذه الحياة، ولا بعث ولا حساب، فاليوم لا يخرجون من النار ولا هم يردون إلى الدنيا ليتوبوا، ويراجعوا الإنابة مما عوقبوا عليه.

والخلاصة: أنهم لا يخرجون، ولا يطلب منهم أن يزيلوا عتب ربهم عليهم؛ أي: لا يُطلب إرضاؤه لفوات أوانه.

وبعد أن ذكر ماحوته السورة من آلائه تعالى، وإحسانه، وما اشتملت عليه من الدلائل التي في الآفاق والأنفس، وما انطوت عليه من البراهين الساطعة على المبدأ، والمعاد، أثنى على نفسه بما هو له أهل، فقال: ﴿فَلِلَّهِ﴾ سبحانه خاصة. ﴿ٱلْحَمْدُ﴾؛ أي: جميع صنوف الحمد، وأنواعه، فلا يستحق لغيره؛ لأنه الفاعل المختار ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مالك السموات السبع، ومالك الأرضين السبع، وخالقهما، و﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: مالك جميع المخلوقات، علويها وسفليها من الأرواح، والأجسام، والذوات، والصفات، فلا يستحق الحمد أحد سواه تعالى، وتكرير[1] الرب للتأكيد، والإيذان بأن ربيته تعالى لكل منها، بطريق الأصالة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿رَبِّ﴾ في المواضع الثلاثة، بالجر على الصفة للاسم الشريف، وقرأ مجاهد وحميد وابن محيصن: بالرفع في الثلاثة، على تقدير مبتدأ؛ أي: هو رب السموات إلخ، ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾؛ أي: العظمة والقدرة والسلطان والجلال والعز والقهر ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي سائر المخلوقات، وخص السموات والأرض بالذكر لظهور آثارها، وأحكامها فيهما، وإظهارهما في مقام الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يغلب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في كل ما قضى وقدر فاحمدوه؛ أي: لأن له الحمد، وكبروه؛ أي: لأن له الكبرياء، وأطيعوه؛ أي:

---

(١) روح البيان.　　(٢) الشوكاني.

لأنه غالب على كل شيء، وفي كل صنعة حكمة جليلة.

وفي الحديث القدسي: «يقول الله عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري». أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه، عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنهما ـ، وقال بعضهم: وصف الحق سبحانه نفسه بالإزار والرداء دون القميص والسراويل؛ لأن الأولين غير مخيطين وإن كان منسوجين فهما إلى البساطة أقرب، والثانيين مخيطان ففيهما تركيب، ولهذا السر حرم المخيط على الرجل في الإحرام دون المرأة؛ لأن الرجل وإن كان خلق من مركب فهو إلى البساطة أقرب، وأما المرأة فقد خلقت من مركب محقق هو الرجل، فبعدت عن البسائط، والمخيط تركيب، فقيل للمرأة: ابقي على أصلك لا تلحقي الرجل، وقيل للرجل: ارتفع عن تركيبك، انتهى.

ومعنى الآية: أي فللَّه الحمد على أياديه على خلقه، فإياه فاحمدوا، وله فاعبدوا، فكل ما بكم من نعمة فهو مصدرها، دون ما تعبدون من وثن أو صنم، وهو مالك السموات السبع، ومالك الأرضين السبع، ومالك جميع ما فيهن، وله الجلال، والعظمة، والسلطان في العالم العلوي، والعالم السفلي، فكل شيء خاضع له، فقير إليه، دون ما سواه من الآلهة والأنداد، وهو العزيز الذي لا يمانع، ولا يغالب، الحكيم في أفعاله وأقواله، تقدس ربنا جلت قدرته، وتعظمت آلاؤه.

وقصارى ذلك: له الحمد فاحمدوه، وله الكبرياء فعظموه، وهو العزيز الحكيم فأطيعوه.

الإعراب

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١)﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة، بمعنى: بل الإضرابية وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿حَسِبَ

﴿ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لبيان تغاير حالي المسيئين والمحسنين، ﴿ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿نَّجْعَلَهُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ومفعول أول. ﴿كَٱلَّذِينَ﴾: في موضع المفعول الثاني، وجملة ﴿جعل﴾ مع أن المصدرية في تأويل مصدر، ساد مسد مفعولي حسب، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، ﴿مَّحْيَاهُمْ﴾ فاعل بـ﴿سَوَآءً﴾، ﴿وَمَمَاتُهُمْ﴾ معطوف عليه، والمعنى: أم حسب الذين اجترحوا السيئات، أن نجعلهم مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، حال كونهم مستوين وإياهم في حياتهم ومماتهم؛ أي: مماثلين إياهم في الحالين، والاستفهام بمعنى: الإنكار والنفي، وبالرفع: ﴿سَوَآءٌ﴾ خبر مقدم، و﴿مَّحْيَاهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور؛ أي: أم حسب الكفار أن نجعلهم مثل المؤمنين، حال كونهم مستوين في حياتهم ومماتهم، ليسوا كذلك، بل هم مفترقون أي افتراق في الحالين، وتكون هذه الحال مبينة لما انبهم في المثلية، الدال عليها الكاف التي هي في موضع المفعول الثاني. ﴿سَآءَ﴾ فعل ماض لإنشاء الذم. ﴿مَا﴾ مصدرية، وجملة ﴿يَحْكُمُونَ﴾: مع ﴿مَا﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ﴿سَآءَ﴾ تقديره: ساء حكمهم هذا، أو ﴿مَا﴾ نكرة موصوفة في محل النصب على التمييز، وفاعل ﴿سَآءَ﴾ مستتر تقديره: هو، وجملة ﴿يَحْكُمُونَ﴾ صفة لـ﴿ما﴾، والتقدير: ساء هو شيئاً حكموه، والمخصوص بالذم حكمهم هذا.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَخَلَقَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿خلق الله السماوات﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على السموات، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: إما حال من الفاعل، أو من المفعول، أو صفة لمصدر محذوف، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً، مسوقاً لبيان دليل نفي الاستواء بين الفريقين. ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ما

بعدها على تعليل محذوف، تقديره: وخلق الله السموات والأرض بالحق، ليدل على قدرته، ولتجزى كل نفس، واللام: حرف جر وتعليل، ﴿تجزى﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ نائب فاعل. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تجزى﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، والتقدير: ولجزاء كل نفس بما كسبت، الجار والمجرور: معطوف على الجار والمجرور في قوله: ليدل، على كونه متعلقاً بـ﴿خلق﴾ وجملة ﴿كَسَبَتْ﴾ صلة لما المصدرية أو الموصولة، والعائد محذوف تقديره: بما كسبته. ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من نائب فاعل ﴿تجزى﴾؛ لأنه بمعنى؛ ليجزى كل الخلائق بما كسبوا وهم لا يظلمون.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾: الهمزة للاستفهام التعجيبي داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف والتقدير: أنظرت يا محمد إلى حال أسير الهوى، فرأيت من اتخذ إلهه هواه، كما مر في مبحث التفسير، والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿رأيت﴾: فعل وفاعل، و﴿مَنِ﴾ مفعول ﴿رأيت﴾ الأول، والثاني محذوف، تقديره: مهتدياً، ﴿اتَّخَذَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر صلة ﴿مَنِ﴾ الموصولة، ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾: مفعول أول لـ﴿اتَّخَذَ﴾، ﴿هَوَىٰهُ﴾: مفعوله الثاني، أو بالعكس، ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، معطوف على ﴿اتَّخَذَ﴾، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: حال من المفعول، وهو أولى من جعله حالاً من الفاعل، والمعنى: أضله الله وهو عالم بالحق؛ لأن المبالغة فيه أشد، والتشنيع به أكثر. ﴿وَخَتَمَ﴾ فعل، وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على أضل، ﴿عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿ختم﴾، ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾ معطوف على ﴿سَمْعِهِۦ﴾، ﴿وَجَعَلَ﴾ فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿ختم﴾، ﴿عَلَىٰ بَصَرِهِۦ﴾ في موضع المفعول الثاني لـ﴿جعل﴾، ﴿غِشَٰوَةً﴾ مفعول أول لـ﴿جعل﴾، ﴿فَمَن﴾ الفاء: عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿يَهْدِيهِ﴾ خبره، ﴿مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ﴾ جار

ومجرور متعلق بـ﴿يَهْدِيهِ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على مفعول. ﴿رأيت﴾، ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتصرون على الغي فلا تذكرون، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: فعل مضارع، حذفت إحدى تائيه مرفوع بثبات النون، والواو فاعل، والجملة معطوفة على الجملة المحذوفة.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، مسوقة لتفنيد مزاعمهم؛ إذ كانوا يزعمون أن هلاك الأنفس منوط بمرور الأيام والليالي. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿هِيَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداء استثناء مفرغ. ﴿حَيَاتُنَا﴾: خبر، ﴿الدُّنْيَا﴾ صفة للحياة، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿نَمُوتُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود عليهم، والجملة مستأنفة، مسوقة لإيراد المزيد من عقائدهم الفاسدة، وجملة: ﴿وَنَحْيَا﴾ معطوفة على ﴿نَمُوتُ﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يُهْلِكُنَا﴾: فعل ومفعول به. ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر. ﴿الدَّهْرُ﴾ فاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم، ﴿بِذَلِكَ﴾ متعلق بـ﴿عِلْمٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ زائدة. ﴿عِلْمٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿قالوا﴾، ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، وجملة ﴿يَظُنُّونَ﴾: خبر المبتدأ. والجملة مستأنفة، ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿تُتْلَى﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به. ﴿آيَاتُنَا﴾ نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ حال من ﴿آيَاتِنَا﴾، ﴿مَا﴾ نافية، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، وجملة ﴿أَن قَالُوا﴾ **قالوا** مع أن المصدرية في تأويل مصدر، مرفوع على كونه اسم كان مؤخر تقديره:

ما كان حجتهم إلا قولهم ائتوا بآبائنا، وجملة ﴿كَانَ﴾ جواب إذا، لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا معطوفة على جملة قالوا ﴿ٱئْتُوا۟﴾ فعل أمر، وفاعل، ﴿بِـَٔابَآئِنَآ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية مقول قالوا: ﴿إِن﴾ حرف شرط، ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجوابها معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم صادقين فائتوا بآبائنا، وجملة الشرط مقول ﴿قالوا﴾، ﴿قُلِ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُحْيِيكُمْ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾: معطوف على ﴿يُحْيِيكُمْ﴾، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾: معطوف على ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: متعلق بـ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ ﴿لَا﴾: نافية. ﴿رَيْبَ﴾ اسمها. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبرها، وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب حال من ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لكن﴾: حرف نصب، ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ اسمها وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبرها، والجملة الاستدراكية حال من ضمير ﴿فِيهِ﴾؛ أي: حال كونهم لا يعلمون مجيئه، ولا يعتقدون.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿للَّه﴾: خبر مقدم، ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿وَيَوْمَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿يَخْسَرُ﴾، وجملة ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾: مضاف إليه، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف أضيف إلى مثله، وهو بدل من الظرف قبله، بدل بعض من كل، كما مر في مبحث التفسير، ﴿يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة، ﴿وَتَرَىٰ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ترى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر معطوف على ﴿يَخْسَرُ﴾، ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾: مفعول به لـ﴿ترى﴾، وهي بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، ﴿جَاثِيَةً﴾ حال من ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾، ويحتمل أن تكون ﴿ترى﴾ علمية، و﴿جَاثِيَةً﴾: مفعولها الثاني، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾: مبتدأ، ﴿تُدْعَىٰٓ﴾ فعل مضارع مغير

الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾، والجملة خبر المبتدأ. ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾: متعلق بـ﴿تُدْعَىٰٓ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب، حال ثانية من ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تُجْزَوْنَ﴾، ﴿تُجْزَوْنَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، والواو نائب فاعل، وهو المفعول الأول. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ﴿تُجْزَوْنَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول للقول المحذوف؛ أي: ويقال لهم توبيخاً لهم: اليوم تجزون، إلخ. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول لذلك القول المحذوف، ﴿يَنطِقُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر، والجملة في محل النصب حال من ﴿كِتَٰبُنَا﴾، ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق بـ﴿يَنطِقُ﴾، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: نطقاً متلبساً بالحق، أو حال من فاعل ﴿يَنطِقُ﴾، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لذلك القول المحذوف، على كونها معللة لما قبلها، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿نَسْتَنسِخُ﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَأَمَّا﴾الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما يقال لهم يوم القيامة، وأردت بيان حال الفريقين.. فأقول لك. ﴿أما﴾: حرف شرط. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلته، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿فَيُدْخِلُهُمْ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿أما﴾، ﴿يدخلهم﴾: فعل مضارع ومفعول به، ﴿رَبُّهُمْ﴾: فاعل، ﴿فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿يدخلهم﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿أما﴾، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل،

﴿ٱلْفَوْزُ﴾: خبر، ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: صفة لـ﴿ٱلْفَوْزُ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿أما﴾: حرف شرط، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوٓا۟﴾: صلة الموصول، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: فيقال لهم: أفلم تكن آياتي إلخ، والجملة الإسمية جواب ﴿أما﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الأولى، ﴿أَفَلَمْ﴾: الهمزة للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم تأتكم رسلي، فلم تكن آياتي تتلى عليكم، والجملة المحذوفة في محل النصب، مقول لذلك القول المحذوف. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تَكُنْ ءَايَٰتِى﴾: فعل ناقص واسمه، مجزوم بـ﴿لم﴾، ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ءَايَٰتِى﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ﴿تُتْلَىٰ﴾، وجملة ﴿تُتْلَىٰ﴾: في محل النصب خبر ﴿تَكُنْ﴾، وجملة ﴿لم تكن﴾ معطوف على تلك المحذوفة ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾: الفاء عاطفة، ﴿استكبرتم﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿لم تكن﴾. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبرهُ، معطوف على ﴿استكبرتم﴾، ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ صفة ﴿قَوْمًا﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْتُم﴾ نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، والجملة الفعلية في محل الخفص بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾، ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾: خبره، والجملة الابتدائية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾، وقرىء ﴿والساعة﴾ بالنصب عطفاً على ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، ﴿قُلْتُم﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿مَّا﴾: نافية، ﴿نَدْرِى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْتُم﴾،

﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: خبرها، والجملة الاستفهامية سدت مسد مفعولي ﴿نَدْرِى﴾، علقت عنها باسم الاستفهام، ﴿إِن﴾: نافية، ﴿نَّظُنُّ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ظَنًّا﴾ مفعول مطلق، وظن هنا بمعنى الوهم، لا يتعدى إلى مفعولين، بل إلى واحد محذوف، تقديره: إن نظنه إلا ظنا، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْتُم﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: حجازية، ﴿نَحْنُ﴾: اسمها، ﴿بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾: خبرها، والباء زائدة، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿وَبَدَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿بدا﴾: فعل ماض، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، ﴿سَيِّـَٔاتُ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة، ﴿سَيِّـَٔاتُ﴾: مضاف ﴿مَا﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿عَمِلُوا﴾ صلة الموصول، ﴿وَحَاقَ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿حاق﴾ فعل ماض ﴿بِهِم﴾ متعلق به، ﴿مَّا﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿بدا﴾، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول.

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿قيل﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ إلخ نائب فاعل محكي لـ﴿قيل﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿بدا﴾، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾، ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾، ﴿كَمَا﴾: الكاف، حرف جر ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿نَسِيتُمْ﴾: فعل وفاعل ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾: مفعول به، ﴿هَٰذَا﴾ بدل من ﴿يَوْمِكُمْ﴾ أو صفة له، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾: مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: اليوم ننساكم نسيانا مثل نسيانكم. ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مأواكم النار﴾: مبتدأ وخبر، ويجوز العكس، والجملة معطوفة على جملة ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ على كونها نائب فاعل لـ﴿قيل﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية. ﴿لَكُم﴾:

خبر مقدم، ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿نَّصِرِينَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على ﴿ما﴾ قبلها.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُم﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ الباء: حرف جر وسبب ﴿أنكم﴾: ناصب واسمه ﴿ٱتَّخَذْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: مفعول أول. ﴿هُزُوًا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾ وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب اتخاذكم آيات الله هزواً، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، معطوف على ﴿ٱتَّخَذْتُمْ﴾، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾، ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حالكم في الدنيا، وأردتم بيان حالكم اليوم.. فأقول لكم: ﴿اليوم﴾: ظرف متعلق بـ﴿يُخْرَجُونَ﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُخْرَجُونَ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿يُخْرَجُونَ﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ وجملة ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ من الفعل المغير ونائب فاعله في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية قبلها، ﴿فَلِلَّهِ﴾: الفاء: استئنافية، ﴿للّه﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بدل، أو نعت للجلالة، ﴿وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف عليه، وكذا ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: معطوف عليه بعاطف مقدر، ﴿وَلَهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿له﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ حال من ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾، أو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الظرف قبله، واختار بعضهم أن يتعلق بنفس الكبرياء؛ لأنه مصدر، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوفة على ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: خبران له، والجملة معطوفة على ما قبلها، والله أعلم.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ والاجتراح: الاكتساب، ومنه الجارحة للأعضاء التي يكتسب بها كالأيدي. قال في «المفردات»: سمي الصائد من الكلاب والفهود، والطير جارحة، وجمعها جوارح إما لأنها تجرح، وإما لأنها تكسب، وسميت الأعضاء الكاسبة جوارح تشبيهاً بها بأحد هذين، انتهى. والمراد بالسيئات: سيئات الكفر، والإشراك بالله سبحانه وتعالى. ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾؛ أي: أن نصيرهم في الحكم. ﴿مَّحْيَاهُمْ﴾ الأصل فيه: محييهم بوزن مفعل، قلبت الياء الأخيرة ألفاً لتحركها وفتح ما قبلها، وقوله: ﴿مماتهم﴾ أصله: مموتهم بوزن مفعل أيضاً، نقلت حركة الواو إلى الميم، ثم أبدلت الواو ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال، وقوله: ﴿سَآءَ﴾ أصله: سوأ بوزن فعل قلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. ﴿نَمُوتُ﴾ أصله: نموت بوزن نفعل، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الميم فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مد. ﴿وَنَحْيَا﴾ أصله: نحيي قلبت الياء الثانية ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ وهو في الأصل: مدة بقاء العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، ثم يعبر به عن كل مدة طويلة، وهو خلاف الزمان، فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة، قال في «القاموس»: الدهر: الزمان الطويل والأبد الممدود، ودهرهم أمر كمنع إذا نزل بهم مكروه، فهم مدهور بهم ومدهورون، اهـ.

﴿يَظُنُّونَ﴾ أصله: يظننون بوزن يفعلون، نقلت حركة النون الأولى إلى الظاء فسكنت، فأدغمت في النون الثانية ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ الأصل فيه: يموتكم بوزن يفعل نقلت حركة الواو إلى الميم فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مد.

﴿جَاثِيَةً﴾؛ أي: باركة على الركب مستوفزة، وهي هيئة المذنب الخائف من مكروه، يقال: جثا على ركبتيه يجثو، ويجثي جثواً وجثياً، على فعول فيهما إذا جلس على ركبتيه، أو قام على أطراف أصابعه، وفيه إعلال بالقلب أصله: جاثوة من الجثو قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة. ﴿تُدْعَىٰٓ﴾ أصله: تدعو قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ أصله: تجزيون قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾؛ أي: إلى صحيفة أعمالها التي كتبتها الحفظة، لتحاسب على ما قيد فيها. ﴿يَنطِقُ﴾؛ أي: يشهد. ﴿نَسْتَنسِخُ﴾؛ أي: نأمر الملائكة بأن تكتب وتنسخ، والنسخ في الأصل: هو النقل من أصل كما ينسخ كتاب من كتاب، لكن قد يستعمل للكتبة ابتداءً.

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ وقال في «التعريفات»: الظن هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويستعمل في اليقين، والشك، انتهى. واليقين: اتقان العلم بنفي الشك والشبهة عنه، نظراً واستدلالاً، ولذلك لا يوصف به علم القديم، ولا العلوم الضرورية إذ لا يقال: تيقنت أن السماء فوقي.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا﴾ بدا فيه إعلال بالقلب، أصله: بدو قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ أصله: ننسيكم بوزن نفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ فيه إعلال بالإبدال، أصله: لقاي أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾ أصله: مأويكم بوزن مفعل اسم مكان، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حجج الله. ﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾؛ أي: خدعتكم. ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: زينتها. ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا هم يطلب منهم العتبى، والرجوع إلى الله تعالى بالتوبة من ذنوبهم، والإنابة إلى ربهم لفوات أوانه وزمانه، وهو من باب استفعل السداسي، والسين والتاء فيه للطلب، يقال: استعتبته فأعتبني؛ أي: استرضيته فقبل مني عذري، والمعنى: ولاهم يطلب منهم أن يعتبوا ربهم؛ أي: أن يرضوه بالطاعة لفوات أوانه، وهو في الدنيا. ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ والكبرياء: العظمة والملك والجلال والعز والسلطان وهي صفة أثرها تنزهه تعالى عن كل ما لا يليق به.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التجوز في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ فإنه بمعنى: أخبرني، ففيه تجوزان

إطلاق الرؤية، وإرادة الإخبار على طريق إطلاق اسم السبب وإرادة المسبب؛ لأن الرؤية سبب للإخبار، وجعل الاستفهام، بمعنى: الأمر، بجامع مطلق الطلب، اهـ «زاده».

ومنها: الاستعارة التمثيلية، أو التشبيه البليغ، في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ إذا قلنا حذف منه أداة التشبيه والأصل: كإلٰهِهِ في طاعته واتباعه.

ومنها: تنكير غشاوة في قوله: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ لإفادة التنويع، أو للتعظيم.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾.

ومنها: التهكم أو التقابل في قوله: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾؛ لأن تسمية قولهم: حجة إما لسوقهم إياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم، أو لتنزيل التقابل منزلة التناسب للمبالغة، فأطلق الحجة على ما ليس بحجة، من قبيل:

تَـحِـيَّـةُ بَـيْـنِـهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِـيْـعُ

ومنها: التعميم في القدرة بعد تخصيصها في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنه خصصها أولاً بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾.

ومنها: شبه التأكيد في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؛ لأنه كالتأكيد لقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ كما مر مع ما فيه.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ لإفادة الإغلاظ والتشديد، والوعيد.

ومنها: الإضافة المجازية في قوله: ﴿كِتَٰبِهَا﴾؛ لأن الإضافة فيه لأدنى ملابسة؛ لأن أعمالهم مثبتة فيه.

ومنها: الإضافة إلى نون العظمة في قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ تفخيماً لشأن

الكتاب، وتهويلاً لأمره.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ يقال: نطق الكتاب بكذا، إذا بينه ودل عليه. والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة، لأن شهادة الكتاب ببيانه أقوى من شهادة الإنسان بلسانه.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: في جنته، ففيه إطلاق الحال وإرادة المحل والعلاقة المحلية.

ومنها: الاستعارة بالكناية في قوله: ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ ففي ضمير الخطاب استعارة بالكناية، بتشبيههم بالأمر المنسي في تركهم في العذاب، وعدم المبالاة بهم، وقرينتها النسيان.

ومنها: إضافة المصدر إلى ظرفه توسعاً في قوله: ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾؛ أي: نسيتم لقاء الله وجزاءه في يومكم هذا، فأجرى اليوم مجرى المفعول به، وجعل ملقياً.

ومنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب، استهانة بهم، أو بنقلهم من مقام الخطاب إلى غيابة النار كما مر في مبحث التفسير.

ومنها: أيضاً الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ إلخ، مثل تركهم في العذاب بمن حبس في مكان، ثم نسيه السجان من الطعام والشراب، حتى هلك بطريق الاستعارة التمثيلية، والمراد من الآية: نترككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي؛ لأن الله تعالى لا ينسى ولا يعرض عليه النسيان.

ومنها: تكرير الرب في قوله: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للتأكيد والإيذان، بأن ربيته تعالى لكل منها، بطريق الأصالة كما مر.

ومنها: إظهار السمٰوات والأرض في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع كون المقام للإضمار، لتفخيم شأن الكبرياء.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما في هذه السورة الكريمة من الأغراض والمقاصد

١ ـ إقامة الأدلة على وجود الخالق سبحانه.

٢ ـ وعيد من كذب بآياته، واستكبر عن سماعها.

٣ ـ طلب العفو من المؤمنين عن زلات الكافرين.

٤ ـ الامتنان على بني إسرائيل، بما آتاهم من النعم الروحية والمادية.

٥ ـ أمر رسوله ﷺ أن لا يطيع المشركين، ولا يتبع أهواءهم.

٦ ـ التعجب من حال المشركين، الذين أضلهم الله على علم.

٧ ـ إنكار المشركين للبعث.

٨ ـ ذكر أهوال العرض والحساب، وشهادة صحائف الأعمال على الإنسان.

٩ ـ حلول العذاب بالمشركين، بعد أن تتبين لهم قبائح أعمالهم.

١٠ ـ ثناء المولى سبحانه على نفسه، وإثبات الكبرياء والعظمة له[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) وقد تم تسويد هذا الجزء الخامس والعشرين من القرآن الكريم، بيد جامعه ومؤلفه، في الليلة الثالثة والعشرين، منتصف الساعة الخامسة من شهر الله المحرم، من شهور سنة ألف أربع مئة وخمس عشرة ٢٣/ ١/ ١٤١٥ هـ من السنين الهجرية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكي التحيات، اللهم يا مولى النعم، ويا راحم الأمم، ويا محيي الرمم أنت المعبود، وأنت المقصود، وأنت المستعان بكرمك، وجودك، وفيضك، وفقنا لإتمام هذا التفسير على الوجه الذي يرضيك عنا، وأن تبارك في أعمارنا إلى إكماله، وأن تصرف عنا العوائق والمعائق إلى انتهائه يا منيل رغبة الراغبين، ويا مجيب دعوة الداعين آمين يا رب العالمين، والحمد لله الذي تتم به الصالحات حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تم تصحيح هذه النسخة بيد مؤلفه ليلة العشرين من ذي القعدة في تاريخ ٣٠/ ١١/ ١٤١٧هـ.

تم بحمد الله تعالى المجلد السادس والعشرون، ويليه المجلد السابع والعشرون.

شعرٌ

وَقَـلَّ مَـنْ جَـدَّ فِـيْ أَمْـرٍ يُـحَـاوِلُـهُ   وَٱسْتَعْمَلَ ٱلصَّبْرَ إِلاَّ فَازَ بِٱلظَّفَرِ

يُنَادِيْ ٱلْبَحْرُ يَلْفِظُ بِٱلْغَوَالِيْ   وَيَرْمِيْ بِٱلزَّبَرْجَدِ وَٱلَّلآلِيْ

يَقُوْلُ لِسَابِحِيْهِ وَخَائِضِيْهِ   هَلُمُّوْا فَٱلنَّفَائِسُ فِيْ خِلاَلِيْ

يَا مَنْ بَارَكَ فِيْ ٱلتِّيْنِ وَٱلرُّمَانْ   بَارِكِ ٱللَّهُمَّ فِيْ ٱلرَّوْحِ وَٱلرَّيْحَانْ

الفهرس